

# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

ربيع الأول ١٣٦٩ هـ  
يناير ١٩٥٠ م

السنة الثانية  
العدد الأول

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ  
"قرآن كريم"



## رسالة الإسلام

مجلة اسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من

المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام

لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدى لنشرها

مجمع البحوث الإسلامية للآستانة الرضوية المقدسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية

١٤١١ هـ / ١٩٩١ م

الأموال الفنية والطبع

مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة التمهيد

بسم الله القوى العزيز تفتتح المجلة عامها الثاني ، ولنا لنحمده تعالى ونشكره على سابغ نعمته ، وجزيل فضله ، ونسأله أن يتولانا فيما نستقبل من أمرنا بما تولانا به فيما مضى من هداية وتوفيق وغون ، ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

\* \* \*

لقد وفق الله « جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية » ، إلى إصدار هذه المجلة لتكون لسانا ناطقا لدعوة الحق ، وترجما صادقا عن قلوب أهل الإيمان ، وبرهانا ساطعا على أنهم أمة واحدة في العقيدة وما يدينون الله به ، وإن بدؤا في ظاهر الأمر فرقا أو مذاهب تختلف وتتجادل ويتعصب بعضها على بعض .

وقد شعر القارئ العربي ، بل القارئ الإسلامي في أية لغة من اللغات ، أن هذه المجلة طراز فريد بين رصيفاتها من المجلات الدينية في غايتها وموضوعها وأسلوبها ومظهرها ومخبرها ، وأن غيرها لا يغني عنها ، وغاية ما ترجوه صحيفة من الناس أن يشعروا بذلك فيحرصوا على اقتنائها ، ويتابعوا فكرتها ، ويشغلوا أنفسهم بما تشغلهم به ، سواء أواقفوها على ما ترى أم خالفوها فيه أو في بعضه ، وقد شعرنا بأننا - والله الحمد والمنة - قد أرضينا السواد الأعظم من المؤمنين بالله ورسوله وكتابه ، لا فرق في ذلك بين طائفة وطائفة في ربوع آسيا وأفريقيا ، وأرباض أوروبا وأمريكا ، وحيث سرى في مشرق من الأرض أو مغرب أو شمال

أو جنوب ، صوت خلفاء « بلال » يجلجل بشعيرة الاسلام . فما من هؤلاء أحد إلا قد أرضاه ، وأثلج صدره ، وأقر عينه ، أن تقوم في القاهرة المعزية مدينة الأزهر جماعة تدعو إلى الوحدة ، وتبصر المسلمين بعواقب التفرق ، وتجمعهم على أصول دينهم ، وأمهاث عقائدهم ، وتنقي عنهم زيف الزائغين ، وتحريف المبطلين وغول الغالين ، وقلي القالين ، وتردهم إلى حكم الله ورسوله إذا اختلفوا ، وتلك سبيل المؤمنين .

ذلك بأنهم جميعا قد ذاقوا وبال التفرق ، في شعوبهم وبلادهم وعلومهم وثقافتهم وسياستهم وثوراتهم وسائر مراقبهم ، وأدركوا أن الحرب التي أعلنت عليهم منذ قرون قد طحتهم أرضاؤها ، واغتالتهم أغوالها ، وأنها حرب بهم عليهم ، زُين لهم أن يوقدوها ويكونوا وقودها ، ثم رأوا الذين أغروا بينهم بجانبها مكررا وحتلا يقولون إنا منكم ومن خصوماتكم يراء دكمل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ، لذلك نظروا إلى « جماعة التقريب » نظرة من أحاط بهم الحريق إلى جماعة المنقذين ، واستمعوا إلى صوت « رسالة الاسلام » كأنه صلصلة الأجراس ، التي تؤذن بوشك النجاة والخلاص .

وإذا كنت قد قلت : إن هذا هو شعور الأمة الاسلامية كلها ، لا فرق بين ناطق بالعربية أو بغيرها من اللغى ، فلم يكن ذلك إسرافا في ذكر الحقيقة ، أو تعلقا بجانب من الأمل أو الخيال ، فإن بحوث هذه المجلة تنقل إلى أهم اللغات التي يتحدث بها المسلمون كالتركية والفارسية والانجليزية والأوردية ، وإن أعدادها تصل بانتظام إلى الأندية العلمية والمكتبات وكل ذى رأى من جماعة أو فرد في العالم الإسلامى ، وإن الرسائل التي يحملها إليها البريد ، أو تلقاها عن أصحابها « دار التقريب » شفاها في زياراتهم أو مقابلاتهم لبعض أعضائها ، لصلات عليية وثيقة بيننا وبين أصحاب الفكر الحر ، والآراء الناضجة ، وأمارات واضحة على حيوية الروح الاسلامى ، وعمق إحساسه بما آل إليه أمره ، وشدة رغبته في التخلص



من آثار الماضي الذليل الضعيف ، والتمسك بأسباب متينة تهديه إلى مستقبل قوى عزيز في ظلال الوحدة الدينية ، والأخوة الإسلامية ، تحت راية القرآن الكريم .

ولقد نرى فيما يجيئنا من تلك الرسائل ، أو ينقل إلينا من أخبار المجالس العلمية وأندية الرأي ، خلافا على بعض ما نرى ، أو نقدا لنا يصل أحيانا إلى حد يشبه اللوم ، ولسنا نضيق بشيء من ذلك ذرعا ، ولا نألم له ، ولا يساورنا ضعف أو تردد حين نظهر عليه ، فإننا لنعلم أن الأفكار الصالحة لا بد أن تجد في أول أمرها مقاومة ، ولعلها أن تسمثر منها بعض القلوب ، ولو كنا نقدر أن فكرتنا ستجد من الناس إجماعا حتى لا يشغب عليها شاغب ، ولا ينب عليها ناعب ، ولا يمحسها عقل مجرب ، ولا تختلف فيها موازين النقد ، ومقاييس الرأي ، ولا تتوشها بين ذلك سهام وسهام ؛ لكننا عن سنة الله في الحياة غافلين ، أو لكان زعمنا أن هذه الأمة في حاجة إلى إصلاح تجنيا عليها ، وسوء ظن بها ، فإنما هي إذن من الإصلاح والنضج بحيث لا تحتاج إلى دعوة ، ولا تفتقر إلى إنذار وتبشير ، فنحن نأخذ من رد الفعل الذي تسجله « دار التقريب » لنا أو علينا في أية صورة من الصور ؛ دليلا على وجوب الجهاد ، ومعاذ الله أن نكون مجاهدين في غير عدو ، أو منازلين الأوهام حيث لا ميدان .

فليعلم الناس إذن أننا بعرض استقبال عدو قبل أن نكون بعرض استقبال صديق ، فإن الداء عصى ، والعدو قوى ، وإن أخطر الأمراض وأحقها بالعلاج ما يُخيل للمريض أنه السلامة والصحة ، وإن أفتك الأعداء عدو مختل يأتيك في ثياب صديق ، فاللهم عونك وتوفيقك وهدايتك ، واللهم صبرا وثباتا ونصرا .

\* \* \*

وقد كان من فضل الله على « جماعة التقريب » وأسرة مجلتها « رسالة الإسلام » أن هيا لها في هذا العام أمرا مباركا ميمونا إن شاء الله ، إذ أدى شعيرة الحج والزيارة كل من حضرات أصحاب الفضيلة والسماحة : الشيخ عبد المجيد سليم ،

وكيل الجماعة ، والسيد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر ، والسيد عبد العليم الصديقي العالم الهندي المجاهد ، وكلهم من أعضاء التقريب ، كما أداها مدير إدارة المجلة ، وكاتب هذه السطور عضو الجماعة ، ورئيس تحرير مجلتها .

أما سماحة الأستاذ القمي السكرتير العام لجماعة التقريب ، فقد قام برحلة إلى إيران وبلاد الشرق الأوسط ما زال بها حتى كتابة هذه الفاتحة - في أوائل ربيع الأنور - رده الله إلينا سالماً موفقاً فيما انتدب له من مصالح الدار والفكرة .

وإن في موسم الحج لمن شهده لعبراً ، فهؤلاء هم المسلمون يقطعون الفيافي والقفار ، ويتركون الأهل والديار ، ويقصدون إلى هذه المناسك - المتفق عليها - من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم ، وإنهم ليطوفون جميعاً حول بيت واحد ، وتجمعهم بين يدي الله ساحة واحدة في وقت واحد ، ويبيتون ليالي في بلدة واحدة مجتمعين لا يعرف أحدهم بجانب أخيه إلا أنه مسلم خاضع لله ، ملتزم برحمة الله ورضوان الله ، فلا السني يومئذ يذكر سنيته ، ولا الشيعي يذكر شيعته ، ولا يحضرهم خلاف ، ولا يفرق بينهم رأى ، ولا تفسد جماعتهم عصبية ، ولا يذكرون إلا أخوة الإيمان ، وشرعية القرآن ، ونبوة خير الأنام ، فلورأت الشامى والعراقى بجانب المصرى ، أو الفارسى بجانب التركى والجاوى ، أو النجدى والحجازى بجانب الهندى ؛ لرأيت لبنات من الأمة الإسلامية تكن فيها القوة ، وتربطها رابطة الدين على اختلاف اللسنة ، وتنوع الأمزجة والسحن ، وإنما فرقههم وباعد بينهم العدو الذى تقاسمهم ، وحال بينهم وبين إخوانهم ، وصوّر لهم هوة عميقة من الخلاف تفصل بين شعوبهم وأجناسهم ومذاهبهم ، كأنما هم أرباب نحل ، وأتباع أديان ! فكيف ساغ لهم أن يقتربوا ثم يحتربوا ، وكيف ينسون هذه العروة الوثقى بينهم إذا رجعوا إلى قومهم وقد شرع الله لهم الصلوات فى كل يوم خمس مرات ، يهتفون فيها بهتاف واحد ، ويتوجهون فيها شطر هذه القبلة الواحدة حيثما يكونون ؟ أما ورب البيت إن هذا لشيء عجيب .

وأعود بعد ذلك إلى المجلة فأذكر أننا كنا وعدنا قراءنا في فاتحة العام الأول بأن نأخذ في الأعوام المقبلة أهبتنا ، ونعد عدتنا ، لإصدارها أكثر من أربع مرات في العام تدريجيا حتى تصل أعدادها إلى عشرة ، وقد تلقينا بعد هذه العدة كتبنا ، وأشير علينا بآراء ، فنن القراء من راقته هذه الحطة وكتب إلينا مبديا رغبته في الإسراع بتحقيقها ، راجيا أن يكون ذلك سيلا إلى بث الفكرة الدينية الإصلاحية في محيط العالم الاسلامى سريعا ، وربط قلوب القراء بعضهم ببعض بأسباب متصلة متقاربة ، فإن بُعد ما بين العددين قد يُنسى بعض القارئين فلا تيسر لهم المتابعة والمواصلة ، ومنهم من عدل في النهج بعض التعديل ، فأشار بستة أعداد ، فلا أربعة ولا عشرة ، ومنهم من أشار ببقاء المجلة على هذه الأعداد فلا تصدر إلا أربع مرات في العام ، مركزيا ذلك بأن مجلات الجامع العلمية ، هي أشبه بالكتب الدورية منها بالصحف الاخبارية ، ومن شأن الكتب والمجلات الشبيهة بها أن تعنى بالدراسات الموضوعية ، وأن يمكن كتابها ومؤلفوها من فترات صالحة للنظر والدرس ، وقد عهدنا كثيرا من الجمعيات العلمية أو الاجتماعية ، وهي تصدر في العام مرة أو مرتين وأبعد ما تصل إليه أن تكون دُرُبية ، كرسالة الاسلام ، وإن في ذلك أيضا لتمكيننا للقراء — على بعد المواصل ، واختلاف اللسنة ، وتباين المناهج الفكرية — من التأمل والاستيعاب والرد والمراجعة والترجمة والنشر .

وإننا لنشكر أصدقاءنا وقراءنا على هذه التوجيهات الراشدة . ونغبط بما تحمله كلها من روح العناية والرضى ، ونعلن أن رسالة الاسلام ، ستبقى هذا العام إن شاء الله كما كانت في العام الماضي دُرِبية ، تصدر عددا على رأس كل ثلاثة أشهر ، حتى تتركز في محيط أهل العلم والرأى ، ويتبين أن المصلحة تقضى بغير ذلك دون إعانت ولا إرهاق ، والله المستعان ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المرقى

# نَفْسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لَحْظُهُ صَاحِبُ الْفَخْزِيلَةِ الْأَسْتَاذُ الْجَلِيلُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ شَيْلُوتُ

## سُورَةُ الْبَقَرَةِ

تمهيد السورة بين غرضها : طوائف الناس أمام هداية القرآن - المؤمنون ، الكافرون ، المنافقون ، لا مثلة بين فريق الجنة والسعير . أصول الدين عند الله : توحيد الله . الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، الإيمان بالدار الآخرة .

— ٤ —

كان مما ذكرناه - ونحن بصدد التعريف بسورة البقرة - أن السورة عنيت بأمرين اقتضتهما حالة المسلمين الذين تركزوا بعد هجرتهم الى المدينة جماعة مستقلة ، وصار لهم جوار من أهل الكتاب غير جوارهم في مكة ، هذان الأمران هما : توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، وفي سبيل ذلك أخذت تذكرهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، وهذا هو الغرض الأول الذي استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب ، واستغرق قسما من السورة يبدأ من قوله تعالى : يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ، الى آخر آية البر في منتصف السورة تقرىبا : لس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، أما الغرض الثاني

فهو التشريع الذى اقتضاه تكون المسلمين جماعة متميزة عن غيرها فى عباداتها ومعاملاتها ، ويبدأ هذا الغرض من أول قوله تعالى بعد آية البر : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » إلى آخر السورة الذى كان بياناً لعقيدة المؤمنين .

وقد مهدت السورة أمام هذين الغرضين بأمر ثلاثة :

أحدها : بيان طوائف الناس أمام هداية القرآن ، وقد استغرق ذلك عشرين آية من أولها إلى قوله تعالى : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شئ قدير » .

والثانى : بيان أصول الدين عند الله ، وقد استغرق ذلك تسع آيات من قوله تعالى : « يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » إلى قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم » .

الثالث : تذكير بنى الإنسان بقصة الخلق ، وما قام فى شأن آدم من حوار فى الملأ الأعلى ، إذ خلقه الله ، واستخلفه فى الأرض ، وألهمه معرفة خواص الأشياء ، وطبائع الموجودات ، لينتفع بها ، ولذتبت عداوة إبليس له ولذريته ، حين عصى أمر الله فى شأنه ، واستكبر عن الخضوع له ، وقد استغرق ذلك عشر آيات من قوله تعالى : « ولذا قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة » إلى قوله تعالى : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وحسبنا أن نعرض اليوم إلى الأمرين الأولين ، وهما بيان طوائف الناس أمام الهداية القرآنية ، وبيان أصول الدين عند الله : —

طوائف الناس أمام هداية القرآن :

بعد أن قرع الله الأسماع ، ونبه القلوب ، بهذه الأحرف المقطعة التى بدأ بها السورة وهى قوله تعالى : « ألف . لام . ميم » ، أشار إلى القرآن الكريم الذى

أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، أى هذا هو الكتاب الذى تفرد بالسمو من بين الكتب ، وتنزه من جميع نواحيه عن أن يكون محلاً للشك ، أو يدانيه الشك . فهو حق لا ريب فيه ، نزل بالحق من عند الله ، وبين الحق الذى يرضاه الله ، وأخبر بالحق الذى يعلمه الله .

ثم بين بعد ذلك أن الانتفاع بالحق لا يكفى فيه مجرد أنه حق ، وأنه مبرأ من العيب والشك ، بل لا بد فى الانتفاع به من استعداد ظاهر يُقبل به ذلك الحق ، ويندفع الناس معه إلى طريق النظر فيه ، وبذلك كان الناس أمام القرآن وما أنزل الله فيه من هداية ، طوائف ثلاثاً :

#### الطائفة الأولى :

طائفة المتقين ، وهم الذين حافظوا على فطرتهم التى خلقهم الله عليها ، فاتقوا ما يفسدها ، ويحول بينها وبين إثراق الحق ، فلم تعبت مظاهر المادة باستعدادهم لإدراك ما غاب عن أبصارهم وحواشهم من الحق الثابت ، فى نشأة العالم ، وإبداعه ، وتدييره ، ولا بما يجب عليهم من وصل قلوبهم وأرواحهم بالله الذى خلقهم ، وأنعم عليهم ، بالمحافظة على وسائل المراقبة ، واستشعار العظمة الدائمة على الوجه الذى ينمى الصلة بين العبد وربّه ، ولا بما ينبغى من معونة الانسان لأخيه الانسان والجود بقسط من المال فى سبيل تخفيف أعباء الحياة عنه : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون » .

وكما لم تعبت مظاهر المادة باستعدادهم لهذا الإدراك ؛ لم تمنعهم العصية الفاسدة لما ورثوا أو عرفوا من قبل ، أن يتقبلوا الحق الذى يصدق ما عندهم وإن بزغت شمس من غير سمائم : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

من سلبت فطرته من هاتين العلتين : تسلط المادة والعصية الفاسدة هم المتقون ، وهم الذين ينتفعون بالكتاب ، وهم الذين يهتدون به ، ويصلون الى أقصى

درجات الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة ، وفيهم يقول الله عز وجل في هذه السورة : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، ويقول في غيرها : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » . « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق » . « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان ليكونوا خشوعاً » . « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . « وإنه لندكرة للمتعين » .

وهكذا يبين الله في كثير من آيات القرآن خلال الطائفة التي تنتفع بالقرآن ، وتنتظر الخير والفلاح بهدى القرآن .

#### الطائفة الثانية :

أما الذين فسدت فطرتهم بموروثاتهم الفاسدة ، وأوهاهم الضلالة ، وعصبيتهم الغاشمة ، وطمس استعدادهم لإدراك الحق بالمادة المظلمة ، فلم يعرفوه ، ولم يؤمنوا به ، وطفخوا وبغوا ، وعاندوا ولجوا في العناد ، وأخذوا يحاربون الله ورسوله والمتقين في السر والعلن « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب » ، فالقرآن عليهم عمى وأولئك هم الكافرون ، وفيهم يقول الله عز وجل في سورة البقرة : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » ، ويقول في غيرها : « ولما لعلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الكافرين » . « ولا يزيد الظالمين إلا تباراً » . « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

وهكذا يبين الله في كثير من آيات القرآن أوصاف هذه الطائفة التي لا ينتظر منها الإيمان بالقرآن، ولا يرجى لها أن تنفع بشيء من هدى القرآن، وقد جرت سنة القرآن في التعبير عن هذه الطائفة بالكافرين، والفاسقين، والخاسرين، والضالين، والمجرمين، وقد كانت هذه الأوصاف التي اكتسبوها لأنفسهم بمحض اختيارهم، وبحكم اندفاعهم في أهواء البيئات الفاسدة، وقصر عقولهم على مُحَسَّنَاتِهِمْ أساساً لهذا المصير الذي صورته تلك الآيات، وصورت فيه انسداد مسالك الفهم والادراك بالحتم على القلوب، وبالأكنة فيها القلوب، وبالأغلال في الأعناق، وبالإفحاح، وبالسد من بين أيديهم ومن خلفهم، وغير ذلك من كل ما يصور انزلاقهم وبعدهم عن الحق، واضطرابهم الذي جنوه على أنفسهم. وما أدق وما أروع تعبيره عنهم بقوله: «الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون».

هاتان طائفتان: طائفة المتقين الذين سلمت قلوبهم من مفسدات الإدراك والعلم والنظر، وطائفة الكافرين الذين سدّت عليهم منافذ الخير وسبل الهداية، وأعلنوا الكفر والعناد.

وهاتان الطائفتان كثيراً ما تحدث القرآن عنهما في مكيه ومدنيه، فإن الدعوة لم تخل مرحلة من مراحلها عن مؤمن بها، مصدق لها، وعن كافر بها، جاحد لآياتها.

\* \* \*

ويرى بعض الناظرين في القرآن أن الله يتحدث في هذه الآيات عن الطرفين الكاملين من الفريقين، فهو حين يصف المؤمنين بهذه الأوصاف يريد أرباب الإيمان الكامل الذين لم يلبسوا لإيمانهم بشيء ما من المخالقات والعصيان، كما أنه حين يتحدث عن الكافرين يريد الذين فسدت فطرتهم تماماً فلم يعرفوا الخير في صورة ما من صورته، وأن هذا لا يناق أن من المؤمنين فريقاً لم تكمل فيه تلك الصفات، وهم يتراوحون في درجات الإيمان المتفاوتة، وهؤلاء ليسوا من الذين يقول الله فيهم: «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون»، فإن ذلك خاص بالكاملين.



والذى أراه أن القرآن لم يجعل الاتصاف بهذه الأوصاف عنواناً على العصمة من الذنوب أو المخالفة فى لون ما من ألوانها ، والحكم فى هذا هو الآيات الواردة فى سورة آل عمران وهى قوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين يتفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ؛ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين . »

فقد جعل بما تناوله كلمة (المتقين) « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، فسوى بين هؤلاء وبين من كملت فيهم أوصاف الإيمان من جهتين : من جهة اندراجها معاً فى المتقين ، ومن جهة الجزاء المعد لهم » أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين . »

نعم بقى فريق ثالث ، هو الذى يزعم لنفسه أنه مصدق بالله وباليوم الآخر ، وهو يفعل الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا يذكر الله فيستغفر لذنبه ، بل يستمر طول حياته غافلاً عن ربه غير ذاك لعظمته ، اللهم إلا تلك الكلمة التى يجريها على لسانه ، يعلن بها تصديقه وإيمانه دون أن يكون لهذا الإيمان وذلك التصديق ما يدل على انطبائه فى النفس ، وتمكنه من القلب ، وهذا فى رأينا ليس من فريق المتقين المؤمنين ، وليست هناك منزلة بين الذين سعدوا والذين شقوا ، وفريق الجنة والسعير .

#### الطائفة الثالثة :

وقد رأينا القرآن الكريم يتحدث فى المدنى خاصة عن طائفة ثالثة أطلق عليها اسم « المنافقين » وهم الذين فسد باطنهم كالكافرين ، ولكنهم ظهروا بين المسلمين كالمسلمين : قالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون ، وظنوا أنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين .

ولم تظهر هذه الطائفة إلا في المدينة حيث تكون المسلمون ، وقويت شوكتهم ، وأخافوا غيرهم ، فضعفت طائفة عن المجاهرة بالكفر والعناد فكتموه في نفوسهم . وفي هؤلاء تقول السورة « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

هؤلاء هم المنافقون الذين أعد الله لهم ما شاء من عذاب مقيم ، وجعلهم في الدرك الأسفل من النار . يزعمون أنهم مصدر الخير والصلاح ، وهم مبعث الشر والفساد : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

اتخذوا لأنفسهم وجهين يقاتلون هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء » ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

وما ابتلى المسلمون في أي زمان ومكان بشر من هذه الطائفة : تدبر المكائد ، وترتوج الأكاذيب ، وتزعزع المؤمنين ، وتفسد روابط المحبين ، وتنفث سموم الشر والفتن ، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم ، والتحذير منهم حتى لا نكاد نجد سورة من سور القرآن المدنية تخلو من ذكرهم ، ولفت الأنظار إلى أوصافهم ، وقد نزلت فيهم سورة كاملة سميت باسمهم .

سأقت سورة البقرة في هذا المقام ثلاث عشرة آية بينت بها حقيقتهم وخواصهم وخطتهم في الحياة ، وضربت لحيرتهم واضطرابهم بين ما يظهرون من إيمان ، ويطنون من كفر ، مثلين واضحين في تصوير حالهم ، وسوء عاقبتهم : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون » . أو كمثل قوم نزل بهم صيب مطر ، من السماء « فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير » .

هذا وذاك مثلاً للمنافقين : ظهر لهم الحق فالتوت عنه قلوبهم ، وبرز عليهم نور الهداية فغشيتهم ظلمة الشهوات والأهواء .

هذه الطوائف الثلاث هي صنوف الناس بالنسبة للارتفاع بالقرآن ، بيد أنها الله لتبنيه وهو شأن لا بد من معرفته لكل داع إلى الحق . لا بد أن يعرف المعاني التي تُقابل بها دعوته فيتخذ لها أهبة ، ويعامل كل طائفة بما يناسب نزعتها فيطمئن إلى المتقين الذين سلبت قلوبهم ، ويرى نفسه من الذين أعلنوا خصومة الحق ، ويحترس من المنافقين فلا يولى وجهه شطرهم ، ولا يغتر بظواهرهم ، ولا ينخدع بأكاذيبهم ، وبذلك تستقيم دعوته ، ويستقر سلطانه ، وتصل أمته إلى أقصى درجات الخير والفلاح .

#### أصول الدين عند الله :

وجهت السورة بعد هذا نداء عاماً إلى الطوائف كلها بوصف الإنسانية العام ، يأبى الناس ، الذى يجعل عنواناً فى الخلق والتقدير على العقل والنظر والتدبر ، رجاء التخلص مما يفسد عليهم إنسانيتهم التى تقضى باعتراف الحق والعمل بمقتضاه ، والتمتع بلذته والاهتداء بهديه ونوره .

أجملت فى هذا النداء دعوة القرآن التى هي عناصر الحق وأصول الدين عند الله وهي :

(١) التوجه إلى الله وحده بالعبادة .

(٢) الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) الإيمان بدار البعث والجزاء .

كان القوم مع اعترافهم بأن الله هو الذى خلق الأرض والسموات ، وأنه هو الذى خلقهم ورباهم يتجهون فى العبادة والتقدير إلى غير الله يتقربون إليه ، ويستمعون بهم ، وكانوا إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ؛ فأمروا بعبادة الله وحده ، وأرشدتهم فى سبيل ذلك إلى أن الله ربهم هو الذى خلقهم ، وخلق من كان قبلهم من الآباء والأجداد ، وأن نسبة آبائهم وأجدادهم إليه سبحانه كنسبتهم إليه : فهو رب الكل ، وخالق الكل ، والمنعم على الكل .

فليس الحق بالنسبة للجميع إلا ما أمر الله به ، وليس ماسواه إلا الباطل ، وإن درج عليه الآباء والأجداد ، اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون .

ثم بعد أن أرشدهم إلى دلائل التوحيد القائمة بأنفسهم ، أرشدهم إلى الدلائل المحيطة بهم فى أرضه وسمائه ، والتي أنعم عليهم فيها بوسائل الحياة ومواد الرزق ، فجعل لهم الأرض فراشا ، صالحة للسكنى والسعى والإنبات ، وجعل لهم السماء بناء تشرق عليهم شمس ، وتضيئهم كواكبه ، وبذلك صاروا بين نعمتى الأرض والسماء يتمتعون بما تنزل السماء عليهم من ماء ، وبما تخرج الأرض لهم من طيبات وأرزاق كل ذلك فى نظام محكم ، وصنع دقيق لا خلل فيه ولا اعوجاج ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وإذ قد تبينتم الدلائل ، وعرفتم مصدر تربيتكم والإنعام عليكم ، وأنه لا شأن لغير الله فى الخلق والإنعام ، فلتتجهوا إليه وحده بالعبادة والتقديس ، واحذروا كما هو قضية العقل والانسانية البريئة أن تشركوا به شيئا ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون .

\* \* \*

وكان القوم ينكرون على محمد صلى الله عليه وسلم رسالته ، وينكرون عليه أن القرآن وحى من عند الله ، فحاكتهم هذه الآيات إلى أنفسهم ، وتلطفت معهم أولا فى المحاكمة : طلبت منهم إن كانوا فى ريب من أن الله أنزل القرآن على عبده وكانوا صادقين فى أنه من عند محمد — ومحمد بشر مثلهم نشأ فى جوهم ، وفيما بينهم — أن يأتوا من عند أنفسهم بحديث مثل هذا القرآن ، يجمع إلى البلاغة التى خرت لها الجباه ، وإلى الإخبار بالغيوب النفسية والكونية والماضية والمستقبلية قوانين الأخلاق ، ونظم الاجتماع ، وسنن الكون ، وأصول التشريع التى لا يفضها علم ، ولا تنبئ عنها حياة ، طالبتهم بهذا ، وطالبتهم أن يستعينوا فيه بمالهم من شهداء وأعوان وأنصار ، وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .

ثم انتقلت بهم من الملاحظة إلى التحذير والتحذير « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

سجلت عليهم العجز الدائم المستمر عن الإتيان بمثل القرآن لأنه هو سبحانه الذي أنزل القرآن ، وهو الذي خلقهم ومنحهم القدر التي لا تقدر بطبيعتها على الإتيان بمثل هذا القرآن الذي هو من صنعه وتفصيله ، ولا ريب أن تسجيل العجز الدائم في وقت المعارضة والإنكار هو من أقوى الدلائل على الوثوق بالحق من جانب صاحب الدعوة ، وليس بعد هذا النوع من التحدى سوى الادعاء بأن القرآن وحى من عند الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن إنكار شيء من ذلك لا يكون إلا عن محض العناد ، وبدافع الاستكبار .

وفي هذا السياق تحذره الآيات — إن استمروا على الكفر — نارا وقودها الناس والحجارة أعدتها الله لمن أعرضوا عن الحق وكفروا بآياته ، وتبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار . وبذلك أقامت الآيات الحجة عليهم من أنفسهم ومن الآفاق في لزوم توحيد الله بالعبادة ، وفي لزوم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي لزوم الإيمان بدار البعث والجزاء .

وهذه الثلاثة هي أصول الدين عند الله بعث بها كل نبي ، وطلبها في كل كتاب وأرسل محمدا يحدد ما في القلوب ، ويحييها في النفوس فيحيا الناس بها في الدنيا حياة طيبة ، وينعمون بها في الآخرة بلذة خالدة .

ثم قفت السورة على هذه الأصول بلفت الأنظار إلى بعض نواحي الأدلة الكونية الدالة على حقيقة هذه الدعوة ، واستبعاد أن يكفر إنسان ذو عقل بها بعد تبينها في الأنفس والآفاق « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم » .

\* \* \*

هذا عرض موجز للنواحي التمهيدية التي جاءت في أوائل سورة البقرة بين يدي غرضها الرئيسيين . وإلى اللقاء في العدد المقبل إن شاء الله .

# شعْبُ مِنَ الشَّرْقِ يضرب مثلاً

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز  
مدير الأزهر والمعاهد الدينية

إن للشعوب الإسلامية لعبرة عظيمة من هذا المثل الذي ضربه شعب شقيق مسلم ، هو شعب « إندونيسيا ، المجاهد ، فقد أصر هذا الشعب على نيل حقوقه كاملة غير منقوصة ، وعلى أن يتمتع بمركز يليق به في هذا العالم الذي لا يعرف المتخلفين ، ولا يرحم المستضعفين ، ولا يستمع إلى شكاوى العاجزين .

ولكنه لم يجعل هذا الغرض أملاً يداعب رهوس أبنائه ، أو دعاء يتوجه به إلى الله في علاه ، راغباً إليه أن يغير سنته فينصره وهو لم يغير ما بقلبه ، وإنما أخذ لهذا الغرض أهبة ، وأعد له عدته ، وكان أهم شيء في ذلك أمران : التضحية وإنكار الذات .

فأما التضحية فقد جعلتهم أمة مجاهدة بأسلة تخيف أعداءها ، وترهب المعتصمين لحقوقها ، وقد سرت حماها في جميع أفراد الشعب ، من أكبر رجل فيه ، إلى أصغر طفل ، فكان يبلغنا أن كبار الأغنياء يخرجون من أموالهم وأملأهم ، ويتركون متاجرهم ومزارعهم ، ليعطوا المجاهدين أموالاً وأنفساً وسواعد قوية ، وأن النساء كن يتبارين في رفض الزينة والتجلى ليوفرن أثمان البنادق والقنابل اليدوية الصغيرة لفتيان أحيائهن ، وليلقين عليهم دروساً في البسالة ، ويبعثن في قلوبهم الإقدام والشجاعة ، وأن الأطفال كانوا يتسللون إلى معسكرات الأعداء في الظلام حيث الجنود الحاشدة ، والمنايا الراصدة ، فيلقون عليها لغافات « الغاز والبزير » ،

المشتعلة فلا تلبث النيران أن تعلوا كأنما تريد أن تصافح بألسنتها الحمرء أطراف السماء، ووقودها الخيام والجند والعتاد، وعندئذ يصيح الأطفال من بعيد صيحات النصر والظفر كأنهم يتلهون برؤية الصواريخ في يوم عيد .

ولم يبق في مرافق الشعب إبان معركة الخلاص أحد، فلا وزير ولا رئيس ولا مدير ولا شرطى ولا خفير، وكانت المياه ربما انقطعت عن الجيوش أياما حتى يظماً الجند، وكان تيار الكهرباء لا يكاد يسرى في الأسلاك ليلة كاملة دون أن يدركه الخلل والفساد فيسود الظلام .

وهكذا جعلوا الغاصبين يقضون في ضيافتهم الكريمة ليالى سوداء رهيبة إذا أصبحوا فيها فلا يدرون هل يمسون، وإذا أمسوا فلا يدرون هل يصبحون ! وعلمت هولاندا أنها ستصلى من هذه الحرب نيرانا حامية لا طاقة لهم بها، وكانوا يحسبون أنهم صائدون فإذا هم المصيدون ! أما هيئة الأمم ومجلس الأمن فقد رأت أمة صابرة مثابرة، مؤمنة بحقها قوية في نضالها، فما لبثت أن أصاحت للحق، واعترفت به لأصحابه ولو كره الغاصبون .

وأما إنكار الذات فيكفى أن نعلم أن أحد رجال الجمهورية، وأصحاب الحكم والسلطان فيها، قد أخذ من بيت الحكم إلى غياهب السجن، وألقى به زيادة في التسيكيل والإرهاب مع شردمة من أفراد الشعب، فكان قرير العين بهم، يساعدهم ويعمل معهم، وأن أحدهم طُلب ذات ليلة لينفذ فيه حكم الجلد الذى أصدرته هيئة عسكرية لمخالفة عدوها عليه، فتقدم رجلان كل منهما يدعى أنه صاحب الاسم المطلوب، وكان أحدهما هو المحكوم عليه، والآخر هو ذلك الرئيس الكبير، فلم يدر رسل العذاب أيهما المطلوب، وعادوا يطلبون من أرسلوهم إيضاحا وتبينانا .

وإن ذلك ليدكرنا بالحادث المشابه له في تاريخ المسلمين الأولين، حيث طُلب عبد الحميد الكاتب للقتل فلبى النداء رجلان، هما عبد الحميد، وصديقه الوفى عبد الله بن المقفع، كلاهما يقول : أنا عبد الحميد .

\* \* \*

وإني لأذكر الثورة المصرية، فتعرونى لذكرها هزة من الفخر يعقبها الألم

الممض ، فقد ضرب المصريون يومئذ مثلاً عالياً للدنيا في التضحية والبسالة وإنكار النفس ، واستطاعوا أن يلوا عنق الإمبراطورية البريطانية ، وهي في عنفوان بطشها ، ولابان غضبها .

لقد لفتت مصر يومئذ بذلك أنظار العالم كله شرقيه وغريبه ، ورَجَّت الشرق من بطاحه ورِعاثه ، كما يقول أمير الشعراء شوقي ، وأطلقت لسان غاندى بطل التضحية والزهد بكلمته المشهورة : « لقد تلمت الوطنية من الثورة المصرية ! » .

إن المصريين يومئذ كانوا أمة واحدة متماسكة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، لا يفكر أحد منهم إلا في قضية وطنه ، ولا يعادى أحد منهم إلا أعداء بلاده ، وكان المحتل يعاني كل لحظة أزمة من الأزمات ، وكانت الشوارع في العواصم والقرى مسارح وميادين لحرب عنيفة تلتقي فيها الصدور والرموس والأجسام نيران البنادق والمسدسات ، والمدافع الرشاشة ، تحتلأ أصواتها بنداء : يحيا الوطن ، نحن فداء الوطن !

وما لبثت بريطانيا القوية المنتصرة أن اعترفت بحق مصر في الاستقلال ، ونزلت على مطالب أهلها الأقوياء المتحدين . ولكن ما لبثنا نحن أيضاً - بعد أن خطونا في سبيل الإصلاح والحكم الصالح خطوة أو خطوتين - أن دب بيننا ديبب النزاع ، وتحركت فينا كوامن الخلاف ، وذكر كل منا نفسه ، ونسى وطنه ، وكفى الله المستعمرين شر النضال .

فإذا كنت أهنيء شقيقتنا الباسلة « إندونيسيا » بما آفاه الله عليها من نصر وعزة وسيادة ، فإنني أرجو أن يكون لنا ولسائر الشعوب الإسلامية من جهادها واتحادها عبرة ، وأن يكون لها من تطاول العهد على كثير من أمم الشرق بسبب خلافاتها موعظة حسنة ، وأسأل الله أن يثبت خطانا جميعاً ، وأن يوفقنا إلى إعادة مجد الإسلام وعزة الإسلام .



## قانون التوازن بين الشرق والغرب أين هو وكيف يكون؟

لحضرته صاحب المعالي

السيد محمد رضا الشيباني

رئيس المجمع العلمي بالعراق

إن فقدان التوازن بين الشرق والغرب في مختلف شئون الحياة من الأمور  
البدئية التي لا تحمل الجدال ، فالغرب الآن في أوج قوته ، والشرق في حضيض  
استخداماته ، ولا مطمع لأكثر الشرقيين في مجارة الغربيين من حيث مظاهر رفهم  
المادى ، وهو ورق منشؤه تفوقهم في الصناعات الآلية ، وفي الفنون العملية ،  
فالعربيون الآن يسيطرون على الشرق ، وهم يقيمون فعلا كل العقبات والحواجز  
التي من شأنها عرقلة نهوضه وتقدمه في شتى نواحي الحياة ، فنحن الآن مغمورون  
بطوفان الصناعة الغربية .

وها هو ذا الخطر محقق بما بقي من كيان الحضارات الشرقية من جراء اتصالها  
بمظاهر الحضارة الغربية .

لقد كانت العزلة فيما مضى سياجا احتفظت فيه حضارات الشرق ، والحضارة  
الإسلامية خاصة من بينها ، بمميزاتا وخصائصها الروحية ، وأما الآن فلا سبيل إلى  
العزلة ، بل لا بد من الاتصال شئنا أم أبينا ، أى سواء أكان هذا الاتصال إجبارياً  
أم اختيارياً ، فإن فنون النقل الآلية ألغت المسافات ، وجعلت من القارات المتباعدة  
قارة واحدة .

وقد خامر اليأس نفوس كثير من أعلام الشرق في مجارة القوم ، فإن الغربيين يتحدثون الآن بغزو الأفلاك ، ويعدون عدتهم للرحلة إلى الأقمار والكواكب السيارة .

ومن رأينا أنه لا محل لهذا اليأس مهما أعصوبت الأمور ، فإن لنا - معشر الشرقيين - حضارة جامعة من حقنا أن نعتز بها في كل حين .

لقد قطع الغربيون حقاً أشواطاً بعيدة في مضمار الحضارة المادية ، وظهر تفوقهم على الشرق منذ أوائل القرن الماضي إلى اليوم ، وهو تفوق مادي خارق ، ترك كثيراً من الشرقيين مشدوهين ، وقد تظهر لنا هذه الحضارة الحديثة بأنها قادرة على قهر الشرق . ومحو كل مقاومة تقف في طريقها أو تقوم فيه ، ولكن هذا التفوق المادي نفسه هو الذي جر الغربيين أو ساقهم إلى الضعف والانحلال ، وجعل الحضارة الغربية مهددة بالزوال ، كما رأينا ذلك في الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين الأولى والثانية ، ذلك بأن النواحي الروحية والخلقية لم يكن لها حظ فيه ، فطغت المادية على كل شيء ، وسيطرت المطامع من ناحيه ، والشهوات من ناحية ، حتى بدت آثار ذلك واضحة في كثير من الشعوب الغربية .

وليس هذا فحسب ، بل نحن نرى الآن كثيراً من أمم الشرق تتحفز ، وتريد جردها أن تستفيد من هذه العبر البالغة ، وتتجه بشئونها العامة إلى الإصلاح ، وتأخذ بالأساليب الحديثة في تركيز حياتها على أسس سليمة قوية تجعلها في مصاف الأمم العظيمة .

إن مصير هذه الحضارة الغربية المادية البحتة معلق في كفة القدر الآن ، وهو مصير يقلق بال كثير من المفكرين ، وقادة الرأي في العالم الغربي ، ولذلك يبدو لنا أحيانا أنهم معنيون بالاهتمام إلى مخرج ما ، ينجو بهم وبحضارتهم من الدمار ، ويرى بعضهم أن في اتحاد دول الغرب ، وفي إبرام ما يبرمونه من عهود ومواثيق سياسية واقتصادية مخرجا من هذا الخطر ، ولكن يتراى لنا أن الانفاق

بعيد بين الدول الغربية على توطيد دعائم الطمأنينة والسلام في العالم ، وذلك بسبب شقاقها واختلافها في آرائها وفلسفاتها السياسية والاجتماعية .

وهناك من يرى أنه لا مخرج للعالم من هذه المحنة ، إلا بقيام حضارة إنسانية جديدة لا شرقية ولا غربية ، حضارة نبيلة تجمع بين مميزات الحضارة الشرقية الإسلامية ؛ فتعنى كل العناية بتعزيز شأن المعنويات والحقائق الروحية ، وبين مميزات هذه الحضارة الغربية ، في التنظيم واستخدام هذه الفنون العملية من رياضية وطبيعية في شئون الحياة .

إن شعوب الشرق تميل إلى الأخذ بالمساواة في الحقوق بين البشر أفرادا وجماعات قدر الإمكان ، طبقا لرسالة الدين الإسلامي وتعاليمه السامية ، والرجاء معقود أن يؤدي الإسلام والعالم الإسلامي نفسه رسالته في هذه المحنة العصرية ، وأن يوفق المسلمون بعد وعيهم وإدراكهم الحق لمركزهم ولمكانة الدين الإسلامي بين الأديان ، وللحضارة الإسلامية بين الحضارات ، إلى حل الأزمات والمشكلات التي يعانيها العالم اليوم ، سواء أكانت أزمات روحية أم مادية ، ولعل الشريعة الإسلامية أول شريعة دعت إلى إنشاء سلطة عالمية ، وإلى المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، وإلى التعاون والإخاء .

إن هذه فرصة ذهبية للمسلمين ، عليهم أن يتنزهوا بلباقة ، وألا يتركوها تفر من أيديهم وهم إليها ينظرون ، وعليها يتحسرون ، بل لأنها لفرصة ذهبية للعالم كله ، حيث محصته المتاعب والأهوال التي قاساها ، وهياتة لقبول مبادئ لم يكن من قبل متبها لها ، وعلى المسلمين أمام ربهم وضميرهم الإنساني مسئولية الدعوة والبيان والإقناع بهذه المبادئ .

ومتى أحسن العالم فهم روح الهداية الإسلامية على الوجه الذي يبناه في هذه الكلمة ، تيسر حصول التوازن بين الشرق والغرب ، وقضى على اختلال قانون الموازنة كما نشاهده اليوم ، وعاش العالم في ظلال وارفة من الأمن والطمأنينة والسعادة والحياة الكريمة .

## النظام المالى فى الإسلام

لصاحب العزة الكاتب الكبير الدكتور أحمد امين بك

النظام المالى فى كل أمة أساس عظيم لحياتها الاجتماعية ، فإن رأيت أمة متقدمة فى المدنية والحضارة ، وفى العلوم والفنون ، وفى المخترعات ووسائل النقل والمواصلات ، وعلو مستوى المعيشة بين أفرادها ، فاعلم أن ذلك ناتج من حسن نظامها المالى ؛ وإن رأيت الفقر المدقع منتشرأ بين جمهورها ، وهى منحلة فى زراعتها وعلومها وفنونها ، فاعلم أن ذلك يرجع أولاً إلى سوء نظامها الاقتصادى ولذلك قوَّمت المدنية الغربية الأمور الاقتصادية تقويماً كبيراً ، بل جعلتها أساساً يؤثر فى نظامها السياسى ، ونظامها الاجتماعى ، ووجد المتخصصون فى المسائل الاقتصادية ، والتعمق فى بحثها ، وإفرادها بعلم يسمى علم الاقتصاد ، له الشأن الأول بين العلوم .

ومن أجل هذا كان من رأى كثير من المصلحين فى الشرق ، أن يوجهوا عنايتهم إلى حالته الاقتصادية ، وأن يقدموا ذلك على الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، فلو أصلحت ، أصلحت الحياة الاجتماعية والسياسية ، ودليلهم على ذلك أن الشرق متأخر فى زراعته ، فليست مبنية على العلم بل هى مبنية على التقاليد القديمة والأوضاع الموروثة ، وإذا سيطر العلم على الزراعة أمكن أن ينتج الشرق فى زراعته أضعاف ما ينتج الآن ، وكذلك الشأن فى معادنه المدفونة فى أرضه وصناعته البدائية وما إلى ذلك ، فالشرق غنى ولكن لا يجد الرأس

المفكر والهمة الحازمة والشركات الممولة واليد العاملة ، ولو أنه أتيج له كل ذلك لكثرت أمواله وزاد غناه ، فنشأ عن ذلك نحو الفقر المدقع ، وارتفع مستوى المعيشة ، حتى بين الطبقات الفقيرة ، ثم نتج عن ذلك انتشار العلم وانتشار وسائل المدنية ، ورقى الصناعة ، بل نشأ عن ذلك أيضا إصلاح السياسية . فالرأى العام الفقير الجاهل ليس له من القوة ما للرأى العام الغنى المتقف . وفى قولهم هذا كثير من الصحة فإنى أعتقد أن الأعداء الثلاثة وهى : الفقر والجهل والمرض تزول كلها بزوال الفقر ، والفقر يزول بتنظيم الحياة الاقتصادية .

\* \* \*

والأرض التى خلقها الله تكفلت بتقديم الضروريات لجميع أبنائها إذا عقلوا ، وقد كان الإنسان الأول مكفى الحاجة قليل الجهد فى الحصول على ضروريات حياته ، فهو يعتمد على ما يجده من أثمار الأشجار أو من الصيد ، ويلبس مما ينتجه الحيوان ، ويسكن الكهوف ، ولا يحس أى إحساس بأزمة مالية ، ولكن شاء الله أن يخلق الإنسان طموحا الى تحسين حاله ، راغبا بطبيعته فى الحياة الاجتماعية ، مضطرا الى القرار ما أمكن بحكم تربية أولاده الذين يتطلبون فى تربيتهم زمنا أطول مما تقتضيه تربية الحيوان الى غير ذلك ، فزرع الأرض واستقر ، وكلما تقدم الزمن زادت مطالب حياته ، وتأنق فى مسكنه وملبسه ومأكله ، وكان بحكم طبيعته أن تفاوت الناس فى القدرة على الكسب ، فذكى وغنى ، وماهر وأخرق ، وبعيد النظر وسفيه ، وفيلسوف ومغفل ، الى غير ذلك ، فكان من ذلك اختلاف الثروات ، ومن يعيش عيشة سعيدة ، ومن يعيش عيشة شقية ، ومن يجد فوق حاجته ، ومن لا يجد حاجته ، وكلما تقدمت المدنية زادت هذه الأمور تعقيدا ، وفكر فى الحلول لها ، ووضعت المقترحات والنظم الاقتصادية لحلها وتنظيمها .

وكان أكبر العقبات الفروق الكبيرة فى الثروة ، واستبداد الغنى بالفقير ، والقادر بالعاجز ، وصاحب رأس المال بالعامل ، وعلى هذه الحلول والمذاهب

الاقتصادية انقسمت الأمم الأوروبية الى رأسمالية وشيوعية وفاشية ، ولكن مع الأسف ليس حلٌّ منها أراح الناس ولا حلَّ المشاكل ، وأسباب فشلها كثيرة ، منها : أن النظام الاقتصادي يُنظر إليه كأنه مستقل بنفسه ، كأن الإنسان حيوان اقتصادي فقط ليس له خلق ولا عقل ولا روح ، فالذين يكتبون في الاقتصاد يوجهون كل همهم إلى المسائل الاقتصادية مجردة عن النظرات الأخلاقية والإنسانية ، ويحاولون حل مسائلهم من هذه الزاوية وحدها ، فثلهم مثل المهندس الذي يضع كل همه في إصلاح الحائط المسائل من غير أن يلتفت أى التفات إلى بناء البيت كله ، أو كالطبيب الذي يداوى المعدة من غير أن ينظر إلى علاقة المعدة بالجسم كله ، فالإنسان منتج ومستهلك من حيث الاقتصاد ، ولكن له بجانب ذلك ناحية خلقية ، وناحية اجتماعية ، وناحية روحية ، وكلها تنتج الإنسان كإنسان ، فالنظر إليه من ناحية واحدة نظر لا يجدى ، من أجل هذا كان سلوك الناس الخلقى ضربة مميتة للحياة الاقتصادية ، فالأغنياء الذين تكدست عندهم الثروة لم ينظروا إلا إلى أنفسهم ، فتوسعوا في وسائل الملاذ ، وبحثوا كل يوم عن مصدر جديد للذة وتفتنوا كل التفتن في أثاث البيت ومطعمه وأدوات زينتته تفتناً عز عن الوصف من غير التفاتة إلى إخوانهم الفقراء الذين لا يجدون ضرورات العيش ، فنشأ عن ذلك الصراع الشديد بين طبقات الفقراء وطبقات الأغنياء وكرهية كل لكل .

وقد حاولت الشيوعية أن تنظم هذه العلاقة وتقرب هذه المسافة ، فنجحت في هذا ، ولكن وقعت في الخطأ الذي وقع فيه غيرها من المذاهب الاقتصادية ، فنصورت الإنسان كأن ليس له دين ولا عواطف ولا حرية ولا شخصية ، وإنما هو حيوان لا يسبح إلا في الدائرة المالية ، وفيها عيب آخر وهو أن استبداد أصحاب رموس الأموال المتعدين تركّز في النظام الشيوعي في يد الحكومة وأعوانها فأصبحت هي الوحيدة صاحبة رأس المال ، وكان لها من التحكم في الأفراد وسلب حريتهم ما لم يستطعه أصحاب رموس المال المتعددون ، إذ كان في تعدد الرأسماليين منفذ للعمال ، إذ ينتقلون من صاحب رأس مال قاس إلى أقل منه قسوة

وهم أنفسهم يتبارون فى التودد للعمال استجلاباً للانضمام اليهم والعمل معهم، وليس ذلك موجوداً فى الشيوعية .

\*\*\*

نظام الإسلام المالى قد بنى على أسس أخرى من أهمها ربط الحياة الاقتصادية بالحياة الخلقية ، بالحياة الاجتماعية ، بالحياة الدينية ، فلم ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد حيوان اقتصادى ، بل شرّع فى الأمور المالية بحيث يمتزج الاقتصاد بالقانون بالأخلاق ، فإذا كان الربا من الناحية الاقتصادية مباحاً كالبيع إذا كان الربا فى حدود معتدلة ، فإن الأخلاق لا ترضى عنه من حيث سوء العلاقة بين معطى المال بالربا وآخذه ، ولذلك حرمه الإسلام غير ناظر إلى الناحية الاقتصادية وحدها . ثم هو وضع التعاليم الأخلاقية التى تكرّم الإنسان فى اختزان الذهب والفضة من غير أن يعين إخوانه الفقراء من الناس كأن يقول : إن الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .

وقد حارب الإسلام مشكلة المشاكل وهى الإفراط فى الغنى ، والإفراط فى الفقر بوسائل شتى منها ما ذكرنا من تحبيب الناس بعضهم فى بعض ، وعطف الغنى على الفقير ، والنظر إلى الجانب الخلقى بجانب النظر إلى الجانب المالى ووردت فى ذلك الآيات الكثيرة والأحاديث الكثيرة التى تشعر الإنسان بأخيه الإنسان وتحببه إليه ، وتحننه عليه .

ومن ذلك أيضاً أنه حرّم الإفراط فى الملاذ وطلب الاعتدال فيها ، ناظراً إلى أن الغنى إذا لم يفرط فى مَلَاذِهِ ولم يجد منافذ للإِنفاق الكثير فى شَهَوَاتِهِ ، ولم يجد المال نافعاً فى الانغماس فى نعيمه ، تحوّل بالضرورة إلى النظر إلى الفقراء ومساعدتهم ومعونتهم . فمثلاً حرّم على الرجال لبس الحرير والتحلّى بالذهب ، وكره الأناقة فى المساكن والملابس ، وحبب إلى المؤمنين التخشن حتى لا يفقدوا رجولتهم ، وحرّم الخمر والميسر والزنا ، وكلها من قبيل الإفراط فى اللذات حتى لا يستتبع ذلك الجشع فى طلب المال والحرص على اكتنازه

ثم فرض الزكاة ويعبئ تسمية الإسلام الزكاة بهذا الاسم ، فهو اسم خير من كلمة الضريبة ونحوها من كلمات لأنها ترمز الى أن اخراج الزكاة تطهير للمال الباقي ، فكان المال المكنوز نجس لا تطهره الا الزكاة . . . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها ، وهذا القدر من الزكاة وهو ٢.٥ ٪ . قد يكون قدراً ضئيلاً ولكنه هو القدر القانوني ، وبجانب ذلك ، القدر الكبير الأخلاقي ، وهو الذي يُسمى الإحسان ، وهذا لا حد له ، وإنما هو موكول الى ضمير الشخص وخلقه وعطفه وميوله الدينية والخلقية التي يحاول الإسلام أن يفرسها وينميها باستمرار .

ومن ذلك أيضاً نظام الإرث ، فكثير من النظم الأوروبية حصرت الإرث في الابن الكبير أو نحو ذلك ، فكانت الثروة مجموعة تنتقل من شخص الى شخص وهي بعينها لا ينقص منها شيء ، أما نظام الإسلام فوزعها وجعل لكل من الأولاد ذكوراً وإناثاً نصيباً منها ، وكذلك للأب والأم والزوج والزوجة ، الى غير ذلك ، فكان هذا عاملاً كبيراً في انقسام الثروة وتوزيعها على عدد كبير من الناس ، وتقريباً للسافات البعيدة بين الغنى المفرط والفقر المفرط .

\* \* \*

فلو تصورنا مجتمعاً سادت فيه هذه التعاليم ، وخضع فيه النظام الاقتصادي للسلوك الأخلاقي ، وحُرِّم فيه على الأغنياء أن يسرفوا في الملاذ والملاهي ، وفُرض عليهم جزء قانوني من المال يصرف في وجوه البر والاختد بيد الفقير ، الى مال لا حدَّ له يصرفه الغنى لمساعدة الفقير يسمى إحساناً ، الى توزيع الثروة توزيعاً كبيراً بين أفراد متعددين ، لكان مجتمعاً قد تبرأ من حقد الفقراء على الأغنياء ، وعسف الأغنياء بالفقراء ، ولكان مجتمعاً تتقارب طبقاته ، فلا فقير مدقع ولا غنى جشع ، ولكان مجتمعاً قد حلَّ أهم المشاكل التي عجز الاقتصاد وحده عن أن يحلها ، ولكن مع الأسف ، مبادئ سليمة لم تجد من يطبقها ، وآراء قويمة أهملت وسار المسلمون أنفسهم على ضدها .

الحق أن الإسلام خير من أهله ؟



## القرآنُ والمفسِّرون

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد محيسن .

عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى : ( واللاقى يأتين الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلا ، واللذان يأتياها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً ) .

يقول المفسرون في معنى قوله تعالى : ( واللاقى يأتين الفاحشة ... الخ ) إن المراد بالفاحشة فاحشة الزنا ، وإن عقوبتهن على الزنا كانت هي الحبس في البيوت إلى أحد الأمرين الموت أو السبيل الآخر ، ثم نسخ ذلك بالحد ، ويجوزون في الآية معنى آخر تكون به غير منسوخة ، وهو أن الزانيات بعد إيقاع الحد عليهن يُحبسن في البيوت احتفاظاً بهن ومنهن ، ويبقى ذلك حتى أحد الأمرين المذكورين في الآية .

وفسروا قوله تعالى : ( واللذان يأتياها منكم الخ ) بأن المراد بالفاحشة أيضاً فاحشة الزنا ، فعنى اللذان الزانية والزاني ، وسلك فيه سبيل التغليب ، ويقولون إن العقوبة كانت هي الإيذاء ، ويجوزون في تلك الآية أيضاً وجهاً آخر تكون به الآية غير منسوخة ، وهو أن هذا الخطاب إنما هو للشهود الذين عثروا عليهما وأن موقفهم من الزانية والزاني أن يوبخوهما ويهددوهما بالرفع إلى الحاكم وأنها إن تابا أعرضوا عنهما وتركوهما .

بذلك تعلم أن المفسرين يحملون الآيتين على الزنا سواء أكانتا منسوختين أم باقيتين على التأويل الثاني في كل منهما ، وتراهم حين يفرغون من تفسير الآية على هذا الوجه يسوقون فيهما بصيغة التمريض والتضعيف وجهاً آخر فيجعلون الآية الأولى في السحاق ، والثانية في اللواط ، مما يشعر بأن هذا الوجه في الآيتين غير ملتفت إليه .

هذا ونحن إذا نظرنا في الآيتين وأمعنا النظر في معناهما مستحضرين أن القرآن بلاغة بلغت حد الإعجاز ، مستحضرين أنه تنزيل الحكيم العليم وأنه الكتاب الذي لم يُفَرِّط فيه من شيء ، وأنه مُعْنَى أول ما عني بسلامة المجتمع من كل عيب وصيانته عن كل ما يمس في خلقه خصوصاً ما يمس رجولة الرجال وأنوثة الإناث حتى يبقى لكل فرد في المجتمع شرفه الذي يتقدم به في الحياة جريئاً على قيامه بواجبه ليقوى البناء ويصان عن التهدم .

إنا إذا نظرنا في الآيتين على ذلك الوجه وجدنا ما فسروا به غير واضح وغير وجيه .

أما أولاً : فإن فاحشة الزنا معروف أنها متولدة بين الجفسين ولذلك ترى القرآن حين ذكرها عبر عن الرجل بالزاني وعن المرأة بالزانية وجمعهما في قرن واحد فقال ( الزانية والزاني ) فتراه قد عبر عنهما بوصفهما من تلك الجريمة ، ولم يقل النساء في جملة وحدها ، والرجال في جملة وحدها . أما في هاتين الآيتين فقد قال في الأولى والثاني وفي الثانية واللذان ، وأفرد كلا بعبارة تخصه ، فجعل الفاحشة في الأولى من النساء الصنف وفي الثانية من الرجال الصنف ، وفاحشة الزنا لا تكون منهن إلا مع الرجال ولا يمكن أن يقال في الأولى إن في ذلك تغليباً فليس ذلك موطن التغليب .

ولذلك لم يحاول أحد من المفسرين أن يحملها على التغليب وفي ذلك ما يشير في وضوح إلى أن الفاحشة في الأولى ليست إلا ما يكون بين النساء الصنف وفي الثانية ليست إلا ما يكون بين الرجال الصنف .

وأما ثانيا : فإنه قد غاير بين العقوبتين ، العقوبة التي رتبها على الفاحشة التي كانت من « اللاتي » وهن النساء الصurf ، والعقوبة التي رتبها على الفاحشة التي كانت من « اللذان » وهما الرجلان وقد وضع الآيتين إحداهما بجانب الأخرى عما هو واضح في تغاير الجريمتين ماهية ومصدرا ، وما هو واضح في أنهما جريمتان غير جريمة الزنا ، فإن جريمة الزنا قد ذكرت في القرآن غير مرة فلم يعبر عنها إلا باسمها ، يقول الله ( لا تقربوا الزنا ) ( الزانية والزاني ) وذكر لها عقوبة غير هاتين العقوبتين .

أما في هاتين الآيتين فإنه لم يذكر تلك الجريمة بل عبر عن الجريمة بلفظ عام يشملهما وغيرهما ، وهو لفظ الفاحشة أيذانا بزيادة هاتين الفاحشتين في القبح عن فاحشة الزنا ، وإيذانا بأنهما فاحشتان يجب أن يصاب اللسان عن أن يذكرهما .

وأما ثالثا : فإن الآية الأولى إذا كان الأمر كما يقولون ، وأن المذكور فيها عقوبة الزانيات وأن الآية الثانية جارية على باب التغليب ، يكون قد ذكر في الآية الثانية عقوبة للزانيات غير ما ذكر في الأولى ، وكان يجب ألا تذكر الآية الأولى مادامت قد أريد بها الزانية والزاني . وأما دفع ذلك بأن الآية الأولى قد نسخت الآية الثانية فذلك دفع غير صحيح ، إذ أن الناسخ والمنسوخ - على فرض تبوت النسخ في القرآن - ليس بالمستساغ أن يذكر مقتربين هكذا . وتعجب فوق ذلك من أن الناسخ قد ذكر أولا والمنسوخ قد ذكر ثانيا ، ففوق اقتراحهما قد جعلوا المنسوخ ثانيا والناسخ أولا . وإلى هذا وذاك يقولون إن الناسخ أيضا منسوخ بآية ( الزانية والزاني ) وهكذا ترى اضطرابا للمفسرين واضحا ليس له من سبب ، إلا أنهم حملوا الفاحشة في الآيتين على فاحشة الزنا .

وقصارى القول إنك كلما أمعنت النظر وأنت بعقيدة أن القرآن في طبقة من البلاغة معجزة ؛ رأيت أن حمل هاتين الآيتين على الزنا مما يبعد بهما عما يجب للقرآن من بلاغة معجزة .

وأما رابعاً : فإن الإقدام على القول بالنسخ في القرآن ، لمجرد شبهة قوية أو ضعف ، إقدام على ما يتنافى مع ما يجب أن يتوفر للقرآن باعتباره قانون السماء الخالد لصالح المجتمع وسعادة الأمم ، وباعتباره متعبداً بتلاوته مما يوجب أن يكون باقي الدلالة على معانيه .

ولاذن فليس من الواضح أن تحمل الآيتين على المعنى الذي حملهما عليه المفسرون ، لما تبين من أن هذا الحمل لا يتفق وبلاغة القرآن ، وكونه الكتاب الخالد ، والقانون الدائم .

\* \* \*

أما المعنى الذي ينبغي أن تحملا عليه ، فهو ذلك الذي زعموه ضعيفاً ، وساقوه تحت صيغة التريض ، وهو : « أن الآية الأولى في جريمة النساء الصرف ، والثانية في جريمة الذكور الصرف » .

وذلك لوجوه :

أما أولاً : فلما مر من وجوه الرد للمعنى الذي اعتمده المفسرون .

وأما ثانياً : فإن الآيتين إنما يتم تناسبهما مع ما قبلهما من آيات الميراث بحملهما على جريمة النساء الصرف والذكور الصرف ( السحاق والواط ) ولا يتم بحملهما على الزنا ، إذ أن آيات الميراث السابقة على هاتين الآيتين قد طمأنت الناس على ما يتركون من أموال وراهم بعد موتهم ، طمأنتهم بأن ما يتركونه سيؤول إلى أبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وإخوانهم ، وأنه لا أبوة ولا بنوة ولا أمومة ولا أخوة إلا عن طريق اجتماع الجنسين ، أما هاتان الفاحشتان فهما مضيعة للرجال والنساء ، ليس معهما أبوة ولا بنوة ولا أمومة ولا أخوة ، ليس معهما هذا إن لم يكن لسقوط الرجال والنساء بتلك الجريمة عن أن يقبل الرجال الزواج بالسحاقيات وأن يقبل النساء الزواج بالواطين ؛ فمن طريق أن المرأة قد تستغنى بذلك عن الزواج كما يستغنى الرجل بذلك عن الزواج ، ولأنه أوضح أن من أشد الموانع وأبرزها لاقتران رجل بامرأة أو امرأة برجل أن

يعلم الرجل عن المرأة تلك الجريمة أو تعلم المرأة عن الرجل تلك الجريمة ، وقد يقال وكذلك جريمة الزنا من الذاهبات بالآبوة والبنوة ، ففي الآيتين بالحل عليها تناسب مع ما قبلهما . إلا أن هذا مردود باحتمال انتاج قد يكون بعده استلحاق ، فهناك احتمال وإن أحاط به الضعف غير أنه لم يكن بتأ قاطعاً للوارثين بوصف بنوة وأخوة وأمومة وآبوة ، كما في الجريمتين : السحاق واللواط .

وأما ثالثاً : فإن القرآن بهذا يكون قد استوفى جميع الجرائم الفتاكة بالمجتمع وعيداً وتغفيراً عنها وتحذيراً منها ، فانه إذا كان القرآن قد تحدث عن فاحشة الزنا في غير موضع فانه لا يترك هاتين الجريمتين دون توعده عليهما وتسوية لعاقبتهما مع أنهما أسفل دركا وأنزل بالانسانية عن مستوى الإنسانية .

وقد حدثنا القرآن عما أنزله من العقوبة ببعض الآم التي اقترفت لإحدى هاتين الجريمتين ، وأنها كانت عقوبة مؤذنة بسقوطهم عن مستوى الإنسانية الى هذه الحيوانية المجردة عنها ، إذ كانت حذفاً بالأحجار حيث لا يستطيعون لها رداً ، ولا يحاولون منها هرباً ، مما يؤذن بشناعتها وأنها أقطع من الزنا شأناً ، فان الزنا حالة لها من المباح المشروع ما يشبهها ، أما هاتان الجريمتان فإنهما خروج عن الفطرة ، وحيدان عن الطبيعة فهما أولى أن يطهر المجتمع منهما ، وأن يتوعد القرآن عليهما وعلى العموم فإن حل الآيتين على هذا المعنى ، يكونان به أقوى أسلوباً وأرصن نظماً ، وأوفق بعظمة القرآن وأنه الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء ، وأنه تنزيل الرحمن الرحيم ، وأنه الكتاب الذي فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون .

نسأل الله هدايته لأقوم طريق وأوضح سبيل إنه سميع عليم ۞

# الشخصية المحمدية

## تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

### الحكمة

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير  
الأستاذ محمد فريد وجدى بك  
مدير مجلة الأزهر

الحكمة فى اللغة العربية تعنى العلم والحلم والعدل والنبوة ، ومن معانيها ما يمنع من الجهل ، ومنها أيضاً كل كلام يوافق الحق ، ومنها وضع الشيء فى موضعه ، وصواب الأمر وسداده ، وقد توسع فيها المشتغلون باللغة فأطلقوها على الفلسفة تعريباً لهذه الكلمة اليونانية ، وقد جاء ذكرها فى القرآن العظيم عشرات من المرات موافقة لكلمة الكتاب أو العلم أو النبوة ، فقال تعالى موجهاً الكلام الى نساء النبي صلى الله عليه وسلم : « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، وقال فى بيان مهمة النبي : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

وجاءت كلمة الحكمة فى الكتاب الكريم مستقلة ، من ذلك قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وقد أشعرنا الكتاب الكريم بأن هذه الحكمة نور عقلي شائع بين جميع الأمم قديماً وحديثاً ، قال تعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً ، وقال تعالى : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة ، فالحكمة على هذا الاعتبار أرفع درجة من الفلسفة ، لأنها المولدة لها ، والحكمة عليها ، وإنما تمتاز الفلسفة عنها بمظهرها العلمي ، وقالبها الفني ، وقبولها للنظام الأسلوبى الذى يتأتى معه انتسابها للأفراد والجماعات ، وإمكان جعلها موضوع دراسة منظمة .

قد وصفنا الحكمة بأنها نور عقلي ، يريدون بذلك أنها متولدة من النور العقلي الذى خص الخالق به النوع البشرى ، وجعله هادياً له . يأخذ بيده فى ظلمات الحياة الأرضية ، ويدله على ما هو بحاجة إليه من المحاولات الفكرية والجسدية ، ليستطيع أن يعيش فى بيئة ألقى به فيها عارياً وبغير عتاد ، وقد هداه هذا النور العقلي المستمد من النور الإلهي الى جميع مرافق حياته ، ودله على سبيل الخير والشر ، والنافع والضار ، وعلى مآبه قوامه ومصالحته وارتقاؤه ، وما فيه هلاكه وتعبه وارتكاسه ، والمتأمل فى الإنسان لأول عهده بهذا العالم يعجب كيف استطاع أن يرتقى عن تلك السذاجة الحيوانية التى نشأ عليها ، ويبلغ الى الدرجة التى هو فيها اليوم من الارتقاء العقلي والخلقى ، وما هدى اليه من الصناعات والفنون ، وما كشفه من مساتير الكون ومكنونات العلوم ؛ ولا يجد مناصاً للخروج من هذه الحيرة إلا بالتسليم بمهمة الرسل الذين كان يرسلهم الخالق اليه بين حين وآخر يفتحون أمامه طرق التأمل فى قوى الكون ، والنظر الى ما حوله من وسائل الطبيعة ، وحمله على توجيه قواه الأدبية الى ما يرفعه عن حضيض الحيوانية ، ويدفع به للنظر فيما بين يديه وما حوله من ظواهر الوجود وإمكان الاستفادة منها لحياته الشخصية والاجتماعية ، وإلى ما يجب أن يستشعره من الواجبات الذاتية والعمومية ؛ فتشبع جو الحياة الإنسانية على هذا النحو بالحكم النيرة ، والأصول القيمة ، وذاع العلم بها حتى أصبحت من المقررات الأولية لدى الناس أجمعين ، إلا أهل الشذوذ

الأدبي من الذين اتخذوا لأنفسهم من الفلسفة التشاؤمية خطة خاصة من التفكير المعاكس ، عُرفوا به بين الناس ، وهم قلة لا يعتد بها حتى قد لا تصادف منهم في كل مليون من الناس واحدا .

هذا النور الساطع من الحقائق الحكيمة ، المنتشر في جو العقيلة البشرية ، هو الحكمة التي يتردد ذكرها على ألسنة العلماء والفلاسفة من أقدم العصور ، وجاء ذكرها في الكتاب الكريم ، وهي بهذا الاعتبار تخالف الفلسفة خلافا جوهريا ، لأن هذه هي المذهب الذي يتخذه المشتغلون بفهم حقائق الوجود ، وسيلة لإدراك تلك الحقائق ، وكيفية انطباقها وتطبيقها على الموجودات ، وعلى سيرة الإنسان ومحاولاته ، لبلوغ المثل العليا في سلوكه وفي أعماله ، ومن أجل ذلك تعددت وجهات نظر الفلاسفة ، وتحالفت ثمرات جهودهم الى حدود بعيدة ، ومن هذه الناحية خالفت الفلسفة العلم أيضا ، فالعلم هو مجموع المعارف التي حصل عليها الإنسان بالنظر والاستقراء والتحليل والتركيب ، فهو مجموعة محققة من العلم بالكون والكونيات ذات حدود مقررة ، فأين الفلسفة من هذه الاستقرار ، وهي لتصدى لها لفهم الوجود ، وإدراك العلل الأولية التي تبنيه وتهدمه ، وفي اللانهاية المحيطة بالعالم ، وتعيين علاقاتنا بها جريا وراء بناء مذهب عقل يربط ما يقع تحت حستنا من الكائنات المختلفة ، ويعين لكل منها مكانه ومهمته من المجموعة العامة بحيث توافق الحقيقة ولا تشذ عنها ، قلنا أين الفلسفة من هذا الاستقرار ، وقد انقسم القائمون بها الى مذاهب وشيع ، إلا الفلسفة الحسية فانها بعد قبولها ما لا يثبت ثبوتا علميا من الأصول قد فئت في العلم ، وزالت عنها صبغة الفلسفة .

ولكن الحكمة لا تنتهي قط إلى مثل هذه النهاية ، لأنها لا تحاول فهم الوجود فهماً علمياً ، بل هي تكتفي بتحديد علاقاتنا به تحديداً يقره العقل العلى ، والناموس الأدبي ، وتجعل دائرة عملها محصورة في دائرة شئوننا الحيوية ، وسيرتنا الاجتماعية وهذه مجالات يمكن الوصول منها إلى المثل العليا التي ترقى بالإنسانية إلى أبعد



ما يمكن أن تصل إليه علياً وعملياً ، وأرفع ما يتأتى أن تسمو إليه جسدياً وروحياً ، وهى التى يعنىها العلماء بكلمة الحكمة ، ويشرفها الخالق بالتبويه بها فى كتبه السبوية .

وقد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم بسمو فطرته حقيقة ما قصده الخالق منها على الوجه الأكمل ، وفهم مدلولها فهماً أداه إلى الدعوة إليها ، والتبويه بها تبويها يشف عن سمو تقديره لها ، ومبلغ ما تستفيده الإنسانية منها ؛ فقال : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » الضالة من الإبل ما انقطعت عن صاحبها بمضيعة فهو يطلبها جهده ، لأنها مطيته التى لا يستطيع قطع طريقه بدونها ، شبه الله الحكمة فى ضرورتها للإنسان بقطعها طريقه إلى حضرة العلية ، بالضالة ، وهذا تشبيه بديع يؤذن بأن الحكمة من ضروريات المؤمن بحيث قد يهلك بدونها ، كما قد يهلك سالك الفلوات بدون ناقتة التى يقطعها بها ، وما أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا التعبير البديع إلا ما أمدّه الله به من سمو الإدراك ، وبعد مدى النظر فى الحقائق ، وفهمه لمهمة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا .

وقد زاد هذا التحضيض لالتقاط الحكمة أنى كانت ، بوجه من التعبير يدعو إلى غاية الاهتمام بالحكمة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت ، فقد يكون قائلها سفياً أو زنديقاً أو وثنياً أو ملحداً ، فيتأثم المسلم أن يأخذها عنه ، فتدارك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ، وحض على المبادرة إلى التقاط الحكمة ، بصرف النظر عن الإنسان الذى صدرت منه ، ولو كان مثالا للخسة ، ومبادة للدنس ، وفى رواية أخرى : « خذ الحكمة ولو من مشرك » وهذا نهاية ما يمكن أن يبلغه التحضيض على تصيد الحكمة من كل مظانها ، ولا يعقل أن يبلغ الداعى إليها هذا الحد من التعبير إلا إذا كان على أصل أصيل من فهم الحقائق ، وطريق الوصول إليها ؟

# حقوق الإنسان

لحضرة صاحب الفضيلة

الاستاذ الشيخ عبد العزيز المرأغى بك

عضو جماعة كبار العلماء

والإمام الخاص للحضرة الملكية

كان بودى أن أتابع الكتابة فيما أسلفت الكتابة عليه في أعداد سلفت من مجلة رسالة الإسلام ، ولكن أمراً عده الناس حدثاً جديداً ، أو أمراً ذا بال ثنائى إلى الوقوف قليلاً عند ذلك الموضوع الجديد في نظر العالم ، والقديم جداً جداً في نظارنا ، ذلك هو ما أسموه : « حقوق الإنسان » .

وقد هبت دور العلم ومؤسسات الثقافة في العالم لتبني الناس لاستماع ذلك النبأ الخطير ، والترحيب بذلك المولود الجديد ، ولم تكن مصر بمنجاة عن التهليل لذلك الحدث الجليل ، فقد نشرت إحدى صحف الصباح اليوم ٧ / ١٢ / ١٩٤٩ ما يأتى : « طلبت الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف الى حضرات نظار المدارس تمكين تلاميذ الفرق الكبرى من سماع الإذاعة المدرسية في الاحتفال بالذكرى الأولى لإعلان حقوق الإنسان ، وذلك في الساعة ١٢ ظهراً يوم السبت ١٠ / ١٢ / ١٩٤٩ » ثم قالت : « وتدرس هيئة الأمم المتحدة بالاتفاق مع اليونسكو بيان مشروع إعلان حقوق الطفل توطئة للاعتراف بأن الجنس واللون والسلالة والدين لا ينبغي أن تكون حائلاً بين أى طفل من أطفال العالم ، وتمتعه بما يتمتع به الأطفال الآخرون من العلم والمعرفة . الخ » .

هذا هو المولود الجديد ، مولود القرن العشرين الذى اشرأبت له الأعناق ، واستشرفت له الأعين بعد أن جاءها على ظمأ ليروى الغلة ، وعلى فاقة ليدها بالغنى

والثروة ، وهذا هو النبا العظيم الذى سنبه له آذان الشيب والشباب فى شتى بقاع الأرض ، ومن بينها مصر ، ليدوى فيها ليدنا بأن العالم قد جاءه خير جديد اعترف به للانسان بحقوقه ، وسيعترف للطفل بحقوقه قريبا وميزته — حسبما ذكرت المجريدة آنفة الذكر — إنه لم يكن وليد تفكير فرد ، وإنما هو وليد اعتراف اثنتين وخمسين من الأمم فى الأرض صغيرها وكبيرها ، قويا وضعيفها ، وإقرارهم بأن الإنسان أصبحت له حقوق وأصبح له كيان وأصبح له ما شئت من مقومات ومهيات .

هذا هو قصارى أمرهم ، وذلك هو منتهى العلم من شأنهم ، أما نحن ، وأما المنصفون من غيرنا ، وأما التاريخ ، فكلهم شهود عدل على أن حقوق الانسان لم تكن من الجدة علينا بحيث نستبشر بمولدها ، ونقيم الاحتفالات للذكرى الأولى لإعلانها ، ونحرق البخور ، ونهيه الأثير ليحمل على موجاته تلك البشارات ، وهاتيك الاعلانات .

نعم نحن نعرف والتاريخ يصدق على أن حقوق الإنسان لم يكن بدء إعلانها فى ليك سكسس ، ولا فى فلشنج ميدوز ، ولا فى باريس ، ولا فى الأطلنطى ، وإنما قررت فى بقعة بسيطة من بقاع الأرض اختارها الله لتكون موطن إشعاع جديد ، ومهبط شعلة ستضىء العالم بعد أن غشى عليه ما غشى من ظلمات كادت تودى به ، ورفع الله بذلك عنه إصرار وأغلالا كانت عليه ، ولم تعترف بها خمسون أو مائة من الأمم فى القرن العشرين ، وإنما أقرها واعترف بها لأربعة عشر قرنا دين كان خاتمة الأديان ، على يد نبي كان خاتم الأنبياء ، يبلاغ عن الله عز وجل لم يكن منشئا لما جاء به ( وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي ) ولم يتقوله على ربه ( ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ) كما نطق به نصوص الآيات الكريمة ، وقد سوت بين العالم أبيضه وأسوده وأحمره وأصفره ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ( يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ) .

وقبل أن ندخل في تفصيل وجهة النظر الإسلامية في حقوق الإنسان وكيف أعلنها ، وكيف فصلها وبينها ، وكيف طبق المسلمون من الخلفاء وأولى الأمر فصوص ما جاء به ذلك الدين من لدن أشرق نوره حتى اليوم ، قبل ذلك نحب أن نذكر إجمالاً تلك الحقوق التي أعلنوها باسم حقوق الإنسان ، كما نص عليه مشروع الميثاق ، وإليك ترجمة أهم فقرات المشروع (١) :

(١) الناس متساوون في الحقوق والاعتبار - وهم بما أودعه الله فيهم من عقل وضمير - ملزمون بأن يعامل بعضهم بعضاً على أساس روح من الأخوة .

(٢) كل شخص له الحق في التمتع بالحقوق التي نص عليها الميثاق من غير تفرقة بجنس أو لغة أو دين أو رأى سياسى أو غيره .

(٣) لكل إنسان الحق في الحياة والحرية والأمن .

(٤) لا يسترق إنسان ولا يعذب ولا يعامل بقسوة ولا لإذلال .

(٥) لكل إنسان الحق في أن يعترف به شخصاً أمام القانون في كل مكان .

ثم ذكر المشروع فقرات لم نرداعياً لترجمتها لأنها - في نظرنا - حقوق مرتبة على ما أسلفنا من حقوق في الفقرات السابقة .

وذكر بعدها فقرات تتعلق بمساواة المرأة للرجل وحرية كل منهما في الزواج وذكر حق الإنسان في التملك وحماية الملكية ، وحرية الفكر والعقيدة ، وأن يظهر عقيدته علناً ويمارس طقوسها ، ويعبر عن آرائه وأفكاره ، ويكون له الحق في الاشتراك في حكم بلده ، وله وافر الحرية في العمل ، وله حق الأجر ، ولكل واحد حق التعليم والتربية ، ويجب أن يوجه التعليم نحو رعاية حقوق الجماعة الإنسانية ، وتقوية روابطها ، لا إثارة العداوات الجنسية والدينية . الخ ما ذكر هناك .

هذا ملخص يحمل لما جاء في مشروع إعلان حقوق الإنسان يعيننا منها الفقرات التي افتتح بها المشروع وهو في جملة يدور على أساس مهم ، هو اعتبار الإنسان

(١) ص ٥٧٤ وما بعدها من كتاب

كائنات حيا حرا له حقوقه ، وعليه واجباته وله كيانه ومقوماته ، وهو على أساس ذلك الاعتبار يتمتع بكل الحقوق التي يجب أن يتمتع بها كل إنسان حر مفكر عاقل اجتماعي عضو في الجماعة البشرية العامة التي تعتبر الكون كله وحدة واحدة مهما تباين الجنس واختلف العنصر وتباعد اللون واقترب الدين .

والبحث كله في نظري يجب أن يدور على هذا الأساس ؛ ويتجه التفكير فيه على هذا الاعتبار . أما أن الاسلام دين يفرض المساواة بين الأجناس البشرية ومساواة الانسان لأخيه الانسان دون أى اعتبار آخر ، فذلك أمر مفروغ منه - في نظرنا - عند كل من عرف شيئا عن الاسلام ، وشدا طرفا من تعاليمه ، وإن كان هناك بعض فروق بين المسلم وغيره فذلك لاعتبارات لا تعدو الاعتبارات التي تقوم على أساس الجنسية في العصر الحديث ، فوحدة المسلمين تقوم على أساس ذلك كما أن وحدة المواطنين في العصر الحديث تقوم على أساس موطنى ، وطبعيا نحن لا يعنينا المفاضلة بين الاعتبارين وأيهما أولى بالاعتبار والتقديس ، ولكن مع هذه الفروق قدس الاسلام مال غير المسلم ودمه وعرضه ، وحماه من كل طغيان وعدوان . اقرأ قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند الله أتقاكم » . قال المفسرون في سبب نزولها : إن ثابت بن قيس حين قال لرجل لم يفسح له عند النبي صلى الله عليه وسلم : يا ابن فلانة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : من الذاكر ابن فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يا رسول الله ، فقال : انظر في وجوه القوم فظفر ، فقال : ما رأيت يا ثابت ؟ قال : رأيت أسود وأبيض وأحمر . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى . وعن مقاتل : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حتى أذن على ظهر الكعبة فقال عتاب بن أسيد : الحمد لله الذي قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب مؤذنا ، فنزلت . وأخرج أبو داود في مراسيله ، والبيهقي في سننه عن الزهري قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت . وكان أبو هند حجام رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأخرج البيهقي عن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يشيم الأركان بحجته فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها يأياها الناس: الناس رجلان برئ تقى كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله — الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير. ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد. لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحر، ولا لأحمر، على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فليبلغ الشاهد الغائب، إلى غير ذلك من أحاديث لا تزيد الإطالة بذكرها. وقد نهى الله عز وجل العصية وحذر منها إذ يقول في حق فرعون: إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فالإسلام قد جاء منذ أربعة عشر قرنا ليقرر للعالم حقوق الإنسان، وقد كان البشر أجناسا متفرقين يتعادون في الأنساب والألوان واللغات والأوطان والأديان والمذاهب والمشارب والشعوب والقبائل والحكومات والسياسات، ينازع كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر، فصاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الانسانية الجامعة وفرضها عليهم: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون، في معنى قررته الآيات والأحاديث، وقرره الرسول عليه السلام في مؤتمر عام في حجة الوداع كما رواه الطبراني في المعجم الكبير، وسوى بين الناس جميعا لا فرق بين إنسان وإنسان بشيء لا قبل له بدفعه ولا شأن له في تحصيله كلون جلده، أو جنسه، أو لغته، وما فرق بينهم إلا بعوامل هم

مستولون عن وقوعها وإيجادها كالعامل الصالح والفضيلة وما إليها، فالمسلم بإسلامه يستوى مع أخيه في شتى بقاع الأرض في كل الحقوق، ويحمل مثله كل الواجبات، ويشترك في نظام الحكم والانتخاب وما يتفرع عنه من حقوق هي وليدة الكيان الإنساني، وغير المسلم يشترك في وحدة الدولة أو الجنسية السياسية للدولة، فجميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامي متساوية في الحقوق العامة كحماية أهلها، والدفاع عنهم، وحرمة أموالهم وأنفسهم، والتاريخ شاهد بأن كثيراً من غير المسلمين قد ولوا مناصب ذات سلطان في الدولة لم يمنعهم دينهم من شيء، وقد تمتعوا في ظل الرسول عليه السلام والخلفاء من بعده بعطف سابق، وبجمالة لم يعهد مثلها في تاريخ، ولا نريد أن نمل القارئ بالإفاضة فيها، ولم نسمع بعشر معشارها في البلد الذي أعلن على أرضه وتحت سمائه حقوق الإنسان، بل افترق فيه أبيضهم وأسودهم، وتناحر الفريقان، واقتتل الطرفان، وحرّم هذا من كل حق يتمتع به أبسط مخلوق حتى في الدخول لمكان، أو الإشراف في بيان، بما حدثت عنه الأخبار، وتضافرت على ذكره الروايات من رسمية وغير رسمية، وكما اختلفوا للجنس اختلفوا للدين، هناك وفي غيره من الأماكن والدول.

هذا هو أبسط حق للإنسان وهو المساواة، عرفه الإسلام وقرره لكل إنسان باعتباره كائناً حياً لم يحرم منه طائفة إلا في بعض الأشياء لبعض الاعتبارات التي تمس الفكرة التي قامت على أساسها وحدة الدولة الإسلامية، كما تقوم الوحدة اليوم على أساس الجنسية، ويحرم على أساسها طائفة من لا يحملونها، ولا يعد ذلك عيباً في الفكرة، ولا نقصاً في الدولة.

وحسبنا اليوم هذا القدر في الكلام على الأصل الأول من حقوق الإنسان، ولعل لنا عودة قريبة إن شاء الله للكلام على تفاصيل ما بقي من حقوق الإنسان التي ستعلن جديدة على الناس في القرن العشرين، وليس بمجددة على الإسلام والمسلمين، فعندهم من أربعة عشر قرناً خبرها، وعندهم عليها ونبؤها (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ٢٠

## وحدة المسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ على الخفيف

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول(\*)

لقد ألف الإسلام حين ظهر بين قلوب من اتبعوه واتخذوه ديناً لهم ، فجعل منهم جماعة متآلفة يعاون بعضهم بعضاً وينصره ويؤازره ، حتى كان لهم من ذلك يوم ظهروا بمكة وهم قلة مستضعفة ، منعة حفظتهم من شرور أعدائهم وقوة أظهرتهم وردت عنهم كيد خصمائهم ، ولولا ذلك لفضى عليهم في مهدهم وانتهى أمرهم في أول عهدهم .

ثم بدا ذلك التآلف بينهم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة أجلى مظهراً وأوسع مجالا وأبعد أثراً ، وأشد قوة ، بما عقد بين المهاجرين والأنصار من الأخوة والولاء والمعونة في السراء والضراء والمشاركة في الأموال والمناصرة في القتال ، والتعاون على النهوض والظهور والعمل لنشر دعوة الإسلام ، والوصول إلى ذلك الغرض السامى الذى دعاهم إليه دينهم الجديد ، وهاداهم إلى صراطه رسولهم الصادق الأمين .

وطبيعى أن يؤلف الإسلام بين أتباعه فيجعل منهم أمة قوية متحدة متماسكة إذا ما تمكن من قلوبهم واستولى على مشاعرهم وسيطر على أفكارهم ، وذلك بسبب ما يدعومهم اليه من وحدة الفكرة وسمو الغرض ، والسعى إلى تحقيق الغاية المنشودة التى لأجلها جاء ولتحقيقها شرع ، وما لهذا الدين من الأثر البالغ فى العواطف والمشاعر والأفكار .

(\*) فضيلة الأستاذ العيخ على الخفيف أحد الأعضاء المؤسسين لجامعة التقريب .



إن أية فكرة تبدو فيعتقدها من يستصوبها لاثبت أن تصير جامعة بين أنصارها تربطهم برباطها ، وتجمعهم بجامعتها فيعرفون بها ، ويتعاونون في سبيل نصرتها والدفاع عنها ، والدعوة إليها ، فما بالك برابطة ينشئها دين قيم يدعو إلى الإيمان بالله واحد ، والتوجه إلى وجهة واحدة ، والسعى إلى تحقيق غرض سام واحد ، يتطلب تحقيقه تعاون من يتبنيه ، ومؤازرة بعضهم بعضاً ، ووقوفهم أمام معارضهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

دعا الإسلام إلى الوحدة لأنها طبيعته وركنه الذي تقوم عليه دعوته الدينية العامة الموجهة إلى الناس أجمعين . ولقد استجاب لها المسلمون في أول عهدهم فأكسبتهم قوة وعزة وغلبة عزت بها الدعوة الدينية فانتشرت وانتصرت وصدت من عارضها ، ففتحت أمامها الطرق ، واتسع لها الأفق ، وعمت بلاد من كان يعارضها ويدفعها ويقف في طريقها بما كان له من قوة ومال وجاء ورجال .

عنى الإسلام كثيراً بقوة تلك الوحدة ، وإحكام تلك الرابطة حتى جعلها أخوة بين المسلمين تتمحى فيها الفوارق ، وتختفي فيها الطبقات ، ويتساوى فيها جميع الأفراد في منازلهم وحقوقهم وواجباتهم ، كما يتساوى الأخوة في ذلك من الأسرة الواحدة .

أراد الإسلام أن يجعل لهذه الوحدة وتلك الرابطة ما لرابطة الأخوة من القوة والمكانة والحرص على صيانتها ، والبعد بها عن أن تعرض لمعاول الهدم والتفريق وأسباب الخصومة والنزاع ، فنزل قوله تعالى في سورة الحجرات : « إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله ، يئانا لمنزلة هذه الرابطة وإيجاباً لصيانتها بالإصلاح بين أفرادها إذا ما اشتجر بينهم خلاف ، أو عصفت فيهم ريح فرقة ، وليس أدل على مكانتها من أن يعدها الله نعمة يمتن بها عليهم ، ويدعوهم إلى الحرص عليها ، ويحذرهم من الفرقة بعد اعتصامهم بها ، إذ يقول في سورة آل عمران : « واعتصموا بحمل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وإذ يقول فيها أيضاً

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

لم يكتف الرسول في بيان حقيقة تلك الرابطة وما تستلزمه من حقوق وواجبات بما جاء به الكتاب العزيز من إجمال ، بل فصل فيها القول فأشار إلى أنها مساواة في الحقوق ، ومساواة في المنزلة لا تعرف فيها السيطرة ولا سيادة الطبقات ، فقال : « المسلم أخو المسلم لا يظله ولا يحقره وكونوا عباد الله إخوانا ، وقال : « لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ولا يخطب على خطبته حتى يذر » ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يكاد يذكر حقاً لمسلم على مسلم أو يوصى مسلماً بمسلم إلا جعل ذلك أثراً من آثار أخوتهما التي أضفاها الإسلام عليهما .

تلك روح تظهر أن وحدة المسلمين وتأخيم نتيجة حتمية لاعتناق هذا الدين على وجه الصحيح ، وأن تلك الوحدة لا تتم إلا بزوال الفوارق بينهم من ناحية الوطن والجنس والسلطان ، فلا يكون للمسلمين إلا وطن واحد هي الأرض التي تقلهم وتضمهم مهما اتسعت أنحازها ، وتعددت جهاتها ، وتباعدت أقطارها ، ثم لا يكون لهم نسب ينتسبون إليه سوى الإسلام ، ولا جنسية تجمعهم إلا جنسية الإيمان ، ولا سلطان يحكمهم سوى القرآن تقوم عليهم بسلطانه حكومة تنفذ فيهم أحكامه ، وترفع فيهم أعلامه ، وتهذبهم بأخلاقه ، وتهديهم بإرشاده ، وتزكهم بتعاليمه ، وتربهم على مبادئه .

إن رابطة الوطن على ما لها من القوة والسلطان الآن يجب أن تقوم على أن الوطن وطن واحد بالنسبة إلى جميع المسلمين ، فالإسلام لا يفرق بين أوطانه ، ولا يجعل لكل جماعة من جماعاته وطناً تختص به وتتعصب له وتدفع عنه دون غيره ، فليس للوطن في واقع الأمر حدود إلا ما يجعله أهله حداً له وغاية ينتهي إليها ، فكثيراً ما تضيق الأوطان وتتسع تبعاً لرغبات ما كنيها ونتيجة لبسط سلطانهم وانقباضه ، والوطن كما يصح ألا يجاوز السكن يصح أن يتسع حتى يعم القرية أو المدينة ، كما يصح أن يتجاوز ذلك إلى بعض المزارع والقرى المجاورة ،

وأن يمتد إلى أكثر من ذلك امتداداً لا ينتهى إلا إلى الحدود التى يصطلىح عليها لهذا كانت فكرة الإسلام فى الوطن وفى تحديده بالحدود التى ينتهى عندها سلطان الإسلام فكرة مستقيمة لا يجافىها الواقع ولا المنطق ، فيها يتسع ، وفى سعة قوته ومنعته وعظمته ووفرة ثروته ، وقدرته على دفع العدوان ، ورد الأطماع ، وبحق الطغيان ، وما عهدنا بما فعلته روسيا فى الحرب الأخيرة ببعيد ، فقد كانت سعة وطنها أول عامل فى انتصارها فى هذه الحرب ، كما كانت سبب انتصارها يوم غزاها نابليون منذ قرن أو يزيد ، وبها تقوى الجامعة وتشد الرابطة لقيامها عندئذ على عدة روابط تعاضد هذه الرابطة مثل رابطة الدين ورابطة الثقافة ورابطة الشريعة ورابطة الحكومة والسلطان ، وإذا انحصر الوطن وضاق فى ذلك ضعفه وضآلته وسبب توجه الأطماع إليه والسيطرة عليه .

على أن فكرة الجامعة الوطنية فى ذاتها لا تصلح فى جميع الأحوال لتكوين أمة متحدة متآلفة ، فقد كان العرب قبل الإسلام يستوطنون موطناً واحداً هو جزيرة العرب التى حبتها الطبيعة بحدود وفواصل طبيعية تفصلها عن غيرها من البلاد ، ثم لم يؤلف بينهم هذا الوطن ، بل كانوا على الرغم من تجاورهم ووحدة جنسيتهم قبائل متعادية متباغضة ، تكثر بينهم المنازعات والمناحرات حتى أصبحوا فريسة للحروب والترات والفتن ، وكذلك كانت يثرب بلداً واحداً عجز عن أن يجعل من أهله وسكانه - الأوس والخزرج واليهود - جماعة مؤتلفة متحابّة ، بل ظلوا حياتهم متباغضين متخاذلين متقاتلين ، حتى كانت لهم فى العرب أيام حروب معروفة أشهرها يوم بعاث ، ثم ما زال ذلك أمرهم حتى وحدهم الإسلام ، فجعل منهم جماعة متحابّة متآخية كان لها السيطرة على جميع بلاد العرب .

ولكن الذى أتاح لهذه الفكرة الوطنية ، تلك القوة هو ما صادفته من ظروف جعلتها تحتل المكان الأول فى الوجود والاجتماع والسياسة ، ومن هذه الظروف حادث الثورة الفرنسية ، وما تقرّر فيه من الحقوق الوطنية ، والأمانى القومية ، من حرية الأوطان واستقلالها ، وأن الملوك والأمراء وجدوا فيها مأربهم فى تحقيق

ما جبلوا عليه من حب التسلط والقهر ، فاتخذت وسيلة لتسلط حكومة على أخرى أو لاستبقاء قطر في نطاق قطر آخر لما تتمتع به هذه الفكرة من قبولها للانبطاح والانكماش تبعاً لبسط السلطان وانكماشه .

ومن هذا يظهر أنه كما اتخذت وسيلة إلى الجمع والتوحيد والقومية اتخذت كذلك في بعض الأحوال سبيلاً إلى الطغيان والتسلط وضم بقاع إلى بقاع حتى أصبحت تلك الفكرة تابعة في بقائها ووجودها للغرض والهوى لا للأرض وأوضاعها ، وكان من أثر ذلك أن آل الأمر في بعض الجهات إلى تجزئة جماعة من الناس تربطها صلات اللغة والجنس والدين إلى دول متفرقات تعددت بتعدد مواطنها التي تحددت بمحدود الهوى والغرض ، كما في كثير من البلاد الإسلامية وعلى كل حال فقد صار لهذه الفكرة مظهر خلاب خادع بما ظفرت به من تأييد أنصارها وناشريها تأييداً تم لها به الانتشار والانتقال من الغرب والشرق وقضائها على غيرها من روابط اللغة والدين والجنس ، وساعد على ذلك أن وجد فيها كثير من أمراء المسلمين طلبتهم في الاعتزال والاستقلال والتملك ، فأمنوا بها واتخذوها مطية للوصول إلى أغراضهم وساعدتهم على ذلك ما أصاب المسلمين في دينهم من ضعف وما أتابهم من جهل ، وما شملهم من فقر وبطالة ، فازداد بذلك تفرقهم وأصبحوا في كل قطر شيعاً وفرقاً كل فرقة لها غرضها وعملها ومصلحة موطنها ، اتفقت مع غيرها أم اختلفت ، ولم يحنوا من ذلك إلا الخلاف والتناحر والضعف والالتجاء إلى الأجنبي ثم الانضواء تحت لوائه أو سلطانه . وكذلك رابطة الجنس فإنها على ما لها من الشأن البادي اليوم في بعض الأمم كالأمم العربية والسلافية ، وما يرى من إجتاعهم في بلاد البلقان ضد اليونان ، فإنها أخذت تضعف وتختفي وراء رابطة الوطن ، وذلك بسبب ما حدث من تفرق الأجناس واختلاطها واستيطانها أما كن مختلفة مع اجناس أخرى ، حتى صار الوطن الواحد يضم شتيتا من عدة أجناس اضطرت على مرور الزمن إلى تناسي جنسيتها واندماجها في جنسية أخرى لا تعرف لها نسباً إلا الانتساب إلى الوطن ، وبذلك حلت رابطة الوطن

محل رابطة الجنس ، وأصبحت رابطة الجنس وليس لها كبير غناء على الرغم من بقائها والاعتداد بها في العرف والعادة باعتبارها أثرا تقليديا موروثا . والنتيجة أنك لا تكاد ترى الآن على وجه الأرض إلا أمما هم مزيج من أجناس شتى ولست ترى جنسا قد أفلح في ضم جميع أفرادها إلى وحدة قومية واحدة ، وكل الذي تراه أن هناك أجناسا لا تتميز بغير الموطن ، فالتركي من كان يستوطن بلاد الترك وإن كان من أصل يوناني ، والعربي من كان يستوطن بلاد العرب وإن كان من أصل تركي ، وهكذا ، وعلى ذلك أصبحت رابطة الجنس غير صالحة لأن تكون أمة متماسكة متحدة إلا باعتبار موطنها ، وقد ظهر أن ليس للموطن الآن كبير غناء أو أثر في ذلك . أما رابطة الحكومة والسلطان ، فليس لها في الواقع من أساس ، إذا كان قيامها على الغلبة والقهر وهي عند ذلك رابطة بغيضة لا تقيد قوة ولا تنتج اتحادا ولا تلد أمة . أما إذا كان أساسها الارتباط بالدين أو بالجنس أو بالوطن فليست عندئذ رابطة وإنما الرابطة ما تقوم عليه ، إننا لا ننكر أنه قد ينجم عن الخضوع لحكومة ثابتة النظام موطدة الأركان مدة طويلة من الزمان مهما كان نوع حكمها دستوريا أو استبداديا أن تتولد في رعاياها حاسة قومية ظاهرة ، وأن يؤلف بينهم شعور عام بوحدة مصالحهم وبحاجتهم إلى تأليفهم ، ولكن ذلك لن يقضى على ما يكون بينهم من أسباب التفرق والاختلاف مما يجعلهم شيئا واحزا با وذلك كاختلافهم في الدين واللغة ، ودليلا على ذلك حال الهند وما انتهى إليه أمرها من التفرق والانقسام ، وحال الصين وما انتابها من الحروب والثورات .

لهذا كان الاسلام لا يعرف للمسلمين إلا حكومة واحدة تقيم فيهم حدود الله وأحكامه حتى يتبعد بذلك عن منافسات الملوك ومنازعاتهم وما تنتهي إليه غالبا من قيام الحروب بينهم ، وحتى يكون ذلك وسيلة تتوحد بها مشاعرهم وأفكارهم وأغراضهم وتربيتهم ، فيكونون جسدا واحدا إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحنى والسرور . وتلك هي الوحدة الإسلامية التي يدعو إليها الإسلام ويجعلها فوق كل رابطة ، ومرد كل صلة إذ يقول الله تعالى في سورة براءة : « يا أيها

الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره .

ألا ترى كيف جعل حب الله ورسوله والإقبال على الجهاد في سبيله - وتلك مظاهر الوحدة الاسلامية - فوق كل حب ، يُترك من أجله حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة مما تجمعهم رابطة النسب أو الجنس ، ويترك لأجلها كذلك حب المساكن الذي هو مظهر رابطة الوطن ، وحب الأموال والتجارة الذي هو مظهر الرابطة الاقتصادية ، وحب المادة والمال .

ولو أن المسلمين آمنوا بهذه الآية الإيمان الذي يظهر أثره في نفوسهم وأعمالهم وآمنوا كذلك بما نزل في التفرق بسبب اختلاف الدين مثل قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » ، ما فرقّت بينهم المذاهب الدينية ولا الأهواء السياسية ، ولا العصبيات الجنسية ، ولا تباعد الأمكنة ، ولا اختلاف الأقطار ، ولكنهم إذ تركوا دينهم تفرقوا شيعاً وتجزؤوا أمماً ، فزالت قوتهم ، وذهبت ريحهم ، واستولى عليهم غيرهم ولن يصلح أمرهم إلا برجعهم إلى كتابهم واستمسكهم بوحدتهم ، ففيها وجودهم واسترداد قوتهم وعزتهم . والله العزة والرسوله للبؤمنين ؟

## فقه وأدب :

### حماية الحيوان في شريعة القرآن<sup>(١)</sup>

لحضرة الكاتب الأستاذ توفيق الفكيكي المحامي ببغداد

رحمة الحيوان : في الكتاب ، في السنة ، في سيرة الصحابة ، في نظر الفقهاء وأهل الحديث ، في مجلة الأحكام ، في نظام الحسبة ، أخذ الثأر لحق جوار الحيوان في الجاهلية والإسلام ، حماسة زياد بن سلمى - الأعجم - رد على الدكتور أحمد أمين ومقلديه ، حماية الحيوان من النظرة العربية ، ودليل على الرحمة الإسلامية .

من أبرز الصفات التي اتصفت بها شريعة الاسلام الغراء ، صفة الرحمة ، فلا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر الرحمة والبشارة للرحماء بحسن المآب ، كما كانت الرحمة من أعظم صفات الكمال المحمدي حيث وصف الله تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم بها بقوله سبحانه : ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رموف رحيم ) وهذه الدعوات الشريفة من أهم السجاياء الخلقية التي تحلى بها أشرف خلقه ، قد ارتكزت على أساس الرحمة وقوة الوجدان العام بالرفقة والركة ، فكانت رسالته صلى الله عليه وسلم رحمة للخلق أجمعين (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقد شملت هذه الرحمة كل من يمشى من حيوان على وجه الأرض ، وكل طائر طار في الجو وسبح في الماء .

(١) سيعرف القارئ الكريم الباعث على تحرير هذا المقال في خاتمته .

ومعنى الرحمة على ما جاء في كتاب « مفردات القرآن » ، للعلامة التحرير الراغب الأصفهاني ، هو رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، وعلى هذا قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ذاكرًا ربه إنه لما خلق الرَّحِمَ قال لها : ( أنا الرحمن وأنت الرَّحِمُ ، شققت اسمك من اسمي ، فمن وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته ) فالرحمة منطوية على معنيين : الرقة والإحسان ، فركز تعالى في طبائع الخلق الرقة وتفرد بالإحسان ، كما أن لفظ الرحم من الرحمة فعناه الموجود في الناس من المعنى الموجود لله تعالى ، فتناسب معنيهما تناسب لفظيهما ، وقوله تعالى : ( ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ) تنبيهه إلى أنها في الدنيا عامة للؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين .

لقد صدع الكتاب العزيز بحماية الحيوان وعدم ظله ومعاملته بالرفق والراقة والرحمة ، من ذلك قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم » قال مجاهد رضى الله عنه أى أنها أصناف مصنفة تعرف باسمائها و « أمثالكم » بمعنى أشباهكم في إبداع الله لهاها وخلقها لها ، كما أبدع وأحسن صوركم ، وقيل إنما مثلت الأمم من غير الناس بالناس في الحاجة إلى مدبر يدبرهم في أغذيتهم وأكلهم ولباسهم ونومهم ويقظتهم وهدايتهم إلى مرادهم ، كما هدى الآدميين في أحوالهم ومصالحهم ، وأنهم يموتون ويمحشرون كما تموتون وتحشرون . فأصناف العجاوات في الدواب والطيور أشباهكم في الطبائع والغرائز ، وبين سبحانه وتعالى بهذه الآية سر الرحمة بأنه لا يجوز للعباد أن يتعدوا في ظلم البهائم من أنواع الحيوانات مطلقا ، فإن الله خالقها والمتصف لها (١) .

وقال أحد الأفاضل المعاصرين (٢) : فما من حيوان ذى كبدٍ رطبة إلا وفيه الإحسان إليه والرحمة به أجر ، ورطوبة الكبد كناية عن الحياة ، إذ مظهر الحياة رطوبة الأكباد . وقد توسع بعضهم في معنى الرحمة وعموم حكمها لكل حيوان

(١) عن تفسير مجمع البيان للطبري من علماء الإمامية .

(٢) هو فضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم الجبالى أحد كبار علماء الأزهر ..



فقال حتى هذه الفواسق المؤذية مع الأمر بقتلها ، ينبغي ألا تقتل بالعطش وألا تقتل صبراً ، بل ينبغي لإحسان قتلها ، فلو أمكن الجمع بين إروائها وقتلها كان في إروائها ثواب كما يقتل من يستحق القتل من الآدميين بعد إروائه إن كان ظمآن ، وكما تسقى الشاة قبل ذبحها عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتل » وقد نهى عن المثلة في القتل ، ويتجلى لك الوعيد بأشد مظاهره في قوله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض (١) » فهذه هي الدعوة القرآنية المباركة الداعية إلى الرفق والرحمة بأصناف البهائم وجميع أنواع الحيوان التي تحس بمرارة الألم الأليم ، وتشعر بلذة الراحة والنعيم .

#### في السنة :

لقد مدح سبحانه وتعالى رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » وكان الرفق من شمائله العالية ، وفضيلة من فضائل رسالته السامية ، وهو من أكبر مظاهر خلقه العظيم « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » لهذا نراه صلى الله عليه وسلم قد حجب للمسلمين الرفق لأنه روح الترية المحمدية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان الرفق خلقاً يرى ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه » .

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل شيء قفل وقفل الإيمان الرفق » وعنه أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » وقال صلى الله عليه وسلم : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير

(١) خشاش الأرض هوامها وحيواناتها الصغيرة ،

الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة ، وعن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه ، وقد ورد في الأثر « إن الله رحيم وإنما يرحم من عباده الرحماء ، وقال بعض الحكماء : إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وأمعنت السنة النبوية الكريمة في الإيصال بالحيوان والرفق المتأهى بالبهائم والرحمة العظيمة بالمجاءات ومن سيرته الشريفة في ذلك :

(١) مر صلى الله عليه وآله وسلم على قوم وقوف على ظهور دوابهم ورواحلهم يتنازعون الأحاديث . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تتخذوها كراسى لأحاديثكم في الطرق والأسواق فربّ مركوب خير من راكبه ، فنهى صلى الله عليه وسلم أن يجعل الحيوان المتصرف ، بمنزلة الجراد الثابت ، والشئ الثابت .

(٢) وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجتكم ، (١) .

(٣) وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه (٢) قال : كان أحبّ ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل (٣) فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه (٤) فسكت فقال : من ربّ

(١) أخرجه أبو داود (٢) أخرجه أبو داود (٣) حائش النخل أو الشجر : ما اجتمع منه . (٤) ذفرى البعير : الموضع الذى يقرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران ، وهما ذفريان .

هذا الجمل ؟ فقال قتي من الأنصار : هو لي يا رسول الله . فقال : « افلا تتق الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ فإنه شكاً إلى أنك تجيعه وتدبّه » (١) .

(٤) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرية نمل قد أحرقت ، فقال : من أحرق هذه ؟ فقال من معه : نحن ، قال : ( إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار ) (٢) .

(٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ركبت بعيراً فيه صعوبة فجعلت أردده ، فقال صلى الله عليه وسلم : ( عليك بالرفق ) .

(٦) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فدخل رجل فأخرج يئسز مُحَرَّرَة - وهي ضرب من الطيور أحمر اللون - فجاءت الحمره ترف على رأس الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أيكم فجع هذه ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله أخذت بيضها - وفي رواية الحاكم - أخذت فرخها ، فقال صلى الله عليه وسلم : رده ، رده ، رده ، رحمة لها ) (٣) .

(٧) وفي سنن أبي داود من حديث عامر قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل رجل عليه كساء ، وفي يده شيء قد لف عليه طرف كسائه فقال : يا رسول الله إني لما رأيته ، أقبلت ففررت بغية شجر ، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر ، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي ، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي ، فكشفت لها عنهن ، فوقع عليهن فلفقتهن معهن ، وهاهن فيه معي ، فقال صلى الله عليه وسلم : ضعهن عنك فوضعتن ، وأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أتعجبون لرحمة أم الفراخ بفراخها ؟ قالوا : نعم ! يا رسول الله ، قال : فوالذي بعثني نبياً لله أرحم بعباده من أم هؤلاء الأفراخ بفراخها . أرجع بهن حتى حتى تضمنن من حيث أخذتهن ، فرجع بهن وأمن ترفرف عليهن .

(٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) تدبّه : تبعه بكثرة استعماله . (٢) أخرجه أبو داود .

(٣) عن كتاب الحيوان للدميري .

بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ، فلا خفه ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : « فى كل كبدٍ رطبة أجر » .

### من سيرة الصحابة :

وقد اقتدى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرته النبيلة فى الرفق بالحيوانات وحمايتها من الظلم والعنف ، فمن وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إلى عامله على الصدقات : ( فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها فله ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تنفر عنها ، ولا تسومن صاحبها فيها ... ولا توكل بها إلا ناصحاً شقيقاً ، وأميناً حفيظاً غير معنف ولا مجحف ، ولا ملغب ولا متمعب . فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وفصيلها ، ولا يَمْصُرُ (١) لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوباً ، وليعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرفه على اللاغب ، رليستان بالتغيب والظالم (٢) ، وليوردها ماتم به من الغدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض الى جواد الطرق ، وليروّحها فى الساعات ، وليهلها عند التّطاف (٣) والأعشاب ... الخ (٤) .

ومن وصية أبى بكر رضى الله عنه إلى يزيد بن أبى سفيان : « لئى موصيك بخصال : لاتغدر ، ولا تمنل ، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً . ولا تعقرن

(١) المصر : حلب ما فى الضرع جميعه . (٢) الظالم : الذى ظلم أى غمز فى مشيه والنقب ذو النقب ، وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه . (٣) التطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى ، والتطاف : الدلو ، وليلة نطوف يجىء فيها المطر حتى الصباح ، والتطاف : السائل من المسائل . (٤) أعتقد لو كان الدكتور أحمد أمين بك قد اطلع على هذه الوصية الثمينة دون سواها من تعاليم الإسلام لما قال بأن حماية الحيوان فكرة مانوية عند تعلقه على آيات زياد الأعمم .

شاة ولا بعيراً ، إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نحلاً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تقتل  
ولا تجبزن (١) .

وأخرج ابن الجوزي عن المسيب بن دأرم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى  
الله عنه يضرب جمالا ويقول : حملت جملك ما لا يطيق .

وجاء في كتاب الام للامام الشافعي رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب قدم  
مكة فدخل دار الندوة يوم الجمعة وأراد أن يستقرب منها الرواح إلى المسجد  
فألقي رداءه عليا واقف في البيت فوقع عليه طير من هذا الحمام فأطاره ، فانتهرته  
حيّة فقتلته ، فلما صلى الجمعة دخل عليه نافع بن عبد الحرث وعثمان بن عفان ، فقال لهما  
عمر : أحكما عليّ في شيء صنعته اليوم : إني دخلت هذه الدار وأردت أن أستقرب  
منها الرواح إلى المسجد ، فألقيت ردائي على هذا الواقف ، فوقع عليه طير من هذا  
الحمام ، فخشيت أن يلطخه بسلحه ، فأطرته عنه ، فوقع على هذا الواقف الآخر ، فانتهرته  
حيّة فقتلته ، فوجدت في نفسي بأني أطرته من منزلة كان فيها آمنا إلى موقعة كان فيها  
حتفه ، فقال نافع لعثمان كيف : ترى في عز ثنية عفراء نحكم بها على أمير المؤمنين ؟  
قال لهما عمر : أرى ذلك فأمر بها وذبحها .

في أحكام الفقهاء وأهل الحديث :

ذهب فقهاء الأمة عليهم الرحمة إلى أبعد حدود النظر فيما يتعلق بالرفق  
بالحيوان مما لم نجد في الشرائع السماوية الأخرى ولا في الشرائع الوضعية غربية  
كانت أو شرقية ، فقد قرروا قواعد مهمة ، وفرعوا مسائل دقيقة لا يحصرها العدد ،  
لم تصل بعد إليها أذهان فقهاء القانون في العصر الحاضر ، ولم تخطر على بال مؤسسي  
جمعيات حماية الحيوان من أبناء المدنية الحديثة في زمن الذرة ، وإليك بعض  
تلك المسائل :

(١) « لا تقتل » من الغلول وهو الحيانة عامة ، وخص بعضهم به الحيانة في الفئ ، وللمن .  
ومنه « وما كان لبني أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة » وجيز له من المال جيرة  
- بوزن كتب - : قطع له منه قطعة .

(١) يجب النفقة للبهائم المملوكة سواء أكانت مأكولة اللحم أم لا ، فإن امتنع صاحبها أجبره الحاكم على بيعها ، ولو كان لها ولد ولم يفضل عنه من لبنها لم يجر أخذ شيء من لبنها ، ولو أجذبت الأرض وجب علف البهائم ، ولو امتنع مالكها أجبر على بيعها (١) .

(٢) لو أخذ أحد طعام لإنسان في بركة أو مكان لا يقدر فيه على طعام أو شراب فهلكت دابته ضمن (٢) ، ولو اقتنى أحد سنوراً فأكل فراخ الناس ضمن ما ي تلفه (٢) .

(٣) وذكر في ( باب كراه الإبل والدواب ) من كتاب الام للشافعي رضي الله عنه ما يأتي :

ينبغي للسلطان أن يوكل رجلاً من أهل الرقة بأن يعلف الدابة ويحسب ذلك على رب الدابة والابل ، وإن ضاق ذلك فلم يوجد أحد غير الراكب ، يؤمر الراكب بالعلف ويستوفى قيمته من صاحبها .

وفي بيض النعامة يصيبه المحرم ، قال عطاء رحمه الله : إن أصبت بيض نعامة وأنت لاتدرى ، غرمتها تعظم بذلك حرمة الله تعالى . (قال الشافعي) : وبهذا نقول لأن بيضة من الصيد جزء منه لأنها تكون صيدا ، ولا أعلم في هذا مخالفاً ، لأن هذا اتلاف قياساً على قتل الخطأ .

(٤) وقال أبو حنيفة رحمه الله : لو ضرب الراعي شاة ففقا عينها أو كسر رجلها ضمن ، وعند أبي يوسف ومحمد : لو ساق الأجير المشترك الأغنام بأن صعد الجبل أو مكاناً مرتفعاً فتردى منها فعضب يضمن لامكان التحرز ، وكذا لو ساقها فعضبت منها شاة بسيافه بأن استعجل عليها فعثرت فانكسرت رجلها أو اندق عنقها فعليه الضمان بالاتفاق ، وكذا الحكم في ( البقار ) لو ساق البقر فتناطحت فقتل بعضها بعضاً ، أو وطئ بعضها بعضاً في سوقه ، أو استعجلها في السوق فنفرت بقره منها فكسرت رجلها ، أو ساقها في الماء لتشرب ففرقت ، ضمن .

(٥) إذا ركب الدابة وقد لبس من الثياب أكثر مما كان عليه حين استأجرها يضمن بقدر ما زاد من لباسه ، ومن أكثرى حمارا بسرج فزعه عنه السرج وأسرجه بسرج زائد في الوزن فيئثم يضمن عند أبي حنيفة ، وكذا إذا كبح الدابة بلجامها أو ضربها فعطيت ، ضمن عنده أيضاً .

(٦) لو قفا أحد عيني الطير أو الكلب أو السنور يضمن لما انتقص من قيمته كالشاة والجل ، وعن أبي يوسف يضمن النقصان في جميع البهائم .

(٧) البعير السكران إذا قصد إنساناً قتلته المصُول عليه دفعاً لشره يضمن قيمته ، وكذا الحكم في تف ريش الطائر فيغرم بقدر ما نقص منه (١) ويفديه (٢) إذا مات من تف الريش ، أو يصير طيرانه ممتعا .

هذا وقد بلغ الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن رجلا وراء النهر يروى أحاديث ثلاثة ، فرحل الإمام أحمد إليه فلما ورد عليه وجده يطعم كلباً فسلم عليه أحمد فرد عليه السلام ، ثم اشتغل باطعام الكلب ولم يقبل على الإمام ، فوجد الإمام في نفسه شيئاً ، إذ أقبل الرجل على الكلب ولم يلتفت إليه ، فلما فرغ الرجل من إطعامه الكلب ، التفت إلى الامام وقال : لعلك وجدت في نفسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك ، قال : نعم ! فقال : حدثني الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : د من قطع رجاء من ارتجاء قطع الله رجاءه يوم القيامة فلن يلج الجنة ، ثم قال الرجل : أرضنا هذه ليست بها كلاب ، وقد قصدني هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه ! فقال الامام أحمد يكفيني هذا الحديث .

وجاء في طبقات ابن السبكي رحمه الله أن الشيخ أحمد الرفاعي رضى الله عنه لما نام يوم الجمعة جاء الهر فنام على كفه ، فاستيقظ وقت الصلاة فقطع كفه ولم يزعمه فلما فرغ من صلاته وذهب الهر ، أعاد كفه إلى موضعه .

(١) من أراد التفصيل فليراجع باب الضمان من كتب الفقه فيرى العجب العجيب من رحمة الإسلام بالحيوان . (٢) إذا كان محرماً في الحج .

هذا وقد نصت المادة ( ١٢٩٥ ) من مجلة الأحكام - القانون المدني العراقي - على أن شرط الصيد أن يكون ممتعاً عن الإنسان بقدرته على الفرار برجليه أو جناحيه ، فإن صار إلى حال لا يقدر معها على الفرار والخلاص كغزال مثلاً وقع في بئر ، فيكون قد خرج عن حال الصيدية .

### في نظام الحسية :

كان من عمل المحتسب النظر على أرباب البهائم للمحافظة عليها من جملة واجباته أن يأخذ أرباب البهائم بعلوفتها إذا قصرُوا ، والألا يستعملوها فيما لا تطبيق ، وكذلك ينظر في الضوال ، فلن قصّر واجدها فيها ؛ بعده مسئولاً عنها ويكون ضامناً للضالة ، ومن ذلك : إذا قدم البيطار إلى معالجة الدواب بغير خبرة فيسبب هلاك الدابة أو عطبها يلزمه أرش ما نقص من قيمتها من طريق الشرع ، ويعزره المحتسب من طريق السياسة . ويقول القرشي في كتابه ( الحسبة في الاسلام ) : وينبغي للبيطار أن يعتبر حافر الفرس والدابة قبل تقليمه ، فإن كان أحنف أو مائلاً نسب في الجنب الآخر قدراً يحصل به الاعتدال ، وإن كانت يد الدابة قائمة جعل المسامير المؤخرة صناعاً والمقدمة كباراً . وإن كانت يدها بالضد من ذلك صغر المقدمة وكبر المؤخرة ، فلا يزال في نفس الحافر فتعشم الدابة ، ولا ترخي المسامير فيتحرك العمل ويدخل تحته الحصى والرمل وترهص الدابة ، ولا يشد الحافر بقوة فتزمن الدابة .

وفي الأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي : يمنع من خصاء البهائم ويؤدب عليه ، وقال الامام أحمد في رواية حرب : وقد سئل عن خصاء الدواب والغنم للسمن وغير ذلك فكرهه ، إلا أن يخاف عناضه .

### أخذ الثأر لحق جوار الحيوان في الجاهلية والاسلام :

كان العرب قبل الاسلام قد قدست الحيوان وعبدته ، ومن آثار ذلك عندهم أنهم يجتنبون قتله ظناً منهم أنهم لو قتلوه لجوزوا به ، وكان كليب قد عرف واشتهر في الجاهلية بحامي الصيد ، وكان يقول صيد ناحية كذا وكذا في جوارى فلا يصيد أحداً منه شيئاً ، حتى ضرب به المثل في العز فقيل ( أعز من كليب وائل ) وليس



على الأرض بكرى أو تغلبى أجار رجلا أو بعيرا إلا يذنه ، ولا يحمى حمى إلا بأمره ، وكان إذا حمى حمى لا يقرب ، وقصة الناقة (سراب) ، بينه وبين ابن عمه جساس مشهورة في تاريخ الأدب العربى ، وخلاصتها أن كليباً كان يخرج ويدور في حماه فإذا هو بحمرة على بيض لها ، فلما نظرت إليه صرصرت وخفقت بجناحيها فقال : أمنَ روعك ، أنت وبيضك في ذمتى ، ثم قال :

يا لك من حمرة في معمرى      خلا لك الجو فيضى واصفرى  
وتقرى ما شئت أن تنقرى

ثم خرج بعد ذلك يطوف فإذا هو بأثر بعير لا يعرفه قد وطئ البيض فشده فرمى كليب فضيل ناقة البسوس لقاء شذخ بيض الحمرة ، قتلته وكان ذلك سبب حرب البسوس بين أبناء الأعمام ، وفى ذلك يقول جساس (١) :

إنما جارى لعمرى	فاعلموا أدنى عيالى
وأرى للجار حقاً	كيميئى من شمالي
وأرى ناقة جارى	فاعلموا مثل جمالى
إن للجار علينا	دفع ضم بالعوالى
فألقى اللوم مهلاً	دون عرض الجار مالى
سأؤدى حق جارى	ويدى رهن مقالى
وأرى الموت فيبقى	لؤمه عند رجالى

وقد اشتهر فى الجاهلية كثير من رجالات العرب وساداتهم بحماية الحيوان ، حتى كان ثور بن شحمة ، وهو أحد أشرافهم يسمى : « بمجير الطير » فكان الطير لا يثار ولا يصاد بأرضه لجواره له (٢) ، ولما جاء الاسلام أقر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذه العادة العربية الحسنة ، وهى من الأخلاق الحميدة الرفيعة ، وحث عليه السلام على التمسك بأهدابها ، ومن أبلغ ما يؤثر من الزجر عن إيذاء

(١) الأغاني ج : ٤ ص ١٤٠ - ١٥٠ و ج ٥ ص ١٦٠ - ١٨٠

(٢) عن كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

الجار قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أنت رميت كلب جارك فقد آذيته ، فتأدب المسلمون بهذا الأدب السامى ، وجروا على سنته .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (١) » .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » (٢) .

### حماية زياد الأعمى :

تَعَنَّى أَنْتَ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي      وَذِمَّةُ وَالِدِي إِنْ لَمْ تَطَارِي  
وَيَسَّكَ أَصْلَحِيهِ وَلَا تَخَافِي      عَلَى صَغَرِ مَرْغَبَةٍ صَغَارِ (٣)  
فَانْكَ كُلَّمَا غَنَيْتَ صَوْتًا      ذَكَرْتَ أَحْبَبْتِي وَذَكَرْتَ دَارِي  
فَإِمَّا يَقْتُلُوكَ طَلَبْتَ ثَارًا      لَهُ نَبَأٌ لَأَنَّكَ فِي جَوَارِي

وكان الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك قد علق على هذه الآيات فى كتابه  
فجر الإسلام بما يأتى :

« ... وذكروا أن حبيب بن المهلب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته فاستعدى زياد عليه المهلب فحكم له بدية جارته . أفلمست ترى معى أن هذا الشعور على هذا النحو جديد لم أعرفه للعرب من قبل ؟ ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان تم استدراك فى الحاشية فقال : « لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لأنه فى جواره ، إذ يظهر أن هذا كان عند العرب فى الجاهلية ولكن أعنى تجسيم هذا المعنى حيث يستعدى الوالى بطلب الدية » .

(١) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

(٢) الفرسن : خف البعير ، وقد استعير للشاة فسمى ظلفها به .

(٣) الصغرة - بكسر الصاد - : أصغر الأولاد يقال : هو صغرة أبويه أو صغرة

أولاد أبويه ، والجمع صغر - بكسر أوله وفتح ثانيه . وزغب الفرخ - بتشديد النين على صيغة الماضى - : نبت زغبه أى ريشه فهو زغب كعذر ، ومنزغب .

وقد قلّدتُ رأيه هذا أدبية عراقية (١) ورجحت قوله باتهام الشاعر زياد بالمانوية حتى عدته من جراء ذلك من جملة شعراء الشعوبية أما تاريخ حياة هذا الشاعر وسيرته وجهاده في سبيل الاسلام وخدمة العروبة تحت لواء القائد عثمان بن أبي العاص وموسى الأشعري في فتح (اصطخر) وغيرها في بلاد فارس فتدحض حجة المتهمين له بالمانوية والشعوبية ، وهو القائل في - أمير بن أحمد اليشكري - لما استخلف على جيش سجستان حين اضطرب أمر عثمان بن أبي العاص فيها .

لو لا أميرٌ هلكت يشكر ويشكر كلّك على كل حال (٢)

وقد عده ابن سلام في الطبقة السادسة من شعراء الإسلام ، وما يفند هذه المزاعم في حقه أيضا قصته مع كعب الأشعري شاعر الأزدي عند هجومه (عبد القيس) قبيلة - زياد - بقصيدته التي مطلعها :

إني وإن كنت فرع الأزدي قد علموا أخزى إذا قيل عبد القيس أخوالى  
فلما بلغ زياداً غضب وقال : يا عجبا للعبد ابن العبد ابن الحيتان والسرطان  
يقول هذا في عبد القيس وهو يعلم موضعي فيهم ، والله لأدعنه غرضاً لكل لسان  
ثم قال :

هل تسمع الأزدي ما يقال لها في ساحة الدار أم بها صمم  
اختن القوم بعد ما هرموا واستعربوا ضلة وهم عجم

فشكاه كعب إلى المهلب وأنشده هذين البيتين فقال له المهلب . أنت أسمعنا هذا وأطلقت لسانه فينا وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد ، فاكفف عن ذكره ، ثم دعا بزياد فعاتبه فقال . أيها الأمير . اسمع ما قال فيّ وفي قومي ، فإن كنتُ ظلمته فانتصر ، وإلا فالحجة عليه ، ولا حجة على امرئ انتصر لنفسه وحسبه وعشيرته .

وله شعر كثير في الدفاع عن شرف عشيرته عبد القيس وأحسابها التي يعتز

(١) هي السيدة عائكة بنت عدنان السكري .

(٢) معجم الأدباء ج : ١١ صحيفة : ١٦٨ .

بالانتساب إليها ، ويفخر بموضعه منها ، ولا مجال لذكره هنا . وقال صاحب الأغاني في ترجمته هو زياد بن سليمان (١) مولى عبد القيس أحد بني عامر بن الحرث ثم أحد بني مالك بن عامر . وعن محمد بن العباس اليزيدي كان ينزل اصطخر فغلبت عليه العجبة على لسانه فقيل له الأعجم .

ولو كان على الحال الذي اتهمه به الأستاذ أحمد أمين بك ومقلدوه لاشتهر به بين أبناء عصره ، بل بالعكس كانت مواقفه منهم تدلنا على خلاف ذلك . كما رأينا في مجهوه كعبا الاشقرى بقوله . ( واستعربوا ضلة وهم عجم ) وكما في حكاية الأغاني من تهيب الفرزدق ذلك الشاعر الفحل هجاء عبد القيس لمقام زياد فيهم ، وقد بعث إليه الفرزدق : لا أهجو قوماً أنت منهم أبدا . فلو كان الفرزدق ، وهو سيد شعراء عصره ، يرى فيه ما يراه أدباء عصرنا ، من أحاسيس المانوية والنزعات الشعوية ، لما سكنت عنه وتركه أبداً بعد أن هجاء ذلك الهجاء القاسى . بل لخطم عظامه ودقها دقا ، وفضح ما نويته ، وندد بشعوبيته بغير واحدة من فرائده وخرائده الجسان ، وتركه غرضا لكل لسان .

هذا وإذا رجعنا إلى أبيات زياد في (حامته) نجد أن تجسيم المعنى فيها والذي لم يعرفه الأستاذ أحمد أمين بك للعرب من قبل ، قد أخذه زياد من معاني شعر جساس الذي قاله في - سراب - ناقة سعد الجرمي الذي نزل بجوار البسوس خالة جساس بن مرة ، بل إن المعاني قد تجسدت في أبيات جساس وكليب بصورة لم تخطر على بال الشاعر زياد الأعجم ، ولم يتصورها خياله ، وتدركه شاعريته بالرغم من تفاوت العصر وتبدل ألوان الحياة ، وتغير أساليب العيش التي لها الأثر الفعال في مشاعر الشعراء وأخيلتهم وانفعالاتهم ، كما لا يخفى على أدباء عصرنا الألباء .

ثم لا ندري ما هو نوع الاختراع والإبداع الشعري في تجسيم المعنى في أبيات زياد ، الذي أبهر الدكتور أحمد أمين بك ؟ أما قول زياد .

(١) وفي معجم الأدباء : هو زياد بن سلمى بن عبد القيس أبو أمانة العبدي المعروف بزياد الأعجم .

فإما يقتلوك طلبت نأراً . له نبأ لأنك في جوارى  
فإنه لم يتضمن إلا علة الجوار لطلب نأر حمامته لا أقل ولا أكثر ، بينما نرى  
في شعر جساس أكثر من علة لأخذ نأر (سراب) وهو فوق ذلك لم تحدّثه نفسه  
بأخذ الدنانير عوض نأره مهما بلغت كما فعل زياد ، وأنه لم ير كفناً لدم الناقة  
- سراب - إلا مهجة ابن عمه « كليب » ، حامى حتى تغلب ، وسيد ربيعة كلها ، حتى  
طحنت الحرب جماجم لها ميم بكر وتغلب ، وقد استعرت نيرانها بين أبناء الأعمام  
أربعين سنة ، فكان - دم كليب - مثلاً من الأمثال .

فهل ياترى كان كليب وجساس وثور بن شحمة مجير الطير في الجاهلية على  
مذهب المانوية لحمايتهم الحيوان ؟ وهل كانت تعاليم الاسلام العالية في رحمة البهائم  
وببيض الطيور ، وكذلك وصايا الصحابة الكرام ، وأحكام فقهاء الشريعة وأهل  
الحديث من هذه الأمة ، ونظام الحسبة في الاسلام بشأن الرفق بالعجاوات ،  
كل ذلك مستمداً من المانوية الكاذبة ؟ كما وصفها المتنبي الحكيم .

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تخبّر أن المانوية تكذب  
أليس من الأرجح والأفضل ، القول بأن زياداً الأعجم ذلك الشاعر الإسلامي  
العربي المجاهد في سبيل الله ، كان قد استمد خياله الشعري في أبياته من التقاليد  
العربية الأصلية ، وتعاليم الشريعة المحمدية السمحة ، من قبل أن تشيع الفاحشة  
المانوية في الوسط الإسلامي بأجيال . وما اتهام شعر زياد بالمسحة المانوية من  
قبل الأديب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك ومقلديه ، إلا كاتهام الجاحظ للأصمعي  
بالمانوية ، حين اختلفا في مسألة ( القدر ) .

وبعد فإن ما بسطناه من الكلام المفصل يكفي للبرهان على أن حماية الحيوان  
كانت من الفطرة العربية السليمة ، ومصدق الرحمة الإسلامية قبل أن تعرف  
المانوية الملحدة في ديار العرب والمسلمين ، وفي هذا مقنع لرائد الحق والإنصاف .

## هَلْ تَعَبَدْنَا الشَّرْعَ بِالْهَيْزَى فِي حَالٍ يَتْرَكُ فِيهَا الْفَسَادَ

لحضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد جواد مغنیه  
المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

نحن نعرف فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء دللتنا عليه أبحاثه القيمة التي يتمثل فيها علمه الذي لا ينضب له معين ، وفهمه لأصول الإسلام وفروع الدين ، واجتهاده الذي ينتقل بالقارىء خطوة خطوة من سر إلى سر من أسرار التشريع المختلفة الألوان والتي لا يحصيها عد ولا بيان .

يعبر عن ذلك كله بأسلوب حديث سليم ، وقد يستدعيه بعض الموضوعات إلى الإفاضة والتطويل بالنقل والرد نقضا وحللاً ، فيظن القارىء أنه في غنى عن ذلك .

وعلى أى الأحوال فقد فتحت أبحاثه الدينية أبواباً لقادة الدين والرجوع بهم إلى الدرس والتفكير ، فله منهم الشكر ومن الله الاجر .

نشرت رسالة الاسلام الغراء في العدد ٤ م / ١ لفضيلته جواباً عن استفتاء وجه إلى علماء الأزهر عن جواز استبدال النقد بالهدى في الحج ، وقد أوحى إلىّ جواب فضيلته بفكرة حول الموضوع .

وهي : هل الشارع المعصوم عن العبث تعبد حجاج بيته الحرام بالذبح وإراقة الدماء في حالات خاصة مع فرض أن الذبيحة في تلك الحالات لا بد أن تُتَطَمَّرَ في الأرض أو تترك للتعفن ، وأن الحاج يذبح بقصد التقرب إلى الله وامثال أمره

المتعلق بإراقة الدم ، وأنه عازم عزمًا أكيدا قبل الذبح وحيثه على طمر ديبخته أو إحراقها كما يجرى ذلك في الحج كل عام ، فيذبح الحاج ويدفع نقودا لمن يقبل الهدى ويدفنه ؟

حول هذه المسألة فحسب يدور كلامي في هذا المقام .

أما لو أمكن بالتقديم أو التأخير شرعا عن تلك الحالات الخاصة ، أو أمكن تجفيف اللحم ، أو استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظه وإدخاره في غلاف يدرأ عنه الفساد ؛ فلا ينبغي لأحد الشك والتوقف في الجواز لوضوحه وبداهته ، حيث يتحقق بذلك امثال التكليف والفائدة المطلوبة ، وبالجمله إن ما نتكلم عنه هو الانحصار وعدم وجود أية مندوحة عن الطمر أو الإحراق .

لايسوغ لإنسان أن يأتي بعمل ما ، قاصدا به القرب من الله سبحانه ، بقصد أنه تعالى طلب الفعل منه وتعبده به ، مالم يعلم بإحدى الطرق المشروعة أنه مأثور به من قبل الله سبحانه ، وإلا كان من التشريع المحرم شرعا وعقلا . وبعبارة ثانية إن العبادة من الأمور التوقيفية ويشترط في صحتها قصد امثال أمره تعالى المتعلق بالفعل المتقرب به إليه . فاذا لم يكن أمر فلا عبادة ولا تعبد .

وثبت أوامر الله وأحكامه بالكتاب أو السنة قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو بالاجماع ، أما الكتاب فليس في آية من آياته نص صريح على جواز أو وجوب إراقة الدماء في الحج المستلزمة ترك اللحوم للفساد ، ولم يرد في رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أو فعل ذلك أو أقر أحداً عليه ، فسياق القرآن والأحاديث واحد من وجوب الهدى في مكان وزمان معينين .

ومن المقرر أن الشارع لم يتخذ لبيان أحكامه سبيلا غير السبيل التي سلكها الناس في التفهيم والتفهيم ، فقد جرت عادته في التخاطب على طريقتهم لأنه واحد منهم ، فتي أراد تفهيم المكلفين حكما من الأحكام خاطبهم بلفظ ظاهر عندهم بما يريد من المعاني ، وهذا الظهور الذي لا ينحصر سببه بالوضع ومعاني الحقيقة فقد يكون

ناشئاً عن القرائن المقالية أو الحالية ، وقد يكون سببه كثرة استعمال اللفظ في بعض أفراد الكلى الذى وضع له أولاً كالدابة فانها لكل ما دب من الحيوان ثم غلب على ما يركب ويحمل .

وظهور الكلام فى معناه هو الطريق الصحيح لمعرفة مرادات المتكلمين ، والحجة لهم وعليهم ، فاذا قال السيد - مثلاً - لخدمته اشتر لنا لحماً ولم يبين نوع اللحم فعاد الخادم من دون لحم لأنه لم يجد لحم ضأن فلا يحق للسيد لومه وتوبيخه لأنه لم يأت به بدجاجة أو إوزة ، كما لا يحق للخادم أن يشتري دجاجة أو إوزة ، محتجاً بأن الدجاجة لحم ، فقير الضأن يحتاج إلى زيادة فى البيان ، وحيث لم يبين فقد أراد السيد الضأن خاصة ، لأنه المفهوم من الكلام دون سواء ، والمفهوم من وجوب الهدى أنه الذى تعرف بين الناس لإمكان الأكل والإطعام منه ، فلسان الدليل الذى دل على وجوبه لكسان قولك : ضح ، فإن الناس تفهم من هذا الخطاب وجوب الاضحية حيث يمكن الأكل والإطعام ، أما التعبد بإراقة الدماء على كل حال فبعيد عن الأذهان تحتاج إرادته إلى زيادة فى البيان ، ولهذا يتساءل الناس مستغربين ! هل أراد الشارع الهدى فى حال ضياع لحمه وطمره فى بطن الأرض ؟ والحقيقة أن الشارع لم يرد ذلك ولو أراد لبين فى قول أو فعل أو تقرير بل إن قوله تعالى : « فاكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » هو تفسير لمطلوبه ، وأنه أراد الهدى حيث يمكن الانتفاع به ، فيجرى مجرى قول السيد لخدمته موضحاً اشتر لحم غنم ، ومجرد صدق اسم الهدى على الحالة المفروضة لا يثبت حكم الشرع ، لأن الاستعمال أعم من الظهور الكاشف عن المراد ، والعام لا يثبت به الخاص ، ولو أصر لإنسان على أن وجوب الهدى فى الآيات والروايات يشمل صورة عدم الانتفاع باللحم للزم أن يقول أن الهدى مع عدم الانتفاع مجزئ ، يحصل به امتثال التكليف الشرعى حتى مع وجود المندوحة وإمكان الانتفاع ، ولا قائل بذلك من الأولين والآخرين .

ولا تنهى مما قدمته بين يدي القارىء ، يشعر بالاجتهاد الذى يفتح باب الشر والفساد ، وإنما هو تفسير للنص ، تمتضيه الصنعة السليمة ، وأصول المخاطبات .



أما الإجماع فقد أوجب العلماء الهدى كما أوجبه الآيات والروايات من دون تعرض لحكم الذبائح التى يترك لحما للفساد ، وسكوتهم لا يدل على الترخيص ولا على المنع ، على أن المنقول من الإجماع على لسان فقيه من الفقهاء ليس بحجة ، والمحصل الذى يحصله من استقراء فتاوى الفقهاء واحدا فواحدا . هذا النحو من الإجماع أحيط بقيوده جعلته نادر الوجود ، وبعد تمامه وتوفر الطارق لوجوده ذكر له الأصوليون شرطا يسقطه عن الاعتبار فى — الغالب — وهو أنه لو علم مستند الإجماع والأصل الذى اعتمد عليه المجمعون ، يكون مستندهم هو الدليل الوحيد فينظر مستقلا ويعمل بما يقتضيه ، ونحن نعلم أن الفقهاء اعتمدوا فى وجوب الهدى على ما جاء فى الكتاب والسنة ، وقد علمت عدم دلالتها على جواز الذبح بقصد امتثال الأمر إذا كان الذبح علة تامة وسببا كافيا لتعفن اللحوم وفسادها .

أما جواز استبدال النقد بالهدى — فى هذه الحال — أو يكون حكمها حكم خلو الهدى ، فليس ذلك من غرضنا فى هذا المقام .

وإنتى أختم كلامى بما افتتحته به من الشكر لفضيلة العلامة الشيخ محمود شلتوت ، والإكبار لعلمه الجلم الذى يبعث النشاط ويحمل على الدرس والتفكير .  
والله سبحانه المسئول أن يديمه داعيا للدين ، ونصيرا للإسلام .

### رسالة الاسلام :

يبدو أنه لا خلاف بين الأستاذين الجليلين ، أو أن الخلاف بينهما على غير الحكم الفقهى ، من أنه : هل الحاصل فعلا هو تكديس اللحوم وعدم استطاعة الاستفادة منها وضرورة طمرها أو إحراقها أو تركها لتعفن ؟ .

بيان ذلك أن الكلام يرجع إلى أمور :

(١) يرى فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت : أن إراقة الدم نوع من القرية مقصود عينا فى بعض الحالات ، لا يفتى عنه التصديق الذى هو نوع آخر من القرب ،

وإذن فلا يجوز التفكير في استبدال النقد بالهدى أو الأضاحى التى طلبها الشارع بذاتها إقامة للتصدق بثمنها مقامها .

ويرى فضيلته أيضا أن ما يبررون به جواز الاستبدال من تكس اللحم وتعفنهما ، أو إحراقها وطمرها ، إنما نشأ — إن صح — من شيئين :

١ — عدم التنظيم ، وهذا يمكن تلافيه بإحدى الوسائل الحديثة فى حفظ اللحم وتجفيفها .

ب — عدم الإمام بأحكام الشرع ، الذى لم يطلب الذبح من كل حاج ، ولا جعله فى خصوص منى ، ولا فى اليوم الأول من أيام النحر ، ولا فرضه عينا فى جميع الحالات . ولو فهم الناس أحكام الشرع لما حدث تكس ولا تعفن أو طمر .

أما فضيلة الشيخ محمد جواد فيُبعد المسألة عن الأحوال العادية ، ويفرضها فى حالة بعينها هى انحصار الأمر فى الطمر أو الإحراق وعدم وجود مندوحة أخرى . ويقول : « أما لو أمكن بالتقديم أو التأخير شرعا عن تلك الحالات الخاصة ، أو أمكن تجفيف اللحم أو استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظه وإدخاره فى غلاف يدرأ عنه الفساد فلا ينبغى لأحد الشك والتوقف فى الجواز . يريد فى وجوب الذبح عينا - لوضوحه وبداهته . حيث يتحقق بذلك امتثال التكليف والفائدة المطلوبة ؛ وبالجمله إن ما نتكلم عنه هو الانحصار وعدم وجود أية مندوحة عن الطمر أو الإحراق ، .

وإذن ففضيلته متفق مع فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت فيما وراء هذه الصورة الفرضية .

(٢) فى هذه الحالة الفرضية لا يقرر فضيلة الشيخ محمد جواد أن الأمر ينتهى إلى جواز الاستبدال لأنه يقول ما نصه : « أما جواز استبدال النقد بالهدى فى هذه الحال ، أو يكون حكمها حكم فاقد الهدى ، فليس ذلك من غرضنا فى هذا المقام . ويشير الأستاذ بذلك إلى أنه لا سبيل إلى القول بالاستبدال فى هذه الحال لأن

الاستبدال إنما يكون بنص من الشارع ولا نص ، فأقصى ما يقال في هذه الحالة هو سقوط الهدى عن المكلف دون بدل ، لأن الشارع إذا أمر بأمر ولم يمكن للمكلف تحصيله ، لم يجز له أن ينتقل إلا إلى أمر قد شرع بدلا منه ، فإن لم يكن له بدل سقط ، وإذن فلا قائل من الشيخين بالاستبدال في أية صورة من الصور وكلاهما لم يبحث ما يترتب على صورة الانحصار المفروضة .

(٣) أثار فضيلة الشيخ محمد جواد موضوعا يرجع إلى أنه : هل يدخل في مفهوم كلمة الهدى إمكان الأكل منه بطريق اللزوم العرفي حتى يقال إن الهدى المطلوب هو الهدى المتعارف بين الناس إمكان الأكل والإطعام منه ؟ وأجاب بنعم ، ورتب على ذلك أن الشارع حين قال أهد أوضح ، كأنه قال أهد أوضح في الحال التي يمكن فيها الانتفاع بالأخية أو الهدى .

والحقيقة أن الهدى هو ما يذبح للتقرب امثالاً لأمر الله . وكونه بحيث يمكن الأكل منه أو الإطعام قد يكون شرطاً في الإجزاء ، مثله كمثل اشتراط ذبحه ذبحاً موافقاً للذكاة الشرعية مثلاً ، وهذا الإمكان ثابت في نفسه وإن لم يوجد من يأكل أو يُطعم ، وليس اللازم نفس الأكل والإطعام ، لكن قد يقال : إذا ترتب على فعل قرينة من القرب ضررٌ ، فهل يرجح جانب الفعل أو جانب الترك ؟ وهذا - إذا سلم الشيخان بتطبيقه في موضوعنا - لا يكون منظوراً فيه إلى تحقق مفهوم الهدى أو عدم تحققه ، ولكن إلى الموازنة بين ما يترتب على الامتثال بالفعل والامتثال بالترك ، ثم يرجع الكلام حينئذ إلى سقوط الهدى عن المكلف أو استبدال النقده ، وهذا ما تركه الشيخان كما قلنا .

هذا وإنا لنشكر فضيلة الأستاذ محمد جواد على أسلوبه الراقى في الجدل والنقاش ؛  
وبالباب بعد مفتوح على الرحب لكل من صاحبي الفضيلة ، ولكل باحث ؟

## أشعار من القلوب

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز محمد عيسى

مدير المجلة

أثنى الحجاجُ بن يوسف النخعي ، بجماعة من أصحاب قَطْرَى بن الفُجاءة ،  
والحرب يومئذ بين الخوارج وبنى أمية مستعرة الأوار ، حامية الوطيس ، قتلهم  
جميعاً إلا رجلاً واحداً ، كانت له يدٌ على الحجاج ، فنَّ عايه من بينهم ، فلما صار  
الرجل بعد فكاكه إلى قَطْرَى ، قال له : عاود قتال عدو الله الحجاج ، فأبى  
الرجل وقال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه      بيد مُقَرٍّ بأنها مولاته !  
ماذا أقول إذا وقفت أمامه      في الصف واحتجَّت له كفلاته  
وتحدَّت الأقوام أن صنائعاً      عُرسَت لدى لخنظلت نخلاته ؟  
أبيات ثلاثة ما أنشدتها يوماً منذ سمعتها إلا أحسست لها روعة ، وأخذتني لها  
نشوة ، ودخلت إلى قلبي كأنها ترد عليه لأول مرة .

هذا رجل خارجي ، وإذا قلت رجل خارجي ، فقد ذكرت تاريخ البسالة  
والإقدام ، وقوة العقيدة والإيمان ، والبلاغة التي تزخر بها كتب العربية ،  
وتجري على ألسنة الرواة مُثلها وأحاديثها ، وطرफها وأعاجيبها ، وكلنا يعرف تاريخ  
الخوارج ، وأنهم على ما فهم من انحراف عن الجادة ، وتنكب لسبيل الحق ،  
قوم مؤمنون بما يرون إيماناً عميقاً ، لا يخالجه شك ، ولا يضعفه وهن ، ولا  
يفسده تردد ، وما ظنك بقوم يرون جميع المؤمنين قد صاروا كفاراً ما عداهم ،

وأن قتالهم فريضة واجبة ، حتى لا يبقى على ظهر الأرض منهم أحد ، أو يعترفوا على أنفسهم بالكفر ثم يعودوا إلى الإيمان ، ولكن هذا الرجل مع عقيدته تلك ، ومع خطورة شأن الحجاج في قتالهم وحربهم ، يلتزم جانب الوفاء ، ويعتصم في شأن الحجاج - الذي أحسن إليه ، وبادله معروفاً بمعروف - بهذا الخلق الكريم ، ويحسن الدفاع عن رأيه ، والتعبير عن حجته بهذا الشعر القوى النابع من قلبه ، الممثل لفطرته الصافية الصادقة ، فتراه ينقل السامع إلى صورة مجسمة ، يقف فيها هو شاهراً سيفه على الحجاج بهذه اليد التي كان في استطاعته - لو شاء - أن يترها ويتر من الوجود صاحبها ، ولكنه وهبها السلامة ، ومنّ عليها وعلى صاحبها بالحياة ، فكانت له بذلك مولاة ، وكان لها سيّداً مالكا ، ثم ينقل سامعه كرامة أخرى إلى صورة أخرى يتخيلها الضمير الحي ، والخلق الكريم : صورة امرئ قد طوق عنقه بجميل ، فيأتى إلى صانع هذا الجميل ، ويجزيه عن إحسانه سوءا ، وعن مروءته وعرفانه غدرا ومُكررا ، فيقف إزاءه في الصف قد تسربل بالخزي ، وتجل بالعار ، ولجلج الكلام في فيه ، فلا يستطيع خطابا ، ولا يحير جوابا ، بينما قرنه قد وقف رافع الرأس ، شاخ الأنف ، في هالة من المروءة والنبيل ، تحتاج له كفلاته ، وتندود عنه مكارمه ، ثم ينقل سامعه أخيرا إلى هذه الصورة الثالثة ، صورة الأقيام وقد قامت مجالسهم وانقضت ، واجتمعت جموعهم وتفرقت ، على حديث هذا الغادر الناكث ، الذي مُغرست لديه نخلات المعروف ، فصيرها معدنه الخبيث حظلا نكدا .

لا شك أن الشاعر بلغ بأبياته الثلاثة أقصى ما يبلغه مصور ماهر ، أو مثّال قدير في هذا المجال ، وأنه إن لم يكن أرضى قائله قطرياً وأحسن الاعتذار إليه ، فقد أرضى الوفاء ، وكرم وجه الخلق ، ودل على معدن في نفسه كريم ، واتمس لنكوصه - إذا سمي هذا نكوصا - عذرا مقبولا مستساغا في شرعة الإنصاف .

ولقد كان هؤلاء الخوارج آية في البيان ، ومفخرة من مفاخر البلاغة العربية ، ذلك بأنهم يقولون من قلوبهم ، ويعبرون عن دخائل نفوسهم ، ويصورون المعاني

التي تتحلج بها صدورهم ، فهم مدفوعون إلى ما يقولون بدوافع ذاتية نفسية غير متكلفة ، لا يصدرون فيها عن رغبة ولا رهبة ، ولا يقدرّون لها مواقعها عند الناس من رضى أو سخط ، والقائل إذا كان بهذه المثابة كان مثله كمثل الطائر الغريد يشدو على فنته ، لأنه أراد أن يشدو ، لا ليطرب السامعين ، ولذلك تجد شعرهم يمتاز بالصدق ، كما يمتاز بالقوة ، ويحسب عند النقاد وجهاً بذة الأدب من شعر الفطرة لا من شعر الصنعة ، وتراه يدور أبداً مع خلال الشرف وصفات النبيل حيثما دارت .

استمع إلى قطرى هذا وهو يقول مخاطباً نفسه :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى  
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تقاعى  
فصبرا في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

فهو لم يزعم كما زعم أهل الفخر بالشجاعة والقوة : أنه لا يعرف الروع ، ولا يعرف الروع إلى نفسه سيلاً ، وإنما اعترف - على الفطرة - بأن نفسه عند ما رأت الأبطال وتصارعهم بالسيوف في حومة الوغى ، طارت شعاعاً ، وهذه عادة بشرية ينصت إلى دواعيها الجبان الفروقة فيستطار لبثه ، فلا يلبث أن يولى الأقران دبره فراراً وهلعاً ، ويقاومها الشجاع الثبت فيصبر على لظاها ، وينهى النفس عن هواها ، ثم يذكر لنا قضية الإيمان الذى ملأ نفسه ، وأسعفه في حجاجها : إيمان المؤمن بأن عمره محدود ، لا زيادة فيه ، إيمان العاقل الذى يعلم أن نيل الخلود غير مستطاع ، وأن الصبر في مجال الموت خير درع لمن أراد الادراغ .

وقطرى هذا هو الذى يقول أيضاً لمبارز له :

ألا أيها الباغي البراز تقرب أساقلك بالموت الذعاف المقتسباً  
فما في تساق الموت في الحرب سبة على شاريه ، فاسقنى منه واشرباً

الذعاف : السم الذى يقتل من ساعته . يقال موت ذعاف ، بالذال المعجمة ،  
والمقشَّب المخلوط من قولهم : قشب الطعام بالسم خلطه به . وتقدير الكلام :  
أساقك الذعاف المقشب بالموت ، فهو يدعو إلى كأس خطيرة فيها سم ذريع سريع  
قد قشب بالموت ومزج به مزجاً . ثم هو ينصفه من نفسه كما يود أن ينتصف لها  
ويقول له : تعال نتساق هذه الكأس ، فإذا أرحت وإما استرحت ، وحسبك  
بسقين هذا شراهما ، ولعمري ما أوحى بهذا الشعر إلا جنان ثابت ، وإيمان  
بملا القلب ويعمر النفس .

وإن شئت أن تطلب مزيداً من مثل هذا الشعر ، فاسمع ما يقوله عمران  
ابن حطان رأس القعَد من الصُفَرِيَّة ، وخطيبهم وشاعرهم ، لما قتل أبو بلال  
مرداس بن أدية :

لقد زاد الحياة إلى بغضا      وجبا للخروج أبو بلال  
أحاذر أن أموت على فراشي      وأرجو الموت تحت ذرا العوالى  
ولو أنى علمت بأن حقي      كحُف أبي بلال لم أبال  
فمن يك همه الدنيا فاني      لها والله رب البيت قال

فهو ينبئنا عن ذات نفسه بأمور لا تزوير فيها : هو مبغض للحياة ، كاره  
للعيش — وتلك سنة الله فى الثائرين الخارجين ، يتبرمون بالأوضاع ، ويتميزون  
غيطاً على الحكم وأصحاب السلطان ، ويرون آفاق الدنيا كلها ظلاماً فى ظلام —  
وقد زادت الحياة إليه بغضا ، وازدادت الثورة والخروج إلى قلبه حباً بقتل  
أبي بلال ، فأصبح شغوفاً بالحرب تواقاً إليها ، متطلعاً للدوت تحت ذرا العوالى ،  
حذراً أن يموت على فراشه كما يموت الجبناء والضعفاء ، متمنياً حتفاً كحُف صاحبه  
يستريح به من هذه الدنيا التى اشتد بغضه لها ، وتحمر — دون أكثر الناس — من  
سلطانها وأسرها .

واسمع ما يقوله أيضاً فى هذا القتيل :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه      يارب مرداس اجعلنى كمرداس

تركتني هائما أبكى لمرزيتي      في منزل موحش من بعد إيناس  
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه      ما الناس بعد يا مرداس بالناس

فما أروع قوله « يا عين بكّي » فإن لها في ذوق الأدب والفن لشأنا لا يبلغه أن يقول: أبكى ، ولا أحب أن أفسد هذا التعبير الناطق بمحاولة لإظهار مرجع القوة فيه ، فلا أقول إنه أمر للعين بالبكاء والتبكية ، بكاء منها ، وتبكية لسواها ، ولا أقول أمر بالبكاء على صيغة التفعيل لإفادة التكثير ، ولكن أترك هذا اللفظ الرائع في جرسه ومعناه ووضع صدق تمثيله لما يشعر به صاحبه من لوعة تكاد ترديه ، ثم ما أروع دعاءه « يا رب مرداس اجعلني كرداس » ، فلو أن خطيباً جعل يرثي هذا القتيل ، ويسرد على الناس مآثره وصدق بلائه ، ويبشع لهم جريمة قتله ، ومصيبة ظله ، لما بلغ من نفوس سامعيه ما تبلغه هذه الجملة الدعائية القوية ذات المعاني الكثيرة في الإشادة بمرداس ، والرغبة في التمثل بمرداس ، والإنذار لأعداء مرداس ! ثم ما أروع ما بينه صاحبه من حزن عليه ، وهيام وشتات بعده ، ووحشة جعلته وحيداً نافراً ، لا يسامر أنيساً ، ولا يجالس جليسا ، وينظر إلى الناس فاذا هم في عينه غير الناس .

فأى عين لا تدمع وأى فؤاد لا يتقطع ؟

وإنك لو اجد هذه القوة ، وشاعر مثل تلك اللوعة ، كلما التمتست شعراً نبع من قلب قائله ، وأملته عليه العقيدة ، وصور به شعوراً حقيقياً غير مفتعل ، وما كان ذلك مقصوراً على هؤلاء الخوارج . فاسمع إلى الشريف الرضى في بعض ما بكى به آل الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

شغل العيون عن الدبار بكأوها      لبكاء فاطمة على أولادها  
من عصبه ضاعت دماء محمد      وبينه بين يزيدا وزيادها  
يا غيرة الله اغضبي لنيه      وترحزحى بالببيض من أغمادها !

فهو قول رجل محب مكوم الفؤاد تكاد تشم رائحة كبده المحترقة ، حين تشد هذا الشعر : إنه يذكر فاطمة ، وما أدراك ماهيه ، فاطمة بنت محمد ، التي كانت



قوة عينه ، وشفاء نفسه ، وموضع حبه وإعزازه ، فاطمة أم الابناء وأصل الذرية الطاهرة ، والعترة الشريفة ، فاطمة زوج الإمام ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك البطل الصنيد الذي فدى النبي بنفسه ، وضحي في سبيل الدين والعقيدة بكل ما في الدنيا من متاع ، فاطمة زوج هذا ، وبنت ذاك ، هي التي تبكى ! وعلى من تبكى ؟ على أولادها !

بهذا يعتذر الشاعر عن العيون التي لم تر ديار الأهل والاحباب ، لأنها مشغولة بالدروع بكاءً على هذا البكاء ، ثم هو يذكّر عصابة الظلم التي ضاعت على يديها دماء محمد وبنيه ، — وما أروعها من تعبير عاطفي يخلع القلوب — بين يزيد وزيد ، فيلخص في هذه الجملة أو في هذا البيت ، تاريخ جهاد وجلاد ، وظلم وعدوان ، وقتيل وإهدار للدماء ، يقوم ذلك كله على أيدي الروس والأذئاب من خلفاء بني أمية وعمالمهم ! ثم يأتي الشاعر بعد أن أثار في النفوس هذه الذكريات الهائلة ، فحرك بها الأشجان ، وأهاج الأضغان ، بدعوته المثيرة الخطيرة : « يا غيره الله اغضبي لنيه ، ، ولا يريد هذه الغضبة رجوا من السماء يسقط ، ولكنه يريد لها سيوفاً أيضاً تترشح من أعمادها ! فمن ذا الذي يسمع هذا الشعر ولا يحس نار الفجيعة ، وأى سيف يبق في قرابه ، وقد استثاره هذا الباكي الحزين ، واستثار له غيره الله وغضبه الله لنيه وأبناء نيه ؟

واسمع إلى فاطمة بنت الأحجم إذ تراثى أباهما فتقول :

قد كنت لي جبلا ألود بظله	فتركتني أضحي بأجرد ضاحي
قد كنت ذات حمية ما عشت لي	أمشي البراز وكنت أنت جناحي
فاليوم أخضع للذليل وأتقى	منه وأدفع ظالمي بالراح
وأغض من بصرى وأعلم أنه	قد بان حد فوارسي ورماحي

ولأنها لصورة واضحة رائعة تصور لها هذه المرأة الباكية الحزينة ، وترسم بها حياتها الذليلة الحائرة الخائفة الضعيفة بعد أبيها ، وقد كان ملجأ لها ، فأصبحت غرضاً لسهام الأيام ، وكانت به ذات حمية وأنفة وعزة ، تبرز في الفضاء آمنة مطمئنة

لا ترهب أحداً ، فإذا هي من بعده خاضعة ذليلة حتى للأذلاء ، لا تجد ما تدفع به عن نفسها إلا راحة يدها ، ولعمري إن هذه لصورة للوعة حرّى .

والنساء بارعات في تصوير أحزانهن ، والتعبير عن مُثكلهن ، فإذا رثين أبكين القلوب قبل العيون ، والفرق بين أشعارهن وأشعار الرجال في الرثاء هو فرق ما بين العاطفتين . عاطفة التي تنظر إلى سعادتها وعزها بل حياتها ووجودها ، وعاطفة الذى ينظر إلى صديق أو أخ كان يستعين به على الحياة ، أو يبتغى به نفرا ومجداً ، ومكاثرة وذكرًا .

وإن شئت فوازن بين شعر مهمل في رثاء كليب على جودته وصدق تصويره لعاطفة قائله ، وشعر جلييلة بنت مرة في هذا الشأن نفسه .

فمن قول مهمل :

نعمى النعاة كليباً لى فقلت لهم	مالت بنا الأرض أو زالت رواسبها
ليت السماء على من تحتها وقعت	وانشقت الأرض فانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصلحك	ما لاحت الشمس فى أعلى مجاريها !

وهو فى هذه الأبيات غاضب تلعب بين ثنايا شعره صفحات السيوف ، وظبا الأسنّة ، ويسيل رثاؤه تهديداً وإنذاراً وتخويفاً ، ويتغنى لو كانت السماء قد وقعت على الأرض ، أو كانت الأرض قد انجابت بمن تحت السماء ، ويدعو على من يصلح بين الفريقين أو يضع حداً للخصومة بينهما ، تلك الخصومة التى يجب أن تبقى ماطلعت الشمس ، وأن يتوقع فيها الأعداء ما ليس لهم به طاقة من الشر والهلاك .

ومن قوله أيضاً :

نبئت أن النار بعدك أوقدت	واستب بعدك يا كليب المجلس !
وتكلموا فى أمر كل عزيمة	لو كنت شاهدكم بها لم ينسوا
وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً	وذراع باكية عليها بُرُئس
تبكى عليك ولست لائم حرة	تأسى عليك بعبرة وتنفّس

وهو فى هذا الشعر متهمك بالمجالس بعد كليب ، ساخر من يوقدون النار على

عادة العرب كرمًا واستدعاء للضعيف ، منكر على الناس أن يخوضوا في أمر العظام  
وقد مات ربها وحلاها ، ثم يعرج بعد ذلك تعريجا خفيفا على الباكين والباقيات  
حزنا عليه وتأسفا .

فهذا رثاؤه أو بعض رثائه ، وهو رثاء جيد يمثل حرقته ، ويصور مقدار  
إحساسه بالفاجعة ، وينبئ عن ثورة كامنة في قلب قائله توشك أن يكون لها ضرام ،  
ولكن استمع إلى قول جليلة وهي تصور حيرتها بين مقتول هو زوجها وقاتل هو  
أخوها ، وما ينتظرها بين هذين الرزمين :

يا قتيلا قوِّض الدهر به	سقف يتيّ جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته	واثنى في هدم يتيّ الأول
ورماني قتله من كَتَب	رمية المصمى به المستأصل
يانسائي دونكن اليوم قد	خصني الدهر برزم معضل
خصني قتل كليب بلظي	من ورائي ولظي مستقبل
ليس من يبكي ليومين كمن	إنما يبكي ليوم ينجلي
يشقى المدرك بالتأر وفي	دَرَكي تأريّ ثكل المشكل
ليته كان دمي فاحتلبوا	بدلا منه دما من أكحلي
إنني قاتلة مقتولة	فلعل الله أن يرتاح لي !

وهذا شعر غني ببيانه ونصاعته عن أن يبين أو يفسر ، وليس يحتاج في تجلية  
معانيه ، وتحديد مبانيه ، إلا إلى إنشاد منشد ، واستماع مستمع ، وذاك - لعمري -  
هو الشعر ؟

## عناصر وجود الأمة الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

لكل أمة من الأمم دعائم خاصة يقوم عليها وجودها ، وتمتاز بها شخصيتها عن غيرها ، وتأخذ بها مكاتها ، وتتحد منزلتها ، من الرفعة أو الضعة بين جميع الأمم ، وليست الأمة الإسلامية بدعا من الأمم . باعتبارها مجرد أمة اجتماعية ، فيجب أن تكون لها مميزاتها وعناصر وجودها الخاصة بها ، كما أنها بوصفها الديني يجب أن تتميز عناصر وجودها وميزاتها عن سواها من الأمم غير الإسلامية .

والباحثون في مسائل الاجتماع الإسلامى يرون بوضوح - منذ ظهر الإسلام - أمة إسلامية متميزة تماما عن غيرها بعناصر لا تشاركها فيها أمة بشرية ، ونحن نلخصها في كلمات ، ثم نتحدث عنها تباعا بإذن الله ، والله يهدينا إلى الرشده ، ومنه نستمد التوفيق .

\*\*\*

الأول ما يجده الباحث من مقومات الأمة الإسلامية ؛ عنصر التوحيد والوحدة ، ثم عنصر المساواة والأخوة الدينية ، ثم المسئولية المشتركة عن رعاية المجتمع ، وحفظ الدين وحماية الدعوة إليه .

### ١ — التوحيد والوحدة :

كان مبدأ التوحيد ثورة حطمت الشرك الديني الذي ألزم الناس بعبادة غير الله ، كما حطم الشرك الاجتماعى الذى جعل من بنى الإنسان سادة ودهماء ، وبذلك صحح التوحيد الوضع الديني والاجتماعى ، وجعل العبادة والسيادة لله الخالق وحده ،

فإنه خالق الجميع ، ونسبة الجميع إليه واحدة ، فمن حقه أن يُعبد وحده ، ومن حقه أن يكون السيد المطلق لجميع عبيده الذين خلقهم ، وليس لنبي الله - من شعب أو فرد - سياد على خلق الله ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون .

وعبادة الخالق ، والعبودية له وحده ، والإقرار بسيادته على خلقه ، أمور فطرية ركزها في نفسية الإنسان يوم خلقه ، لذلك كان التسليم بها ميسورا لكل من صفت نفسه فاتجهت إلى الإسلام ، بل يكاد يكون هذا المبدأ السويّ هو الذي قاد الأفراد والشعوب إلى الدخول في دين الله أفواجا ، نجد ذلك واضحا جليا لا غموض فيه . في جميع معاهدات الصلح والأمان التي عقدها المسلمون منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، مع الذين عاهدوهم من العرب ، وأهل فارس ، وأهل الشام ، وأهل المغرب الإسلامي ، وأهل الأندلس ، هذه المعاهدات التي تقرر : أن من أسلم فلا سبيل عليه ، وأنه أصبح لبنة في بناء الاسلام له ما للمسلمين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، غير مظلوم ولا ذليل ، وهذا المبدأ هو الذي جعل آلافاً من الفرس والروم يسارعون إلى الاسلام ، من أمثال القائد الروماني العظيم «جورج بن تيودور» الذي يسميه العرب «جرجه» ، فقد سأل خالد بن الوليد في مدائن معركة اليرموك فيما سأله : أخبرني عما تدعوني إليه ؟ قال : إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله . قال : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر ؟ يعني الإسلام ، ؟ قال خالد : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا . شريفنا ووضعنا ، وأولنا وآخرنا ! قال هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الاجر ؟ قال : وأفضل .

وعندما استشهد كرى يزدجرد الثالث بملك الصين ضد المسلمين ، سأل الملك الصيني عن كنه الدعوة الإسلامية ، فلما عرف حقيقتها كتب إلى يزدجرد يقول : إن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك لو يحاولون الجيال لأزالوها ، ولا يزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم ، أو يجرموا حلالهم ، فسالمهم . وعندما فرض عمر العطاء للمسلمين سوى بين الجميع : العرب وغير العرب .

ولما علم عمر بن عبد العزيز بأن بعض عماله في فارس يضع الجزية على الذين يدخلون في الإسلام ، حرص على موارد الخزينة أن تنضب ، كتب إليه : تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس ، وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذني في أخذ الجزية منهم ، وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعثه جايياً (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة : يا معشر قريش : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس لآدم وآدم من تراب ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وإذن ، فالتوحيد يجمع من يعترف به في رابطة واحدة . يستوى كل أفرادها فيها في جميع الحقوق والالتزامات ، هي رابطة العبودية لرب العالمين ، والتسليم بسيادته وحده على الجميع ، ثم جاءت الرسالة عامة للجميع لتأكيد سيادة الله على عباده ، وتأكيد أن نسبتهم إلى الله واحدة ؛ وما أرسلناك إلا كافة للناس ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، وكانت هذه الرحمة للعالمين ، تخليصهم من الشرك الديني والاجتماعي ، وتحرير البشرية من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى ؛ وبذلك ألغيت جميع الفروق الاجتماعية بين جميع الأجناس ، والألوان ، والأفراد ، فلا شعوبية ، ولا قبلية ، ولا طبقة .

وجاء القرآن يؤكد أن المسلمين جميعاً تكافأ حقوقهم والتزاماتهم ، وتكاليفهم ودمائهم ، وجعل منهم وحدة كاملة متناسقة متجانسة ، فوجه خطابه إلى جماعة المسلمين . في كافة التكاليف الإيجابية والسلبية ، فإن خاطب الناس . في أمر من الأمور العامة ، قصد الإنسانية كلها ، وخص جماعة المؤمنين ، وإن خاطب الذين آمنوا . فإنه يعني المسلمين في ثوب وحدتهم الجامعة ، لا ينظر إلى جنس ولا إلى لون ، وإن تحدث عن نسبة المسلمين إلى غيرهم من الأمم . قال :

(١) الحراج لأبي يوسف ص ١٣١ طبع السلفية .

« كُتِمَ خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله ... ، فبني النسبة على الإيمان بالله ومقتضياته ، لا على عنصرية من جنس أو دم .

وعلى هذا الأساس جاء خطاب القرآن الكريم للأمة في جميع التكاليف ، سواء منها ما هو فردى يُطلب أدائه من كل فرد في الأمة . إذا توفرت فيه شروطه ، « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، . . . وافعلوا الخير ، . . . أو فوا بالعقود ، وما كان جماعيا . يطلب من الأمة باعتبارها « شخصية معنوية مسئولة ، أن تحققه ، وتعمل على تركيزه ، كتنفيذ الأحكام الشرعية ، وتوخي العدل في الحكم والإشراف على الحاكمين وتوجيههم ، والقيام بالمحافظة على الدين ، وكيان الأمة . وحماية الدعوة إلى الله ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، « إعدلوا هو أقرب للتقوى ، « وتعاونوا على البر والتقوى ، « وجاهدوا في الله حق جهاده ، « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . » وغير ذلك من التكاليف الجماعية التي كلفت بها مجموعة المسلمين « الأمة الإسلامية » .

ولا شك أن القرآن يعنى من كلمة « أمة » ، هذا المعنى الجامع لكل من دخل في الإسلام أو وصف به ، ولا يعنى مطلق جماعة من المسلمين . من غير قصد العموم والشمول ، بحيث يسمح بتعدد الوحدات وتمايزها في الشخصية ، انظر إلى قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون . » والمفهوم من هذا من غير التواء ، أن المسلمين أمة واحدة ، كما أن ربهم واحد ، ووصف الأمة « بواحدة » ، يؤكد لنا أن وحدة هذه الأمة قوية متماسكة ، لها شخصيتها العامة المستقلة ، ومقصده من الأمة — بلا مرأى — هو الأمة الإسلامية على عمومها . لا الأمة العربية ، أو الفارسية ، أو المصرية ، أو الباكستانية ، فإن هذه شعوب تتكون منها الأمة الإسلامية ، وهي بمنزلة الأفراد الذين يتألف منهم كل شعب

من هذه الشعوب ، وكما أن أبناء الشعب الواحد إخوة في وطنهم ، المحلى ، ونسبتهم إلى دينهم واحدة ، فكذلك الشعوب إخوة في الوطن الإسلامى ، ونسبة جميعها إلى الدين واحدة ، ومن الجلى أن تفرق الأفراد يلغى وجود الشعب أو الجماعة ، فكذلك تفرق الشعوب الإسلامية يلغى وجود الأمة الإسلامية ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربحكم .

قد يقول قائل : إن الأمة الإسلامية ، لا يمكن إلغاء وجودها . إذ أنها تتألف من كل مسلم فى أرض الله . أياً كان لونه وجنسه ، وأفراد المسلمين تمتلئ بهم شباب الأرض والحمد لله فنقول : إن القرآن يعنى من الأمة الإسلامية : أمة مكلفة بتنفيذ أحكام الشرع ، وإقامة الحدود ، وتحقيق العدالة بين جميع أفرادها أمة مسئولة عن صالحها العام بوصفها أمة ، وحفظ كياناتها وكرامتها ، بوصفها مناطق التكليف فى كل ما هو عام ؛ ومن المسلم به أن أمانة وجود المكلف قيامه بما كلف به ، فالفرد المسلم مثلاً : إذا انسلخ من واجباته ، ولم يؤد تكليفه ، أصبح وصفه بالفرد المسلم ، غير قائم ؛ وإن كان موجوداً يأكل ويشرب ، ويسمى فى الأرض ، فكذلك الأمة الإسلامية ، إذا لم تقم بتكليفها ، وكل ما هو عنه مسئولة ، فوصفها بالأمة الإسلامية ، لا وجود له . وإن كانت شعوبها وأفرادها تملأ الدنيا كلها ؛ جماعات كغناء السيل ، تداعى عليها الأمم ، كما تداعى الأكله على قصعتها ، وإنما تكون الأمة الإسلامية ، يوم تقوم بتكليفها ، وتودى رسالتها لثبت بذلك وجودها وإسلاميتها .

ولعل لا أجنب الصواب إذا قلت : إن جميع ما يعانى به المسلمون اليوم فى كل مكان ، من ظلم وهوان ، وذل وحرمان ، إنما يرجع إلى ققدم شخصيتهم المعنوية هذه ، بفرقهم فى الأرض ، وخلعهم ثوب الوحدة الإسلامية الجامعة ، بما عطل تكاليف الأمة العامة ، التى نيط بها عزة المسلمين ، وبقاء صولتهم ، وحكمتهم قرون طويلة فى السياسة الدولية .



وليك شعري على من تقع مسئولية هذا الانحلال والتفكك والتفريق ؟ على أولى الامر المعنيين في قوله تعالى : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الامر منهم لعليه الذين يستبطلونه منهم » على قادة الرأي والفكر في بلاد المسلمين ، من العلماء وذوى رأى والخبرة والقدرة على توجيه الناس ، على هؤلاء الذين سمحوا — فيما مضى — لذوى الاهواء أن يفرقوا جمع المسلمين ، ويمزقوا وحدتهم ، تحت ستار « المذهبية أو الوطنية » عليهم تبة ما يعانيه المسلمون اليوم من ضروب البلاء .

وعلى هؤلاء القادة - فى عصرنا هذا - جمع شتات المسلمين تحت راية القرآن ، والعمل على إعادة بناء الوحدة الإسلامية من جديد ، بناءً يرجع إلى المسلمين (اليوم) وصفهم بأنهم (أمة إسلامية) لها كيانه وميزاتها وشخصيتها المكلفة المسئولة ، وطريق ذلك - فى نظرى - هو إشعار المسلم بأنه أخ المسلم ، لا يظلمه ولا يحدله ، وأن منزله من أخيه كمنزلة اللبنة من اللبنة فى ( جدار واحد ) تشد إحداها الأخرى فيثبت الجدار ويقوى ، ومنزلة الشعوب الإسلامية بعضها من بعض كمنزلة ( الجذر ) فى البناء الواحد يهدد بعضها بعضاً ، فيتركز البناء ويشمخ ، ولا سبيل إلى قيام البناء وعظمته ما لم تتعاون دعائمه جميعها ، فى القيام بهما ، على ذلك النسق الرائع ، الذى رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « مثل المسلمين فى تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، هذا الجسد هو الأمة ، وأعضاء الجسد : هم المسلمون ، شعوبهم وأفرادهم ، وهذه هى ( الأمة الإسلامية ) .

يا قادة رأى والفكر ، وذوى الاتباع فى بلاد المسلمين ، أتم أولو الامر المسئولون عن أمتكم وعزتها أمام الله وضمائركم ، وعليكم تبة الحفاظ على الدين ووحدة ، والأمة وشخصيتها ، والنظر فيما يحقق للأمة سعادتها وسيادتها وعزتها ( والله العزة ورسوله وللؤمنين ) وليست هذه المسئولية قاصرة على زمانكم ، بل أتم مسئولون عن الأجيال المقبلة ، فانظروا . هل تورثونها تركه مثقلة بالتفريق

والتحزب والمغارم ، كما ورثنا مثل ذلك عن أهل الأجيال الماضية ؟ وإذن لحوسبتكم حسابا عسيرا ، وكنتم قوما بورا ، وسخطت عليكم الأجيال المقبلة ، وقست أحكامها على تدينكم !! أم ستؤدون رسالتكم فتضعون - على الأقل - منهج إعادة وحدة الأمة ؟ وإذن فليهنكم نعيم مقيم عند الله ، وعند الناس ذكر حسن ! وعساكم تهمون مدى مسئوليتكم عن المسلمين في المستقبل بمثل ما فهم عمر بن الخطاب مسئولته ! ، فقد طلب إليه الزبير بن العوام وبلال أن يقسم أرض الفتوح على الفاتحين ، فقال لهم : إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم ! ثم قرأ قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فإله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاموا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم ، والسلام على من أتبع الهدى وقال إني من المسلمين »

# زخرفة الأخشاب

في الفن المصري الإسلامي

لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور جمال محرز

المدرس بمعهد الآثار بكلية الآداب

ورث الغزاة المسلمون فيما ورثوه عن أهل البلاد التي أخضعوها لسلطانهم ،  
تقاليدهم الفنية ، وأساليبهم الصناعية ، إذ اتخذوا الفنانين من أهل هذه البلاد  
أساتذة لهم ، يتلقون عنهم قواعد الفن ، ويتدربون على أيديهم على الأساليب  
الصناعية ، لأنهم جاءوا إلى هذه البلاد وهم فارغوا الأيدي من التقاليد الفنية  
خاوي الوفاض من الأساليب الصناعية الناضجة .

ولهذا ظهرت العناصر الزخرفية التي نعرفها عن فنون تلك البلاد قبل خضوعها  
للحكم الإسلامي في منتجاتها الفنية بعد الفتح الإسلامي ، واستمر ظهور تلك  
العناصر ردحا من الزمن إلى أن تمكن المسلمون من تكوين فن إسلامي خاص  
بهم ، وهو وإن كان في مجموعه — من حيث العناصر والأساليب — مستمدا من  
الفنون السابقة للإسلام ، في الأقطار التي خضعت للمسلمين ، إلا أنه اكتسب  
صفات خاصة ، أصبحت ذاتية له .

وتسمى هذه الفترة السابقة على تكوين الفن الإسلامي - والتي تسود في منتجاتها  
العناصر الزخرفية ، للأقطار المفتوحة قبل الفتح الإسلامي - بفترة الانتقال . وهي  
تلك الفترة التي نجد الفنان فيها حائرا بين تقاليده التي ورثها عن آباءه وأجداده  
وبين الأساليب أو الأفكار والاتجاهات الجديدة التي جاءت مع الغزاة الفاتحين ،

أيهما يتبع ، ولهذا نجد المنتجات الفنية في هذه الفترة تجمع بين التقاليد الفنية القديمة والأساليب الجديدة .

وقرة الانتقال هذه فيما يتعلق بزخرفة الأخشاب في مصر قد استمرت من الفتح الإسلامي حتى العصر الطولوني . ونشاهد في القطع الخشبية التي وصلت إلينا من هذه الفترة ، استمرار الأساليب الصناعية والعناصر الزخرفية ، التي ورثها المسلمون عن الفن القبطي . فنجدهم يستعملون في زخرفة الأخشاب الحفر والتطعيم ويزخرفون الأخشاب بالعناصر الحيوانية والنباتية مثل الطيور والأسماك والعنب بعناقيده وأوراقه والرسوم الهندسية مثل الدوائر المتداخلة والعقود المتشابكة والمستطيلات الصغيرة المفرغة والموضوعات الزخرفية المجنحة الساسانية الأصل .



لوحة من الخشب من فترة الانتقال ( بدار الآثار العربية )

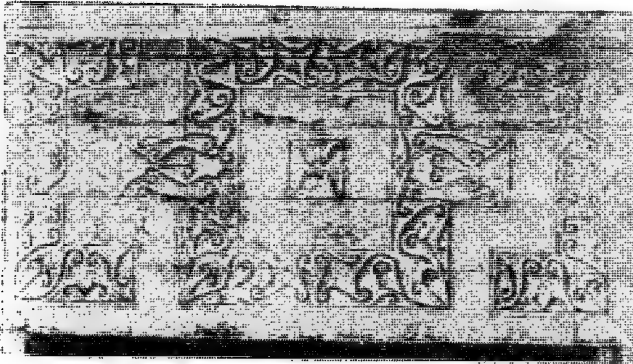
غير أن العناصر الحيوانية والآدمية ، كانت في الغالب محلا للاعتراض والاحتجاج من المسلمين وبخاصة رجال الدين منهم ، لأن الدين الإسلامي يكره التصوير ، ولأن كثيرا من هذه الرسوم كانت له صفة دينية ، إما صفة واضحة مثل رسوم المسيح ورجال الكنيسة ، وإما صفة رمزية ، مثل العنب والسماك والحمام ، ولهذا يندر ظهور مثل هذه العناصر . ولا نجد أثرا للرسوم الآدمية في فترة الانتقال في حين أننا نجد الرسوم النباتية والحيوانية ، ولكن أغلب ما ظهر منها خضع للتهذيب والتحوير ، أي البعد به عن أصوله الطبيعية . ويجب أن نقول إن أوامر الدين الإسلامي بخصوص التصوير ، لم تقب في مختلف العصور وفي كل الأقطار ، كما سنرى فيما بعد .

وهذا التهذيب أو التحوير هو الاتجاه الذي سار فيه المسلمون ، وإن كانت حركة التهذيب والبعد بالعناصر عن أصولها الطبيعية قد ظهرت في الشرق في أوائل

العصر المسيحي نتيجة تأثير جاء من الحضبة الإيرانية ، غير أن هذه الحركة كانت ببطيئة السير ، ولم يكن هناك من البواعث ما يدعو الى السير فيها بجد ، وهذا على عكس ما حدث بعد ظهور الإسلام ، إذ كان للدين الإسلامى أثره الواضح فى التعجيل بالوصول بها الى أقصى درجات التحوير والتهديب .

ولما كانت هذه الفكرة الجديدة غير مصحوبة بتقاليد فنية تساعد الفنانين على تحقيقها بالتجائبهم الى هذه التقاليد الجديدة بدلا من اعتمادهم على تقاليدهم الموروثة ، فقد طالقت فترة الانتقال ولم تختلف زخرفة بعض القطع الخشبية التى وصلت إلينا من هذه الفترة عن مثيلاتها فى العصر القبطى ، ولولا ظهور الخط الكوفى على بعض هذه القطع لما تردد أحد فى نسبتها الى الفن القبطى ، والواقع أن ظهور الخط الكوفى على القطع الخشبية كان من الصفات البارزة والعوامل الأساسية التى ساعدتنا على نسبة هذه القطع الى فترة الانتقال .

وبقيام الدولة الطولونية يحدث تطور واضح فى الأساليب الفنية وتغير ظاهر فى العناصر الزخرفية ، ونكاد لا نرى أثرا للعناصر التى كانت سائدة فى فترة الانتقال ، والحق أن الفنانين المصريين سواء أكانوا مسلمين أم قبطا ، قد استبدلوا بعناصرهم الزخرفية ، العناصر الجديدة المكونة من رسوم تخطيطية ، وأشكال حلزونية ، وأقراص صغيرة ، وأشكال تشبه علامة الاستفهام أو الكلى أو حرف ( ) فى الحروف اللاتينية ، وبعض الأوراق النباتية ، وبعض الحيوانات المحورة عن الطبيعة ، كل أولئك العناصر ، استخدم فى إظهارها طريقة فى الحفر جديدة ، ألا وهى طريقة الحفر المائل غائرا أو غير غائرا .



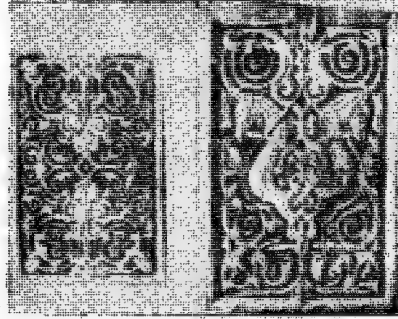
تجليد العتب فوقانى لأحد أبواب جامع ابن طولون ( عن الأستاذ كريزويل )

وهذا الأسلوب الجديد صورة من أسلوب سامرا ، حيث نشأ وترعرع أحمد ابن طولون ، وشاهد ما كانت عليه سامرا من عظمة وأبهة وازدهار فني ، وما يدعو إلى التساؤل عدم وجود مقدمات أو مهدات أو فترة انتقال بمعنى آخر ، لهذا الأسلوب الجديد فيما وصل إلينا من تحف خشبية ، ولعلنا نستطيع تفسير ذلك إذا ما عرفنا أن الفن الإسلامي فن ملكي ، يعتمد على تعزيد الحكام من السلاطين والأمراء ، وهذا يقتضى بالطبع أن تحوز المنتجات الفنية إعجاب هؤلاء الحكام ، وهو ما دعا إلى اقتباس الأسلوب الجديد الذي ساعد على انتشاره الصانع والفنانون ، الذين جاءوا من سامرا إلى مصر بمجيء أحمد بن طولون إليها ، ونستطيع أن نقول أن مصر شهدت في عهد الدولة الطولونية ، أول مرحلة في تكوين فن إسلامي بها ، إلا أنها لم تشمل كل الميادين الفنية .

ولم يحدث انقلاب فني في الأساليب أو العناصر بمجيء الفاطميين ، إذ استمرت الأساليب الطولونية مستخدمة ، وبخاصة في أوائل العصر الفاطمي مع تغير طفيف ، وهو صغر مساحة العناصر الزخرفية في العصر الفاطمي عن العصر الطولوني ، وتغير أسلوب الحفر إذ أصبح هنا عموديا بعد أن كان مائلا ، ولعل الذي ساعد على استمرار الأسلوب الطولوني هو معرفة الفاطميين لهذا الأسلوب العباسي الأصل أثناء وجودهم في شمال أفريقية قبل مجيئهم إلى مصر .

وتدلنا التحف الخشبية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي على براعة المصريين في زخرفة الأخشاب بطريقة الحفر ، وقد وصلت منتجاتهم إلى درجة كبيرة من الاقنات والتوفيق من حيث استخدام الرسوم الحيوانية كعناصر زخرفية ، وتظهر هنا رسوم الأشخاص والحيوانات والطيور ، وقد تمثل بعض هذه الرسوم مناظر من الحياة العامة كالرقص والصيد ، ورسوم القديسين ورجال الدين ، كما هو موجود في بعض الكنائس القبطية ، ونجد بجانب هذه العناصر الحيوانية الرسوم النباتية ، والأشكال الخلزونية مرسومة في دقة وإقنات ، وقرب من الطبيعة ، وقد تحفر

الرسوم على مستويين مختلفين ، وهو أسلوب يدل ولا شك على براعة الفنان ومهارته .

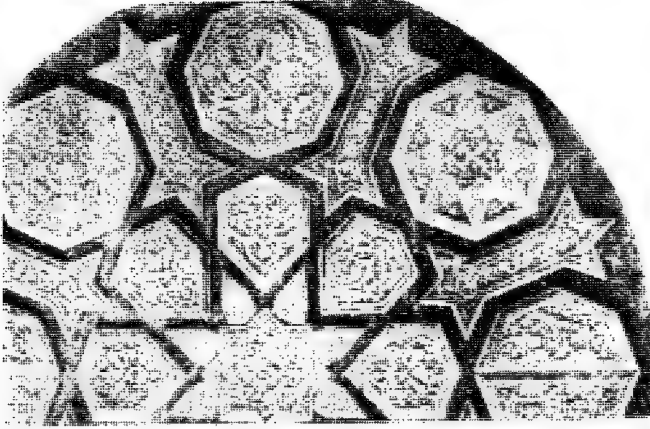


حشوتان خشبيتان من العصر الفاطمي ( بدار الآثار العربية )

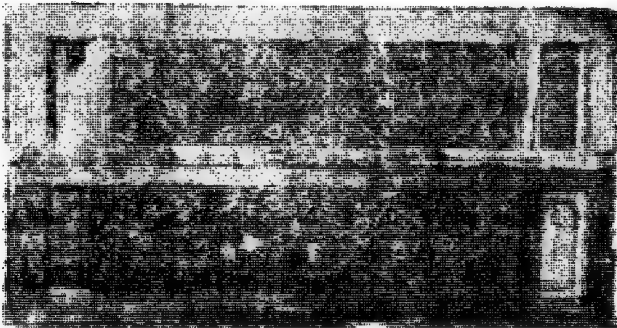
ويظهر في أواخر العصر الفاطمي ميل إلى استخدام الأشكال الهندسية في زخرفة الأخشاب ، فنجد المربعات والمعينات والمستطيلات والأشكال النجمية ، وكان سبيل الوصول إلى هذه الأشكال ، هو استخدام حشوات صغيرة من الخشب يجمع بعضها بجانب بعض ، للوصول إلى الشكل المطلوب ، وهذه الحشوات الصغيرة مزخرفة في أغلب الحالات برسوم خطوط متشابكة دقيقة مع رسم وريقات العنب وجبانه ، ، وساعد استخدام هذه الحشوات الصغيرة على تجنب التشقق الذي يصيب الأخشاب الكبيرة المساحة .

ويزداد هذا الميل نحو الأشكال الهندسية وبلغ درجة عظيمة من الاتقان في العصر الأيوبي والمملوكي ، فتتداخل هذه الأشكال بعضها في بعض ، أو يوضع بعضها فوق بعض ، أو توضع في تراكيب مختلفة ، كل ذلك دون تأثير في القيمة الفنية للحشوات التي تكون هذه الأشكال ، ولا نجد موضوعاً رئيسياً من هذه الأشكال يلفت النظر إليه بوضوح وظهوره ، بل أن العين تستطيع أن تكون عدة أشكال هندسية مختلفة من الزخرفة الواحدة ، قد لا يكون الفنان قصد إظهارها ، بل إنه أراد إظهار نوع معين منها ، ولكن تقاطع الخطوط

وتداخلها وتوازنها، قد سمح بتكوين كل هذه الأشكال المتنوعة، التي يستطيع الناظر إلى التحفة أن يكونها لنفسه .



حشوات خشبية أصلها من منبر جامع ابن طولون من عصر لاجين ٦٩١ (١٢٩٦) ومن العناصر المشهورة عن العصر المملوكى الأطباق النجمية ، ويتكون الطبق من حشوات صغيرة مجمعة بعضها إلى بعض بشكل خاص ، ينتج عنه هذا الطبق المكون من عدة أطراف ، وتدلنا زخارف هذه الحشوات على منتهى الإبداع والافتقان ، ومدى البراعة التي وصل إليها الفنانون المصريون ، في رسم وحفر الأفرع والأوراق النباتية ، التي تزين هذه الحشوات الصغيرة .



باب من العصر المملوكى به. تطعيم ( دار الآثار العربية )



وتنتشر في العصر المملوكي زخرفة الاخشاب بالتطعيم ، وذلك بأن تحفر الرسوم في الخشب ويملا الفراغ الناتج عن الحفر بالمادة المطعمة ، كالعاج أو العظم أو الخشب النفيس ، كما نجد الترصيع ، وهو أن يغطى سطح القطعة الخشبية بالقسيفساء من العاج أو العظم أو الخشب النفيس أيضاً ، ولقد وصلت إلنا قطع خشبية مطعمة من فترة الانتقال ، والملاحظ أن هذه الطريقة لم يظهر لها أثر في العصر الفاطمي ولعل الصناع فضلوا عليها طريقة الحفر .

وثمة أسلوب آخر ذاع استعماله في العصر المملوكي ، وكثر استخدامه في المنازل ، ألا وهو الخشب المخروط ، وكانت العيون تضيق وتوسع وتملا بالقطع الخشبية الأخرى ، لتكوين الزخارف المراد إظهارها ، ومن بين هذه الزخارف المشكيات والمنابر . ومن أحسن الأمثلة لهذه الصناعة المشرفيات ، وهي التي تغطي الفتحات الموجودة بالجدران ، والمظلة على الشوارع ، وكانت تستخدم أيضاً لتبريد مياه الشرب مما دعا إلى تسميتها بالمشربية ، كما كانت تغطي فتحات المقاعد المظلة على القاعات الكبرى بالمنازل ، حيث تقام حفلات الاستقبال واللبو والطرب .

وإن اقتباس هذا النوع من الصناعة لتغطية الفتحات سواء المطل منها على الخارج أو الداخل لينى بالعرض المقصود من تحجب النساء وتمكينهن في الوقت نفسه من التطلع إلى خارج المنزل والمشاركة في الحفلات التي تقام بداخله ، دون أن يتمكن أحد من رؤيتهن .

ومن الأساليب التي استخدمت في زخرفة الاخشاب التلوين ، وقد تلوّن الزخارف المحفورة مثل ما حدث في العصر الطولوني والفاطمي وقد ترسم الزخارف بالألوان مثلبا نشاهد في أسقف مباني العصر المملوكي .

ويجب ألا ننسى الكتابة الخطية ، فقد لعبت دوراً هاماً في الزخرفة ، وساعد على ذلك صلاحية الخط العربي لهذا الغرض ، ولم يقتصر الامر على نوع واحد من أنواع الخط ولكنه شمل الخط الكوفي البسيط في العصر الطولوني ، والخط الكوفي المزهر في العصر الفاطمي والخط النسخي في العصر المملوكي ؟

## مِنْ ذَخَائِرِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ

من أهم الأغراض التي تعنى بها جماعة التزريب لإحياء آثار  
الخالدين ، وفي التراث الفكري للمسلمين ذخائر ثمينة موروثة ،  
وأعلاق كريمة مطوية ، لو أبرزت للناس لكان لها أثر  
بعيد في العلم والتوجيه ، وتحت هذا النوان ننشر بعض ذلك .  
[ المحرر ]

### المصلحة في الشريعة الإسلامية

بحث أصولي كتبه نجم الدين الطوفي المتوفى سنة ٧١٦ يرى فيه تقديم المصلحة على النص في المعاملات

اعلم أن أدلة الشرع تسعة عشر باباً بالاستقراء ، لا يوجد بين العلماء غيرها ،  
أولها الكتاب ، وثانيها السنة ، وثالثها إجماع الأمة ، ورابعها إجماع أهل المدينة ،  
 وخامسها القياس ، وسادسها قول الصحابي ، وسابعها المصلحة المرسلة ، وثامنها  
الاستصحاب ، وتسعها البراءة الأصلية ، وعاشرها العادات ، والحادي عشر الاستقراء ،  
الثاني عشر سد الذرائع ، الثالث عشر الاستدلال ، الرابع عشر الاستحسان ،  
الخامس عشر الأخذ بالأخف ، السادس عشر العصمة ، السابع عشر إجماع  
أهل الكوفة ، الثامن عشر إجماع العترة عند الشيعة ، التاسع عشر إجماع الخلفاء  
الأربعة ، وبعضها متفق عليه ، وبعضها يختلف فيه ، ومعرفة حدودها ورسومها  
والكشف عن حقائقها وتفاصيل أحكامها مذكور في أصول الفقه .

ثم إن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » يقتضى رعاية  
المصالح إنباتاً ونفياً والمفاسد نفياً إذ الضرر هو المفسدة ، فإذا نفاها الشرع لزم  
إنبات النفع الذي هو المصلحة لأنهما ققيضان لا واسطة بينهما ، وهذه الأدلة

التسعة عشر أقواها النص والإجماع ، ثم هما إما أن يوافقا رعاية المصلحة أو يخالفها ، فإن وافقاها فيها ونعمت ولا تنازع ، إذ قد انفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهى : النص ، والإجماع ، ورعاية المصلحة ، الاستفادة من قوله عليه الصلاة والسلام « لا ضرر ولا ضرار » وإن خالفها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لها ، لا بطريق الافتئات عليهما والتعطيل لها ، كما تقدم السنة على القرآن بطريق البيان ، وتقرير ذلك أن النص والإجماع إما أن لا يقتضيا ضرراً ولا مفسدة بالكلية ، أو يقتضيا ذلك ، فإن لم يقتضيا شيئاً من ذلك فهما موقوفان لرعاية المصلحة ، وإن اقتضيا ضرراً ، فإما أن يكون مجموع مدلولهما ضرراً ولا بد أن يكون من قبيل ما استثنى من قوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار » ، جمعاً بين الأدلة ، ولعلك تقول إن رعاية المصلحة الاستفادة من قوله عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » ، لا تقوى على معارضة الإجماع لتقضى عليه بطريق التخصيص والبيان لأن الإجماع دليل قاطع ، وليس كذلك رعاية المصلحة ، لأن الحديث الذى دل عليها واستفيدت منه ليس قاطعاً فهو أولى ، فنقول لك إن رعاية المصلحة أقوى من الإجماع ، ويلزم من ذلك أنها من أدلة الشرع لأن الأقوى من الأقوى ، أقوى ويظهر ذلك من الكلام فى المصلحة والإجماع .

أما المصلحة فالنظر : فى لفظها ، وحدّثها ، وبيان اهتمام الشرع بها ، وأنها مبرهنة ، أما لفظها فهو مفعلة من الصلاح ، وهو كون الشيء على هيئة كاملة بحسب ما يراد ذلك الشيء له كالفعل يكون على هيئة المصلحة للكتابة ، والسيف على هيئة المصلحة للضرب .

وأما حدّثها بحسب العرف فهى السبب المؤدى إلى الصلاح والنفع كالتجارة المؤدية إلى الربح ، وبحسب الشرع هى السبب المؤدى إلى مقصود الشارع عبادة أو عادة ، ثم هى تنقسم إلى ما يقصده الشارع لحقه كالعبادات ، وإلى ما لا يقصده الشارع لحقه كالعادات .

وأما بيان اهتمام الشرع بها فن جهة الإجمال والتفصيل ، أما الإجمال فنقوله

عز وجل : ( يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور )  
الآيتين ودلالتهما من وجوه :

أحدها قوله عز وجل « قد جاءكم موعظة » حيث إنه توعدهم وفيه أكبر  
صالحهم إذ في الوعظ كشفهم عن الأذى ، وإرشادهم إلى الهدى : الثاني : وصف  
القرآن أنه « شفاء لما في الصدور » ، يعنى من شك ونحوه وهو مصلحة عظيمة :  
الثالث : وصفه بالهدى : الرابع : وصفه بالرحمة ، وفي الهدى والرحمة غاية المصلحة :  
الخامس : إسناد ذلك إلى فعل الله عز وجل ورحمته ، ولا يصدر عنهما إلا مصلحة  
عظيمة : السادس : الفرح بذلك لقوله عز وجل : « فبذلك فليفرحوا » وهو  
في معنى التهنية لهم بذلك ، والفرح والتهنية إنما يكونان لمصلحة عظيمة : السابع  
قوله عز وجل : « هو خير مما يجمعون » ، والذي يجمعونه هو من مصالحهم .  
فالقرآن ونفعه أصلح من مصالحهم ، والأصلح من المصلحة غاية المصلحة .

فهذه سبعة أوجه من هذه الآية تدل على أن الشرع راعى مصلحة المكلفين  
واهتم بها ، ولو استقرأت النصوص لوجدت على ذلك أدلة كثيرة .

فإن قيل لم لا يجوز أن يكون من جملة ما راعاه من مصالحهم نصب النضر  
والإجماع دليلاً لهم على معرفة الأحكام ؟ قلنا هو كذلك ، ونحن نقول به في العبادات ،  
وحيث وافق المصلحة في غير العبادات ، وإنما ترجح رعاية المصالح في المعاملات  
ونحوها ، لأن رعايتها في ذلك هو قطب مقصود الشرع منها ، بخلاف العبادات فإنها  
حق الشرع ، ولا يعرف كيفية إيقاعها إلا من جهة نصاً وإجماعاً .

وأما التفصيل ففيه أبحاث :

البحث الأول : في أن أفعال الله عز وجل معللة أم لا ؟ حجة المتيقن أن فعلاً  
لا علة له عبث ، والله عز وجل بمنزه عن العبث ، ولأن القرآن مملوء من تعليل  
الأفعال نحو « لتعلموا عدد السنين والحساب » ، ونحوه ، وحجة النبا في أن كل من  
فعل فعلاً لعلته فهو مستكمل بتلك العلة ما لم يكن له قبلها فيكون ناقصاً بذاته  
كاملاً بغيره ، والنقص على الله عز وجل محال ، وأجيب عنه بمنع الكلية ، فلا يلزم

ما ذكره إلا فى حق المخلوقين ، والتحقيق أن أفعال الله عز وجل معلة بحكم غائية تعود بنفع المكلفين وكألمهم ، لا بنفع الله عز وجل لاستغناؤه بذاته عما سواه .

البحث الثانى : أن رعاية المصالح تفضل من الله عز وجل على خلقه عند أهل السنة ، واجبة عليه عند المعتزلة ، حجة الاولين أن الله عز وجل متصرف فى خلقه بالملك ، ولا يجب له عليه شئ ، ولأن الإيجاب يستدعى موجباً أعلى ، ولا أعلى من الله عز وجل يوجب عليه ، حجة الآخرين أن الله عز وجل كلف خلقه بالعبادة فوجب أن يراعى مصالحهم ، إزالة لعلمهم فى التكليف ، وإلا لكان ذلك تكليفاً بما لا يطاق أو شبيهاً به ، وأجيب عنه بأن هذا مبنى على تحسين العقل وتقييحه وهو باطل عند الجمهور .

والحق أن رعاية المصالح واجبة من الله عز وجل ، حيث التزم التفضل بها لا واجبة عليه كما فى آية « إنما التوبة على الله ، فإن قبولها واجب منه لا عليه ، وكذلك الرحمة فى قوله عز وجل « كتب ربكم على نفسه الرحمة ، ونحو ذلك .

البحث الثالث : فى أن الشرع حيث راعى مصالح الخلق ، هل راعاها مطلقاً ، أو راعى أكملها فى بعض وأسفلها فى بعض ؟ أو أنه راعى منها فى الكل ما يصلحهم وينتظم به حالهم ؟ الأقسام كلها ممكنة .

البحث الرابع : فى أدلة رعاية المصلحة على التفصيل ، وهى من الكتاب ، والسنة والإجماع ، والنظر ، ولندكر من كل منها يميزاً على جهة ضرب المثال ، إذ استقصاء ذلك بعيد المثال .

أما الكتاب فنحو قوله تعالى : « ولستم فى القصاص حياة . والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . » وهو كثير ، ورعاية مصلحة الناس فى نفوسهم وأموالهم وأعراضهم مما ذكرناه ظاهر ، وبالجملة فما من آية من كتاب الله عز وجل ، إلا وهى تشتمل على مصلحة أو مصالح كما تميزتها فى غير هذا الموضع .

وأما السنة فنحو قوله عليه الصلاة والسلام : ( لا يبيع بعضكم على بيع بعض ، ولا يبيع

حاضر لباد ، ولا تسكح المرأة على عمتها أو خالتها إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ) وهذا ونحوه في السنة كثير ، لأنها بيان الكتاب ، وقد بينا اشتغال كل آية منه على مصلحة ، والبيان على وفق المبين .

وأما الإجماع فقد أجمع العلماء إلا من لا يعتد به من جامدى الظاهرية على تعليل الأحكام بالمصالح المرسله ، وفي الحقيقة الجميع قائلون بها ، حتى المخالفون في كون الإجماع حجة قالوا بالمصالح ، ومن ثم علل وجوب الشفعة برعاية حق الجار وجواز السلم والإجارة بمصلحة الناس مع مخالفتها للقياس ، إذ هما معاوضة على معدوم وسائر أبواب الفقه ومسائله فيما يتعلق بحقوق الخلق لعل المصالح .

وأما النظر فلا شك عند كل ذى عقل صحيح ، أن الله عز وجل راعى مصلحة خلقه عموماً وخصوصاً ، أما عموماً ففي مبدئهم ومعاشهم ، أما المبدأ فحيث أوجدهم بعد العدم على الحياة التي ينالون بها مصالحهم في حياتهم ، ويجمع ذلك قوله عز وجل : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك » ، وقوله عز وجل : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، وأما المعاش فحيث هبأ لهم أسباب ما يعيشون به ويتمتعون به من خلق السموات والأرض وما بينهما وجميع ذلك في قوله عز وجل : « ألم نجعل الأرض مهاداً ، إلى قوله : إن يوم الفصل كان ميقاتاً » ، وفي قوله عز وجل : « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صبا » ، إلى قوله عز وجل « متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وأما خصوصاً فرعاية مصلحة العباد السعداء حيث هدام السيل ، ووقفهم لنيل الثواب الجزيل ، في خير مقيل .

وعند التحقيق إنما راعى مصلحة العباد عموماً ، حيث دعا الجميع إلى الإيمان الموجب لمصلحة العباد ، لكن بعضهم فرط بعدم الاجابة بدليل قوله عز وجل : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ، تحرير هذا المقام ، أن الدعاء كان عموماً والتوفيق المكمل للمصلحة ، المصحح لوجودها ، كان خصوصاً ، بدليل قوله عز وجل : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ، فدعاً عاماً ، وهدى ووفق خاصاً .

إذا عرف هذا فن المحال أن يراعى الله عز وجل مصلحة خلقه في مبداهم ومعادهم ومعاشهم ، ثم يهمل مصلحتهم في الأحكام الشرعية ، إذ هي أهم فكانت بالمرعاة أولى ، ولأنها أيضا من مصلحة معاشهم ، لأنها صيانة أموالهم ودمائهم وأعراضهم ، ولا معاش لهم بدونها ، فوجب القول بأنه راعاها لهم . وإذا ثبت رعايته إياها ، لم يجوز إهمالها بوجه من الوجوه . فإن وافقها النص والإجماع وغيرهما من أدلة الشرع فلا كلام . وإن خالفها دليل شرعى ، وُفق بينه وبينها بما ذكرناه ، من تخصيصه وتقديمها بطريق البيان .

وأما أن رعاية المصلحة مبرهنة ، فقد دل عليه ما ذكرناه من اهتمام الشرع بها وأدلتها .

ثم قال الطوفي بعد بيانه الإجماع وأدلتها ومعارضتها :  
ومما يدل على تقديم رعاية المصلحة على النصوص والإجماع على الوجه الذى ذكرنا وجوه .

أحدها : أن منكرى الإجماع قالوا برعاية المصالح ، فبى إذا محل وفاق والإجماع محل الخلاف ، والتمسك بما اتفقوا عليه أولى من التمسك بما اختلفوا فيه .  
الوجه الثانى : إن النصوص مختلفة متعارضة ، فبى سبب الخلاف فى الأحكام المذموم شرعا ، ورعاية المصلحة أمر متفق فى نفسه لا يختلف فيه ، فهو سبب الاتفاق المطلوب شرعا ، فكان اتباعه أولى ، وقد قال الله عز وجل : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » ، وقال عز وجل فى مدح الاجتماع : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « وكونوا عباد الله إخوانا » .

الثالث : قد ثبت فى السنة معارضة النصوص بالمصالح ونحوها فى قضايا ، منها : معارضة ابن مسعود النص والإجماع ، بمصلحة الاحتياط للعبادة كما سبق ، ومنها قوله عليه السلام حين قرع من الأحزاب : « لا يصلين أحداكم العصر إلا فى بنى قريظة » ، فصلى أحدهم قبلها وقالوا لم يرد منا ذلك وهو شبيه بما ذكرنا

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة : « لو لا قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد ابراهيم ، وهو يدل على أن بناءها على قواعد ابراهيم هو الواجب في حكمها ، فتركه لمصلحة الناس .

ومنها أنه عليه السلام لما أمرهم بجعل الحج عمرة ، قالوا كيف وقد سمي لنا الحج ؟ وتوقفوا ، وهو معارضة للنص بالعادة ، وهو شبيه بما نحن فيه .

وكذلك يوم الحديبية ، لما أمرهم بالتحلل توقفوا ، تسكوا بالعادة في أن أحداً لا يحل قبل قضاء المناسك ، حتى غضب صلى الله عليه وسلم وقال : « ما لي آمر بالشئ فلا يفعل ، .

ومنها ما روى أبو يعلى الموصلى في مسنده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر ينادى : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فوجده عمر فرده وقال : إذا يتكلموا ، وكذلك رد عمر أبا هريرة عن مثل ذلك في حديث صحيح ، وهو معارضة لنص الشرع بالمصلحة ، فكذلك من قدم رعاية مصالح المكلفين على باقى أدلة الشرع ، يقصد بذلك إصلاح شأنهم ، وانتظام حالهم ، وتحصيل ما تفضل الله به عليهم من الصلاح ، وجمع الأحكام من التفرق واتلافها عن الاختلاف ، فوجب أن يكون جائزاً إن لم يكن متعيناً ، فقد ظهر بما قررناه ، أن دليل رعاية المصالح ، أقوى من دليل الإجماع ، فليقدم عليه وعلى غيره من أدلة الشرع ، عند التعارض بطريق البيان .

فإن قيل حاصل ما ذهبتم إليه تعطيل أدلة الشرع بقياس مجرد ، وهو كقياس إبليس ، فاسد الوضع والاعتبار ، قلنا : وَهَمْ واشتباه ، من نائم بعد الانتباه ، وإنما هو تقديم دليل شرعى على أقوى منه ، وهو دليل الإجماع على وجوب العمل ، بالراجح كما قدمتم أنتم الإجماع على النص ، والنص على الظاهر ، وقياس إبليس وهو قوله : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، لم يتم عليه ما قام على رعاية المصالح من البراهين ، وليس هذا من باب فساد الوضع ، بل من باب تقديم رعاية المصالح كما ذكرنا .



فان قيل الشرع أعلم بمصالح الناس وقد أودعها أدلة الشرع وجعلها أعلاما عليها يعرف بها ، فترك أدلته غيرها مراغمة ومعاندة له ، قلنا : أما كون الشرع أعلم بمصالح المكلفين فنعم ، وأما كون ما ذكرناه من رعاية المصالح تركا لأدلة الشرع بغيرها فممنوع ، بل إنما ترك أدلته بدليل شرعى راجح عليها ، مستند إلى قوله عليه الصلاة والسلام «لا ضرر ولا ضرار» كما قلنا في تقديم الاجماع على غيره من الأدلة ، ثم إن الله عز وجل ، جعل لنا طريقا إلى معرفة مصالحنا عادة ، فلا نتركه لأمر مبهم ، يحتمل أن يكون طريقا إلى المصلحة ، ويحتمل أن لا يكون .

فان قيل خلاف الأمة في مسائل الأحكام رحمة وسعة ، فلا يحويه حصر بحكم في جهة واحدة ، لئلا يضيق عليهم مجال الاتساع ، قلنا : هذا الكلام ليس منصوبا عليه من جهة الشرع حتى يتمثل ، ولو كان لكان مصلحة الوفاق أرجح من مصلحة الخلاف فتقدم ، ثم ما ذكرتموه من مصلحة الخلاف بالتوسعة على المكلفين معارض بمفسدة تعرض منه ، وهو أن الآراء إذا اختلفت وتعددت اتبع بعض الناس رخص المذاهب ، فأفضى إلى الانحلال والفجور ، وأيضا فان بعض أهل الذمة ربما أراد الإسلام فتمنعه كثرة الخلاف وتعدد الآراء ، لأن الخلاف منفور عنه بالطبع ، ولهذا قال عز وجل : «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها» أى يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، لا يختلف إلا بما فيه من التشابهات ، وهى ترجع إلى المحكمات بطريقها ، ولو اعتمدت رعاية المصالح المستفادة من قوله عليه الصلاة والسلام «لا ضرر ولا ضرار» على ما تقرر لاتحد طريق الحكم وانتفى الخلاف . فان قيل هذه الطريقة التى سلكتها ، إما أن تكون خطأ فلا يلتفت إليها ، أو صوابا فإما أن ينحصر الصواب فيها ، أولا ، فان انحصر ، لزم أن الأمة من أول الإسلام إلى حين ظهور هذه الطريقة على خطأ ، إذ لم يقل بها أحد منهم ، وإن لم ينحصر فهى طريقة جائزة من الطرق ، ولكن طريق الأئمة التى اتفقت الأمة على اتباعها أولى بالمتابعة لقوله عليه الصلاة والسلام «اتبعوا السواد الأعظم فان من شذ شذ فى النار» .

فالجواب أنها ليست خطأ لما ذكرنا عليها من البرهان ، ولا الصواب منحصر

فيها قطعاً، بل ظناً واجتهاداً ، وذلك يوجب المصير إليها ، إذ الظن في الفرعيات كالقطع في غيرها . وما يلزم على هذا من خطأ الأمة فيما قبله ، لازم على رأى كل ذى قول ، أو طريقة انفرد بها ، غير مسبوق إليها ، والسواد الأعظم الواجب إتباعه هو الحجة والدليل الواضح ، وإلا لازم أن يتبع العلماء العامة إذا خالفهم لأن العامة أكثر ، وهو السواد الأعظم .

واعلم أن هذه الطريقة هي التي قررناها مستفيدين لها من الحديث المذكور ، ليست هي القول بالمصالح المرسلة على ما ذهب إليه مالك ، بل هي أبلغ من ذلك ، وهي التعويل على النصوص والإجماع في العبادات ، والمقدرات ، وعلى اعتبار المصالح في المعاملات ، وباقي الأحكام .

وتقرير ذلك أن الكلام في أحكام الشرع ، إما أن يقع في العبادات والمقدرات ونحوها ، أو في المعاملات والعادات وشبهها ، فإن وقع في الأول ، اعتبر فيه النص والإجماع ونحوهما من الأدلة .

غير أن الدليل على الحكم إما أن يتحد ، أو يتعدد ، فإن اتحد مثل إن كان فيه آية ، أو حديث ، أو قياس ، أو غير ذلك ، ثبت به . وإن تعدد لدليل مثل إن كان آية وحديثاً واستصحاباً ونحوه ، فإن اتفقت الأدلة على إثبات أو نفي ثبت بها . وإن تعارضت فيه ، فإما تعارضاً يقبل الجمع أولاً يقبله ، فإن قبل الجمع جمع بينهما ، لأن الأصل في أدلة الشرع الإعمال لا الإلغاء ، غير أن الجمع بينهما يجب أن يكون بطريق قريب واضح ، لا يلزم منه التلاعب ببعض الأدلة ، وإن لم يقبل الجمع فالإجماع مقدم على ما عداه من الأدلة التسعة عشر ، والنص مقدم على ما سوى الإجماع ، ثم إن النص منحصراً في الكتاب والسنة ، ثم لا يخلو إما أن ينفرد بالحكم أحدهما أو يجتمعا فيه ، فإن انفرد به أحدهما فإما الكتاب أو السنة ، فإن انفرد به الكتاب ، فإما أن يتحد الدليل أو يتعدد ، فإن اتحد بأن كان في الحكم آية واحدة عمل بها ، إن كانت نصاً أو ظاهراً فيه ، وإن كانت بحملة ، فإن كان أحد احتماليها أو احتمالاتها أشبه بالأدب مع الشرع ، عمل به وكان ذلك كاليان .

وإن استوى احتمالها في الأدب مع الشرع جاز الأمران، والمختار أن يتعبد بكل منهما مرة .

وإن لم يظهر وجه الأدب وقف الأمر على البيان .

وإن تعدد الدليل من الكتاب فإن كان في الحكم منه آيتان أو أكثر ، فإن اتفق مقتضاهن فكألاية الواحدة ، وإن اختلف ، فإن قبل ، الجمع جمع يبينه بتخصيص أو تقييد أو نحوه ، وإن لم يقبل الجمع ، فإن علم نسخ بعضها بعينه فيها ، وإلا فالمنسوخ منهما مبهم فليستدل عليه بموافقة السنة غيره ، إذ السنة بيان الكتاب ، وهي إنما تبين ما ثبت حكمه لا ما نسخ ، وإن انفردت السنة بالحكم فإن كان فيه حديث واحد فإن صح عمل به كألاية الواحدة ، وإن لم يصح لم يعتمد عليه ، وأخذ الحكم من الكتاب إن وجد ، وإلا فن الاجتهاد إن ساغ ، مثل أن يعمل بما هو أشبه بالأدب مع الشرع وتطعيم حقه وإن لم يسغ فيه الاجتهاد ، وقف على البيان .

وإن كان فيه أكثر من حديث ، فإن صح جميعها ، فيما أن تساوى في الصحة أو تفاوتت ، فإن تساوت في الصحة ، فإن اتفق مقتضاها ، فكالحديث الواحد ، وإن اختلفت ، فإن قبلت الجمع ، جمع بينها ، وإلا فبعضها منسوخ ، فإن تعين ، وإلا استدل عليه بموافقة الكتاب أو الإجماع غيره ، أو بغير ذلك من الأدلة .

وإن لم تصح جميعها ، فإن كان الصحيح منها واحداً ، فكما لم يكن في الحكم إلا حديث واحد ، فإن كان الصحيح أكثر من واحد ، فإن اتفقت عمل بها ، وإن اختلفت ، جمع بينها إن أمكن الجمع ، وإلا فبعضها منسوخ كما سبق فيما إذا كان جميع الأحاديث صحيحاً .

وإن تفاوتت في الصحة ، فإن كان بعضها أصح من بعض ، فإن اتفق مقتضاها فلا إشكال ، كالحديث الواحد ، وإن تعارضت ، فإن قبلت الجمع جمع بينها ، وإن لم تقبله قدم الأصح فالأصح .

ثم إن اتحد الأصح عمل به ، وإن تعدد فإن اتفق فكالحديث الواحد ، وإن تعارض ، جمع بينه إن قبل الجمع ، وإلا فبعضه منسوخ معين أو مبهم ، يستدل عليه بما سبق ، وإن اجتمع في الحكم كتاب وسنة ، فإن اتفقا عمل بهما ، وأحدهما بيان

للاخر أو مؤكد له ، وإن اختلفا ، فإن أمكن الجمع بينهما جمع ، وإن لم يمكن فإن اتجه نسخ أحدهما بالآخر نسخ به ، وإن لم يتجه فهو محل نظر وتفصيل ، والأشبه تقديم الكتاب ، لأنه الأصل الأعظم ولا يترك بفرعه .  
هذا تفصيل القول في أحكام العبادات .

أما المعاملات ونحوها فالتبع فيها مصلحة الناس كما تقرر .

فالمصلحة وباقى أدلة الشرع إما أن يتفقا أو يختلفا ، فإن اتفقا فيها ونعمت ، كما اتفق النص والإجماع والمصلحة ، على إثبات الأحكام الخمسة الكلية الضرورية ، وهى : قتل القاتل ، والمرتد ، وقطع السارق ، وخد القاذف ، والشارب ، ونحو ذلك من الأحكام التى وافقت فيها أدلة الشرع المصلحة ، وإن اختلفا ، فإن أمكن الجمع بينهما بوجه ما جمع ، مثل أن يحمل بعض الأدلة على بعض الأحكام والأحوال ، دون بعض على وجه لا يخل بالمصلحة ، ولا يفضى إلى التلاعب بالأدلة أو بعضها ، وإن تعذر الجمع بينهما قدمت المصلحة على غيرها لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » ، وهو خاص فى نفي الضرر المستلزم لرعاية المصلحة فيجب تقديمه ، ولأن المصلحة هى المقصودة من سياسة المكلفين بإثبات الأحكام وباقى الأدلة كالوسائل ، والمقاصد واجبة التقديم على الوسائل .

ثم إن المصالح والمفاسد قد تتعارض فيحتاج إلى ضابط يدفع محذور تعارضها فنقول : كل حكم نفرضه ، فإذا أن تتمحض مصلحته ، فإن اتحدت ، بأن كان فيه مصلحة واحدة حصلت . وإن تعددت بأن كان فيها مصلحتان ومصالح ، فإن أمكن تحصيل جميعها حصل ، وإن لم يمكن حصل الممكن ، فإن تعذر تحصيل ما زاد على المصلحة الواحدة ، فإن تفاوتت المصالح فى الاهتمام بها ، حصل الأهم منها وإن تساوت فى ذلك ، حصلت واحدة منها بالاختيار ، إلا أن يقع هنا تهمة بالقرعة . وإن تمحضت مفسدته ، فإن اتحدت دفعت ، وإن تعددت فإن أمكن درء جميعها درئت ، وإن تعددت درء منها الممكن ، فإن تعذر درء ما زاد على مصلحة واحدة ، فإن تفاوتت فى عظم المفسدة دُفع أعظمها ، وإن تساوت فى ذلك فبالاختيار أو القرعة أن اتجهت التهمة .

وإن اجتمع فيه الأمران ، المصلحة والمفسدة ، فإن أمكن تحصيل المصلحة ودفع المفسدة تعين ، وإن تعذر فعل الأهم من تحصيل أو دفع ، إن تفاوتتا فى الأهمية وإن تساويا فبالاختيار أو القرعة ، إن اتجهت التهمة .

وإن تعارض مصلحتان أو مفسدتان ، أو مصلحة ومفسدة ، وترجح كل واحد من الطرفين ، من وجه دون وجه ، اعتبرنا أرجح الوجهين تحصيلاً أو دفعاً فإن استويا فى ذلك عدنا إلى الاختيار أو القرعة .

فهذا ضابط مستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار ، يتوصل به إلى أرجح الأحكام غالباً ، وينتفى به الخلاف بكثرة الطرق والأقوال . مع أن فى اختلاف الفقهاء فائدة عرضت خارجة عن المقصود ، وهى معرفة الحقائق التى تتعلق بالأحكام وأعراضها ونظائرها ، والفروق بينها ، وهى شبيهة بفائدة الحساب من جزالة الرأى .

وإنما اعتبرنا المصلحة فى المعاملات ونحوها دون العبادات وشبهها ، لأن العبادات حق للشرع ، خاص به ، ولا يمكن معرفة حقه كمّاً وكيفاً ، وزماناً ومكاناً إلا من جهته ، فيأتى به العبد على ما رسم له ، ولأن غلام أحدنا لا يعد مطيعاً خادماً له ، إلا إذا امثل مارسم له سيده ، وفعل ما يعلم أنه يرضيه ، فكذلك ههنا ، ولهذا لما تعبدت الفلاسفة بعقولهم ، ورفضوا الشرائع ، أخطوا الله عز وجل وضلوا وأضلوا ، وهذا بخلاف حقوق المكلفين ، فإن أحكامها سياسية شرعية وضعت لمصالحهم ، وكانت هى المعتبرة وعلى تحصيلها المعول .

ولا يقال أن الشرع أعلم بمصالحهم ، فلتؤخذ من أدلته ؛ لانا نقول : قد قررنا أن المصلحة من أدلة الشرع ، وهى أقواها وأخصها ، فلنقدمها فى تحصيل المصالح . ثم هذا إنما يقال فى العبادات التى تخفى مصالحها عن مجارى العقول والعادات ، أما مصلحة سياسة المكلفين فى حقوقهم ، فهى معلومة لهم بحكم العادة والعقل ، فإذا رأينا دليل الشرع متقاعداً عن إفادتها ، علمنا أننا أحلنا فى تحصيلها على رعايتها ، كما أن النصوص لما كانت لا تنفى بالأحكام ، علمنا أننا أحلنا بتمامها على القياس ، وهو إلحاق المسكوت عنه بالمنصوص عليه بإجماع بينهما ، والله عز وجل أعلم بالصواب .

# صَوْتُ التَّقْرِيبِ

« دار التقريب » بمثابة جهاز إرسال واستقبال بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، عنها يصدر « صوت التقريب » ولإليها يرجع ، وعلى هذه الصفحات من « رسالة الاسلام » في كل عدد تسجيل الصدى (\*) .

## ١ — من العراق :

كتب الينا حضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل الحاج شيخ عبد الحسين رشتي معلقاً على ما نشرناه في المدين الثالث والرابع من السنة الأولى يقول ما خلاصته : إنه قرأ ما كتبناه جواباً عن المسائل الثلاث التي كانت في طي سؤاله عن كيفية التقريب بين طوائف يكون الخلاف في أصولهم ، فلم يجد فيه شيئاً عن بيان طريق الائتلاف والتقريب ، وكان المهم بيانه ، كما أن السؤال كان عنه .

ثم أتى بمقدمة لبيان أن الخلاف بين فرق المسلمين إنما هو خلاف في الأصول ، ذكر فيها أمرين : الأول - أنا لو نظرنا إلى معنى الإسلام وحقيقته علمنا أنه إما عبارة عن الإقرار باللسان والعمل بالجوارح والحركات - إقرار وعمل - وإما عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان - علم وإقرار وعمل - كما يظهر من الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله في بيان معنى الإسلام والإيمان ، وكل فرق الإسلام مشترك في هذا الأمر .

(\*) « دار التقريب » هي المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيرتها ومكتبتها الكبرى

الثاني : أنا لو نظرنا إلى فرق الإسلام وطوائفه علنا بوجود خلافات وآراء أساسية ، بها تمتاز كل فرقة عن فرقة وطائفة عن طائفة ، وهذا الخلاف متى وجد وكيف ظهر ليس هنا محل بيانه ، والخلافات الموجودة بين المسلمين لا تخلو عن أحد ثلاثة .

الأول : في الأصول .

الثاني : في الفروع .

الثالث : الناشئ عن أقلام مستأجرة ونزعات قومية جاهلية ، ومن بعض الكنية المباهتين لفرق الاسلام وطوائفه إيقاداً للفتنة وتفريقاً بين المسلمين وابتغاء لعرض الدنيا ، وربما كان من الأجانب الذين يهمهم أن تبطل عوامل الائتلاف وأسباب المودة يكتبون من تلقاء أنفسهم أشياء ثم ينسبونها إلى أصول طائفة أو فروع طائفة حتى تتكون بينهم العداوة والبغضاء ليسودوا عليهم في ديارهم وأوطانهم خذلهم الله .

ثم قال : وهذا الخلاف في الحقيقة يرجع إلى الخلاف في الأولين ، ولا يمكن لأحد ولا جمعية إصلاحه لأسباب لا تخفى على البصير .

وأما الخلاف الذي في الفروع فلا ضرر منه ولا ضير ، لأنه ناشئ عن طرق الاستنباط من الأدلة المقررة في أصول الفقه ، وهو يكون بين أفراد كل طائفة من ذوي رأيها .

ويظهر من جماعة التقريب أنها لا تريد المساس بالفقه الاسلامي ، ولا لإدماج مذاهبه بعضها في بعض كما هو الحق ، وليس لأحد القول به ، بل لا يمكن ولن يمكن الذهاب إليه ، لأن باب الفهم والاستنباط من الأدلة المقررة في محله مفتوح لكل مجتهد من كل فرقة وطائفة .

فبقي الخلاف في الأول — الخلاف في الأصول — وبه أمتازت كل فرقة عن الأخرى ، وكل طائفة عن أختها . وإن الخبر المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، يشير إلى الخلاف في الأصول .

فبان أن الخلاف والاختلاف الواقع بين المسلمين من جهة تفرقتهم في الأصول لا غير ، فيجب على رجالات الإصلاح التفكير في الإصلاح بينهم من هذه الناحية .

ثم أعاد ذكر المسائل التي أجبنا عنها وعلق على ذلك بقوله :

هل في هذه الأسئلة نسبة أهل السنة بأجمعهم إلى القول بالتجسيم ، أو القول بزيادة الصفات على الذات ، أو القول بأن الظلم سائغ عنه ، حتى يستدل فضيلته بأقوال بعض العلماء في نفيها (١) بل قلنا بالإيجاب الجزئى بوجود القائلين لها ، كما هو الواقع ولا يمكن لأحد إنكاره ، والسلب الجزئى لا ينافي بالإيجاب الجزئى .

وهل فيها نسبة إحدى الفرق إلى الكفر ، والزندقة أو الإزراء بأحدى الفرق أو بأن الخلاف يترتب عليه الإيمان أو الكفر ، سبحانه هذا بهتان عظيم .

هـب أنا سلمنا كل ما كان في صوت التقريب من الجواب ، وهل به يتم التقريب بين الطوائف التي يكون الخلاف في أصولهم ؟ وهل الفوز بهذا الغرض الاسمي يحصل بسرد هذه الألفاظ الفصيحة والأقوال البليدة ؟ وهل الائتلاف بين الفرق يحصل بأمثال هذه المقالات والخطب ؟ كلا .

ثم قال : وأما إعجابه من عدنا هذه المسائل من الأصول فقد ظهر في الأمر الأول أن أمثال هذه المسائل تعد من الأصول ، واستدل على ذلك بعبارة ساقها للعلامة التفتازانى في شرحه على متن العقائد النسفية جاء فيها : : اعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية ، والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام ، لما أنها لا تستفاد إلا من جهة الشرع ، ولا يسبق الفهم عند إطلاق الأحكام إلا إليها ، وبالثانية علم التوحيد والصفات لما أن ذلك أشهر مباحثه ، وأشرف مقاصده ، الخ .

(١) كان في وسعنا إثبات القائل به من كتب علماء العصر .



رسالة الاسودم : نرجو أن يتنبه الأستاذ الجليل إلى ما يأتي :

(١) كلمة « الأصول » في كلامه وفي كلامنا ، ليست بمعنى واحد ، فمحن نريد بها قواعد الدين الأساسية التي يترتب عليها الكفر والإيمان ، كما هو واضح بما كتبناه - ونحيله في ذلك على صوت التقريب في العددين الثالث والرابع تحت عنوان : « بيان لا بد منه » ، و« في العراق » فإنه يظهر لنا أن الأستاذ لم يعن بقرائه كما ينبغي - أما فضيلته فيريد بها المباحث الكلامية أيا كانت سواء أكانت أساسية في الإيمان والكفر أم لا .

(٢) نحن لم نردّ على « الإيجاب الجزئي » بسلب جزئي ، فقد قلنا : « إن المسألة الأولى » ، وهي كون الله تعالى ليس جسما ولا جسمانيا أمر متفق عليه بين جميع الطوائف الإسلامية الحاضرة » ، فإن سلم الأستاذ هذا ، لم تكن هذه المسألة من الخلافات التي يعدها عقبة في سبيل التقريب ، وإلا فليفصح عن بعضهم من طوائف المسلمين الحاضرة التي تدين بالتجسيم ، أما في المسألتين الأخريين فقد وجهنا رأي كل فريق ، وأخرجنا المسألة عن أن تكون من الأصول بالمعنى الذي أوضحناه مرارا .

(٣) أغراض التقريب ووسائل تحقيقها موضحة ببيان الجماعة وقانونها الأساسي وما نشرناه مرارا في هذا الشأن على صفحات هذه المجلة ، ولا ينبغي أن يتهاون أحد بقيمة الكتابة والإقناع والدعوة ، بين الوسائل التي تتوسل بها جماعة التقريب فإن الأمر أمر إقناع وحاجة وبيان ، لا أمر إخضاع بقوة أو نحوها ، وإذا تربي في الأمة الإسلامية جيل مؤمن بما نقول ، وبما نبدي فيه ونعيد ، كان التقرب يومئذ - لا التقريب - حقيقة واقعة ، وللاستاذ منا ، بعد هذا ، خالص التحية .

**ب — منه ابراهه :**

وكتب إلينا حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد الكرمي نزيل قم — حوزتها العلمية — كتابا جاء فيه :

من الآمال الصالحة التي يزويها دماغ المسلم الحر والمؤمن الصريح ان تكون رابطة ثقافية منصفة ، تدعو إلى الوحدة الحققة ، والانضواء تحت راية الإيمان والإسلام ، وذلك ما تدعيه جماعة التقريب لأنفسها . ولكن هل يمكن كُلم هذه الفرق المتشعبة ، الرامية — كما يزعم كل منها — إلى الإسلام ، أولا ، ؟ وهل تستطيع جماعة دار التقريب بخاص أنفسها لم هذا الشعث بعد إمكانه « ثانياً ، ؟ وهل تقوم هذه الوسائل التي اتخذها الجماعة في سبيل مرامهم بواجبات ما يلزم في هذه الوحدة « ثالثاً ، ؟ فهذه ثلاث نقاط يجب أن يشرحها البحث .

فأما مسألة إمكان هذا التوحيد بصورة دقيقة جدا بحيث يستطيع ملاشاة كل فارق بين هذه الفرق بالبرهان القاطع والدليل - أولاً - وإخماد نائرة العصبية من التدخل في العقائد — ثانياً — وجمع العقول والقلوب على نقطة واحدة ، لا اختلاف فيها ولا خلاف — ثالثاً — فذلك من المستحيلات العادية حتماً ، والمنازع في هذه المرحلة مكابر بلا شبهة .

نعم إمكان توحيد الأصوات المتباينة في دعاية كل منها لخاصة نفسه ، إلى صوت واحد يدعو إلى الإسلام والإيمان بكتابه وسنته الصحيحة ، ونظمه المتأنفة من صاحب الدعوة على يد أجياله ، وسلسله رجاله النقاء ، فذلك له حظ من الصحة والقبول ، ولكن يحتاج إلى قطع عقبات ليست بقليلة المؤنة من كل شيء .

وأما مسألة جماعة دار التقريب واستطاعتهم بخاص أنفسهم إلى رتق هذا الفتق ، فن غير ذم لهم ، ولا انتقاد لأقل رجل فيهم - يشهد الله - لا يستطيعون النهوض بهذا العبء ، مالم يستدعوا رموس الفرق المهمة ، وأهل الحل والعقد والعلم والعمل منهم ، إلى مشاطرتهم في هذا الموضوع الرهيب ، والتوسل إلى حضورهم

في هذا المقام بكل وسيلة تستطيع ، فإن لأصواتهم أثرا عميقا في قلوب أتباعهم ، لا تستطيع جماعة التقريب بمحض رسالتها هذه - وإن كانت قيمة - أن تبلغه .  
وأما مسألة الوسائل التي اتخذوها لمثل مشروعهم هذا ، ففيها مواقع للنظر .  
أما أولا : فيجب أن تكون مجلتها ذات وضع خاص ، يلائم روح دعوتها ، فلا يبحث فيها عن الموضوعات التي لا تتصل بمهمتها .

وأما ثانيا : فنلزام على أعضاء دار التقريب أن يعنونوا الفوارق بين المذاهب ، ويبحثوا عنها صحة وبطلانها ، ويبينوا هل يليق أن تكون حاجزا بين قبيل وقبيل من المسلمين أو لا ؟ مع مراعاة كمال الأدب - كما هو ديدنهم .  
وأما ثالثا : فيجب على هيئتها التحريرية القضاء تأييدا وتفصيلا تحت كل مقال تشره في المذاهب حتى يستبين الحق لطالبه . —

ومن الطريف جدا أنا نرى كثيرا من الناس يجذون طريقة التقريب وسعى جماعته ويتظاهرون بالوقوف في مصاف أهله ، ولكن من دون أن يتزحزحوا عن عقائدهم ومشاربهم وعصبياتهم قدر أصبع .  
وأما رابعا : فقد بلغني أن ستة هذه المجلة أربعة أشهر وهذه المدة قليلة جدا في حق دار التقريب فانها في حاجة ماسة إلى نشر منوياتها عاجلا ، وعلى اتصال ، حتى ينتبه من صرعه سكر الغفلة ، ويهتدى بتعاليمها القيمة من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

هذه رسالتي ، أقدمها الى رسالة الاسلام ، مع كمال الإخلاص لها ، ولدعوتها ، ولرجالها الأحرار ، راجيا لإمعان النظر فيها والقضاء بالانصاف ؟

رسالة الموصوف : نشكر الاستاذ الفاضل على غيرته ، ولا شك أن المرتقى صعب ، ولكنه يسير لو تألفت القلوب ، وخلصت النيات ، أما ماعسى أن يكون من نقص يراه الاستاذ في بعض وسائلنا ، فله الكمال وحده ، والتدرج كفيل بالإحسان لمن اجتهد ، ولعل الاستاذ يجد في كلمة التحرير بهذا العدد ما يرضيه ، والله المستعان ؟

## فهرس

كلمة التحرير .....	لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير ٣
تفسير القرآن الكريم .....	لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ٨
شعب من الفرق يضرب مثلاً ...	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ١٨
قانون التوازن بين الفرق والقرب	لحضرة صاحب المعالي السيد محمد رضا الشيبى ٢١
النظام المالي في الإسلام .....	لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك ٢٤
القرآن والمفسرون .....	لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محسن ٢٩
الشخصية المحمدية .....	لحضرة صاحب العزة الأستاذ فريد وجدي بك ٣٤
حقوق الإنسان .....	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى ٣٨
وحدة المسلمين .....	لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ علي الخفيف ٤٤
حماية الحيوان في شريعة القرآن ...	لحضرة الكاتب الأستاذ توفيق الفكيكي ٥١
هل تمعدنا الفرع بالهدى .....	لحضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد جواد مغنیه ٦٦
أشعار من القلوب .....	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز محمد عيسى ٧٢
عناصر وجود الأمة الإسلامية ...	لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض ٨٠
زخرفة الأخشاب في الفن المصري الإسلامي	لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور جمال محرز ٨٧
المصلحة في الشريعة الإسلامية ...	من بحوث العلامة نجم الدين الطلوفى ٩٤
صوت التقريب .....	١٠٦
(أ) من العراق .....	١٠٦
(ب) من إيران .....	١١٠

## رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية  
تصدر من دار النشر بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير: محمد محمد المديني مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة: ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك. القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤  
قيمة الاشتراك عن سنة في البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً  
وفي أمريكا أربعة دولارات وفي البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

جمادى الآخرة ١٣٦٩ هـ  
أبريل ١٩٥٠ م

السنة الثانية  
المعد الثاني

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ  
”وَرَأَى كَرِيمٌ“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة التحريم

تسلطت « المدينة الغربية » زمام العالم في القرنين الأخيرين ، لجرت به في مضمار التقدم العلى والفنى والصناعى ، حتى انتهت إلى هذه الحضارة المادية الآلية التى أخذت فيها الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها .

ولكنها تنكبت سبيل الحياة السعيدة التى يجب أن يشعر فى ظلها كل فرد وكل شعب بأنه آمن مطمئن متمتع بكافة حقوقه ، وظلت تعبت بكل معنى شريف وتحارب كل خلق كريم ، وتهزأ بما أبقت المدينيات التى ورثتها من تقاليد ومُثل ، حتى جرّت العالم إلى حافة هاويةٍ صحيقة يوشك أهله أن يتردّوا فيها ، وأن يأتى الأرض أمرُ الله ليلا أو نهاراً فتصبح حصيداً كأن لم تغن بالأمس .

ويرى كثير من المفكرين فى الشرق والغرب أن نجاة العالم ، وصلاح أمره ، واستقامة أحواله ؛ كل ذلك رهن بأن يقوم فيه نظام يبنى على أسس من الشرق والغرب ، فيأخذ عن الغرب علومه وأفانينه المادية والعملية ، ويأخذ عن الشرق الإيمان والروح والمثل المعنوية .

ولا شك أن هذه فكرة جذابة ، قوية التأثير ، صالحة للزواج فى الشرق والغرب ، ولذلك نرى الكتاب ودعاة الإصلاح فى عصرنا الحاضر معنيين بها ، يفيضون فى بيان جدواها وآثارها ، ولكنها - لو أنعمنا النظر - فكرة تحتاج إلى شيء من التقويم ، وإذا ساغ أن ينادى بها المنادون من أهل الغرب ، فلا ينبغى أن يتخذع بها أهل الشرق .

ذلك بأن الغربيين يحسبون الاسلام كغيره من الأديان التى لا تغنى إلا بالروح والخلق والمعنويات ، وأن الشرق متمسك به على هذا الفهم ، صادفٌ عن المشاركة

في المادة ، وملابسة شئون الحياة العملية ، وأن الغرب هو مصدر القوة والنشاط والعمل المادى والفنون العلمية والصناعية من دون الشرق .

يزعم الغربيون ذلك ، ويوحون به إلى أوليائهم وراضى لبانهم ، وهم في ذلك فريقان : فريق جاهل بالإسلام ، لا يعرف من أمره إلا أنه دين من الأديان السائدة في الأمم المتأخرة الضعيفة الجاهلة ، فهو يحكم عليه بما يرى من أحوال أهله ، وفريق ما كر خبيث يعرف حقيقة الإسلام ويتجاهلها ويصد عنها ، لتبقى للغرب السيادة ، وللشرق الذلة والمهانة .

فاذا جهل الغربيون أمر الإسلام أو تجاهلوه ، فليس ذلك بدعا ، إنما البِدْع والنشكر أن يدخل ذلك على المسلمين ، وأن يستطيع خبثاء الاستعمار لى العقول والقلوب إليه . إن الذين ينادون من بيننا بنظام للعالم شرقى غربى ، هم أيضاً فريقان : فريق حسن النية ، وقعت لديه الفكرة موقع القبول ، وغره ظاهرها ، وما تلوح به من ميل الى الإسلام ، فلم يفتش عن باطنها ، ولم يلتفت إلى خبيثها ، وفريق مأخوذ بالغرب ، متشبه بأهله ، يزعم كما يزعمون أن دين الله ناقص يحتاج إلى أن يكمل ، وأن الشرائع إنما هي صوم وصلاة وعبادة ليس وراءها ما تصلح عليه شئون هذه الدنيا من علم وعمل .

ولعمري إن من يسلك شريعة القرآن في هذا السلك لجاهل أو جاحد ، فإن هذه الشريعة نظام كامل يرعى شأن الدين والدنيا جميعا ، ويبحث على العلم والسعى والتزود للحياة بزادها ، كما يبحث على الفضيلة والخلق الكريم ، وهو لذلك يكفل للبشر الصلاح والقرار والسعادة ، ويهديهم إلى التي هي أقوم ، ويضمن لهم الحياة الطيبة الكريمة ، دون احتياج إلى الاستظهار بأى نظام من الشرق أو الغرب .

فليدرك المسلمون ذلك ، وليعلموا أنه لا صلاح للعالم إلا بالإسلام في عقيدته وشريعته ، وليبشروا بذلك أقوياء صرحاء غير مترددين ولا متخاذلين ، فإله الله أن يغير ما بالناس ، ويريد أهل الأرض برحمة منه ورشاد ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المرقى



# نَفْسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لِخَطِّ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْأَسْتَاذِ الْجَلِيلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ شَيْخُوت

## سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ  
الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلِهَتِهِ وَكَلِمَاتِهِ  
وَأَقَامَ الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكُونِ وَأَن السَّبِيلِ  
وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمَّا نَادَوْهُ  
إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ  
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

— ٥ —

تقع هذه الآية الكريمة من سورة البقرة في مكان هو واسطة عقد ينظم  
هدفها ، تصور لنا حبات أحد جانبيه توجيه الدعوة إلى بني اسرائيل في سياق يبدأ  
من قوله تعالى : يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي  
أوف بعهدي وإياي فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا  
أول كافرين ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون ، ولا تلبسوا الحق  
بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا  
مع الراكعين ، ثم تأخذ في تذكيرهم بنعم الله على أسلافهم فتذكرهم بالإجابة من

آل فرعون ، وبفترق البحر بهم ، وبميقات موسى لاستلام التوراة ، ثم بعفو الله عنهم بعد أن نكثوا عهد موسى واتخذوا العجل من بعده ، ثم بتظليل الغمام عليهم وإكرامهم بإنزال المن والسلوى ، وبتلبية موسى في استسقائه ربه لهم ، وبتمكينهم مما طلبوا من أنواع الأطعمة ، إلى آخر تلك النعم التي قصتها السورة علينا من هذا الجانب ، ثم تذكركم بلون آخر يرجع إلى ما ارتكبه أسلافهم من أنواع العناد والمكابرة ، وألوان الشبهة التي كانوا يضعونها عقبات للحيلولة بين الناس وبين الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فثندكركم باعتدائهم في يوم السبت ، وعقاب الله لهم على هذا الاعتداء ، وموقفهم من موسى في ذبح البقرة التي أمروا بذبحها كشفا لجريمة القتل التي وقعت فيما بينهم وجهل فاعلها ، ثم بتحريفهم كلام الله من بعد ما عتلوه ، واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلاً ، وبزعمهم أن النازلن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وباعتدائهم على الأنبياء بالتقتيل والتكذيب بعد أن أخذ الله عليهم العهد والمواثيق ، وبإعراضهم عن الإيمان بمحمد بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وبيان خطئهم في زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وهكذا إلى أن بينت موقفهم من إبراهيم وأنهم يعيدون عن الحق الذي دعا إليه إبراهيم ، ووصى به بنوه ، كما وصى به يعقوب من بعده : « يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

ثم جاءت هذه الآية الكريمة لإثبات الحق في موقفهم من الرسول في مسألة القبلة ، واهتمامهم بشأن التوجه إلى ناحية دون ناحية ، واعتبارهم أن ذلك عنوان الحق ، وآية الدين ، وأساس الإيمان والإخلاص في عبادة الله ، وذلك حيث تقول السورة : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ويتلخص شأن هذه المسألة في أن المسلمين كانوا يتجهون أولاً في صلاتهم إلى بيت المقدس ، ثم أمرهم الله بالتوجه إلى الكعبة لحكم وشئون يوحى بها قوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على

عقبيه ، وقوله تعالى : « قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

اتجه المسلمون إلى الكعبة كما أمرهم الله ، وكان ذلك مثارا لثورة فكرية جدلية في أحضان النبوة ، وفي أوائل عهدهم بالمدينة ، وشغلت بذلك جميع الطوائف من مسلمين وأهل كتاب حتى كادوا ينصرفون بها عن إدراك الحق الذي يريده الله ، وعن طريق البر الواضح الذي رسمه الله ، والذي يجب أن تصرف إليه الأنظار وتتوجه إليه القلوب

جاءت هذه الآية تنبه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى أن ثورة هؤلاء في هذا الشأن ليست ثورة طلاب الحق ، وإنما هي ثورة العناد والمكابرة ، وتلس معاذير الإعراض والنفور « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون » ، ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم لئن لك لإذن لمن الظالمين الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين .

جاءت تلك الآيات التي تلونها تكشف لمحمد وأصحابه عن نوايا هؤلاء ، والدوافع النفسية التي دعتهم إلى هذا الموقف من مسألة القبلة ، كما جاءت آية البر تعين لجميع الطوائف أن موقف المتحدثين في هذا الشأن ليس بما يتفق مع حقيقة البر الذي يجب أن تمتلئ بها القلوب الصافية ، وأن قول من قال : لو كان محمد على حق لما اتجه يوما إلى بيت المقدس ويوما إلى المسجد الحرام ، وقول من قال : قد رجع محمد إلى قبلة العرب وسيرجع إلى دينهم ؛ كلاهما بعيد عن الجادة لم يقصد به إلا تليس الحق بالباطل ، وإطفاء ذلك النور الذي جاء به محمد ، وأخذت القلوب تفتتح له ، والعيون ترنو إليه .

هذا هو أحد الجانبين اللذين تصورهما سورة البقرة ، فيما قبل هذه الآية : آية البر وتصور لنا جانب الآخر بعد هذه الآية ما يجب على المؤمنين

أن يتخذوه أساسا في البر بأنفسهم وأمتهم ومجتمعهم ، في جنائياتهم وعباداتهم ، وفي علاقاتهم بمن يخالفهم في الدين ، وفي نظام الأسرة بينهم ، وفيما يوجه عليهم تضامنهم الاجتماعي ، وفيما يطهر مجتمعهم من مساوئ الطغيان المالي ، وفيما يجب أن يتخذوه من وسائل الاستيثاق في الحقوق المدنية ، ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، إلى قبيل آخر السورة ، فتذكر القصاص والعفو عن القصاص ، وتذكر الوصية ، وتذكر الصوم ، والاعتكاف ، وتحذر من أكل أموال الناس بالباطل ، وتذكر الأهل ، وأنها هي التي يعتمد عليها في المواقيت الدينية للناس ، كالصيام والحج وعدة النساء ومدة الإيلاء ، وتذكر بواعث القتال والغاية التي ينتهي عندها القتال ، وتذكر الحج والعمرة ، وتذكر الحر والميسر ، واليتامى وإصلاحهم ، وحكم مصاهرة المشركين أو الإصهار إليهم ، وتذكر حكم المحيض ، ووجوب توقي أذاه ، وتذكر الإيمان والإيلاء من النساء ، وتذكر الطلاق والعدة ، والخلع ، والرضاع ، وتذكر الإنفاق في سبيل الله ، وتضرب لجزائه الأمثال في المضاعفة ، وتذكر أدبه ، وتحذر من الرياء فيه ، وتضرب له الأمثال ، وتذكر الربا وخطأ الناس في إلحاقه بالبيع ، وتوعد عليه بالحق ، وتعلن حرب الله على من اتخذ أساسا له في الحياة ، وتختتم ذلك بقوله تعالى : « وإن تبتم فلكم رموس أموالكم لا تَظْلُمُونَ ولا تُظْلَمُونَ ، ثم تذكر كتابة الديون ، وإملاءها والإشهاد عليها ، وتبين حكمة ذلك بما يرجع إلى تحقيق العدل بين الناس وحفظ الحقوق ، كما تذكر الرهن إذا لم تيسر الكتابة ، ثم تحذر كتمان الشهادة « ولا تكتُموا الشهادة ومن يكتتمها فإنه آثم قلبه ، ثم تختتم السورة ببيان الدعوة المحمدية بقوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، مع بيان سنة الله في تكليف عباده وفي مؤاخذتهم « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وبذلك يلتق — كما قلنا سابقا — آخر السورة مع أولها .

هذه حَبَّاتُ جَانِبِي الْعَقْدِ الَّذِي يَنْتَظِمُ مَوْضُوعَاتُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالَّتِي جَاءَتْ آيَةً

البر واسطة لها ، نسردها على هذا النحو بين يدي تفسيرنا لهذه الآية الكريمة ،  
التي اخترناها لهذا العدد من « رسالة الاسلام » .

وقد سلكتنا بهذا الصنيع سبيلا غير التي ألفها الناس في التفسير ، لنضع بين  
يدي القارئ الموضوعات التي عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية ، والموضوعات  
التي عرضت لها فيما بعدها ، في سلك واحد يجمع بين جات كل جانب ، ويعطى  
للناظر إليه صورة كاملة لجميع ما احتوت عليه تلك السورة الكريمة ، وتعينه على  
الرجوع بكل مسألة فيها إلى نوعها وغرضها التي ترتبط فيه مع زميلاتها .

ولعل القراء يلبسون من هذا الصنيع أيضا ، ذلك المعنى الذي يوحى به اهتمام السورة  
في الجانب الأول من جانبيها اللذين تحدثنا عنهما بتتبع أنباء بنى اسرائيل القديمة ،  
ونقصها على هذا النحو العجيب ، المؤذن بأن هذا الكتاب صادر من الله العليم  
الحكيم الذي يعلم غيب السموات والأرض ، فهو ينبئهم بتفاصيل تاريخهم ،  
ودقائق أحوالهم ، ويصور لهم ذات صدورهم ، بما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ،  
ويشعرون معه بأن هذا الكتاب حق ، وأن هذا النبي حق ، كما يوحى اهتمام  
السورة في جانبها الآخر بعظمة هذا الدين ، وكونه مناجاة واضحة ، وصراطا مستقيما  
يهدى للتي هي أقوم ، ويرسم للناس طريق السعادة ، ويهيئ للأمة حياة هائلة  
مستقرة ، ونظاما قويا يعيشون في ظلالة آمنين مطمئنين .

وإذ تمهد لنا ذلك ، فلنأخذ في تفسير الآية الكريمة فذقول :

وردت كلمة « البر » في مواضع متعددة من القرآن الكريم : منها هذه الآية ، ومنها  
قوله تعالى : « وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى » .  
وقوله تعالى : « لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وقوله تعالى : « وتعاونوا  
على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . « تأمرون الناس بالبر  
وتنسون أنفسكم » . « وتناجوا بالبر والتقوى » . وقد وصف الله عز وجل نفسه  
بأنه « هو البرُّ الرحيم » ، ووصف الملائكة بأنهم « كرام بررة » . ووصف العباد المتقين  
بأنهم أبرار ، والفاسقين بأنهم فجار « إن الأبرار لفي نعيم » ، وإن الفجار لفي جحيم ،  
وجعل كتاب الأبرار في مقابلة كتاب الفجار ، هذا في « سجين » ، وذاك في « علقين » .

ومن هذا يتبين أن « البر » بالنسبة للعبد هو جماع الخير الذي يشمل المعاني النفسية ، والأخلاق الحسنة ، وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيبة يتقرب بها العبد إلى ربه ، وأما بالنسبة إلى الله فهو الثواب والرضا والمحبة الإلهية .

وقد كان العرب يفهمون معنى البر على هذا الوجه ، ويدركون أن كل عمل صالح ، أو نية طيبة ، أو خلق مرضى ، شعبة من شعب البر ، غير أنهم كانوا يخطئون التطبيق أحيانا ، إما لاشتباه في شيء ، هل هو من البر أو من الإثم ؟ كما اشتبه السائل الذي جاء يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم ، فقال له : « استفت قلبك . البر ما أطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . » .

قد يسأل إنسان فقها من الفقهاء عما يخرج من زكاة أمواله ، أو عما صدر منه من تطلق زوجته ، أو عما قضى له به قاض من مال خصمه ، أو عما اقتدت به زوجته من مال الخلع وقد ضارها وأساء إليها وألجأها إلى هذا الاقتداء ، يسأل عن هذا ونحوه فيسمع من المفتي أن شرط الزكاة أن يحول الحول والمال ملكه ، فإذا وهبه ولو لحظة لأحد من الناس ثم استرده ، لم يتم شرط الحول ، فلا تجب الزكاة ، وأن هذا الطلاق قد صدر على امرأة لم يعقد عليها ولي شرعى ، فلم تثبت زوجيتها حتى يقع عليها الطلاق ، وأن القاضى قد حكم للمحكوم له أن يستحل المال ، وأن مال الخلع حق مشروع للزوج لا جناح عليه أن يتمتع به ، وهنا يقع السائل بين وحى الضمير ، وفتوى المفتي : بين الحقيقة يمسها من نفسه ، وبين الظاهر الذى حكم له بمقتضاه ، فالرسول يرشده إلى ترجيح حكم الضمير والوجدان وإن أفتاه المفتون .

وقد يخطئون التطبيق لهوى في النفس ، وتمسك بالتقاليد والعصبيات ، كالمشركين الذين كانوا يرون إتيان البيوت من ظهورها حال الإحرام بالحج برا يرضى الله ، ونسكا يتقرب به إليه ، أو كهؤلاء الذين أفاضوا في حديث القبلة عند الأمر بالتحول إلى الكعبة حتى شغلهم عن كل ما سواه من المعاني الفاضلة ،

والاعمال الصالحة ، وقد قال الله للأولين : « وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » وقال للآخرين : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » . أى أن الاتجاه فى العبادة إلى الجهات ليس إلا رمزاً للاتجاه القلبي إلى الله تعالى ، وليس ركناً أساسياً فى العبادة فيتبع فيه الأمر .

وهذه الآية هى أجمع الآيات فى تحديد معنى البر من النواحي الواقعية ، فهى ترشد إلى أن البر لا يرتبط بشيء من المظاهر والصور والأشكال ، وإنما يرتبط بالحقائق ولب الأمور وروح التكليف ، وترشد إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير : بر فى العقيدة ، وبر فى العمل ، وبر فى الخلق .

فالبر فى العقيدة بينته الآية فى قوله تعالى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين » ، أمور خمسة : الإيمان بالله فى ربوبيته ، فى عبادته ، فى وحدانيته ، فى اعتقاد أنه هو وحده النافع الضار ، الرافع الخافض ، المعز المذل ، القابض الباسط ، القاهر فوق عباده ، الذى لا تغنى الوجوه إلا له ، ولا تتجه القلوب إلا إليه ، هذا الإيمان المطلق بالإله وعظمة الإله هو الذى يرفع النفوس إلى مكانة التكريم والسمو التى أرادها الله للإنسان ، هو الذى يضون المرء عن الذلة والاستكانة لشيء ما ، هو الذى يعصمه عن التورط والزلل ، هو الذى يجعل من نفسه عليه رقيباً لا يغيب ولا يخادع ولا يجهل ، هو نبراس الهداية فى جميع نواحي الحياة .

والإيمان باليوم الآخر ، يوم الجزاء على الأعمال ، يوم المحاسبة على ما فى القلوب والضمائر ، يوم النعيم الدائم أو الشقاء الدائم ؛ هو معنى يفرس فى النفوس حبة الخير والحرص على إسداء المعروف ، وكراهة الشر ، وتجنب الأذى والإفساد فى الأرض ، وقد عنى القرآن عناية عظمى بتقرير الإيمان باليوم الآخر ، وناقش فيه وأقام عليه الحجج والبراهين ، وضرب له الأمثال وأقسم عليه ، وسفه أحلام المنكرين له ، المتعجيين من وقوعه بعد تمزق الجسم كل ممزق ، وصيرورته عظاماً

ورفاتنا د وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتنا أثنا لمبعوثون سخلفاً جديداً ١٩ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم، فيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رموسهم ويقولون : متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم فتستجيون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً .

الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر هما الإيمان بالمبدأ والمعاد ، والإيمان بهما على الوجه الحق - وهما من الغيب المطلق - لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه مستقلاً ، ولا أن يعرف بنفسه مستلزماته من الواجبات والأحكام التشريعية ، فان العقل البشرى ذو استعداد محدود ، ويحيط به مع ذلك الهوى والشهوة ، فلا بد أن يُهتدى من مصدر لا يحد علمه ، ولا ترقى إليه الأهواء والذرات ؛ هو الله الذى لا يعزب عن علمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو الحكيم الخبير .

إذن لابد من واسطة بين هذا المصدر وبين الخلق ، هى طريق المعرفة لواجب الإيمان بالله واليوم الآخر : هذه الواسطة تتكون من ثلاثة عناصر : عنصر فى الطرف الأعلى ، له بحسب تكوينه وخلقه استعداد يمكنه من التلقى عن الله مباشرة ، وهم الملائكة ، والإيمان بهم أصل الإيمان بالوحى فيلزم من إنكارهم إنكار الوحى وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة ؛ وعنصر فى الطرف القريب من الناس هو منهم بمقتضى بشريته ، وله صلة بالملا الأعلى بمقتضى روحانيته وهم الأنبياء ، يتصلون بالملائكة الذين هم سفراء الله أو سفرتهم كما عبر القرآن ، فيتلقون عنهم ما أمر الله به ، ويتصلون بالخلق فيبلغونهم ما أمروا به من أحكام وتشريعات ؛ والعنصر الثالث هو نفس الرسالة والوحى ، وقد عبر عنهما فى الآية بالكتاب ، والتعبير بالكتاب دون الكتب إشارة إلى وحدة الدين عند الله ، وأن الإيمان بكتاب ما من الكتب السماوية إيمان بالكل .

هذه هى العناصر الثلاثة للسفارة الإلهية : طرفان ووسط ، لابد من الإيمان بها ولا يتحقق البر مع إنكار شيء منها ، كإيمان بالله واليوم الآخر ، وبهذا تمت الأمور الخمسة التى هى البر فى العقيدة د ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین .



أما البر في العمل ؛ فله شعب كثيرة ترجع كلها مهما تنوعت إلى بذل النفس والمال ابتغاء مرضاة الله ، وهناء خلق الله ، والعمل هو مدد العقيدة ، وفي نفس الوقت هو ثمرتها يحفظها وينميها ويدل عليها ، وقد ذكرت الآية بذل النفس في أعظم مظهر من مظاهر بذل النفس ، ذلك هو إقامة الصلاة . الصلاة هي عماد الدين الصلاة هي الفارق بين المؤمن وغير المؤمن ، الصلاة هي مناجاة العبد لربه ، الصلاة هي الناهية عن الفحشاء والمنكر ، الصلاة هي العاصمة من الهلع والجزع ؛ يقف المرء بين يدي ربه ، وقد خلع نفسه من كل شيء في دنياه ، فلا مال ولا جاه ولا ولد ولا طعام ولا شراب ولا كلام ، ولكن تسليم لله ، أوله : « الله أكبر » هو الذي تخضع له الرقاب ، وتطمئن إليه القلوب ، وتبذل في سبيل مرضاته المهج والنفوس ، فهي عهد بين العبد وربّه على بذل النفس والتضحية بها في كل موطن بحيث لا يفقده في موضع يطلبه ، ولا يراه حيث ينهأ ، أما الصلاة التي تجردت من هذه الروح ، وختل إلا من الحركات والكلمات ، فليست هي عنوان البذل والتضحية ، وليست هي من البر في شيء ، بل إنها وبال على صاحبها ومردودة عليه . « فويل للمسلمين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » ، وليس السهو في الصلاة هو نسيانها ، وإنما هو الغفلة عما توحى به من المعاني الفاضلة وأعمال البر والتقوى .

وذكرت الآية بعد ذلك بذل المال في صورتين ، إحداهما قوله تعالى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب » ، والآخرى قوله تعالى : « وآتى الزكاة » ، ويجب أن يفهم هنا بمقتضى هذا الوضع القرآني الكريم أن الزكاة شيء . ، وأن إيتاء المال على حبه هو لا الأصناف شيء آخر لا يندرج في الزكاة ولا تغنى عنه الزكاة .

فهؤلاء الأغنياء والقادرون الذين يكفون بالزكاة ، ولا يمدون يد المساعدة لسد حاجة المحتاجين ، ودفع ضرورة المضطرين ، والقيام بمصالح المسلمين ؛ ليسوا على البر الذي يريده الله من عباده .

وهذا أصل عظيم في تنظيم الحياة الاجتماعية يباح به للحاكم أن يشرع ألواناً من الضرائب العادلة وراه الزكاة إذا لم تف الزكاة بحاجة الأفراد والمجتمع .  
وفي الآية مما ينبغي أن نلتفت إليه أمور :

أولاً : جاء التعبير بقوله : « وآتى المال على حبه ، أى على حب المال أو على حب الله ، كما في الرأيين المعروفين ، والمال إذا أنفق على حبه ومع الحاجة إليه كان فيه معنى الإيثار ، وكان لذلك أظهر في معنى التضحية والبر ، ولذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ( أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان ) وكذلك إذا أنفق على حب الله وابتغاء مرضاته ، لا طلباً لسمعة ولا رثاء الناس ، وما يرشح المعنى الأول وروده في آية أخرى هي قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وما ورد في وصف الانصار « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ثانياً : وردت الآية بذكر أصناف الذين ينفق عليهم المال على حبه ، وليس القصد إلى الاستيعاب والحصص ، ولكنها أمثلة خصصت بالذكر لبروز حاجتها إلى المال ، وحاجة المجتمع إلى سد عوزها .

ثالثاً : ابن السيل يشمل المسافرين لطلب العلم ، والراجلين للكشف عما ينفع الناس ، والوفود التي يناط بها تبليغ الأحكام ونشر الدين وتوثيق غرى المحبة والإخاء بين المسلمين ، ونحو ذلك .

رابعاً : قوله وفي الرقاب : معناه تخليص الرقاب من الرق ، وإذا كان الرق قد زال فإن في معناه تخليص الأسرى من الأسر ، وتخليص المدينين العاجزين من ذل الدين ورقه .

هذا وقد عني القرآن الكريم بالفقر والمساكين ، وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من الحث على الانفاق عليهم والبذل في سبيلهم ،

وفي هذا تقليم لأظافر الشر ، واقتلاع لبذور الفساد التي دلت تواريخ الأمم على أنها شر ما يعمل في هدم الأمم وأنظمتها وأخلاقها .  
وبذلك تم الكلام في بر العمل .

أما البر في الخلق فقد ذكرته الآية في مبدئين : مبدأ القيام بالواجب . وقد عبرت عنه الآية بقولها : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، ومبدأ مقاومة الطوارئ والغلب على عقبات الحياة ، وقد عبرت عنه الآية بقولها : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » ، والعهد لفظ شامل يجمع ألوانا من الارتباطات والالتزامات لا غنى للناس عنها ، ولا استقامة للحياة بدونها ، وهي على كثرتها ترجع إلى عهد بين العبد وربّه ، أو عهد بين الإنسان والإنسان ، أو عهد بين الدولة والدولة ، وعهود الله مع عباده كثيرة . منها العام ، ومنها الخاص : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان » ، « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » . وحظ الناس اليوم من هذا العهد ، هو ترابط المصلحين وتكافلهم على مبدأ الخير والإصلاح ، وألا يهدم بعضهم بعضا ، ولا يضرب بعضهم في نحور بعض ، وأن يؤيد اللاحق منهم السابق ، ويمهد السابق منهم اللاحق ، وليس من الوفاء لهذا العهد أن يكون كل مصلح أمة في نفسه ، وحزبا برأسه ، فإن ذلك مفسدة للرأى ، ومضيعة للخير ، وتخذيل عن الهدى والرشاد .

أما عهود العباد بعضهم مع بعض فهي تتمثل فيما يحدث بينهم من عقود والتزامات مالية أو غير مالية ، وكذلك فيما يحدث بين الأمة والأمة في تحديد الحقوق والالتزامات ، وكلها يجب الوفاء بها ما لم تكن في معصية الله بتضييع حق أو إلحاق أذى بالفرد أو الأمة ، وقد غنى القرآن بالحث على الوفاء بالعهد ، وشبهه ناقض العهد بالمرأة الخرقاء « التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » . وطلب أن تكون العهود قائمة على الصراحة والوضوح ، لا على الغش والخداع ، واصطناع

الاحتياط ، ولا تتخذوا إيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله . . وألا يستغل فيها قوة أو ضعف ، أن تكون أمة هي أربي من أمة ، أي أكثر منها عدداً أو عدة . وهكذا يضع القرآن أصول العهود والمواثيق العادلة ، ويجعل الوفاء بها من البر الذي يسمو بالإنسان في دنياه ، ويسعده في آخره .

أما مبدأ المقاومة فقد ذكرته الآية كما قلنا بقولها : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » ، والصبر عدة النجاح في الحياة ومصدر جميع الفضائل الإنسانية ، والسبيل الوحيدة للتغلب على جميع الصعاب ، وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة من غير مقاومة ولا عمل ، وإنما الصبر جهاد ومحاولة ، مع الاحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العاقبة ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالات ثلاثاً هي أبرز ما يظهر فيه هلع الهالعين ، وجزع الجازعين : البأساء ، والضراء ، وحين البأس ، فالبأساء من البؤس وهو الشدة والفقر ، والضراء ما يضر الإنسان من مرض أو فقد محبوب : مال أو أهل أو ولد ، والبأس اشتداد الحرب . وقد عني القرآن بالحث على الصبر في المواطن كلها ، وقرنه بالصلاة وجعلهما مستعان المرء في المهمات والشدائد ، وملجأه عند التوازل « واستعينوا بالصبر والصلاة » . وجاء في كلام الرسول أن الصبر نصف الإيمان ، وقد أنبأنا الله أنه مع الصابرين .

\* \* \*

هذه عناصر البر في العقيدة والعمل والخلق ، وهي دستور قوى متين ترقى به الأمم إلى أوج العزة والكرامة ، وتأنى به عن الشرور ومفسدات الأمن والطمأنينة ، ومنقصات السعادة والهناء ، وحسبنا في ذلك : أن الآية بعد ذكر هذه العناصر ، قد حصرت الصدق والتقوى ، في أصحابها المؤمنين بها ، العاملين عليها ، المحققين ثمارها : « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ، صدقوا في إيمانهم ، صدقوا في أعمالهم ، صدقوا في أخلاقهم ، وهم الذين يصدق عليهم أنهم هم المتقون على الإطلاق ، الذين يعملون لكل ما يصلحهم ويصلح الناس ، ويتجنبون كل ما يضرهم ويضر الناس ، هدانا الله إلى سواء السبيل . »

# اقْبُمُوا صِرَاحَ الْإِصْلَاحِ عَلَى سَكَايِسٍ مِّنَ الْعِلْمِ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عبد المجيد سليم

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ووكيل جماعة القريب

« يرفع الله الذين آمنوا منكم  
والذين أوتوا العلم درجات »

لما ألفت (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) انفتح للمسلمين باب عظيم من الأمل في أن تنزل عليهم رحمة من الله تعم بلادهم وشعوبهم ، وتدفع بهم في طريق الخلاص من الضعف الذي انتابهم ، والذل الذي أصابهم ، والشتات الذي فرق بين قلوبهم ، وقال المخلصون لهذه الأمة ، النُصْرُ على هذه الملة : جماعة من أهل العلم ، وأولى الرأي يمثلون المذاهب المختلفة في العالم الإسلامي ، قد انعقدت بينهم آصرة جديدة من أواصر المودة والقربى ، ويُسرَّت لهم وسيلة ناجعة من وسائل التفاهم والشورى ، ولأنهم لو اواصلون بإذن الله إلى ما يبتغون من تأليف قلوب المسلمين ، وجمعهم على كلمة سواء : أن يؤمنوا بما آمن به الرسول والمؤمنون ، وأن يمحسوا ما يعرض لهم من مسائل الخلاف تمحيص الصادقين المخلصين للحق ، الذين لا يبتغون الفلج ، ولا يتنازعون الغلب ، وأن يعودوا كما كانوا أمة واحدة ، رائدها كلمة الله ، وغايتها إعزاز دينه ونشر شريعته ، وإبلاغ العالمين رسالة خاتم النبيين .

وكان من أهم ما اغتبطتُ له ، واستبشرت خيرا به ، أن هذه الجماعة قد أخذت على عاتقها تبصير المسلمين بحقيقة دينهم ، وأن تجلّ لهم أصوله ومبادئه وعلومه حتى يعرفوه ، فإنهم إذا عرفوه عشقوه ، وإذا عشقوه لم يؤثروا عليه شيئا ، ولم يدخروا في سبيل نصرته وسعا ، فيصلح الله به أمر آخرهم ، كما أصلح به أمر أولهم .

\* \* \*

لقد خالطت بشاشة الإيمان قلوب المسلمين الأولين ، فاستبسوا في نصره الحق وشرّوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، وخاضوا بآبائهم كل مخاض ، حتى زلزلوا عروش الطغيان ، وأرغموا جحافل الشرك والفساد والظلم على أن تولى الأدبار ، وبسطوا لواء العدل والأمن على عالم كان قبلهم مضطربا يسوده البغي والخوف ، وكانت هيبتهم تسبقهم ، وتعاليمهم القوية الواضحة تغزو القلوب قبل أن يغزوا البلاد ، وما كان هذا الإيمان الذي جعل الله به من بعد ضعف قوة ، ومن بعد ذل عزة ، إلا أثرا من آثار العلم الصحيح ، والمعرفة الواضحة ، وقد فطن لذلك أعداء الإسلام حيث تبعوا أمر المسلمين فعدوا أن تمسكهم بدينهم ، وإقبالهم على التضحية في سبيله بكل مرتخص وغال ، هو سر قوتهم ، ومبعث هيبتهم ، فكان لابد لهم أن يصرفوا المسلمين عن دينهم ، وأن يدخلوا عليهم الوهن من قبّل التفريط فيه ، والتخلي عنه ، لكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا إلى ذلك واضحّين ، فعمدوا إلى الحيلة والخديعة ، فكان من ذلك أنهم دسوا على الدين في غفلة المسلمين ما ليس منه ، فشوهوا جماله ، بالأكاذيب تارة ، وبالبدع تارة ، وبإثارة أسباب للخلاف مصطنعة بين الطوائف الإسلامية أحيانا ، وكان من ذلك أنهم قاوموا التعليم الديني بشقّ الوسائل ، ففضيقوا على أهله ، وأغروا بينهم العداوات ، وحاربوا الكفايات ، ونصروا الجهالات ، وأغندقوا المال والتعظيم والجاه على كل من جرى في سبيلهم ، وأعانهم على إثمهم ، وكان من ذلك أنهم أحلوا القوانين الوضعية محل الشريعة في البلاد الإسلامية ، واجتلبوا تلك القوانين من بلاد الغرب كما هي دون أن يراعوا أخلاق البلاد وتقاليدها ، فأباحوا الخمر والربا والمعاملات المحرمة ، وخذلوا الفضيلة ،

ونصروا الرذيلة باسم المدنية أو الحرية ، وزينوا لأبناء الإسلام تقاليد الفجور ، وبذروا في البلاد بذور الزيف والإلحاد ، وكرموا كل طاعن في الدين ، متهم على العقائد ، مستهزئ بأحكام الله .

بهذا كله جهلت الأمة - عامتها وكثير من خاصتها - تعاليم دينها ، بل نفرت منها وعادتها ، وصرنا نسمع في كثير من الأحيان لوما وتقريعا للتمسكين بدينهم ، وحدا وتشجيعا للمتفلتين منه ، وقديما قيل : من جهل شيئا عاداه .

فاذا كان أول السلسلة في إضعاف هذه الأمة والعمل على إذلالها ، هو صرفها عن دينها بالحيلولة بينها وبين فهم هذا الدين فهما صحيحا ، وإدراك أنه سر سعادتها ، ومنبع عظمتها عن طريق العلم به ، والتعمق في أصوله ومبادئه ؛ فإن أول ما يجب على هذه الأمة - إذا أرادت أن تستعيد مجدها ، وأن تتبوأ في العالم سامى مكاتها - أن تعنى بالعلم والمعرفة والإدراك الصحيح ، فتعرف دينها وعقائدها ، وتنفى عنهما كل شائبة من شوائب الجهل والتليس ، وتعرف شريعتها وما تكفله من سعادة وعزة في الحياة ، وتعرف وسائل القوة والغلب في العصر الذي تعيش فيه ، وتعرف حقائق التاريخ الصحيحة وأسرار تطوراتهِ ، وسنة الله المطردة فيه من نصر الأمم إذا استقامت ، وخذلانها إذا التوت ، ومن استقرار أحوالها ، وسعادة أفرادها ، بالخلق والدين والفضيلة ، واضطرابها وشقائها وذلها باضداد ذلك . وإن هذا الدين ليدعو إلى العلم ، ويكرم العلماء أعظم تكريم ، ويحض على النظر في ملكوت السموات والأرض ، ويأمر بإعداد القوة لدفع غائلة الأعداء ، وبأن تكون الأمة على أهبة الاستعداد في كل وقت لمقاومة الطامعين فيها ، والعادين عليها .

ولا شك أن من أول ذلك وأوجه أن تكون من الأمة فئة خيرة بالمستحدثات في شئون الدفاع والحرب ، وفئة محيطة بضروب الاقتصاد ووسائل الاستغلال الصحيحة ، وغير ذلك مما به تكون الأمة قوية ذات منعه يخشاها عدوها .

لقد طغت في هذه الأيام موجة من التهاون بالعلم ، وزين للشباب هجر دوره ، والتخفف من أعبائه وتكاليفه ، ونظر كثير منهم إلى المدارس والمعاهد ، لا على أنها دور أعدتها الأمة للتزود بالعلم ، ولكن على أنها وسائل للحصول على الشهادات الدراسية ثم الوظائف التي تدر على أصحابها المال الرتيب ، والحياة الوادعة ، ولذلك يقصرون مهمهم على التطلع لضمان مستقبلهم ، والاطمئنان إلى القيمة المادية التي تقدر بها شهاداتهم ، فهم في ذلك يتنافسون ، وفي سبيله يجاهدون ، ولم يعد أحد يدرس العلم حبا في العلم ، وتطلعا إلى التكمّل بالمعرفة ، ولم تعد قضايا العلم ومسائله هي الشغل الشاغل للأساتذة والطلاب كما كانت في الماضي ، وضعف المشرفون على الطلاب ضعفا ينذر بأسوأ العواقب ، وأصبحت نرى الأمور تتقرر ، والمناهج توضع أو تعدل أو تلغى رعاية لمقتضيات بعيدة عن المصلحة ، بل منافرة لها ، وبهذا كله سارت السياسة التوجيهية في التعليم سيرا عكسيا ، فأصبح الموجهون موجهين ، ومضى الركب العلمى يتخبط في ظلمات الجهالات ، لا يعرف طريقا ، ولا يهتدى سبيلا .

هذا هو السر الحقيقى فى ضعف الأمة ، وهذا هو أساس الداء العضال الذى منيت به ، فمن أراد العلاج فليبدأ علاجه من هذه النقطة .

أن أبناء الامس هم رجال اليوم ، وأبناء اليوم هم رجال الغد ، فإذا ترادف على الأمة أجيال من أهلها ذلك مبلغهم من العلم ، وحظهم من الدين ، تولّوا شئونهم بأيدي ضعيفة ، وقلوب واهنة ، وعزائم منحلّة ، وبهذا تنجو جذوتها ، وتركد ريعها ، وتسرع إليها عوامل الفساد والضعف حتى تموت ، أو تحيا حياة ضئيلة ، خير منها الموت والفناء .

إن الأمم ليست بكثرة أفرادها وعديدها ، ولكن بروحها وإيمانها وخلقها ، ولعمري إن سبيل ذلك هو العلم . ٩



## حَقُّ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى نَفْسِهَا

لحضرة صاحب المعالي محمد حلمي عيسى باشا

« إن الله لا يغير ما بقوم

حتى يغيروا ما بأنفسهم »

في أعقاب هاتين الحربين العالميتين الطاحنتين ، أخذت الدول الإسلامية تتبوأ مكانا ملحوظا في المحيط الدولي ، وتسترد مكانها السياسي ووجودها الجغرافي وتعمد إلى المطالبة باستكمال سيادتها واستقلالها ، واستخلاص حرياتها وحقوقها ، - طبقا لميثاق هيئة الأمم المتحدة - مما يشوبها من نقص ، أو يعتورها من مساس بسيادتها ، من نحو استبقاء سلطات عسكرية أو مزايا حرية هي بعض آثار معاهدات وليدة الاستعمار تبيح لها حق استخدام مراقبها الحربية في زمن الحرب أو بقاء جيوش لها في مواقع معينة في زمن السلم .

ولكن على كل حال لا نزاع في أن مركزها السياسي ومقامها الدولي وصل بها إلى إدارة شئوننا بنفسها من سياسية ومالية واقتصادية واجتماعية وصحية ، وأن تتولى حكوماتها المؤلفة من أبنائها مقاليد الحكم وسلطة التشريع ، وأصبح لأبنائها حقا في هيئة الأمم المتحدة جعلتهم أندادا للمندوبين الدول الكبرى ، فسياستهم الداخلية والخارجية في أيديهم ، وهم المسيطرون على مرافق بلادهم وتصريف شئوننا ، فإن أحسنوا إدارتها كانت لهم الحسنى وزيادة ، وإن أساءوا فعليهم « وما ربك بظلام للعبيد » .

ولو نظرنا لمواقع تلك البلاد الإسلامية من الوجهة الجغرافية لوجدناها - عربية أو غير عربية - تكون سلسلة متصلة الحلقات ، متجاورة الأراضي ، من المحيط الاطلنطي

إلى المحيط الهادى ، ووجدناها عامرة بالثروات الطبيعية ، والمحاصيل الزراعية ، وكافة المواد الأولية ، فمن له حق استغلالها والانتفاع بخيراتها ؟ لا شك أنهم أهل البلاد وأبنائها أولا ، وإخوانهم الذين تربطهم بهم رابطة الدين واللغة والجنس ثانيا ، فهم مقدمون على من عداهم من الأجانب .

ولكن هل هذا هو الواقع ؟ كلا ! وتلك هى الحقيقة مجردة عن الخيال ، نقررها ليتنبه الغافل ويستيقظ المخدوع ، ويدرك إدراكا صحيحا أن خيرات بلاده التى ذكرنا ، وثرواتها الطبيعية ومراكزها الاستراتيجية ، الممتازة مضافا إليها حالة أهلها الاجتماعية والاقتصادية والعلية من الضعف والوهن الذى أصابها فى خلال استعمارها ، حتى خيم الجهل وانتشرت الظلمات فى ربوعها ، كل ذلك مما يغرى الدول الأجنبية بالسعى فى سبيل استغلالها ، وجنى ثمراتها ، والانتفاع بخيراتها بكافة الوسائل والمسلمات الخادعة الغرارة حتى لا يفتن أهلها وبنوها الى حقيقة ما يتوون : أرادوا بهم خيرا ورشدا ، أم أرادوا بهم شرا وعتا ؟ .

\* \* \*

يتقاضانا تصوير هذه الحالات أن نتناول الموضوعات الآتية :

أولا : حالة البلاد الإسلامية أثناء احتلالها واستعمارها (١) .

ثانيا : حالة أهلها بعد استقلالها كاملا كان أم ناقصا من النواحي العلية والاجتماعية والصحية والاقتصادية .

ثالثا : مرامى السياسة الأمريكية والأوربية من حيث رغبتها فى إعانة تلك فى الدول ماليا بدعوى رفع مستواها الاجتماعى ، والاستعانة بها على محاربة الشيوعية أو عقد معاهدات لتستعين بها عسكريا .

رابعا : ما يجب عليها القيام به فى سبيل نهضتها ، ورفع شأنها ، ووحدتها كيانها السياسى ، لتصل إلى مستوى الدول الأجنبية ، وإفهام المسلمين أن هذه ضرورة

(١) ويدخل فى هذه الحالة وقوع بعض البلاد تحت النفوذ الأجنبى وإن لم تكن محتلة .

تقتضيها تعاليم دينهم ، وأحكام قرآنهم ، وسنة رسولهم ، وضرورة يقتضيها العصر الحاضر ، وما وصل إليه من تقدم في سائر النواحي .

والمقام يقتضى الإيجاز والإجمال ، وإنى لمشتج فيه حد قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » .

فالموضوع الأول هو : حالة البلاد الإسلامية أثناء احتلالها واستعمارها :

تكاد تستوى حالة البلاد الإسلامية عامة في فترة احتلالها على خلاف في إدارة شئونها الداخلية ، وسياساتها الخارجية والعسكرية ، ففي الغالب كان يترك لأفرادها حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وعوائدهم التقليدية ، أما الشئون السياسية والحربية ، فكانت في يد المسيطرين .

والظاهرة العامة المشتركة ، جرت على حرمانهم من نور العلم ، ونعمة التعليم الصحيح ، الذى سار في بلاد المسيطرين شوطا بعيدا ، أخرج العالم والفنَّان والمكتشف والمخترع ، والصانع الماهر ، والتاجر الحاذق ، حتى وصل بهم سمو مداركهم ، وعلو كعبهم ، إلى اكتشاف أسرار الكون ، ومكونات الطبيعة وخوارقها ، واكتشفوا الكمرباء وانتفعوا بمزاياها ، والطائرات التى تسابق الريح ، والغواصات التى تسير فى أعماق البحار ، إلى غير ذلك مما نشاهده ، حتى وصلوا إلى اختراع آلات الدمار والهلاك ، وأهل البلاد المستعمرة لاهون غافلون ، لأن العلم الذى يفتح العين ، وينير البصيرة ، كان يعطى لهم بمقدار ، ولا يسمح للمستعمر المسيطر إلا بالزور اليسير منه ، لأنه يعرف حق المعرفة ، أنه لا يستوى الذين يعلون والذين لا يعلون .

وكان من آثار ذلك ، أن سيطر الأجانب على ميادين التجارة والصناعة ، وأنشئوا الشركات ، واستغلوا كنوزها ، وثمرتوا خيراتها ، واستمروا مرعاها ، حتى إن الزارع لينتج آمن محصول ، ولا يدري ما يصنع به مشتريه منه ، ولا يدرك طرق تصريفه ، ولا ما يدره من ربح فى تصديره ، إذا تاجر فى بضاعة

مزجاة ، وإذا ربح فربح لا يضمن ولا يفنى من جوع ، ونشأ عن ذلك بطبيعة الحال أن انحط المستوى الاجتماعى للفرد ، وخيم عليه بكل كلفة الجوع والفقر حيث لا ربح يجدى ، والمرض حيث لا علاج يشفى ، وبعد عن اقتحام ميادين التجارة والاقتصاد ، حيث لا علم يضيء ، وهكذا كانت الخلاصة أنبقى معظم السكان زراعا فى الحقول ، وعمالا فى المصانع ، والعلم اليسير إنما يخرج طلابا للوظائف الضرورية ، التى لا يستطيع أن يقوم بها المسيطر .

وكفى أن نشير إلى ما لاقته مصر من تحملها عبء الامتيازات فى صميم مرافقها ، كامتياز شركات قناة السويس ، والمياه ، والنور ، والترام .

\* \* \*

الموضوع الثانى : حالة أهلها العلمية والاجتماعية والصحية والاقتصادية بعد استقلالها ، كاملا كان أم ناقصا .

إقرارا بالواقع يجب أن نشير إلى أن هذه الدول ، ومن بينها مصر تعمل بجد فى سبيل نهضتها ، وحفظ كيائها ورقيا ، فهى تسعى لنشر التعليم بجميع مراحله ، ومصر أنشأت الجامعات التى لا تقل براجمها ومناهجها عن برامج الجامعات الأوروبية ، وهى تكثرت من البعوث ليحصل أبنائها على أرفع الدرجات العلمية ، وقد تبعها فى ذلك الأزهر الشريف ، فإنه يبعث بخريجين من أبنائه ليتقنوا اللغات الأجنبية ، ويقفوا على المدنيات الغربية ، ويستطيعوا أن يقارنوا بينها وبين المدنيات الإسلامية ، ويتمكنوا من الدفاع عن دينهم ، والذود عن حوضه ، بما قد يوجه إليهم من تهجم ، أو تهم باطلة ، أو تضليل .

وقد انتهى عهد المحاكم المختلطة ، التى كان يجرى التقاضى فيها بلغات أجنبية ، ووضعت قوانين على أحدث التشريعات ، لتسرى على قاطنى مصر كافة بلا فارق بين أجنبى ووطنى ، وبين مذهب ومذهب ، وأخذ بإصلاحات اجتماعية كثيرة ،

نذكر منها تحديد سن الزواج ، وحق التطلق للزوجة عند المضارة ، وإقرار الوصية الاجبارية ، التي أزال حيفا ، فجعلت للحفيد الذي مات أبوه قبل جده الحق في أن يرث نصيب أبيه ، بشرط أن لا يزيد عن الثلث . وجعلت للمورث حق تقسيم تركته في حياته بين ورثته تقسيماً نائذاً ، دفعاً لخلاف أو شقاق بين الورثة بعد وفاته (١) .

وتعنى مصر بإرسال مدرسين من بنينا إلى من يطلبهم من البلاد الشقيقة وهكذا إلى كثير من ضروب الإصلاح .

ولكننا لا نزال نرى حالة الفرد في مصر — وأغلب الظن أنها كذلك في سائر البلاد الشرقية — دون ما يرجو المصلحون ، مما يدعو إلى الإقرار بأن حالته لم تتغير عما كانت عليه من قبل استقلال بلاده ، فالفقر ما قىء جاثماً ، والمرض وبالأخص الموطن منه — ما برح يحتاج إلى وسائل العلاج الناجمة ، القاضية على جرائمه ، ولم يبد اتجاه عملي ، من حيث علاجه بالجنان ، أسوة بما جرت عليه أمريكا وانكلترا ، حتى يكون كل فرد سليم البدن ، سليم العقل ، صالحاً لتلقي العلم ، قادراً على حمل السلاح .

وأهم من ذلك ما نشاهد من تراخي الأفراد في الميدان التجاري ، فالنشاط فيه غير متناسب ولا متناسق مع النشاط البادى في طرق التعليم .

وإقراراً بالحقيقة يجب أن نشير إلى أن مرجع ذلك إلى الأفراد لا الحكومات والقائمين بأمرها ، إذ يجب أن نسجل ما نرى من تعاطف الدول الإسلامية وتوآدها ، وجمع كلمتها في الهيئات الدولية ، وسعى مندوبيها متضامين لاستخلاص حقوقهم ، وما نرى في أحاديثهم من رغبة صادقة في جمع كلمة البلاد الإسلامية ، وضرورة تعاونها ، ونبد الأهواء الشخصية ، سواء أكان باعها دوافع شخصية ، أم دوافع خارجية ، وهذا مما يبشر بأن الروح الاسلامى لا يزال بخير ، وأنه يرجى من

ورائه الخير الكثير تحقيقاً لقوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ،  
وقوله جل جلاله : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

\* \* \*

الموضوع الثالث : مراى السياسة الامريكية والاوربية نحو البلاد الشرقية :

نقصر الكلام على سياسة هذين الجانبين نحو البلاد الشرقية ، لأنها راغبان  
في توثيق العلاقات مع بلاد الشرق .

وطبيعى أن ندع الكلام جانباً عن سياسة السوفيت الشيوعية ، فن الموثوق  
به أن البلاد الاسلامية تأبى قبول النظم الشيوعية ، وتفر من سياستها ولا تستسيغها  
بحكم عقائد أهلها الدينية ، وعوائد المرعية ، والدول الاجنبية تدرك ذلك حق  
الإدراك ، وقد أشارت الصحف إلى أن الفاتيكان يحذ سياسة التقرب والاتصال  
بالدول الإسلامية ليتعاون أهل الأديان السماوية على مناهضة الشيوعية ومحاربة  
مبادئ الهدامة التى تهدى على حرية الفرد والعقيدة ، وتؤدى إلى تفكيك الأسرة  
وهدم نظام الموارث ، وتدعو إلى اضطهاد رجال الدين ، وإلى الإلحاد ، وقد أصبحوا  
يجهلون بضرورة الاعتماد على مبادئ الدين الإسلامى وسلامته تعالىه ، ففى ذلك  
قوة لهم لمحاربة الشيوعية التى أصبح شرها مستطيراً ، ووباؤها خطيراً ، يدفع  
معتقداتها إلى إثارة الفتن والاضطرابات لتعطيل المصالح القومية والمرافق العامة  
التي يتوقف عليها نظام العمران وسلامة الدول وراحة الأهلى .

أما فيما يتعلق بالسياسة الامريكية والاوربية فيجب أن نشير إلى أننا لا نقصد  
الكلام على ما يراد من معاهدات صداقة وإقامة ، أو تجارة أو معاهدات سياسية  
وعسكرية يكون مدارها المساواة ، وصيانة حقوق كل بلد ، وسيادته ، ومعاملة  
أهله معاملة الند للند ، كما يجرى الحال مع أى بلد أوربى ، فتلك واجبات الحكومات  
وكل حكومة تعرف كيف تصون مصالحها ، فانما الذى نخشاه ونريد لفت النظر  
إليه : هو السياسة الخادعة التى يكون مظهرها التعاون ، وباطنها تسخير الأهلى ،

واستخدامهم لصالح شركاتهم ومواطنيهم ، فقد نوهت الصحف بأن السياسة الأمريكية تبحث ضمن ما تبحث في مؤتمراتها عن مدى حاجات البلاد المختلفة اقتصادياً من دول الشرق الأوسط إلى العون الاقتصادي ، لأن أمريكا معنية بتوفير عوامل الاستقرار الاقتصادي والسياسي في هذه المنطقة الاستراتيجية الغنية بالبترول ، والواقعة بين القارتين الأوربية والآسيوية ، وتريد نهضة الشرق الأوسط اقتصادياً حتى يصبح حاجزا يوقف التوسع الشيوعي السوفيتي دون أغراض سياسية ، وهو قول نتمنى أن يكون حقيقياً واقعياً ، ولكن نبه بعضهم إلى ضرورة اليقظة ، وأشار إلى أن الصهيونيين يدفعون الأمريكيين إلى سياسة تؤدي لاستبقاء أهل تلك البلاد في حالة اجتماعية واقتصادية منحلة حتى يبق أهلها عمالاً في المصانع وزراة في الحقول ؛ وقد أشار بعض ذوي الخبرة في الصحف إلى ملاحظات مضمونها : أن أمريكا لا تزال تنظر إلى البلاد العربية باعتبار أنها سوق للاستغلال ، ويحرصها الصهيونيون على ذلك ، ويدفعونها للعمل على مقاومة الحركات الاستقلالية في البلاد الشرقية ، وعرقلتها لوقف نموها ، والحيولة بينها وبين تبوء مكائدها التي تطمع إليها وبيعها إليها مجدداً القديم ، وتاريخها الطويل ، ومركزها الجغرافي الممتاز ، إذ أن شواطئها تحتضن أهم بحار العالم ، فيجب الحيولة دون تكوينها تكويناً يخل بالتوازن الدولي في المستقبل ، كما يحرم أمريكا من استغلال بلاد بكر تنطوي أرضها على كنوز لا تفد من الثروات المعدنية كما أن وضعها الجغرافي من الناحية العسكرية ذو قيمة لا تقدر من حيث حشد الجنود والتجمع والتأمين والطيران .

ولهذا يخشى المخلصون أن يكون هؤلاء ، إنما يرمون من وراء سياستهم - التي يسمونها بأسماء مختلفة - إلى أغراض ظاهرها العون والغوث ، وباطنها ما يشير إليه ذلك الكاتب الغيور .

ولذلك يجب على أهل البلاد الإسلامية أن يكونوا على حذر ، وأن يتنبهوا إلى ما يراد بهم ، فإن كان خيراً قبلوه ، وإن كان شراً أبوه إياه كريماً عزيزاً والله المستعان .

الموضوع الرابع : ما يجب على البلاد الإسلامية أن تقوم به لنهضتها ورفع مكانتها ، استجابة لأحكام القرآن الكريم ، وسنة الرسول الأمين ، ومجارة للتقدم العصري الذي رفع البلاد الأجنبية مكانا عليا ، وجعلها تسيطر على حظوظ غيرها من البلدان .

بيننا فيما سبق حالة البلاد الإسلامية ، وأن مستوى الفرد لا يسر ولا يرضى وذلك لتبين الفرق بين حالته وحالة الأوربي والأمريكي ، وأن الذي رفع شأن هؤلاء هو العلم الذي أوصلهم إلى درجة ممتازة في الاختراع والاكتشاف ، وفن الاقتصاد الذي هدام إلى استغلال مواردهم ، وسعيهم في استغلال غيرهم ، ولسنا نطلب أن ينقلب أهل البلاد الشرقية بين يوم وليلة إلى مكتشفين ومخترعين لطائرات تسابق الرياح ، وغواصات تبحر في أعماق البحار ، وكهرباء ، وعلوم كيميائية يخفونها لكل شيء حتى أدوات الهلاك والدمار ، وإنما نريد منهم أن ينفذوا السير في الطريق القويم ، وأن ينفذوا غبار الماضي ، ويبدؤوا بالتعاون الوثيق فيما بينهم أفرادا وحكومات وأما جماعات ، وأن يتبادلوا المنافع وينبذوا الأهواء الشخصية ، والمطامع الذاتية ، ليحققوا أوامر دينهم وأحكام شرعهم الذي جعل المؤمنين إخوة ، وأمرهم بأن يتعاونوا على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ، ونهاهم عن التنازع حتى لا يفشلوا ، وتذهب ريجهم ، وأن يفهموا بأن الخطاب موجه للجموع لا للفرد ، وإلا لما تحققت معانيه ، ولا تمت مدلولاته ومراميها ، فالواجب يقضى بالألا تقتصر الدعوة مثلا على تبديد الخلافات المذهبية بين الأمم الإسلامية ، وإنما يجب أن تتناول الدعوة كذلك التعاون الفعلي في أمورهم الاقتصادية ، ومصالحهم المعيشية ، وقد قال تعالى : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ومتى تعارفوا تألفوا ، فإن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ، فيجب أن يتبادل أهل كل بلد مصالحه بمصالح البلاد التي تجمعها بها الأخوة الإسلامية ، والرابطة الدينية ،



وأن لا ينفرقوا شيئا وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون ، فينتهز الأجنبي هذه الفرصة ويستمر في تسخيرهم ، واستغلال خيراتهم وهم لا يشعرون ، أما إذا عامل بعضهم بعضا في متاجرهم واقتصادياتهم فإن النفع يعود عليهم دون سواهم ، وتكون الأرباح التجارية دائرة بين بعضهم وبعض ، وبذلك يتحقق قوله تعالى : **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون .**

وعلى هذا الأساس بدت لي بعض مقترحات قد تتناول نواحي إيجابية ، أعرضها لتكون فاتحة لغيرها مما يدلى به أهل الرأي والعرفان من سائر البلدان ، أو لتعدل وتحمز بما يطابق المصلحة المشتركة ، فما نبغى غير الإصلاح والصلاح ولنخلصها فيما يلي .

(١) العمل على تقوية دعائم الأزهر الشريف وقد حل رسالة الإسلام مدى ألف عام ، وتقوية دعائم الجوامع التي تقوم بتدريس الدين في أنحاء البلاد الإسلامية كجامع الزيتونة ومكناسة والنجف وقم (١) وغيرها ، مع إنشاء جوامع على نسقها في بلاد الشرق الأقصى ، وتدريس اللغة العربية . وهي لغة الدين بها كما تدرس بالبوسنة والمهرسك التابعة الآن ليوغوسلافيا ، وقد أخرجت فيها مفضي علماء وفقهاء أجلاء .

(٢) إرسال البعث وبالأخص من بلاد الشرق الأقصى إلى الأزهر الشريف ليعود طلابه إلى بلادهم قادرين على أداء رسالتهم ، سواء أكان ذلك بالتدريس في معاهدهم الدينية أم بالقيام بالوعظ والإرشاد .

(٣) العمل على إنشاء الجامعات بها أسوة بجامعات مصر ليقوم أبناءها بالعبء العلى والصناعى والاجتماعى والاقتصادى ، ويكونوا قادرين على تمثيل بلادهم في الهيئات الدولية .

(٤) إرسال بعثات من الأزهر لاثقان اللغات الأوربية واللغات الشرقية كالفارسية والأوردية لنشر الثقافة الإسلامية ، ودفع المفتريات ، وشرح ما جدد من تشريعات يقصد بها الإصلاح الاجتماعى ، وتبديد الشكوك التي أوجدها المستشرقون لأغراض سياسية .

(١) الزيتونة ومكناسة بالمغرب ، والنجف بالعراق ، وهى مدينة علمية دينية منذ قرون ، وقم بإيران ، وبجامعتها آلاف من الطلاب يتخصصون فى العلوم الدينية .

(٥) إنشاء قسم في المجلات المعنية بأمور الدين كرسالة الإسلام ولواء الإسلام. ومجله الأزهر للنشر وترجمة المقالات والمحاضرات الدينية والإصلاحية ، باللغات الشرقية كاللغة الفارسية أو الأوردية وغيرها ليقف على مضمونها ، ويستشير بموضوعها من لا يتكلم اللغة العربية من المسلمين .

(٦) الاهتمام بالإذاعة بتلك اللغات أسوة بالبلاد الأجنبية التي تذيب لغات متعددة غير لغة بلادها ، ومن ضمنها اللغة العربية ، لتشر دعوتها وتعم دعايتها .

(٧) تبادل الزيارات بين أهل البلاد الشرقية ، وخصوصاً بين المشتغلين بالتجارة حتى يتعارفوا ، وتتآلف قلوبهم ، وتنشأ الثقة بينهم ، فيتبادلوا منافعهم التجارية فيما بينهم ، إذ المشاهد إلى الآن — تحت تأثير الماضي — أن أهل تلك البلاد ما زال أكبر تعاملهم من تصدير واستيراد مع الأجنبي .

(٨) إنشاء مجلة أو ملحق للمجلات المعدة لنشرها بالبلاد الشرقية تتناول بيان ما تنتجه كل بلد من محاصيل و مواد أولية ، وما تستطيع تصديره أو استيراده من البلاد الشرقية الأخرى ، وأسماء الشركات ليتعاون الجميع في اقتصادياتهم على نحو ما قدما ، ويكون النشر بجميع اللغات عربية أو شرقية .

(٩) إنشاء شركات مشتركة بين أهل البلاد الشرقية من المشتغلين بتجارة التصدير والاستيراد ، ومن لهم منشآت خارج بلادهم ليكون بعضهم وكيلا عن بعض .

وبديهي أن أغلب هذه المقترحات يقصد بها الأفراد والهيئات التي تشتغل بالشئون الاقتصادية والتجارية ، إذ يجب أن يتنبه الفرد إلى ما حاق به في الماضي تحت كابوس الاستعمار ، وأن يبدأ فيعرف ما أفاء الله عليه من نعم وفيرة ، وخيرات كثيرة خلقها له لينتفع بها ويشمرها فإن أهمل أو قصر فلا يلومن إلا نفسه ، وإذا ذهبت تلك النعم عنه فإنما يكون ذلك من عمله ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ، ٩

# الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ

لصاحب العزة الكاتب الكبير الاستاذ أحمد أمين بك

من البديهي أنه يجب التفريق بين الإسلام في مبادئه وتعاليمه ، كما يدل عليه القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، وبين أعمال المسلمين من وقت أن اعتنقوا الإسلام إلى اليوم ، فمن أراد الحكم على الإسلام فليرجع إلى أصوله الأولى ، وينظر إلى جوهر تعاليمه ويزنها بميزان الحق والعدل ، ومن الخطأ الفاحش أن يحكم على الإسلام بالمسلمين . فقد يكون الدين صحيحاً ، ومعتنقوه خارجين عليه ، منحرفين عنه ، فيكون الخطأ خطأ أصحابه لا خطأه هو ، بل أحياناً يكون الدين فاسداً في جوهره وتعاليمه ، ويرتق معتنقوه ، فتصدر عنهم أعمال فاضلة ، لا تمت إلى دينهم الأصل بسبب ، وإنما هم الذين حوِّروا دينهم ، وصاغوه صياغة خيراً مما كانت عليه - والحق أن الفرق كبير بين الإسلام نفسه ، وعمل المسلمين في مختلف العصور ، وأكاد أجزم بأن الإسلام لم يحى حياة عملية صحيحة طبق مبادئه إلا عصراً قصيراً جداً ، وهو عصر الرسالة وما بعدها بقليل ، وأما ما عدا هذه الفترة ، فقد عاش المسلمون عيشة منحرفة عن الدين ، وإن اختلف هذا الانحراف قلة وكثرة أو شدة وضعفاً .

لنتظر قليلاً في أهم عنصر من عناصر الإسلام ، وهو التوحيد الذي تبلور في قولنا لا إله إلا الله ، فهل سار المسلمون عملياً واقتصادياً على هذا المبدأ ، وإلى أى حد ؟ — إن هذا المبدأ يدعو إلى اعتقاد أنه لا يصح تأليه غير الله ، وعبادة غير الله ، وأما من عداه من الناس فسواسية لا إله ولا مألوه ، قد يختلفون في النسب ، وقد يختلفون في الثروة ، وقد يختلفون في غير ذلك ، ولكنهم كلهم إخوة فيما بينهم ، وعبيد لله وحده .

ولكن هذه العقيدة بعدم تأليه أحد من الناس ، تحتاج إلى جهد جهيد في تطبيقها في الحياة العملية ، لأنها تحتاج إلى رياضة قوية ، تحتاج إلى أن يحتفظ الضعفاء بإيمانهم ، فلا يركعوا للأقوياء ، وتحتاج إلى أن يلجم الأقوياء غرائزهم ، فلا يحاولوا السيطرة على الضعفاء ، وهذا مطلب ليس باليسير ، وإن كان هو جوهر الاسلام .

ومن أجل هذا كان أسرع الناس إلى الاسلام أكثرهم من الضعفاء ، لا من من أصحاب السيطرة ، كبلال وأمثاله ، لأنهم وجدوا في الاسلام تحروا من عبوديتهم لغير الله . وكان أكبر المعاندين أصحاب السيطرة والتأله من مثل صناديد قريش ، فلم يسلموا إلا أخيراً ، وبعد عناد طويل ، كأبي سفيان بن حرب في مكة ، أو إسلاماً ظاهراً بعد أن سدت الأبواب في وجوههم ، كعبد الله بن أبي في المدينة ، وأكبر سبب في تأخرهم ، أنهم رأوا الاسلام يفقدهم تألههم وعظمتهم وربوبيتهم .

ولما فتح المسلمون فارس والروم ، كان أغرب ما استرعى انظارهم ، عبادة الرعية لسادتهم ، لما وقر في نفوسهم بسبب الإسلام من أنه لا معبود إلا الله . والقرآن مملوء بلعن الذين اتخذوا سادتهم أرباباً ، أو خلعوا القدسية والربوبية على رؤسائهم الدينين . وكانت دعوة الاسلام دائماً دعوة إلى عبادة الله وحده وعدم الاعتراف بربوبية أحد غيره ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، .

ولذلك حارب الاسلام الاعتزاز بالنسب ، والاعتزاز بالجاه ، والاعتزاز بالمال ، لأن كل ذلك من ضروب التأله ، والاسلام عدو كل تأله .

ولكن لم يستطع كثير من المسلمين أن يحتفظوا بهذا المبدأ الجليل القويم ، وظهر التراجع من أول عهد معاوية أو قبله أحياناً ، فعاد الاعتزاز بالحسب والنسب ، وأصبح ملك معاوية - كما عبر كثير من المسلمين - ملكاً عضوداً فيه اعتسافٌ وفيه تأله ، وخاصة من أهل بيته ، وعادت الفروق بين الطبقات قريباً مما كانت في الجاهلية ، وتتابع الأمر على هذه الحال ، وكلما تقدم الزمن نمت غريزة التأله ،

كما كان في العصر العباسي وبعده ؛ وبلغ ذلك التأله أوجه في مثل جنكيزخان وديمورلك واشباههما . إن نظرة الإسلام إلى الألوهية ، والدعوة إلى إله واحد يتساوى أمامه الناس جميعاً . تقضى على كل فكرة من شأنها وجود طبقة يكون لها الشفاعة أو الوساطة بين الله وخلقها ، ولكن ما لبث المسلمون أن عادوا إلى سيرتهم الجاهلية الأولى ، فاتخذوا أصنافاً من الناس شفعاء يستشفعون بهم عند الله ويتقربون بهم إلى الله ، متأثرين بالديانات القديمة ، أما الإسلام نفسه فيدعو إلى أنه لا حجاب بين أى عبد مهما ضعف وبين الله . وقد عاب على النصارى واليهود اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم ، أرباباً من دون الله .

ولعل السبب في ذلك ، أن هذه العقيدة الصحيحة ، عقيدة الإيمان بالله وحده ، والخضوع له وحده ، وعبادته وحده ، تحتاج إلى رياضة شديدة في تصفية النفس من الشوائب ، والنفوس القوية عادة تعشق التأله والاستعلاء ، والنفوس الضعيفة سرعان ما تستسلم ، وهذا مشاهد في كل أمة ، وفي كل جماعة ، وفي كل عصر ، من عهد أن قال فرعون : « أنا ربكم الأعلى » ، ومن قبله ومن بعده .

وهؤلاء الأقوياء يتخذون لتألههم أشكالاً وألواناً من المظاهر . فبهم من يتأله بجنوده وبنوده ، وكثرة ماله ونحو ذلك . ومنهم كبار المستبدين في أممهم مثل نابوليون ، ومثل هتلر وستالين ، ومنهم كبار أصحاب رؤوس الأموال في كل أمة ، ونحو ذلك ، كلهم يتألهون ، وكل الناس حولهم تؤلههم ، وإن لم يسم الأولون أنفسهم آلهة ، وإن لم يسم الآخرون أعمالهم عبادة ، ولكن العبرة بالحقيقة لا بالأسماء . والإسلام يكره هذا التأله بجميع أشكاله وألوانه ، والمسلمون - مع الأسف - في كل عصورهم ما عدا الفترة الأولى لم يخل سلوكهم من تأله من جانب القوة ، وعبادة وخضوع من جانب الضعف .

هذه ناحية من نواحي التأله والعبودية ، يصح أن نسميها ناحية سافرة ، وهناك ناحية أخرى من التأله والعبودية يصح أن نسميها مُحَجَّبة ؛ ذلك أن هناك قوماً لم يكن لهم من قوة السلطان ، وكثرة المال والجنود والعصية ، ما يمكنهم

من الاستعلاء في الظاهر، فبحثوا عن وسائل للاستعلاء من طريق خفي، وهؤلاء أمثلة كثير كالسحرة والمشعوذين والدجالين من رجال الدين الذين يدعون الاتصال بالغيب والاستمداد من السماء، وأن بينهم وبين الله نسيا، أو بينهم وبين الجن صلة، وأنهم يستطيعون بذلك أن يقربوا إلى الله من يشاءون، ويحرموا من الجنة من يشاءون، أو أنهم يستطيعون أن يسيطروا على قوانين الطبيعة في هذا الكون بسحرم وتعاويزهم وتعزيمهم وما إلى ذلك، كل هؤلاء وأمثالهم لما فقدوا السلطة الطاهرة والقوة الدنيوية، لجأوا بمكرهم وحيلهم إلى ادعاء سلطة خفية يستمدون منها سلطانهم، ويبسطونها على السذج والبله، وكان من سوء الحظ وضعف العقل أن قبلت دعوتهم، وتألهوا هم الآخرون، وعبدتهم أتباعهم، فكان في الدنيا مملكتان: مملكة السلطنة المادية، ومملكة السلطنة الغيبية، والناس موزعون في العبادة بين هؤلاء وهؤلاء، وكل هذا حرب على الإسلام في جوهر تعاليمه وهو الذي ينادى دائما، ويجعل شعاره دائما، أن لا إله إلا الله، وأن كل تأله باطل، وأن كل عبادة لغير الله باطلة، ولكن كم من المسلمين في العصور المختلفة استطاعوا أن يحفظوا بهذه الوجدانية خالصة لم يشبها شيء من عبادة وتأله.

ومن الأسف أنه في كثير من عصور تاريخ المسلمين، تعاونت القوتان، الظاهرة والباطنة، والمادية والغيبية، على إفساد حال المسلمين، فتحالف الملوك الظلمة والسلطين الغاشمة مع الدجالين من رجال الدين، والدجالين من المتصوفين، وأعملوا قوتهم في إفساد عقيدة الوجدانية، وفي تعديد الآلهة وعبادتها، واتخذوا لذلك وسائل لا تحصى، فالسلطين الغاشمة تحيط مظاهرها بكل أنواع الجبروت والطغيان، ورجال الدين تضع لهم من الأحاديث مثل «السلطان ظل الله في أرضه»، والخطباء والوعاظ يصرفون الناس عن المطالبة بحقوقهم بإفهامهم أن الفقر من الله والغنى من الله، وليس للجد ولا للعمل أى دخل في الغنى والفقر، وأن ظلم الظالمين إنما هو انتقام من الله لسوء سيرة المسلمين، ونحو ذلك من تعاليم تفسد الروح، وتذل النفس، وتمكن المتألهين من التأله، وتوجه الأذلة إلى عبادة المتأله، ولم يكن هذا من جوهر الإسلام في قليل، ولا كثير.

ولو نحن نظرنا نظرة شاملة ، لرأينا أن أكثر شرور العالم في الشرق والغرب ، وفساد حال الأمم يرجع إلى هذا التأله من جانب ، والعبادة والضعف من جانب آخر . فالعلاقات بين الأمم والحروب المتتالية إنما يعيشها في الغالب حب الاستعلاء أو بعارة أخرى التأله ومحاولة الدولة القوية أن تسيطر على العالم لتكون إلهته ، وليكون غيرها عبادا أذلة ، وكان كل هذا يزول لو اعتق الجميع أن لا إله إلا الله .

وبعد فهذا أصل من أصول الاسلام ، رأينا كيف انحرف المسلمون عنه ، فساء حالهم ، وانحط شأنهم . ولعلنا نتبع ذلك ببيان بعض الأصول الاسلامية الأخرى ، ونبين كيف عطلت وأهملت ، والله الموفق ؟

### رسالة الإسلام . ترحب المجلة بما وعد به الأستاذ الكبير من بحوث

في هذا الصدد ، فإن أمر المسلمين لا يصلح إلا إذا فهموا دينهم حق الفهم ، وكانوا على بصيرة من أصوله وقواعده ، وما كلّفهم الله إياه .

وقد اشتبه على كثير من المسلمين في هذا العصر أمر الدين فحسبوه بعيدا عن معتك الحياة العملية ، قاصرا عن الأخذ بأيدي أهله إلى الصراط السوى في السياسة والحكم والاقتصاد والقوة وسائر ما تصلح عليه الأمم ، ولذلك نزاع ينادون بالفصل بين الدين والدولة ، ويعتبرون هذا الفصل أساسا من أسس الإصلاح ، ويزعمونه أمرا مقررًا مسلّمًا به عند أهل لتفكير التقدم الحديث لا ينازع فيه إلا الذين يفكرون بقول قديمة « رجعية » .

ولا شك أن الجبل بالاسلام ، والنظر إلى حالة المسلمين في ضعفهم وتأخرهم ، والرغبة في تقليد المبادئ الغربية في نظم الحكم والسياسة ، هي السر في ذلك الاشتباه ، وهذا التهجم .

فاذا تضافرت قوى المفكرين المخلصين من أهل العلم والأدب ، وذوى الأقلام السبالة - من أمثال الأستاذ الكبير أحمد أمين بك - على بيان أصول الاسلام ، ومقارنتها بما يفعله المسلمون ، فإن القضية تتغير يومئذ ، فلا تكون دعوة إلى هجر الاسلام ، ولكن دعوة إلى هجر ما عليه المسلمون بما يتنافى الاسلام ؟

# مبادئ القانون الدولي العام في الأسس

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

يكاد يعتقد الآن اتفاق المشرعين من علماء الغرب ومتابعيهم على أن فكرة القانون الدولي العام فكرة حديثة العهد ابتدعتها أوروبا أخيراً .

هذا الحكم صحيح في الجملة ، ويلوح لنا بمنأى عن الجدال ما دما نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الإسلامي ، فالنظام الدولي لم يكن معروفا حقيقة في العصر القديم اليوناني والروماني ، ولا في العصور الدينية الأولى في اليهودية والمسيحية . أما العصور الدينية المذكورة فمن الميسور أن نتبين فيها هذا الفراغ ، وأن ندرك أسبابه ، ذلك أنه حين تأسيس هاتين الديانتين لم يكن أمامهما علاقات دولية تتطلب هذا التشريع ، فكان كل نشاطهما مركزا في بث الدعوة الدينية في نطاق على محدود ، نعم إن نشر الدعوة الموسوية في بني إسرائيل لم يلبث أن حمل هذا الشعب على الهجرة ، وجعله يتصل بأمة مجاورة . غير أن هذه الصلة الوقتية لم تكن إلا صراعا خاطفا انتهى إلى استئصال شأفة تلك الأمة وحلوله محلها ، ولم يترك لنا التاريخ القواعد التي بنى عليها هذا الصراع والتحول .

وأما العصور اليونانية والرومانية القديمة فإن خلوها من هذا التشريع مرده إلى أسباب تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليست المسألة مسألة انقطاع الصلة بين هاتين الدولتين وبين العالم الخارجي ، إذ أن تلك العلاقات الخارجية لم تعوز هاتين الدولتين يوماً ما ، ولكن نظرتما نفسها إلى الحياة لم تكن لتسمح لهما



بوضع تشريع كهذا ، ذلك أن فكرة القانون الدولي تفترض قبل كل شيء الاعتراف بضرب من المساواة واشتراك المصالح وتبادل الحقوق والواجبات بين مختلف الأمم ، وهذا لم يكن ليتفق والنظريات اليونانية والرومانية ، فأما قدماء اليونان فانهم ، وإن كان يتعاملون فيما بينهم على قدم المساواة أو يكادون - على رغم الصراع الدائم بين مملكتي أسبارطة وأثينا - كانوا ينظرون إلى الشعوب غير اليونانية نظرتهم إلى كائنات جد منحلة ، حتى إن أرسطو كان يرى أن البرابرة ( ويعنى بهم الأجانب ) ما خلقوا إلا ليمرعوا بالعصا ويسلبوا ويستعبدوا ، وكذلك كان الأمر في التشريع الروماني ، فإنه لم يكتف بأن وضع نوعين متباينين من القوانين ، أحدهما : للبواطنين ( القانون المدني ) والآخر : لسكان البلاد الممتلئة ( قانون الشعوب ) بل إنه لم يكن يعرف في الصلات الخارجية إلا قانون القوة الباطشة ، فلم يجعل للأمم الأخرى حقاً في دفاعها عن نفسها ، ولا في أمنها ودعتها ، وإنما كان دستورهما في نظره : « العبودية أو الفناء » ، وإذا كان قد اتفق لروما في بعض الأحيان أن وضعت معاهدات سلمية على وجه دون وجه ، فلم يكن ذلك راجعاً إلى أن هناك قانوناً يتضمن بهذا الشرط المعين أو ذاك ، بل كان مصدره محض التفضل أو السعي وراء الأغراض والمنافع .

ولو أننا بحثنا فكرة القانون الدولي في أوروبا في العصور الحديثة ما وجدنا كبير فرق بينها وبين تلك العصور الأولى ، على رغم التقدم الفعلي في تدوين قواعد هذا التشريع العام ، ذلك أن فكرة تساوى الناس أمام القانون - تلك الفكرة التي طالما طالبت بها الشعوب وتشددت بها الحكومات - لم تتخذ بعد في نظر الغربيين صفة القانون العام الشامل ، ألم يقل : « استورات ميل » باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية ؟ أو لم يحدد « لوريمير » على وجه الأرض مناطق ثلاثاً تخضع كل منها لقانون مختلف ؟ فالعالم المتمدين يجب أن يتمتع في نظره بحقوق سياسية كاملة ، والعالم نصف المتمدين يكتفى أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية ، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزاماً قانونياً ، وجاء ميثاق « عصبة الأمم » بعد الحرب العالمية الأولى فأقر هذا التقسيم الثلاثي وأكسبه سلطة

القانون ، بل لقد فرق في قلب المدينيات الأوروبية نفسها بين الحقوق السياسية للدول الكبرى والدول الصغرى ، وأيا ما كان فإن منظمة السلام هذه لم تحظر غزو منشوريا ، ولا فتح بلاد الحبشة ، وأخيرا شكلت (جمعية الأمم المتحدة) بعد الحرب العالمية الثانية ، فماذا رأينا ؟ أليس روح التفريق وعدم المساواة لا يزال مسيطرا فيها على عقول السادة الذين يتحكمون في مصير الانسانية ؟ إنه لا حاجة بنا إلى محاولة إقامة البرهان على ذلك ، فهذه الحوادث التي تجرى تحت سمعنا وبصرنا وهذه الحلول العوجاء التي تطبق عليها في أحضان هذه الجمعية الحديثة تنطق - بأفصح بيان - بأن الضعفاء والمظلومين الذين كانوا يبنون آمالهم على مثل هذه المؤسسات لم ينلهم حتى الآن إلا حشرات تتلوها حشرات

\*\*\*

إذا أردنا أن نظفر بتشريع دول عام يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية ، فعلينا أن نصعد بذاتنا إلى عصر رسول الإسلام .

كلنا نعرف أن محمدا عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشرين في اتصال دائم بآدم وديانات مختلفة معادية طورا ومسالمة طورا ، وطبيعي أن هذه الظروف الخاصة التي جعلت الاسلام سلطاناً زمنياً وحكماً عالمياً - إلى جانب كونه عقيدة روحية ، ومبدأ أخلاقيا - كانت تقاضاه أن يضع تشريعا لقانون السلم والحرب بين الأمم ، فماذا فعل ؟ وهل كانت إجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المشرعين ، مرضية للضماير السليمة لدى الحكماء وذوى الخلق الكريم ؟

لاشك أن دراسة مستوعبة لهذه الناحية من التشريع الإسلامى تتطلب بحثا عميقا ، لا للمهود والأقضية النبوية وحدها ، بل للبعاهدات التي وضعها الخلفاء والملوك الإسلاميون أيضا في غضون التاريخ ، ولكنه ليس من غرضنا في هذا المقال أن نجعل مجال بحثنا بهذه المنابة من السعة والاستقصاء ، وكل ما يعيننا الآن هو أن نستخلص ما في القرآن والسنة النبوية من المبادئ الأساسية ، والخطوط الرئيسية في هذا الشأن .

## ١ - تصحيح خطأ مشهور :

وقبل كل شئ يجب أن نصحح خطأ ذائعا فى الأوساط الأوروبية ، وهو زعم أن الشعوب الإسلامية يباح لها - بل يجب عليها امتثالاً لدستورها الدينى - أن تحمل السلاح لإكراه الناس على الاسلام ، وسحق الشعوب الأخرى التى لا تعتق هذا الدين .

لئن كان هذا رأى حقاً لقد وجب أن تمنح كلمة القانون الدولى ، من التشريع الإسلامى إذ لا يبقى لها فيه مدلول تشير إليه ، ولا يبقى لغير المسلمين أمامه حق يطالبون فيه بحرياتهم ولا بحجياتهم .

ولكن الرجوع إلى نصوص القرآن الكريم يكشف لنا عن الحقيقة التى تخالف هذا الزعم على خط مستقيم ، فالقرآن لا يكتفى بأن يحظر حظراً أدياً كل محاولة لإكراه الناس على الإيمان : ( لا إكراه فى الدين ) سورة ٢ آية ٢٥٦ بل يقرر أنه من المستحيل وقوعها أن يسيطر على العالم دين واحد : ( ولا يزالون مختلفين ) ١١ : ١١٨ ( وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) ١٢ : ١٠٣ ، ألا تكون محاولة فرض عقيدة واحدة على الناس - والحالة هذه - ضرباً من التناقض والإحالة الظاهرة ؟ إن القرآن لم يفته أن يبرز ما فى هذه الغاية الطموحة من غرور خداع ، وذلك حيث يقول : ( ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) ١٠ : ٩٩

ومن هنا نرى كتاب الاسلام المطهر يحدد رسالة نبيه بأدق ما يكون من العبارات الحاضرة ، مبيناً أن مهمته إنما هى الموعدة والتذكير : ( فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ) ٨٨ : ٤١ ، ٢٢ ، بل إن هذه الدعوة السلبية نفسها لم يتركها القرآن حتى رسم حدودها وطريقتها ، وأوجب أن تودى بأكرم أسلوب ، ومن أُلطف طريق ( أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ) ١٦ : ١٢٥ ( ولا تُسَبِّحُوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ) ٦ : ١٠٨ ( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى

أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهانا وإلهم واحد ، ونحن له مسلمون ( ٢٩ : ٤٦ )

ورب قائل يقول لنا : سلنا أن كل إكراه ديني يجب أن يستبعد من أهداف الإسلام ، فما الذي يمنع أن يكون من بين هذه الأهداف فكرة الفتوح والتوسع التي يكون المسلمون قد دفعوا إليها بسبب من الأسباب الأخرى كداعية الثروة الاقتصادية أو الاستعلاء السياسي ، أو غير ذلك ؟

فلندع القرآن يقدم لنا الجواب عن هذا السؤال ، وما هوذا يقول : ( تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ) ( ٢٨ : ٨٢ )

هكذا يقضى القرآن في حزم على تلك الروح الاستعمارية الجبارة . وبوجه عام على تلك النزعة المادية المتطرفة التي انتشرت انتشاراً واثماً في عصرنا هذا ، والتي هي المنبع الأول لكل ما نشكو منه الآن .

ولكن هل نأخذ من كل ما تقدم أن الحروب ليس لها وجود قانوني في نظر الإسلام ؟

مهمات فما هي ذى نصوص القرآن ، لا تجعل الجهاد عملاً فاضلاً فحسب ، بل تعده غالباً من الواجبات الأولية .

فالسؤال الذي يجب وضعه الآن هو هذا : ما الأحوال والشروط التي يبرر بها الإسلام اتخاذ تلك المواقف الحربية ، ويجعلها حقاً مشروعاً ؟

## ٢ — تعريف الحرب المشروعة

ليس من غرضنا قط أن نعمل الفكر والقياس الدقيق للتوفيق بين هاتين المجموعتين من النصوص القرآنية المتعارضة في الظاهر ، فالتص القرآني نفسه يعطينا من هذه المهمة بما يقدمه لنا من الصيغ المحددة للقصود ، تمييزاً بين الحرب المشروعة ، وغير المشروعة ، وإليك طائفة من هذه النصوص :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ( ٢ : ١٩٠ ) » « فان انتهوا فان الله غفور رحيم .... فان انتهوا فلا

عدوان إلا على الظالمين ، ( ٢ : ١٩٢ - ١٩٣ ) ، فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلا ، ( ٤ : ٩٠ ) ، لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتسخطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، ( ٦٠ : ٨ ) . وأقرأ على الخصوص آية براءة التالية ، فان تحديد أهداف الاسلام في هذا الشأن أوضح وأصرح : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فآله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ، ( ٩ : ١٣ ) .

من هذه النصوص التي سردناها ، ومن نصوص كثيرة أخرى يخلص لنا تعريف « الحرب المشروعة » في الاسلام ، وأنها هي « الحرب الدفاعية » .

ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوى تحتها نوعان قد أشار القرآن إلى كليهما :

(١) الدفاع عن النفس . وفيه يقول الكتاب المجيد : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله » ، ( ٢٢ : ٣٩ - ٤٠ ) .

(٢) الاغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه . وهذا هو ما حث عليه القرآن في قوله : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » ، ( ٤ : ٧٥ ) .

وغنى عن البيان أن المفروض في كلتا الحالتين ، أن يكون العدو قد اتخذ بالفعل موقفا عدائيا ، وأن يكون في حالة هجوم أو تأهب للهجوم . فالظاهر غير الودية والاساءات الأدبية ، والمقاومات العنيدة لأمانينا المشروعة ، كل ذلك لا يسوغ لنا ان نتخذ ذريعة لإعلان الحرب . وإنه لمن أكبر مفاخر الاسلام أن يكون القرآن نفسه هو الذى وضع هذا التحديد في صراحة حيث يقول :

« ولا يجرمنكم شئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى . ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، ( ٥ : ٢ ) .

### ٣ — الصلح المجحف خير من الانتصار الدامى

من هنا نرى أن الحروب في نظر الاسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر . فلأن ينتهى المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشئ من حقوقهم ، ولكنه في الوقت نفسه يحقق الدماء ، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح .

وإن لنا في موقف الرسول في غزوة الحديبية نموذجاً حسناً لهذا الروح العالى في التسامح والصفح ، حرصاً على السلام من جانب الطرف الأقوى ، فهو لم يكثف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا ، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه في ذلك العام من المناسك « زيارة الأماكن المقدسة » ، ولم يكثف بأن رضى بتجريد اسمه في نصوص الهدنة من كل لقب تشريفى هو أهله ، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختاراً مقترحات الهدنة التى لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة . بل تخول الأعداء حقوقاً لا تخولها المسلمين ، ناهيك بالشرط الذى يلزم المسلمين بإعادة من يلجأ إليهم فراراً من معسكر قريش ، بينما تجعل للهاربين من معسكر المسلمين حق البقاء في معسكر قريش دون إزعاج ولا رد ، ونحن نعرف كم كان هذا الموقف البالغ الحد في المسألة مثير الاستفسارات الصحابة واعتراضاتهم . ولكن كل هذه المآخذ لم تكن لترجح كفة الحرب في نظر قائدهم الأعلى ، ولم تكن لتعدل به عن طريق السلام الذى يحفظ به دماء الناس وأرواحهم . ولنستمع له حين يقول مصمماً في جواب السائلين له عن السر في هذا العدول عن دخول مكة « والله لا تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها » .

### ٤ — قواعد الحرب

هكذا يوصينا الاسلام بالمصابرة ما بقى في قوس الصبر منزع ولا يخولنا حق الالتجاء إلى القتال ، إلا حيث يفرضه علينا العدو فرضاً ، وحيث يكون القعود معناه الالتقاء باليد إلى الهلكة .

لكنه — حتى في هذه الحال المشروعة — لا يبيح لأحد أن يخوض غمار الحرب متقاداً بسورة الغضب ، أسيراً لغريزة الانتقام ، دون تعقل ولا عاطفة إنسانية ، بل يوجب أن يسير فيها الجيشان ، وفق قانون معين يضبط هذه الانفعالات وينظمها .

فلنعرض الآن بعض تلك التعاليم التي أراد الاسلام — لا أقول أن يحو بها إلى الأبد تلك الكارثة العالمية ، فذلك ما لا يمكن تحقيقه ما بقي على الأرض ، شريرون لا يقمع نشاطهم الإجرامى إلا بالقوة — ولكن أراد الاسلام بها تضيق مجال الحروب ، وتخفيف عواقبها الوخيمة .

### (١) الأهداف الحربية :

رأينا كيف أن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزاً واضحاً بين المحاربين وغير المحاربين ، فأمر ألا يقاتل إلا المقاتل ، ولا بد أن نفهم من كلمة المقاتلين : أنهم الذين يحضرون ميدان القتال بالفعل ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية .

ولقد استرشد التشريع الإسلامى بتعاليم النبوة في هذا الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس ، ويكفل لإبعاد شرور الحرب عن الضعفاء ، ويحجب المدنيين كل ويلاتها ، فالأطفال والشيخوخ والنساء والمرضى والمعتوهون ، بل حتى الفلاحون في حرثهم ، والرهبان في معابدهم (١) كل أولئك معصومون بحصان القانون من أخطار الحروب .

والذى يلتفت نظرنا بوجه خاص في هذا المقام هو حرص الاسلام ، لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الأضرار المادية فحسب ، بل على حمايتهم أيضاً من التعرض

---

(١) هذا أحد الأدلة الساطعة على أن هدف الحرب الإسلامية ليس هو محو الديانات الأخرى ، فها نحن أولاء نراه على العكس من ذلك يحرص على تحصين أبناء تلك الديانات وحماية رؤسائها — الذين هم أبرز من يمثلها — من كل عدوان ما داموا بعيدين عن إشعال نار الحرب .

لكل ألم نفسى ، يبدو لنا ذلك جلياً بتأمل المثال التالى الذى ترويه لنا الآثار عن واقعة خير ، ذلك أنه حين انتهى حصار هذه المدينة بنصر المسلمين ، وقعت امرأتان يهوديتان فى أسر بلال ، فضى بهما بلال إلى مركز القيادة ، ماراً بميدان المعركة حيث سقطت جثث القتلى من اليهود ، وكان لهذا المشهد أثره العميق فى نفس إحدى الأسيرتين ، فصاحت وأجهشت بالبكاء ، وما إن علم النبي بسلوك بلال هذا، حتى استنكر فعلته ، ووجه إليه اللوم العنيف قائلاً له : ( هل مُزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ ) .

وينساق بنا الحديث فى هذا المعنى إلى التنويه بالقاعدة الإسلامية المتعلقة بأسرى الحرب ، والتي تحرم الفصل بين المرأة الأسيرة وأبنائها ، وتوجب الجمع بينهم فى مكان واحد ، فيألفها من عناية رحيمة حتى فى معمة البأس .

#### (ب) النهى عن حبس الطعام عن المدين :

ويظهر أن الاسلام لا يستحسن - بل لا يبيح - فرض حصار يرمى إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء ، أو أن هذا على الأقل هو ما تدل عليه حادثة ثمامة ( أحد أشراف بنى حنيفة ) فقد صمم هذا الرجل وهو فى حدثة إسلامه ، وأقسم مندفعاً بحرارة لإيمانه الغض على منع تموين مكة بالحبوب التى تنتجها بلاده ( البيامة ) ما لم ينهه النبي عن ذلك نهياً صريحاً ، فلما عانى أهل مكة ما عانوا من بأس هذا الحصار وجهوا إلى النبي رسالة موجزة يقولون فيها : ( إنك تأمر بصلة الرحم ، ولكنك قطعت أرحامنا قتللت الآباء وجوعت الأبناء ) فبعث النبي على الفور إلى ثمامة يأمره برفع هذا الحظر ، وبأن يدع أهل مكة يتمتعون بمواردهم العادية .

#### (ج) تقييد مرمى الأسلحة :

ومن ثمرات القاعدة التى توجب حصر العمليات الحربية فى الأهداف العسكرية النهى عن استعمال الأسلحة البعيدة المدى ، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتفريق والتحريق .



## (د) حظر وسائل الانتقام الوحشية :

يستنكر القرآن في غير موضع تلك العادة الهمجية التي يشيع استعمالها في أثناء الحروب ، ألا وهي تعذيب الأعداء ومعاملتهم بالقسوة والخشونة ، وإنه ليصل في استنكار هذه الفعلة إلى حد أن يعد تعذيب العدو أشد جرما من القتل : (والفتنة أشد القتل) ٢ : ١٩١ (والفتنة أكبر من القتل) ٢ : ٢١٧

ثم إننا نجد تعاليم الرسول التي كان يوجهها إلى قواد حملاته الحربية زاخرة بنصائحهم على التزام النظام وحسن السلوك في قتالهم ، ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب والنهب والقتل غدرا ، والتثيل بجثث القتلى ، نعم إنه ذات مرة اشتد غضبه من أهل مكة لتمثيلهم بجثة عمه حمزة الذي استشهد في غزوة أحد ، وحمله ذلك الغضب على التفكير في مضاعفة الانتقام منهم في واقعة مقبلة ، ولكن القرآن لم يلبث أن نصره من هذه المحاولة ، محذرا إياه من مجاوزة الحد في الانتقام ، مرغبا له في الصبر والصفح (١٦ : ١٢٦ ، ١٢٧) فلم يسع النبي عليه الصلاة والسلام إلا العدول عن هذه الفكرة ، واختار ما هو أليق بخلقه الكريم ، فشمل مجرمي الحرب هؤلاء بكرمه وصفحه .

ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذي يأمر بالعفو عن الأعداء متى انتهوا عن عدوانهم أن نهى عن تعقب من يفر منهم من الحرب ، فما بالك بمن يلقى سلاحه ويتقدم إلينا في صراحة بعبارات السلام والاستسلام ؟ إن القرآن ليحرم علينا إيذائه تحريما قاطعا حتى لو كان ذلك بحجة الشك في صدق إيمانه (٩٤ : ٤) .

تلك كلها أدلة ملبوسة على أن الإسلام لا يرمى قط إلى القضاء على أعدائه ، ولا إلى الاستيلاء عليهم بالقهر ، ولكن إلى تجنب خطرهم ، فتي تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع في نظره مبرر .

## (هـ) الهدنة الإجبارية في الأشهر الحرم :

وهذا أسلوب آخر من أساليب تخفيف ويلات الحرب .

فنحن نعرف مدى ما تستنفده الحروب الطويلة الأمد من جهود الشعوب وقواهم، وكيف أنها تصيب نشاطهم التعميري بالجمود والشلل، وعلاجا لهذه الحال سن القرآن، أو بالأحرى أحيا تلك السنة القديمة التي توجب عدم استمرار الحروب حولا بأكمله، فتقرر في أثنائه هدنة جبرية تعود فيها العلاقات السلبية، وتأخذ الحياة مجراها الطبيعي بين الأمم في مدة أقلها أربعة أشهر، هذا الوضع الذي تُكف به أعمال الحرب جبرا خلال تلك العام لا تنحصر مزيته في إشعار المتحاربين بلذة السلم في هذه المدة فحسب، بل إنه بما يتركه من الأثر في نفوس الجماهير يثبطهم عن الشر، ويغريهم بإطالة أمد الصلح، وتحويله من هدنة مؤقتة إلى هدنة حقيقية أو إلى سلم دائم.

### (و) التسليح :

من أنواع العلاج الواقى الذى يوصى به ساسة الغرب فى العصور الحديثة منعا لنشوب الصراع بين الدول، مشروع منع التسليح أو تقييده. غير أن هذا العلاج لم يتخذ قط حتى الآن صفة القانون الدولى ولم تطبق مبادئه تطبيقاً عادلاً على الجميع وإنما كان يفرض على المغلوب وحده، بل يمكن القول بأن تطبيق هذا المبدأ الذى يتعارض وغريزة البقاء سيظل دائماً حلماً مستحيل التحقق.

أما القرآن فإن نظريته الواقعية النفاذة جعلته على العكس من ذلك، يحضنا على أن نعد للطاغين كل ما استطعنا من قوة، على أن تلك النظرة الواقعية إلى الوسائل التى يجب اتخاذها لم تكن لتحول دون نظريته المثالية إلى الغايات العليا التى يهدف إليها من وراء هذا الاستعداد الحربى، وهى غاية تختلف كل الاختلاف عن الغايات التى يسعى إليها الغزاة الطامحون، فالمسألة فى نظر القرآن ليست مسألة إعداد للهجوم على الأعداء، بل للتحصن من شرهم، وإنذارهم بالقوة الباطشة التى تنتظرم إذا لم يقفوا عند حدهم (٨ : ٦٠).

ها هنا يمكن أنجمع علاج فى نظرنا لآلام الإنسانية الحاضرة، فليس الشأن فى أن نقلل من مقادير عسادنا الحربى أو نغير من طبيعته وإنما الأمر فى أن

نعدل أسلوبنا الفكري من أساسه ، علينا أن ننظر إلى الحياة نظرة جديدة تخضع فيها المادة للروح ، وتسمو فيها المعنويات على الجثمانيات ، وكل حل ينقصه هذا العنصر ، إنما هو حل سطحي واه لا بقاء له .

#### ٥ — العلاقات السياسية :

رأينا في الأسطر القليلة السابقة كيف نظم الاسلام حالة الحرب . فلننظر الآن كيف نظم علاقات السلم ، وأول ما يعنينا من ذلك طريقة معاملته لمبعوثي أعدائه ، وحاملى رسائلهم ، ومثليهم السياسيين ، وهى معاملة يحق لنا أن نقول فيها أنها سديدة مستقيمة ، فالإسلام فوق ما يكفله لهم من صيانة وأمن على الأرواح (١) يمنحهم نوعا من الحصانة الاجتماعية التى تخولهم حرية العودة الى أوطانهم متى شاموا ، ولا يدع سبيلا إلى حجزهم فى بلادنا بحجة أنهم من قوم عدو لنا .

بلى ذلك طريقته فى الاستماع لهؤلاء المفاوضين وحسن استعداده للتفاهم والتعاقد معهم ، فالقرآن يحض الرسول على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلا إليه « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ( ٨ : ٦١ ) .

أما شرائط الصلح وطرائقه ، فقد رأينا بصدد هدنة الحديبية ، كيف أن روح المسالمة التى تعمر قلب رسول الاسلام ، قد جعلته يضحي بكثير من التفاصيل المتعلقة بألقابه الأدبية ، وبالسمة الحربية لجيشه ، ويعرض الحقوق الفردية لاتباعه على أنه ليس معنى ذلك أنه يوجب قبول كل اقتراح من جانب الأعداء ، مهما كان شاذاً ، أو ضاراً بحقوق الأمة والأجيال المقبلة ، فقد رأينا هذا الرسول الرحيم نفسه ، حين عرض عليه مسيلة الكذاب تقسيم « الأرض » بينه وبينه يرفض ذلك العرض رفضاً صارماً ، ويحججه بتلك الجملة الحكيمة التى يقتبسها من القرآن : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » ( ٢١ : ١٠٥ ) .

(١) أنظر قول الرسول لمبعوثى مسيلة الكذاب : « واه لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم » .

فاذا نحن درسنا الوثائق التي تركتها لنا السير عن العلاقات السياسية النبوية ،  
استطعنا أن نتيين فيها أنواعا مختلفة من الموائيق :

### (أ) إعلان الأمن والحماية :

لعل أبسط العقود السياسية هو التصريح الذي يصدر من جانب واحد ،  
ولا يُلزم إلا الطرف الذي أصدره ، كإعلان دولة ما : أنها تلتزم الأمن والحماية  
لدولة أخرى . ولما لتجد من هذا النوع مثالا واضحا في ذلك العهد الذي اعطاه  
النبي لأهل سوريا ومن معهم في أثناء غزوة تبوك ، وضمن لهم فيه حرية انتقالهم ،  
وأمن قوافلهم البرية والبحرية ، وحرية استعمالهم للطرق ومجارى المياه ، على  
شريطة واحدة ، وهي ألا يثيروا على المسلمين شغباً .

### (ب) ميثاق عدم الاعتداء من الجانبين :

لكن المعاهدة بالمعنى الصحيح تتطلب اتفاقا وتبادلا للنفاع يقبله طرفا انعقد  
جميعا . وإن أقل ما يتحقق فيه هذا النوع من العهود ، هو التعاقد الذي لا يتضمن  
إلا التزامات سلبية تنحصر في امتناع كلا الطرفين عن كل فعل ضار بالآخر .  
وقد نقل لنا المؤرخون أمثلة لموائيق من هذا النوع عتدها النبي والتزم فيها  
الطرفان — إما لمدة غير محصورة ، وإما إلى أجل معلوم — ألا يهاجم أحدهما  
الآخر ، ولا يحالف عدوا له ، ولا يساعد معتديا عليه . فمن هذا القبيل ميثاقه إلى  
أجل غير مسمى مع بني ضمرة في السنة الثانية من الهجرة ، ومنه أيضا ميثاق  
الهدنة التي عقدها مع قريش في السنة السادسة من الهجرة لمدة عشرة أعوام :

### (ج) المحالفة :

على أن الحقوق والواجبات المتبادلة إنما تبرز في أكل مظاهرها في عهود  
الحلف ، ومن أمثلة هذه العهود في حياة الرسول ، تانك المحالفتان اللتان مهد لهما  
صلح الحديبية حيث خول كلا من الفريقين أن يختار حليفا له من بين القبائل العربية  
فاختارت « خزاعة » ، أن تحالف محمدا ، واختارت « بنو بكر » ، أن تحالف قريشا . ولقد  
كان من نتائج تطبيق هاتين المحالفتين أن نهض المسلمون في السنة الثامنة لنجدة

خزاعة حين نقضت قريش عهدها بإزائها ، وينبغي أن يلاحظ أن هذا النقض لم يكن بقتال مباشر موجه علانية لخزاعة ، وإنما كان معاونة سرية بالمال والسلاح لبني بكر عليها ، ومن هنا تعرف وجهة نظر الإسلام في هذه النقطة القانونية.

#### (د) الإغارة والتأجير :

وهذا مثال طريف لنوع من الموائيق لا نجده بعد إلا في العصر الحديث : ذلك هو العهد الذي أعطاه النبي لنصارى نجران بائنين ، وهو وإن كان عهداً ملياً أكثر منه عهداً دولياً ، إلا أن فيه شرطاً يذكرنا بميثاق الإغارة والتأجير الذي عقدته الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا لتتوّن الجيوش الانجليزية في الحرب العالمية الثانية .

فهذا العهد النبوي إذا نظرنا إليه من وجهتي الاجتماعية والدينية ، نراه يلتزم للتجرائين حرية عقيدتهم وعبادتهم ، وسلامة معابدهم ، وعدم المساس بمساكن كهنتهم ما داموا لا يحدّثون اضطراباً ، ولكن الناحية الاقتصادية لهذا العهد أكثر طرافة فانه ينص على ضرورة تقديم مساعدة مادية معينة منهم للسلمين في حال حدوث نزاع بين المسلمين وبين طرف ثالث في اليمن ، ومن بين هذه المساعدة إغارة جيش المسلمين ثلاثين وحدة من كل صنف من أصناف السلاح ، على أن يقوم المسلون برد هذه الأسلحة إلى حلفائهم الجرائين بمجرد انتهاء الحرب .

#### ٦ - الوفاء بالعهود :

وبعد : فإن من المقرر المعترف به عند الجميع أنه يجب على طرفي العقد - مهما كان نوع المعاهدة التي بينهما - أن يحافظا بدقة وأمانة على تنفيذ كل شروط الميثاق بنصها وروحها .

غير أن هذا الالتزام يأخذ في نصوص القرآن طابعا خاصا من التشديد ومن القدسية يجعله فرضا دينيا بالمعنى الحقيقي ، فالميثاق الذي يعقده المسلم لا يرتبط به أمام الناس خشب ، بل أنه يعقد في الوقت نفسه بينه وبين الله تعالى إذ يجعل المسلم ربه شهيدا وكفيلًا على عقوده والتزاماته ، ومن هنا يصبح احترام هذه

الالتزامات أمراً متغلغلا في النفوس ، متصلا أوثق اتصال بعقد الإيمان ، بحيث لا يبق لقوة في الأرض أن تحلله منه ، سواء في ذلك دوافع المنفعة أو طلب النفوذ ، أو زيادة الرخاء ، أو المجال الحيوى ، أو التوسع الاقتصادى ، أو التوازن السياسى ، أو غير ذلك .

ولإلى هذا كله يشير القرآن حيث يقول : ( ولا تقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كآلتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما يلوكم الله به ) ١٦ : ٩١ ، ٩٢

فإذ نحن رجعنا إلى السنة النبوية وجدناها قد بلغت من الدقة في تطبيقها لهذه التعليمات القرآنية مبلغا يكفي في وصفه أن نورد بعض أمثلة منه :

كان أبو جندل من المسلمين المحصورين في مكة ، فبينما كانت تكتب شروط صلح الحديبية أقبل يرسف في قيوده ليقم مع المسلمين ، ولإذ كانت المعاهدة لم توقع بعد ، كان من الممكن ألا يطبق عليه شرط رد اللاجئين ، ولكن بمثل قریش عارض في ذلك بحجة أن الاتفاق الشفوى قد تم آنفا قبل قدوم هذا اللاجئين ، فصدقه النبي عليه الصلاة والسلام ، وتركه يأخذ بتلايب المهاجر ليرده إلى مكة ، ولم يكن صياح أبي جندل وشكواه وإعلان خوفه من أن يفتهه المشركون عن دينه إذا رجع إليهم ، ولا الألم النفسى الذى أصاب المسلمين بسبب هذا التنازل - لم يكن كل ذلك - ليغير من موقف النبي وما زاد على أن قال : ( يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، ولكننا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك عهدا ، وإننا لانغدر بهم - أو - وإنه لا يصلح في ديننا الغدر ) ولقد تكرر مثل هذا الحادث بعد في شأن أسير آخر وهو أبو بصير ، وكان الحل هو الحل .

ولإليك مثالا من نوع آخر كان القادم فيه من المشركين لامن المسلمين ، وجاء مبعوثا لا هاربا ذلك هو أبو رافع الذى قدم برسالة من قریش إلى النبي فما هو إلا أن رأى

النبي حتى وقع في قلبه الإسلام، وأراد ألا يرجع إلى قومه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أما لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد».

بل هناك ما هو أعظم من ذلك دلالة على قدسية العهود والمواثيق في نظر رسول الإسلام، وأنه لم يكن حرصه على الوفاء بعهوده أشد منه على وفاء أتباعه بعهودهم الشخصية، مهما شقت على ضمير المؤمنين، ومن أطرف الأمثلة في ذلك وأشدّها غرابة حادثة حذيفة وأبيه فقد كانا قطعاً على نفسيهما لبعض الأعداء عهداً — بدون استئذان الرسول — ألا يقاتلهم، فلما جاء وقت القتال استفتيا في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كان جوابه إلا أن قال: «انصرفا ففياهم بعهدهم، ونستمع الله عليهم».

#### ٧ — قطع العلاقات السياسية :

شرطان لا بد منهما في نظر القرآن لإباحة نقض حلف سابق .

(١) هذا القرض لا يصح أن يحدث اعتباطاً وابتكاراً من قبلنا تحت تأثير الأغراض والمنافع، أو يباعث الهوى والعاطفة، بل لا بد أن يكون مسبوقاً باستفزاز من قبل الخصم وبأمارات تدل على أنه ينوى خيانة العهد .

(٢) ولا يصح أن يكون قطع العلاقات عملياً فقط، وبدون سابق إنذار، وإلا لكان غسلاً للخيانة بالخيانة، بل لا بد أن يكون نبذاً للبيعة صريحاً واضحاً وأن يصل إلى علم الخصم في الوقت المناسب ليكون على بينة من نيتنا نحوه حتى نكون وإياه سواء في ذلك، هذا هو صريح نص القرآن (٨ : ٥٨) .

#### خاتمة :

هكذا نرى أن التشريع الدولي في الإسلام يستوحى في كل خطوة من خطواته روح العدالة والمساواة بين الناس أمام القانون، بل يستمد من ينابيع أشد عمقا من ذلك كله : يستمد من منابع الإيمان الصخيخ، والخلق الكامل .

ونستطيع أن نقول - ووثائق التاريخ بين أيدينا - : إن هذا التشريع الدولي العام بمعناه الصحيح لم يكن له وجود قبل الإسلام، ولم يصل إليه تشريع آخر بعد الإسلام إلى يومنا هذا .

# فرصة سانحة

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

تسنع الفرص نادرا ، وتضى سரா ، والسعيد من ينتزها ويفيد منها .  
وما الفتوحات إلا فرص اغتنتها الأمم ، وما أبطال التاريخ إلا رجال لم تفلت  
منهم الفرص .

واليوم تسوق العوامل الكثيرة المتضاربة والمؤثرات العظيمة القوية ،  
فرصة لا مثيل لها ، يمكن باتهازا توطيد القوة اهائلة الكامنة فى الإسلام  
ولإبرازها إلى حيز الوجود .

فأمام العالم الاسلامى الآن فرصة فى ميدانين : ميدانى السياسة والأخلاق .

أما فى ميدان السياسة : فالعالم ينقسم إلى معسكرين ، كل يريد أن يضم إليه  
أكبر عدد من الأمم ، وكل يريد أن يجر إلى صفه فى الجامعات الدولية ، أكبر عدد  
من الأصوات ، يذل الوعود ، وتخفيف الضغط ، ومنح الاستقلال ؛ وهما يتصارعان  
فى معركة يعتبرانها حيوية ، يذلان فى سبيلها كل ما فى الطوق . وهذا ما دفع  
بكليهما إلى مصانعة الشعوب الصغيرة وملايتها ، مع أن البطش بها والتعسف معها  
كانا سنة الجميع إلى الامس القريب .

ثم إن تسابق المعسكرين فى التسلح ، وما ينفقان فى هذه السيل ؛ وما تتطلبه  
حاجات شعوبهما الجائعة ، ومحاولة إصلاح ما دمرته الحرب ، ومعالجة الضعف  
المالى ، وانعدام الأسواق لمنتجاتهما ، والأزمة الاقتصادية السائدة ، كل هذه



هبط بدخل دول المعسكرين ، وزلزل مراكزها ، وطوح بهيبتها ، وجعلها تخطب ودنا وتشتري صداقتنا ، وتمنحنا استقلالنا وتحترمه ، وهي التي تسلطت علينا تسلط الشياطين على النفوس الضعيفة ، وعشنا طويلا على الخوف منها ، والحاجة إلى إرضائها في كل صغيرة وكبيرة .

إن إحدى الكتلتين تشجع اليوم - ولو لأغراض سياسية - الحركة الدينية ، وهو ما لم يكن من قبل ؛ فلماذا الانسارع إلى إدخال الدين في كل معهد ، وفرضه على كل فرد ، وجعله أساس الحكم في كل بلد إسلامي ، لتحصن به ضد كل عدو ، وتقوى به على كل مشكلة ، وتتخلص بفضلها من دعاة الالحاد والتفرقة إلى الأبد ، ونخلق به جيلا سليما قويا ؛ ولماذا لا نركز - في هذه الفرصة - روح الاسلام في النفوس والبلاد ، حتى لا نزلزله الحوادث ، ولا تمطله يد قوية أو دكتاتور ظالم لو أرادت السياسة ذلك فيما بعد .

إن المسلم إذا رضى أن يكون نصيبه في الحياة ألا يعترضه القوى في إقامة صلواته وشعائره ، أو يكون غاية مرامه بناء مسجد في حيه ، أو التمتع بالحرية في لباسه أو ترضيه الجماملات ، ومثل هذا اللون من الاستقلال الموهوب ، دون أن يهيب نفسه لاحتمال تكاليف الحرية والاستقلال ، أقول بصراحة - ولنا أن نكون صرحاء مع الإخوة - إنه لم يحصل على شيء ، وليس هذا لحسب ، بل إن هذه الحريات الوقتية الممنوحة - التي لا يدله فيها - يمكن أن تسلب بسهولة حين تصفى الكتلتان المشاكلي بينهما ، أو تفضي الحرب المقبلة على إحداهما وتبقى الأخرى بغير منافس .

هذه - لا شك - فرصة أتاحت لنا بغير جهد ، لو نتهزها لأمكن أن نستغل لمصلحتنا اضطراب الكتلتين أكبر استغلال .

أما في الميدان الأخلاقي : فعلى أثر الحربين العالميتين الماضيتين - ولا سيما الأخيرة - انهارت المبادئ الأخلاقية ، وانتشر الفقر وعمت القوضى ، بسبب كثرة القتل ، ودمار البلاد ، وهدم البيوت ، واختلاط الغالب بالغلوب ،

وإجلاء الملايين عن بيوتهم ، وتشرذد الكثيرين في الآفاق ، وانعدام روابط الأسر بل انعدامها ، حتى أصبح رب الأسرة لا يأمن على نفسه ، ولا يطمئن على أهله ، ثم التعذيب والتقى ، ومعاملة الناس كالرقيق ، وإعدام آلاف الأسرى بشكل جماعي في معسكرات الاعتقال ، حتى ان هيئة الأمم اقترحت عقد اتفاقية تحرم القتل الجماعي ؛ كل هذا قضى على الأخلاق ، ومسخ في أعين الناس معاني الفضيلة فأصبحنا نرى العلماء أنفسهم — وهم أصحاب العقول الناضجة والفكر المستنير — يتفخرون بصنع ما يدمر ويخرب ويفنى البشر ، فهذا يتبعه بصنع قنبلة تقضى على مليون في أقل من ثانية ، وذلك يفخر بتوقيفه إلى صنع قنبلة أخرى أشد وأقوى ، يبقى أثرها في الأرض ألف سنة . وسواء أصدقنا هذا أم لم نصدق ، فإن إعلان الفريقين لهذه الأخبار ، يدل على مدى الانهيار الخلقى ؛ واشتغال العلماء بما ينزل بالعالم الدمار والهلاك ، ويهدد البشرية بالفناء ، أكبر دليل على انعدام المبادئ الإنسانية .

على أثر هذا ، بدأ المفكرون يبحثون عن طريق للنجاة من هذا الوضع الرحس ويفتشون عن نظام — لا ينبعث عن الميول السياسية والنزوات الحزبية — بل يقوم على قواعد سليمة يضمن للبشرية العيش في راحة وسلام ، ولا يمنعها من التقدم في كل نواحي الحياة ، والتقى أكثرهم عند فكرة الأخذ بدعوة روجية ، وهي فكرة ترى لها أنصاراً وأعواناً في كل بلد وصقع يزدادون يوماً بعد يوم .

وعندنا نحن المسلمين ، قانون إلهي ، يضمن السعادة للبشرية ، ويقضى على الوحشية والبربرية ، ويقيم موازين الاجتماع بالعدل ، ويحرّم قتل النفوس ، ويحض على التواصي بالخير والفضل ، ويؤمن الفرد على نفسه وعرضه وماله ، ويشجع الفقير الجائع ، ويشقى الغنى المتخوم ، ويضع للحرب قوانين إنسانية ، إذا احتيج إليها .

فلماذا لا نخرج بنور شريعة الإسلام على هذا العالم المضطرب ، كما خرج المسلمون الأوائل على العالم المحيط بهم من الفرس والروم إثر حروبهما ، واختلال أوضاعهما ، وضعف العقيدة الدينية في أبنائهما ، فتقبّل الناس دعوتهم ، وأطمأنت القلوب إلى دينهم ونظامهم واستمرت بهم أمور الدنيا بعد اضطراب عاصفت ، وقلق شديد ؟

لو انتهر المسلمون هذه الفرصة الذهبية ، لأمكن أن يكونوا هداة العالم المضطرب ، وأطباء النفوس المريضة ، ورسل النجاة والخلاص ، ولأمكن أن يغزوا الدنيا غزوا روحياً خلفياً تشريعياً ، يبقى على البشرية ويسعدها قبل أن يقضى عليها دعاة الدمار ، ودعاة التخريب .

لكننا مع الأسف الشديد ، لا نستطيع بحالتنا الراهنة أن نستفيد من الفرصة السانحة فقوى بناءنا ، وننشر دعوتنا ، لأن ذلك يتطلب التكتل والتآخي ، وأن يفهم بعضنا بعضاً ، كما يتطلب الأخذ بتعاليم الإسلام الصحيحة ، والعمل بأحكامه واتباع آدابه ، حتى لا تكون - على الأقل - حرب بيننا ، وحتى نظهر أمام العالم بالمظهر الذي يليق بمن يريد حفظ حقه ، وبث دعوته ، واتخاذ الآخرين .

ولست أعنى بالتكتل الإسلامى ، ما اصطلح عليه الساسة ، أو ما يفرضه علينا غيرنا ، أو ما يبرمه رؤساء الحكومات على الموائد ، ويشربون « نخب » ، توثيقه ، فهذا تكتل لا وجود له إلا على الورق ، لأن الشعوب لا تؤمن به ، بل ترتاب فيه ، وهل يحتاج الأخ إلى توقيع ميثاق صداقة مع أخيه ؟ .

وإنما أعنى التكتل الطبيعى الذى أوجده الله فى أمة بعث فيها نبيه وبث فيها دعوته ، وهداها إلى كتابه ، وجمع أبناءها على قبلة واحدة ، ووحّد صلّاتهم ، وصيامهم ، وحجهم ، فاجتمعت قلوبهم ، وتلاقحت أرواحهم ، وصفت ضمائرهم ، واتحدت مصالحيهم .

هذا التكتل هو أسر طبيعى للمسلمين ، لولا أن عصفت به الزعة العنصرية ، والتعصب المذهبى ، وهما مشكلتان خطيرتان على التكتل يجب أن نقف أمامهما قليلاً .

فالأولى : مشكلة العنصرية : أثبت التاريخ منذ القدم وأثبت الغرب أخيراً أنها سبب كثير من الويلات وما كانت الحرب العالمية الأخيرة إلا مظهرها من مظاهرها ، ومن أجل ذلك دعا المنصفون للإنسانية ، إلى نبذها ظهرياً ، وأخذ العالم الغربى يحاربها بطرق عملية فيرفع الحواجز بين الشعوب المختلفة العنصر « كالانجلوسكسون ، و « اللاتين » ، ويدمج الشعوب المختلفة الأصول بعضها فى بعض .

أما نحن في الشرق الإسلامي فلا نزال نصفي إلى دعاة العنصرية ، ونسكت على الأعياب الأيدي الأجنبية التي تحبذ العنصرية ، وتخترع الوسائل لتكيتها في النفوس ، مع أن الاسلام مال بنا عنها ، ووجهنا إلى الطريق القويم ، وقرر أن لأفضل لأبيض على اسود إلا بالتقوى ، ولا ميزة للعرب — وهم قوم الرسول — على غيرهم من المسلمين إلا بحسن العمل .

والثانية : التعصب المذهبي أو الاختلاف الطائفي — ولولا شهوات الحكم لم يتعد حدوده المعقولة ولم يصبح مشكلة — لقد استغلت السياسة أشنع استغلال فجعلت المسلم يفر من أخيه أكثر مما يفر من عدوه ، ويضمر لأخيه عداوة أشد مما يضمر لخصمه ، وكم من مأس جرها على المسلمين هذا التعصب ، وكم أريق بسببه من دماء ، وكم من سيوف شهرت على الإخوة بدل أن تشهر على الأعداء ، وكم من قوى بذلت في محاربة أبناء التوحيد بدل أن تبذل في محاربة المشركين . مع أننا لو دققنا النظر وأنصفنا في الحكم ، لوجدنا الخلافات المذهبية لا تمس أصول العقائد التي يجب الإيمان بها ، ولو أن أهل السنة تعرفوا على إخوانهم الإمامية والزيدية من الشيعة ، وتعرف الشيعة على إخوانهم أهل السنة ، لتبين لهم جميعا أن الخلاف بينهم ليس على الأصول ، وأن كثيرا من الشبهة التي وجدت في أفكار كل طائفة عن الطائفة الأخرى ، ليست إلا من صنع المفترين ، وأن الخلاف بينهم غالبا ، شبيه بخلاف الفقهاء في أن واحدا يبحر بالبسملة في صلاته ، والآخر يسرها ، أو أن واحدا يمسح على القدمين والآخر يغسلهما ، ونحو ذلك من خلافات يمكن أن يحتفظ كل فريق برأيه فيها وأن يحترم رأى غيره ، فاذا كان المسلمون قد استطاعوا أن يقفوا أمام خلافاتهم الفقهية في العصر الأخير موقف التسامح ، ولم يعد بينهم من يعتدى على مخالفه في الرأي — كما فعل الذي كسر إصبع صاحبه لأنه يرفعها في التشهد — فانهم قادرون على مثل ذلك في آرائهم الفكرية ومعارفهم التي لا تتصل بالعقائد ولا تشترط في الإيمان .

وها نحن أولاء نرى الأزهر الشريف يدرس الفقه المقارن بين جميع المذاهب

- بصورة إجمالية نرجو أن تكون فيما بعد تفصيلية - دون تمييز بينها، ولا اقتصار على بعضها، ونرى كبار شيوخه يشتركون في لجان القوانين ويفتشون عن أقوال الأئمة الموافقة لمصلحة الأمة، فيعدلون أحيانا عن مذهب أبي حنيفة إلى مذهب غيره، بل يعدلون عن الراجح في مذهب الحنفية إلى المرجوح، وقد يخرجون عن دائرة مذاهب السنة الأربعة إلى مذهب آخر، كما فعلوا في قانوني الطلاق والوصية وغيرهما، إذ أخذوا برأى ابن تيمية وابن القيم والشيعية الإمامية، وكل ذلك قد تم بهدوء ورضى وإقبال دون تخرج ولا تذمر، وأدرك الناس ما فيه من مصلحة ورحمة وتيسير، فذا عليهم لو استقبلوا ما وراء الفقه كما استقبلوا الفقه، وما الفرق بين الفروع العملية والفروع العلمية، وكلها ليست خلافات جوهرية تنهض سببا للقطيعة والخصومة.

هنا نقف قليلا لنقول: إن هذه المشكلة الأخيرة، قد وجد اليوم - والله الحمد - من يعالجها، فها هي ذى جماعة التقريب تسير فيها باتزان وتعقل وحزم، وقد تمكنت في مدة وجيزة من أن تلفت العالم الإسلامى إلى دعوتها، وإنا لنرجو الله أن يوفقها في إنجاز مهمتها.

لأنه لجدير بالمسلمين أن يدركوا أنهم بتخلصهم من هاتين المشكلتين، يمكنهم أن يفيدوا من هذه الفرصة السانحة، وينهضوا بأمته نهضة مباركة، ويصدوا عن بلادهم كل عدوان.

إن المسلم إذا احتفظ بتعاليمه كان أمة، وإن المسلم إذا صح إسلامه كان حصنا.

وإن الأمة الإسلامية إذا حكمت بكتابها، برزت قوة الإسلام الكامنة فيها، ويومئذ تكون أمة موجهة تحفظ التوازن في العالم، وتحكم في الكتلتين المتاحرتين، وتوقف كلا منهما عند حده، يساعدها في ذلك ثراؤها العريض، وموقعها الجغرافى الممتاز، وكثرة أبنائها، وعميق الإخلاص الذى يغرسه في قلوب أبنائها دينهم الإسلامى الحنيف.

عود على بدء :

## حقوق الإنسان

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغي بك

عضو جماعة كبار العلماء والإمام الخاص للحضرة الملكية

كان ، ولا يزال ، مما أولع به المتفطرسون من الغرب ، أن يعلقوا دائما على الصراع بين الشرق والغرب ، أثناء امتداد موجة الفتح الإسلامى ، بقولهم : لو كتب للمسلمين النصر فى معركة بواتييه ، وأظلت راياتهم أوروبا لأصبحت تلك البلاد التى انطوى عليها ملكهم ، وأظلتها أعلامهم أبعد ما تكون عن المدنية وأبعد شئ عن ذلك النظام المبارك الذى تنوء به كواهلهم ، والذى يوقعهم فى ورطة بعد ورطة ، واضطراب بعد اضطراب ، على سنن لا يعلم إلا الله ما مصيره ، وكيف وأين ينتهى .

هذا دينهم ، وذاك هجيرهم ، أما نحن فنحمد الله على تلك الفوضى التى كانوا يخافون الوقوع فيها لو قدر لأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام أن ينتصروا ، ونسأله المزيد من التوفيق للاعتصام بما يخشون أو يسود مجتمعهم المبارك ، والمبارك جدا . . . ونقول مع القائل :

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ولقد ألمنا فى العدد الماضى من مجلة رسالة الاسلام بموضوع حقوق الإنسان للمامة عابرة ، رجونا بعدها أن يوفقنا الله للعودة إلى ذلك الموضوع عسى أن نلم مرة أخرى بحقوق الإنسان فى تاريخنا وتاريخهم ، وشرعنا وشرعهم ، وقبل أن نعرض لكلمة عن تاريخ حقوق الإنسان فى أوروبا ، نود أن نلفت نظر القارىء

الى خطبة الوداع ليراجع ما فيها من المبادئ التي تتصل بهذا الموضوع ، فإنها - كما قلنا سابقا - خطبة جديرة بالدرس ، لأنها وثيقة رسمية نهائية - كما يحلو التعبير للدارسين الحديثين - وإن كان كل ما صح لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وثائق رسمية ، ولكن نختار تلك الوثيقة لما ارتبط بها من ظرف الزمان وظرف المكان ومن شهداها من جبهة المسلمين من قرع سمعهم لأول مرة . كلمة الرسول ( فاني لا أدري لعل لا ألتاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا ) فكان لذلك أثره المادى وأثره السيكولوجى فى نفوس السامعين ، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يكاد يختم كل فقرة من فقرات تلك الوثيقة العظمى بقوله : « ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد » .

هذه خطبة الوداع الكريمة علينا ، والأثيرة عند من يعرف الحق والانصاف ، والكفيلة أن تهدى ضالا وترشد غاويا لم أراد الضال والغاوى مخلصا أن يهتدى ، لم تكن نتيجة بحث مؤتمر ، ولا تقرير لجنة ، ولم يطبل لها طبل ولم يزمز بها زامر ، ولكنها كانت وحيا من الله العالم بمصالح العباد ، والخير بما ينفعهم ، لا مآ كان يدري من قبل ما جاء به ما الكتاب ولا الإيمان ، جعله الله نورا يهدى به من يشاء من عباده .

نكتفى بها اليوم وعسانا أن نخرج مرة أخرى بذلك الحى .

لعل للمامة بالجزع ثانية يدب منه نسيم البرء فى على

وقد عرضنا فى الماضى للنصوص التي أذاعتها هيئة الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان حديثا ، وتقلنا ما تمدحت به تلك الرسائل ، وما قاله عنها أصحابها ، فكيف حاولت تلك البلاد العريقة فى المدنية كما يقولون أن تصل إلى حقوق الانسان ؟ .

عرف التاريخ وثيقتين أو تَصْرِيحَيْن فى هذه الناحية :

أحدهما ما عرفه الانكليز باسم MAGNA CHARTA

والثانية ما عرفته فرنسا والعالم باسم :

LA DECLARATION DES DROITS DE L'HOMME

واتخذ الانكليز من وثيقتهم دستوراً لحرياتهم التي اكتسبوها بعد صراع مرير ، في عهد الملك جون ملك بريطانيا ، ووقعها الملك في ١٥ يونيو سنة ١٢١٥ م تحت ضغط ظروف لا نريد أن نعرض لها لأنها لا تمس الموضوع الذي نعالجه اليوم ، وتقع تلك الوثيقة في حوالى ثلاثة وستين من المواد ، وظلت عرضة للتعديل حتى استقرت بصيغتها النهائية التي يعرفها العالم الانكليزى اليوم في ١٢٢٥

كما اتخذت فرنسا بل اتخذ العالم ، شرقه وغربه ، من الوثيقة التي كانت نتيجة الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، ما يعدونه الأساس لكل حرية أو كل تنكير في العالم يومذاك ، وإذا طرحنا جانباً تلك الديباجة الطويلة للوثيقة الفرنسية والتعليق عليها ، لو فعلنا ذلك لوجدنا خطبة حجة الوداع في بساطتها تتكفل في أسلوب سهل بسيط بتلك المبادئ التي غثرت أوروبا بأنها وليدة عقلها الجبار ، وجهادها المبارك ، كما غثرت أمريكا في هذا العام بأن على أرضها أعلنت تلك الحريات باسم خمسين من الدول واقفوا عليها وباركوها ، بارك الله فيهم ، وهداهم سبيل الحق والرشاد ، فكم قرناً ياترى مرت بين حجة الوداع وبين إعلان أول وثيقة للحريات قد كانت حجة الوداع في سنة ٦٣١ م ، ومعنى هذا أن قرونًا ستة قد مرت منذ أعلن على لسان محمد عليه الصلاة والسلام حق الإنسان مفصلاً حتى عهد MAGNA GHARTA وأحد عشر قرناً حتى أعلنت حقوق الإنسان على يد رجال الثورة في فرنسا في الوثيقة التي أسلفنا الإشارة إليها .

ثم ماذا ؟ إنك لتجد قواعد الاعتراف بالكيان الإنساني ، وحق الإنسان في المساواة في شتى بقاع الأرض ماثلة لأول نظرة في سطور قلائل لا يعييك حفظها وفي أسلوب سهل محبب للناس ، حفظها المسلمون أو - مع التحفظ - جهرتهم عن ظهر قلب ، وتدارسوها مدارس الشيء المقدس لديهم ، ولم تعد مجرد ألفاظ قانونية صيغت صياغة قانونية ، في أسلوب جاف ، ثم أودعت أضياب المكتبات ، فلم يعد يعيها إلا الاختصاصيون المعنيون بدرسها ، وبذلك رسخت تلك السطور القلائل في نفوس الجيل الأول الذي عمل بها ، فأقتلع من الأرض أماً طاغية وجعلها أثراً بعد عين ، وبني على أنقاضها دولة سادت العالم على وجه لا يكابر في فضله إلا من



كأبر في الشمس ونفعها للناس ، ثم ماذا ؟ نحن لا نريد أن نتهم بالمغالاة والتعصب  
فقول مع القائلين أن كل فضل في التقليد العلى أو الاجتماعى أو السياسى عرفته  
أوروبا من عصر النهضة وما بعدها ، هو أثر من تراثنا المجيد ، وشفق من شمسنا التى  
غابت على ذلك الفردوس المفقود فى الأندلس ، وما استفاد من نوره من بلد ، نعم  
لا نريد أن نقول ذلك — وإن كان الدليل عليه ميسورا — ولكن هل استطاعت  
تلك الثورات ، وما خلفت من وثائق ؛ أن تهدى شعوباً جعلتها دستوراً ، للعمل بها ،  
أما أما نجد عليم بالجواب ، فيما رأيت فى جنوب أفريقيا ، وما رأى النقات فى  
الهند وفى أمريكا من مساواة ، معكوسة للسود فيها جناح فى المقام ، والبيض آخر ،  
حتى أما كن العبادة ، وفضلاً عن أما كنهم المحترمة المزدولة فى سبل المواصلات  
— بل وهو الذى يقتضى منه العجب — فى البحر المحيط الطهور ماؤه الحل ميتته ،  
والذى يغسل أوضار الناس وأدناسهم تجدد فيه المماضلة بالجنس واللون والدين ،  
وفى غيره ، على نحو أو آخر من المفاضلة ، وحسبك ما يقرأ الناس عن قضايا  
الزواج والبيض والسود فى أمريكا أم البلاد التى أعلن على أرضها حق الإنسان ،  
أما نحن وأما وثيقتنا فقد انتجت ، ما أحب أن يرجع إليه قارئى الكريم فى العدد  
الماضى من هذه المجلة ، ولأنه لو اجد ما احترمه الاسلام فى أصوله العامة ، وأقره  
أصولاً كلية جاءت الشريعة الغراء بحفظها ، ولن تجد لها فيها نسخاً ، ذلك هو :  
الكليات الخمس : الدين ، النفس ، العقل ، النسل ، المال . التى أفاض العلماء فى  
تفصيلها وإيضاح ما يتعلق بها (١) . والى بينا طرفاً منها فى المقال السابق ، كما بينا  
شمول تلك الأحكام إلا القليل منها للسلبين وغيرهم ، وأن اختلاف الناس فيه قد  
رجع إلى شيء يشبه مبدأ اختلاف الجنسية فى العصر الحديث .

فإن كانت الـ MAGNA GHARTA — واختها الفرنسية — حفظت الحرية  
للفرد ، وقالت إن الأفراد لدى القانون سواء ، وإن حريتهم الشخصية مكفولة

(١) راجع المواثيق للشاطي . المسألة الثامنة من كتاب الأدلة الشرعية ، والمسألة الأولى  
من الفصل الثانى من الأحكام والنسخ .

فلا يقبض على أحد ، ولا يحبس أحد إلا بحق ، وإن كانت كفلت حرية الرأي ، وأوجب على الدولة حماية حرية القيام بجميع شعائر الأديان والعتائد ، وإن كانت كل الدساتير التي تلها نصت على ذلك ، وجعلتها ركن الديمقراطية الحقة ، ومنعت الضرائب إلا بحقها ، وأوجب توزيع العدل بين الناس ، فلا يحرم منه أحد (١) ، إن كان حقا كل أولئك فنبشونا فيم يختصم الملا شرقية وغربية اليوم ، وفيم تتطاحن المعسكرات ويهدد أحدها الآخر بطامة لا تبقى ولا تذر ، وهل ذلك إلا مظهر من مظاهر عصبية ممقوتة كامنة أظهرها الغلب ، وزكته القوة التي يشعربها كل فريق حتى لم تعد كتلة تعترف للأخرى بحق من حقوق الإنسان الأولى رغم الدعاوى الجوفاء .

لكن الاسلام قد كفل الحقوق وحفظ التوازن بين القوى على وجه لا يطفى فيه أحد على أحد ، ولا يضار معه ذو مبدأ أو عقيدة ، ما دامت تلتزم والأحوال العامة في التشريع ، فصلت ذلك كتب السنة وأصول الفقه والمدارس الفقهية على اختلافها ، وكان ذلك إيضاحا لذلك الدستور السابوي الكريم على مذوء ما بين في حجة الدواع ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام أو فعله محررا منبوطا لا ينقصه إلا الدعاية ، وإلا العرض الحسن للناس ، وبعبارة أدق ، لا ينقصه إلا حماسة المؤمنين وقوتهم وجلادهم ليفهموه للناس .

الإشترافيون أنت إمامهم      لولا دعاوى القوم والغلواء  
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى      فالناس في حق الحياة سواء  
داويت متندأ وداووا طفرة      وأخف من بعض الدواء الداء

فأى الفريقين بعد الذي أسلفناه خير مقاما وأحسن نديا ؟

وأظني الآن ألممت إجمالا بما عرضت له ، أما التفصيل فقد تضيق به صفحات رسالة الاسلام الغراء ، ولعل ثمة فرصة أسعد والسلام ؟

(١) راجع تفصيل ذلك :

## هل تعبدنا الشرع بالهدى في حال يترك فيها الفساد

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنية

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا بيروت

في العدد الأول للسنة الثانية من مجلة رسالة الإسلام الغراء كتبت تحت هذا العنوان كلمة أوحاها إلىّ جواب فضيلة شيخنا الجليل الشيخ محمود شلتوت، المنشور في العدد الرابع للسنة الأولى من هذه المجلة، وتكرم صاحب الفضيلة الأستاذ المحرر بتعليق على قولي فتح فيه باباً جديداً وجديراً بالبحث والعناية، رغبة منه في أن يتدازس ذوو الفضل الموضوع من جميع جهاته.

ولأنّ أشكر لفضيلة الأستاذ تعليقه المفيد الذي رجع في إلى الموضوع لعلّي أبلغ في محاولتي الثانية ما فاتني أولاً.

إذا ثبت أن الشرع الأقدس أمر بشيء، وكان ذلك الشيء المأمور به من نوع العبادة، كالصلاة، والحج وأجزائهما. فنحن ملزمون بامتثال هذا الأمر تقرباً إلى الله سبحانه، ولا يقبل منا الاعتذار عن الترك بعدم ظهور المصلحة لدينا من إتيان الفعل، لأن معنى العبادة هي العبودية لله تعالى والتسليم لأمره على كل حال، فإطاعة المخلوق لحاكمه لا تتحقق إلا بهذا التسام المطلق، سواء أعلننا المصلحة أم جهلناها لسكوت الشرع عنها، وفي هذه الحال لا يسوغ لأحد مهما بلغت منزلته العالية أن يستبطن المصلحة من عند نفسه، ويجعلها علة يدور مدارها الحكم وجوداً وعدماً، كما لا يسوغ له أن يهمل ما اعتبره الشرع قيد التكليف أو يعتبر ما أهمله، ومن فعل شيئاً من ذلك فقد اجتهد في قبالة النص، وأعطى

لنفسه صفة المشرع ، والاجتهاد الصحيح إنما هو في استنباط الأحكام من مداركها الثابتة لا في تشريعها وإنشائها .

أما الفعل الذى تعلق به الأمر فإن لم يكن للشارع فيه حقيقة شرعية ، فأمر تعيينه يعود إلى نظر المكلف وتشخيصه من غير فرق بين المجتهد والمقلد .

هذا وإن للإنسان أن يحاول بيان المصلحة من العبادة الواجبة ، ويقرها إلى الأنفهام بما يتفق مع العقل ، ولا يتناقى والشرع على أن لا يكون لاستباطه أى تأثير على الحكم الشرعى إثباتاً ولا نفياً ، بل إن الشرع نفسه يحتم على من له كفاية العلامة الشيخ محمود شلتوت العلمية والبيانية أن يسلك هذه السيل المثمرة — فى أيامنا هذه — لنشر الدعوة إلى الحق والدين .

وعلى هذا الأساس يرتكز تهيمى لما جاء فى الكتاب والسنة من وجوب الهدى فى الحج وغيره من العبادات .

أمر الشرع بالهدى ، ولم يبين أن المصلحة منه هى إراقة الدماء ، أو تذكرة القداء ، وليس له فى معنى الهدى حقيقة شرعية ، فاللازم إذن أن نلاحظ معنى الهدى بصرف النظر عن تعلق التكليف به ، فاصدق عليه اسم الهدى قبل أن يكون مطلوباً للشرع يجب إيجاده فى الخارج على ما كان عليه قبل الطلب ، لأن الأمر لم يغير شيئاً من معناه ، وإنما جعله واجبا يحرم على المكلف تركه وإهماله .

وإذا لم يكن إراقة الدم مطلوباً بنفسه ، ولا هو علة للطلب حيث لم يرد فى الشرع ما يشعر بأحدهما ، فكيف يقصد به امتثال أمر الله سبحانه ؟ .

أما ما جرت عليه سيرة حجاج بيت الله الحرام من تسمية إراقة الدم المستلزم للظمر أو الاحراق بالهدى ، فنسب عن الاعتقاد بأن الشرع أراد من الهدى إراقة الدم ، وأن إراقة الدم هو المأمور به ، والهدى جعل سبيلاً للتعبير عنه ، وهذا الاعتقاد ناشئ عن الحرص الشديد على أوامر الله التعبدية والمحافظة على امتثالها .

وتقدم منا أن المطلوب الشرعى هو الهدى ، وأن إراقة الدم ليس مورداً للحكم ، ولا علة له ، وأنه ليس للشرع حقيقة شرعية فى الهدى ، وأن المفهوم منه

عرفا - بقطع النظر عن الطلب - هو ما كان هناك آكل ومطعم ، كما كانت عليه الحال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

ولا حجة على المتأخر بعمل المتقدم ، إذا علم أن المتقدم استند في عمله إلى آية أو رواية أو أصل لا يدل شيء منها على المعنى الذى فهمه المتقدم ، بل لا تجوز - والحالة هذه - المتابعة بوجه ، بعد أن ظهر الخطأ والاشتباه .

ونجد المتأخرين من علماء الشيعة الإمامية خالفوا المتقدمين منهم في كثير من مسائل الفقه ، منها : ( منزوحات البئر ) فقد أوجب المتقدمون أن ينزح سبعون دلواً من بئر مات فيها إنسان ، وأربعون دلواً لميته الثعلب ، وسبعة لميته الطير ، وثلاثة للحية ، وواحد للعصفور مستدين إلى ما فهموه من بعض الروايات ، غالفهم المتأخرون لأنهم لم يستفيدوا من هذه الروايات الوجوب .

فالغرض أن المرجع الوحيد في تفسير معنى الهدى بقطع النظر عن الحكم هو العرف وحده ، وأن العرف يفهم من معنى الهدى والأضحية وجود الآكلين ، والتوزيع عليهم أيضاً ، لأن الناس لو رأوا رجلاً يذبح وينحر ثم يطعم اللحم أو يحرقه ، وسألوه عن ذلك فأجاب : إني أهدي أو أضحي لأنكروا عليه ساليين اسم الهدى والأضحية عن عمله .

لكن فضيلة الأستاذ المحرر فسر الهدى ( بما يمكن الأكل منه أو الاطعام . وليس اللازم أن يوجد من يأكل أو يطعم ) والحق أن في تفسيره هذا صناعة . وفذلكة عليّة تدل على قوة في الجدل ، ومقدرة على إنشاء السبل والخطوط ، متى اقتضى الأمر .

وتجلى هذه الصناعة في شرحى لفحوى كلامه ، وما يرمى إليه من وراء هذا التفسير ، وكأني بالأستاذ يقول : كما أن الشارع لم يطلب إراقة الدم بالذات ، ولم يبين أن الإراقة هي العلة من طلبه . كذلك لم يقل الشارع : إن وجد الآكل فاهد أى لم يعتبر وجود الآكل شرطاً في التكليف . كما في قوله : إن استطعت فحج ، لم يقل : إهد لأجل الأكل ، أى لم يجعل الأكل علة ولا غاية لطلبه . وإذا لم يكن

كل من الإراقة ووجود الآكل مطلوباً بالذات ولا غاية للطلب تعينت الحالة الوسطى، وهي أن تكون الذبيحة قابلة للأكل، ولهذه القابلية فردان: وجود الآكل، وعدمه، وكل واحد منهما يصدق عليه المطلوب على السواء، ويتحقق بفعله الامتثال من غير فرق بين الحالين ما دامت الذبيحة جامعة للأوصاف التي يسوغ معها الأكل.

وهذا التوجيه متين بحسب الصناعة، لكن يرجع في الحقيقة إلى العمل بإطلاق لفظ الهدى في الفرد الثاني، أى الصورة المفروضة، والتمسك بإطلاق اللفظ يرتكز على أمور ثلاثة:

(١) أن يصدق اللفظ على الفرد الذى نريد أن نثبت له حكم الكلى، بحيث يكون هذا الكلى قابلاً للانقسام إليه وإلى غيره، كالإنسان الذى ينقسم إلى رجل وامرأة، والماء إلى ماء مطر وماء نابع، ومتى حصل الشك فى صدق اللفظ وتسمية الفرد به، فلا مجال للتمسك بالإطلاق، فلو قال الشارع: أكرم عالماً، ولم نعلم أن زيدا عالماً كى يجب إكرامه، أو جاهل كى لا يجب لا يسوغ لنا التمسك بإطلاق لفظ عالم لأجل إكرام زيد، لأن خطاب أكرم عالماً يستحيل أن يكون طريقاً يستكشف منه عليه زيد، لأن تشخيص الأفراد الخارجية، وتطبيق الكلى على جزئياته ليس من شأن مشرع الأحكام. ولا من وظيفة واضع الألفاظ، وتمسك بالإطلاق لو تأكدنا من عليه زيد، وكان بينه وبين من أوجب الإكرام جفاء وتباعد، وشككنا لذلك بأنه يريد إكرام كل عالم حتى عدوه زيد أولاً يريده لمكان العداوة، فإذا كان الأمر على هذا، متمسك بالإطلاق موجبين للإكرام لزيد كغيره من العلماء.

(٢) أن يكون المتكلم فى صدد بيان الأحكام ومتعلقاتها وأجزائها وشرائطها، وكل ما له تأثير فى مراده، أما لو كان فى صدد التشريع فحسب كقوله تعالى: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة الوارد لبيان أصل الوجوب من غير تعرض لبيان الأجزاء والشرائط، فيمتنع التمسك بالإطلاق.

(٢) أن لا يأتى المتكلم بقرينة متصلة أو منفصلة تصلح لصرف الظاهر عن ظاهره . والمطلق عن إطلاقه ، كما لو قال : اسقنى الماء ، وعقب بما يدل على أنه لن يشرب ماء المطر ، فالقرينة أخرجت هذا النوع من الماء عن مراد المتكلم وطلبه ، فاللفظ يصدق عليه بما هو ماء بقطع النظر عن الحكم ، ولا يصدق عليه بما هو مطلوب ومأمور به .

هذه شروط ثلاثة لا بد من وجودها جميعا لصحة التمسك بالإطلاق ، وإثبات الحكم لجميع الأفراد ، ومتى اختل واحد منها كان الدليل مهملًا بالنسبة إلى الفرد المشكوك ، والشرط الأول غير متحقق فيما نحن فيه ، لأننا نعلم علم اليقين أن الذبح المستلزم للطمر أو الإحراق لا يسمى هدياً في عرف الناس مع قطع النظر عن الحكم ، ولا أقل من الشك في الصدق وصحة التسمية ، وعليه لا يمكن التمسك بالإطلاق لأن تشخيص أن هذا الفرد من الهدى أو من غيره ليس من شأن الشارع ولا الواضع .

ولو سلمنا جدلاً أن الهدى يصدق في حالة الطمر أو الإحراق نقول : إن الشرط الثالث منتهى لوجود الأمر بالأكل والاطعام في الكتاب والسنة ، قال تعالى : « فكلوا منها وأطعموا » وهناك عدة روايات في هذا المعنى ، وقد نص الفقهاء في كتبهم على وجوب الأكل والتفريق ، وبينوا مقدار ما يؤكل ويُطعم .

فالتقرب إلى الله تعالى بالذبح مع وجود الأكل مبنى على القول بأن الشرع تعبدنا بإراقة الدماء مطلقاً ، ولا أثر لهذا القول في لسان الشرع ، وإنما فهمه الفقهاء من الهدى المأمور به شرعاً ، ومتى كانت الأفهام حجة في إثبات الدين وأحكامه ؟ إن دين الله لا يصاب بالعقول .

وإذا لم يكن في البين مبدل منه لا تنفاه الأمر فلا يبقى مجال للبذل والاستبدال والأصل يقتضى البراءة لعدم وجود النص في الصورة الفرضية .

ولكن ترجع الصدقة بضمن الهدى من باب الاحتياط في الدين ، على أن لا ينوى الحاج بصدقته هذه البذل عن الهدى ، بل يقصد التقرب المطلق كسائر

الصدقات المتمحضة لله سبحانه ، ويستأنس لذلك بما أجمع عليه فقهاؤنا حيث أوجبوا على من لم يجد الاضحية أن يتصدق بثمنها .

ومن أنعم النظر فيما قدمت يعلم أن محور كلامي كان في المطلوب الشرعي ، وأنه هل هو إراقه الدم أو الهدى ؟ وفي الحالة الثانية هل : يصدق الهدى على الذبيحة المستلزم ذبحها لطمر لحما أو إحراقه ؟ فبحثي يرجع إذن الى التطبيق لا غيره ، فمن استصوب قولي بعد النظر والتأمل كان مستدلا ومستقلا في رأيه ، وكنت شريكا له في النتيجة ، ومن بلغ به اجتهاده وتفكيره الى تخطئي كنت أيضاً شريكه في البحث والدرس ، وكان مستحقاً على جهوده الاحترام والتقدير ؟

### رِسَالَةُ الْإِسْلَام

نشكر لفضيلة الأستاذ الجليل ما جاد به قلبه من ثناء طويناه هو أولى به ، كما نشكر له حسن قبله لما كتبنا وما يبدو في أسلوبه من هدوء ورغبة في خدمة العلم ، والوصول الى الحق .

ولا يفوتنا أن نبشر قراءنا بما وعدنا به فضيلته من بحث في الأصول الفقهية للشيعية الإمامية بين القديم والحديث . فلا شك أن بحثنا كهذا تدبجه براعة كبراعته ، ويمده جنان كجنانه ؛ مما يبشّر به عشاق العلم ، ورواد البحث . فرحى مرحى !

أما موضوع الهدى فإن لدينا على ما كتبه الشيخ العلامة كلاماً . بيد أننا لانسى أن دخولنا بين الشيخين الجليلين كان عارضا ، فليس لنا في الموضوع أصالتهما ولا أردنا الفصل بينهما ، ولنا لنحسب أن قراءنا الآن لنرى شوق إلى ما يقوله فضيلة أستاذنا الكبير الشيخ محمود شلتوت ، ونحسب أنه مستجيب لما نرجو ويرجون إن شاء الله تعالى ؟



# اللُّغَةُ وَالْأَدَبُ بَيْنَ الْجَدِيدِ وَالْقَدِيمِ

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس في كلية اللغة العربية

انشعب الباحثون في اللغة العربية وآدابها ، منذ مشرق النهضة الأدبية الحديثة ،  
إلى ثلاث شعب :

فأما الشعبة الأولى : فقد مضت على سنن المنهج القديم ، تترسعه ، وتعمقه ،  
وتؤمن به إيماناً لا يخامره ريب ، وتنافح عنه نفاح المجاهد المستميت ، ثقة منها  
بأنه الدرب الذي لا يصل الدربي بعامة إلى إدراك أسرار البيان العربي ،  
وللى نواحي الجمال فيه ، ولا يصل المسلم بخاصة إلى دلائل إعجاز القرآن الكريم  
الذي هو عروة الإسلام ومُجمّعه - إلا إذا سار عليه .

وأما الأخرى : فقد وردت موارد الشعبة الأولى ، فنهلت ، وعلت وتملّت  
وتملّات ، وأطالت الدرس والتأمل ، وغاصت إلى الأعماق ، ثم أسعدتها حيواتها  
الخاصة ، بالاطلاع على مناهج البحث والنظر في بعض لغات الغرب ، فاستعارت  
عنها أفضل ما فيها ، مما ظهر أثره في استيفاء الوسائل ، وتوسيع آفاق البحث ،  
وتهذيب العرض ، وعظم الفوائد التي يصل إليها الباحث من أقرب طريق .

ولقد اشتعلت نار الحرب بين هاتين الشعتين زمناً طويلاً ، وكان اشتعالها في أول  
الامر طبعياً ، لآثر القديم الموروث في النفوس ، ولسوء الظن بكل ما هو غربي ،

ثم لعدم الاطمئنان إلى نوايا الروّاد الأول لهذه النجعة . بيد أن الزمن حلال المشكلات ، قد تكفل بإخماد نار الحرب ، إذ كانت مطاولته فرصة لأن يدرك المحافظون ، أن المنهج الجديد ، يمسّ الشكل دون الجوهر ، وأنه معين مسعد ، لا مبطّ غاذل ، وأنه بانيا أكثر منه هادما ، على أنه حينما هدم ما هدم ، لم يكن مبتدعا ، ولا مدعيا ، ولا قاتلا على القدماء ما لم يقولوا ، وإنما ردّد ما قالوا ، وشرح ما أجملوا ، ولذلك غدونا اليوم ، وهذا المنهج «المطعم» منهج المحافظين والاحرار ، والمجددين والرجعيين ، فيما يعالجون من بحوث النقد في مختلف الأوطان العربية والاسلامية جميعا .

\* \* \*

نحن — الآن — أمام الشعبة الثالثة : وهي شعبة لها خطرها ، ولها رجالها البارزون ، ولها شبابها الجرماء ، الذين يستمدون تسعة أعشار قوتهم من جهات ثقافية ، من الغرور أن أمسّ رسالتها ، أو أنال منها ، وإلا سمعت قصة الصخر والوعل !

هذه الشعبة : قد أعطت الثقافة الغربية والآداب الغربية من أنفسها بمقدار ما أعطت الشعبان الأوليان اللغة العربية وآدابها من أنفسهم ، وكانت قد حامت حول اللغة العربية وأدبها ، ولكنها ما وردت ، أو بعبارة أقرب إلى الإنصاف ، وردت ورود الرّافه الرّيان ، لا ورود المتعطش الظمآن .

وبعيدٌ ما بين وارد رفقه علكل شرّبه ، ووارد خمس !

هذه الشعبة - منذ اليوم - تحاول مُلحّة جاهدة ، أن تُنزل الآداب العربية منذ جرى بها لسان عربي على معايير النقد الأدبي في الغرب ، يسلم منها — وقبلها يسلم — ما واقفها ، ويُيسرّج منها ما حاد عنه ، وما أكثر ما يحيد ! لهم في هذا الكتب المؤلفة ، والرسائل والمقالات ، والجدل الشفوي ، الذي ينتهي أحيانا إلى الصراع ، أو إلى ما هو شر من الصراع .

لست هنا بسبيل أن أذكر أسماء ، أو أن أرد على شخص معين ، ولكنني أناهض

مذهباً أدبياً ينشط في الدعاية له وفي العمل به مثقفون يملكون كثيراً من وسائل الدعاية والنشر، وقد أقل بعض العبارات يستدعيها الكلام، لا أريد أن أريد على صاحبها بالذات، وإنما أريد ناحيتها العامة التي تمس جوهر الموضوع، وسأحتفظ بالمراجع لنفسى، إمعاناً في التبرى من الاهتمام بالقائل، ومن العناية بالرد عليه.

هذا واحد منهم يقول :

« إذا قلت لك إن الشعر العربي القديم كان في جملة شعر السطوح الخارجية ، للنفس والحياة ، فلا تحمل هذا القول على التعصب للحديث والوقوف إلى جانبه إن أمامك هذا الشعر ، فراجع فيه نفسك ، واستشر في حقيقته ذوقك وحسك ، إنه شعر يشعر بك ب فراغ الوجود الداخلي ، عند قائله ، لأنهم كانوا يعيشون خارج الحدود النفسية ، في الكثير الغالب من الأحيان ، فإذا عادوا إلى تلك الحدود ، فتغلّبوا على مشكلة الصدق الشعوري ، قامت في وجوههم مشكلة أخرى ، هي مشكلة الصدق الفني ، وهنا مفرق الطريق بين المشككتين الرئيسيتين : مشكلة الأداء النفسي ، ومشكلة الأداء اللفظي ، في معرض الموازنة بين الشعر العربي الحديث ، والشعر العربي القديم . »

ويقول في موضع آخر :

« على هذا الأساس سار الشعر القديم ، يبارك خطواته النقد القديم ، ذلك لأن الأجيال قد دأبت على أن تخلق أبناءها في ميدان الفن من طينة واحدة ، وأن تصوغ ملكاتهم من معدن واحد : يقف الشاعر عند الهياكل العظمية ، للألفاظ ، ويقف معه الناقد ؛ وغاية الفن عند هذا وذاك ، أن يطلب الأول إلى صاحبيه أن يقفا لحظات ليكيا معه ، وأن يشير الثاني إلى أنه قد بلغ القمة ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، أو لأنه مثلاً ، قد وفق إلى تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد ، أم بنصه . »

\*\*\*

هذا كلام واضح بنفسه ، ليس في حاجة إلى تعليق ولا تعقيب ، وما بي أن

أعرض له في تفاصيله ، فإن ذلك يحمل الاعتراف بالمبدأ ، وهو خاطيء ؛ ولكني أقصده في صميمه ، بما لعله يخزيه ، ويخذله ، ويشين صدور قوم مؤمنين .

اللغة العربية لغة مقدسة ، حصن الإسلام ثغورها بحماية مسلحة ، تستعصى على الحديد والنار ، لأنها وعاء القرآن ، معجزة الإسلام ، ولقد جاءت دولة بني العباس ، فجعلت من الاسلام العربي ، اسلاما علميا ، والتمت جميع العلوم والفلسفات التي كانت للأمم القديمة ، من الفرس والهنود والاعريق ؛ ثم عرفت عن الآداب الغربية عزوفا ، فلم تلب لها صفحة ، ولا أعارتها أى اهتمام ، وأرتجت أبواب الوضع ، والتعريب ، والاستشهاد ، بآتياء الدولة الأموية ، وبين سمع بني العباس وبصرهم ؛ فأقروا هذا الارتاج ، واعترفوا به ، ولم يحاولوا أن يمسوه من قريب أو من بعيد .

وجاء فقهاء الفروع فاشتروا في المجتهد أن يتبحر في اللغة العربية تبجرا يقربه من السليقة ، واختلفوا اختلافا مُرّاً في جواز ترجمة القرآن ، وكانت الصولة في جانب المانعين ، ولكم أشفقتُ - في عهد قريب - على شخص ، أثير عندنا ، كريم علينا وعلى التاريخ معنا ، من تورطه في هذا الموقف تورطا ، لم يخامرني ريب - عهدئذ - في أنه غير ناجح في الخلاص منه بغير التساهل والإهمال .

ومتى كانت اللغة مقدسة ، فإن آدابها : رواية ودراية ونقدا وعروضا وفقها الخ . من كل ما تتوقف عليه حياتها ، مما لا يتم الواجب المطلق إلا به ؛ فالانحراف بها عن سنته إلى نهج غريب عنها ، محاولة في قيام المشروط بدون شرطه ، وهي محاولة فاشلة بلا جدال .

إن الحاكم في النقد الأدبي عند العرب هو الذوق الأدبي العربي ، لا الذوق الشخصي الخاص كما يفهم بعض أدياء النقد في هذا العهد ؛ والذوق الأدبي العربي إنما يريه التلمؤ من الآثار الادبية ، حفظا وبحناً وتعمقا وطول ممارسة ، حتى إذا اكتمل هذا الذوق واكمل ، تصدر للحكم على هذه الآداب ، أو لها وللشئيا فيما يعرض لطلابها من مشكلات ؛ وليان أسرار البلاغة فيها ، وسمات الجمال في

في معاطفها ، وعلى الضعف أو النقص في بعض نواحيها . فالآداب العربية مؤثرة في « النقد العربي » لأنها مصدره ، متأثرة بالنقد العربي لأنه يميز صحيحها من عليها ، ورفيعها من مُسِفِّها ، وكاذبها من صادقها ، وما فسر العرب القرآن ؛ ولا ألف الزخشرى كشافه المعجز ، ولا وضع عبد القاهر الجرجاني كتبه في أسرار الإعجاز ، ولا ، ولا ، الخ . إلا بعد البحث المستقصى في آداب اللغة العربية ، وإلا بعد اكتمال الملكة الذواقة التي طاروا بها في سماء البلاغة العربية وآفاقها الرحية كل مطار .

\* \* \*

جوهر المشكلة بيننا وبين بعض مجددى النقاد في هذا العهد الأخير ، إنهم يريدون فصل اللغة العربية : متنها وآدابها ونقدتها وعروضها الخ . عن الدين . أما نحن ، فأتينا نعتبر هذا الفصل كالفصل بين الروح والجسد ؛ فان اللغة قوام الدين ؛ والدين هو المقوم لحياة الإسلام بين شعوب العالم المعمور .

وأذكر أن هذه الخاطرة النافذة نمت بها بعض الأقلام منذ عهد بعيد ، وكان الفرد الذي لمحا فأسرع إلى كبها ، ذلك الكاتب الاسلامي العظيم المغفور له مصطفى صادق الرافعي ، في أسطر قليلة وردت في مقدمة أحد مؤلفاته ، وقرأتها يومئذ ثم ماتت الفكرة فترة طويلة حتى نشأ نقاد الفترة الحاضرة ، فأخذوا يحومون حولها ، ولكنها ستعود إلى قبرها ، لا لأننا سنغني بمحاربتها ، بل لأنها غير صالحة للحياة .

قد يقول قائل : إذا كانت اللغة على ما ذكرت مقدسة ؛ فما عمل المجمع اللغوي وهو سؤال قد يخطر ببال من لا يتعمقون الأمور ؛ فأما أنا فأتى مؤمن أعتم الإيمان بأن الرجال الخالدين أعضاء المجمع الموقر يرون أول واجباتهم حماية اللغة من أمثال هذه الوافدة ؛ وإن لم وراء ذلك لمجالا رحبا يستنفد الجهود في الحياطة والتيسير ؟

## لَوْلَا الْقَدِيمَاءُ

كتبنا إلينا جماعة نهر الكتب القديمة التي تألفت في  
النجف ، طالبة أن نرسل إليها بحثاً من جماعة التقريب  
لينظر في الكتاب الذي اعترمت إصداره كقائمة لمصروها  
الجليل « سلسلة الآثار » وقد عهدت اللجنة الثقافية للتقريب  
بكتابة هذا المقال إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني  
السكرتير العام المساعد للجماعة ، وعضو لجنتها الثقافية ،  
ولعل هذا الوقت الذي حاولت فيه بعض الأقلام أن تغض  
من شأن القدماء هو أنسب الأوقات لنهره ، وهذا هو :

نسمع بين حين وآخر صيحات من الشباب والكهول في البلاد الإسلامية ،  
تدعو إلى التجديد ونبد القديم ، وتصف ما بين أيدينا من الكتب العلمية والأدبية  
والتاريخية ، وكتب الحديث والرواية والفقه والأصول والبلاغة والنحو وما إليها  
بالتعقيد أحياناً ، وبالغموض أحياناً ، وبالأضطراب أحياناً ، وأنها كتب لا تناسب  
العصر الحديث ، ولا تلائم أذواق أهله ، وتضيع وقت طلابها في بحوث جدلية ،  
وخلافات عرضية ، لا طائل تحتها ، ولا ثمرة تنبئ من ورائها .

نسمع هذه الصيحات متوالية على صفحات المجلات أحياناً ، وفي المعاهد والكتليات  
أحياناً ، وفي النوادي العلمية ، وعلى أسنة المحاضرين والخطباء ، وكل متصدر  
لدعوة إصلاحية - بزعمه - يندفع إليها دون بحث ولا روية ، أو يريد أن يستهوى

بها أفئدة من الشباب الذين أخذوا بالحديث اغتراراً به أو التماساً لمظهر التجديد والتقدم ، وكرهوا القديم جهلاً به ، أو ضعفاً عنه ، أو فراراً من تهمة الرجعية والتأخر .

وقد أدت هذه الصيحات إلى ضرر عظيم أصاب شباب الأمة الإسلامية ، وأضعف محصولهم العلمي ، وحدّ من نشاطهم الفكري ، وزين لهم التكرار لسلفهم ، وإطلاق الألسنة بالقول فيهم ، واستقبال آرائهم وذكراهم بنوع من الاستخفاف والتهاون ، ترى ذلك فيهم على تفاوت ، فمنهم المسرف فيه ، ومنهم المقتصد ، تبعاً لأحوالهم المتفاوتة ، وحظوظهم المختلفة من التأثير بأسباب ذلك وعوامله .

ولقد عصفت هذه العاصفة الهوجاء بكل طائفة من طوائف الأمة الإسلامية ودخلت فنتتها على جميع أقطارها ، وشملت أصناف المتعلمين فيها ، حتى رأينا بأخرة آثارها في الأزهر ، وهو أكبر جامعة في العالم تعنى بالقديم ، وتعيش به وعليه ، فقد اعتنق كثير من طلابه ، وقليل من علمائه هذا المبدأ ، وتأثروا بهذه الدعوة إلى حد ما ، وبدأت آثار هذا التأثير في دراستهم وكتبهم ومقالاتهم وبحوثهم ، بل بدت في المناهج الرسمية التي أخذ الأزهر بها في قانونه الحديث الصادر في سنة ١٩٣٦ م .

كما أدت هذه الصيحات المتتابعة إلى خطر على الروح الإسلامي في الأمة ، فإن إنصراف كثير من الشباب وأهل العلم عن كتب الأقدمين ، فتح أمامهم مجال الاقبال على الثقافات الأجنبية ، والتزود منها بزاد جميل الظاهر ، خبيث الباطن مثله كمثل العسل المسموم ، حلو مذاقه ، والموت كامن فيه ، ذلك أن هذه الثقافات مبنية في الغالب على ما ينافي الدين والقومية الإسلامية ، والأخلاق الموروثة التي يعتز بها أهل القرآن ، وهي مبنية أيضاً على احتقار الشرق والمسلمين عامة ، وتصويرهم في صورة البدائين في أفكارهم وعقولهم ، المتقلبين مع السياسات في كل زمن من الأزمان ، الواضعين — تبعاً لاهوائهم — أساطير التاريخ ، وأفانين الرواية ، المطوعين لفقهم وأحكام شريعته على منازع المالكين من الخلفاء والقادة وأصحاب

السلطان ، وهي ترى بذلك كله إلى توهين العزائم ، وإفساد الأخلاق ، وحل العرى ، وقطع الوشائج بين المسلمين ، وقطع الصلة بينهم وبين ماضيهم ليكونوا صيدا سهلا وطعاما شهييا ، وتكون بلادهم الشاسعة ، وأراضيهم الواسعة منابت غلات ، ومناجم آلات ، يتمتع بها المستعمرون ويسعدون ، ويملكون ويحكمون .

فاذا امتلأ جو بلادنا بالدعاوة الضارة ، التي تذاع وتنتشر عن كتبنا وقديمتنا فلا مناص للعقول أن تلتفت إلى غير هذه الكتب ، وتلتبس غير هذا القديم ، فلا تجد ذلك إلا في تلك الثقافات الطارئة التي بينا بعض مضارها وأخطارها ، وأكبر ما تنمى به الأمم بعد غزوها بالحرب والفتح ، أن تغزى بالأفكار والثقافات ، بل إن غزوها بالأفكار والثقافات لأشد عليها خطرا وأفعل فيها أثرا ، فإن جرح الحسام قد يندمل ، وشرخ العظام قد ينجر ، أما أدواء القلوب والروس ، فلا شفاء منها إلا بالموت ، وقديما قيل : جرح اللسان أنكى من جرح السنان .



ليس كاتب هذا من المتعصبين المنقطعين عن مجارة الحركات الحديثة ، وليس من المسرفين الذين يقولون : « ما ترك الأول للآخر شيئا ، وليس بالداعية إلى جود العلم والفقه والأدب والتاريخ وغير ذلك على ما تركها لنا السلف ، لا نعيد عنها يمتة ولا يسرة ، ولكنه امرؤ كابد من هذا وذاك ، فلابس القديم والحديث قتي ناشئا يصبح بهما صباحه ، ويمسى عليهما مساءه ، ثم لابسهما كهلا فتيا مكتمل الفهم والرشاد ، خراجا ولا تاجا مُطلعة ذواقنا ، فإنه بهما لجد خير .

لكنني أومن إيماننا يشاركني فيه كل منصف بأنه لولا القديما لضاع العلم ، واضطرب الرأي ، وضلت الأفهام ، وهذه قضية لا أزداد فيها نظرا إلا ازدادت بها ثقة ، وازدادت عندي وضوحا ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين ، فقد علنا أن عصر الأئمة المجتهدين في الفقه والشريعة كان ينطوى على فقهاء يعدون بالمئات ، كلهم يعكف على الأدلة ، ويستنبط الأحكام وينظر في المصالح ، ويعمل ويخرج ، ويدعو إلى الحق ويرشد إلى الصواب ، حتى ملثوا طباق الأرض علما ، وتركوا



من وراثهم كنوزا لا يزيدنها الإنفاق إلا نماء وزكاة ، ثم جاء من بعدهم تلاميذهم والمقتفون آثارهم فولدوا من عليهم علما ، ومن فقههم فقها ، وفرعوا على أصولهم وأصلوا من فروعهم ، وخرّجوا أقوالهم ، وجلّوا غوامض مسائلهم ، وقربوا إلى الأذهان الكلية ما ندّ ، ونفوا ما شدّ ، وفصلوا وبوّبوا ، وهذبوا وربّوا حتى جعلوا علم الشريعة على طرف الثام ، فإذا فعل المتأخرون ؟ إن قصارى المبرز فيهم أن يرجع إلى آراء القدماء ، فيدركها ويحسن أخذها ، والاقتباس منها ، فإن تيسر له ذلك واسعه به طبع موات ، وعقل نافذ ، وبصر ثاقب ، أطل على الناس من سماء النبوغ ، وتقاضاهم ألوان الاعتراف والتمجيد ، ولم يرض منهم إلا مكانة الصدارة والزعامة كأنه « الشافعي » ، صاحب الام ، أو مالك صاحب « المدونة » ، و« الموطأ » ، أو ابن حنبل صاحب « المسند » ، أو أبو حنيفة صاحب الرأي ، أو الليث ، أو سفيان ، بل كأنه على باب العلم ، أو عمر المحدث أو أبو بكر الصديق ، أو عثمان أمين القرآن .

وقد علنا أن أهل الحديث ورجاله المخلصين كانوا يفتنون زهرة أعمارهم في التحقيق والتدقيق ، وكانوا يرحلون في طلبه ، فيضربون في الارض كما يضرب المجاهدون في سبيل الله تاركين أبناءهم وأهليهم ومساكنهم ، وأنهم تتبعوا كل ما يتصل بالراوية والرواة والمروى ، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها وضبطوها ، ودرسوا سائر نواحيها ، وليس بين المتأخرين إلا من هو كلٌّ عليهم في هذا الشأن يقبل ما قبلوا ، ويثبت ما أثبتوا ، وينفي ما نفوا .

وقل مثل ذلك في علوم البلاغة والآداب والنحو والتفسير وكل ما درسه المتقدمون وألفوا فيه ، وتتبعوا دقائقه خدمة للقرآن الكريم والحديث النبوي ، وحفظا للغة العرب ، فإننا نرى المتأخرين يحجرون في أوديتهم ويسلكون سبيلهم ، ويرجعون إليهم ، فلا يكادون يغيرون من أحكامهم حكما ، ولا يزيدون عليهم إلا ما عسى أن يكون من تمثيل لقاعدة أو بيان لمجمل أو تحقيق لشاهد أو نحو ذلك .

فعلام إذن يشكرون للقديم وهم بنوره يستضيئون وعلى هديه يسرون ،

ولولاه لكانوا من الضالين ؟ وإلى أى جديد يدعون ؟ إلى جديد قوامه ما عند السلف من علم ورأى ، أم إلى جديد قوامه الزيف والإلحاد والخروج على الدين والتكرار للتصوص والأصول ؟ فإذا قال قائل : أن للجديد ميادين لم يحل فيها القدماء ولم تخطر لهم على بال ، وقد عرفها العلم الحديث والفن الحديث ، وظهر من آثارها ما نعمنا به ونعم به العالم من مخترعات ومجائب ، قلنا ذلك حق ما فيه ريب ، ولكن ذلك نقل الكلام الى موضوع آخر ، فأنما نريد الموازنة بين القديم والجديد فيما اشترك فيه القديم والجديد لا فيما انفرد فيه أحدهما .

\* \* \*

إن هؤلاء القدامى قد فعلوا الأعاجيب ، وإن حياتهم العلمية ومنابرتهم وطول صبرهم وأتانتهم لجديرة بكل ثناء وتمجيد وإكبار .

إننا لو نظرنا الى محصول على لأحد العلماء القدامى مثل الرازى أو البخارى أو ابن كثير أو ابن منظور المصرى أو النووى أو ابن تيمية أو ابن القيم أو المرتضى أو الطوسى ، أو نصير الدين أو أمثالهم من الذين تزرخ المكتبة الإسلامية بآثارهم ، لعلنا بصورة واضحة نسبنا اليهم ، ولمسنا مقدار فضل الله عليهم فى ربطه على قلوبهم وتوفيقه لإياهم إلى ما قاموا به من عمل باهر ، وما تركوا من أثر خالد .

أن تفسير القرآن الكريم المسمى : « مفاتيح الغيب » ، وهو أحد الآثار العلمية القيمة الخالدة للامام الرازى يقع فى ثمانية أجزاء ، يحتوى كل جزء منها على نحو ثمانمائة صفحة ، وليست الصفحة فى هذا الكتاب كصفحة صغيرة من الكتب اللطيفة التى تنشر اليوم ، وإنما هى صفحة لو وزعت على أمثال هذه الكتب لمئات عدة صفحات ، ففيها أكثر من ثلاثين سطرا فى كل سطر أكثر من خمس عشرة كلمة ، فهو إذن محصول ضخيم فى مادته وقيمته ، وهو على ذلك أحد الآثار — كما قلنا — لرجل واحد ربط الله على قلبه ، لحبب إليه العلم والبحث والكتابة والتأليف ، على الفقر والتقصير ومجافاة مطالب الحياة ، ويرى القارىء فى هذا التفسير فى آخر تفسير سورة يوسف ( ص ٢٥٨ من الجزء الخامس ) مانصه :

د قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان ختم بالخير والرضوان ، سنة إحدى وستمائة ، وقد كنت ضيق الصدر جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد ، تغمده الله بالرحمة والغفران ، وخصه بدرجات الفضل والاحسان ، وأنا أوصي من طالع كتابي هذا واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدى ويخصني بقراءة الفاتحة ، ويدعو لمن مات في غربة بعيدا عن الاخوان والآب والام بالرحمة والمغفرة ، فإنني كنت أيضاً كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقى .

نقلنا هذا الكلام من الكتاب بنصه ، ليدرك القراء مدى التأثير العميق الذى كان الرجل قد بلغه ، ومدى اللوعة التى كان يحس بها على فقد هذه الابن البار ، وهو مع ذلك يجلس — لا أقول على مكتبه تحت مصباحه الكهربى ، وفى يده قلبه السيال ، ولكن أقول — على « حصيرته » الحشنة ، وأمامه مسند من الخشب ، وسراج يتخافت نوره ، وفى يده قلم من القصب تمتد محبرة غاض مدادها وحال لونه ، وهو مع ذلك يكتب تفسيره ، ويفكر فى استنباط المعانى الرائعة من كتاب الله ، ولا يشغله همه الممض بوفاة « ولده الصالح محمد » غريباً عن اخوانه وأمه وأبيه ، لا يشغله ذلك عن عمله الذى يسره الله له ! فأى عزم هذا وأى ثبات ؟ ألا إن هذا المثل رائع من ربط الله على قلوب المؤمنين العالمين ، وقد يذكرنا ذلك بكلمة عن ابن رشد يقول فيها : « إننى لم أقطع عن مذاكرة العلم منذ عقلت إلا ليلتين : ليلة مات أبى ، وليلة تزوجت » ، وقل مثل هذا عن ابن منظور المصرى الذى ألف كتابه المحيط الجامع المانع « لسان العرب » وأودعه جميع ما فى لغة العرب وموادها ، وعنى عناية خاصة بألفاظ القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، والشواهد الفصيحة ، فوقع كتابه فى عشرين جزءاً هى الذخيرة فى المكتبات القيمة التى يهنا صاحبها بحوزها .

وغير هؤلاء من المؤلفين الذين ربط الله على قلوبهم وحبيب إليهم العلم كثير كثير ، وقد أفادت الإنسانية فى حاضرها وماضيا من هؤلاء الأفاضل وأمثالهم فوائد لا تقل فى قدرها وقيمتها عما أفادته من المخترعين الذين يعيش الواحد منهم

في معمله أو مصنعه كأنه يعيش في فلاة أو جبل ، منقطعاً عن الدنيا ولذائدها وشهواتها ، ليتابع فكرة ، أو يلاحظ سيباً أو علة ، أو يستنبط بعقله ما يفيد الناس ، وكما أن المدنية العملية مدينة لهؤلاء المخترعين بهذا الفضل العظيم ، فإن المدنية العلمية والعقلية مدينة لأولئك المؤلفين المحققين .

ولا ينبغي أن يظن ظان أننا ندعو إلى التمسك بكل قديم فإن من القديم ما أساء إلى العلم ، وأثر في العقول تأثيراً ضاراً ، كهذه الاسرائيليات التي شئت بها كتب التفسير ، وكالروايات الضعيفة في سندها أو منها التي حُكمت في فهم كلام الله وسنة نبيه ، وكالاحكام الفقهية التي ولدها المتعصبون من أتباع الأئمة ولم يملها إلا فكرة الدفاع عن المذهب ، وكلُّ الأدلة والمصادر وتحريفها لتتلاقى معها ، وكالآراء الغالية والمعارف الفرعية التي دارت حولها خلافاً للطوائف والمذاهب ، وقطعت ما بين الأمة الواحدة من الأواصر ، وأمثال ذلك مما خلط به العلم ولُبس فيه على العقل ، وفتحت به على المسلمين منافذ الشر .

وإن ( جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ) بتكوينها القوى ، وغرضها الشريف ، ووسائلها الفعالة ، وصلاتها بجميع الطوائف الإسلامية ، ومكتبتها الجامعة ، ومجلتها الذائعة ، لجديرة بأن تنظر في هذا التراث العظيم نظرات أمينة رزينة ، فتفحص عنه الغبار ، وتنقي منه الزيف ، وتعرضه على العقول في ثوب يناسب جلاله وخطره ، ويليق بالإسلام والمسلمين ، ويدفع إلى ساحته من نفر منه أو ندد عنه .

إن ذلك لمن أغراضها الشريفة ومن أحرز أمانها التي تسعى إليها ، وهي لذلك تشكر القائمين بهذه الفكرة الجليلة على ما اعترموه من العمل على إحياء هذا التراث المجيد ، وتعزى بكل جهد يبذل في سبيل ذلك ، وتوיד القائمين به ، فكلنا عاملون على مجد الإسلام ، مشتركون في إنهاض المسلمين ، تواقون إلى منزلة العزة بالعلم والخلق والتموه والإصلاح ، ترقى إليها أمتنا العزيزة حيثما وجد مسلم في أرض الله .

وسلام على كل من ساهم في خير ، أو حث على علم ، أو أمر بمعروف أو إصلاح بين الناس ؟

# مِنْ ذَخَائِرِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ

تعليل من النجف

كتب إلينا حضرة صاحب السباحة العلامة الأكبر الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء تعليقا على ما نشر في العدد المأخوذ من « رسالة الإسلام » تحت عنوان « من ذخائر الفكر الإسلامي » وهو رسالة لنجم الدين الطوفي من علماء القرن الثامن الهجري ، يرى فيها تقديم المصلحة على النص في المعاملات .

قال فضيلة العلامة الجليل حفظه الله : « من اللازم التنبيه على أمر لعل له مقاما من الأهمية يتصل بما نشرته الرسالة من البحث الأصولي عن نجم الدين الطوفي تحت عنوان « المصلحة في الشريعة الإسلامية » ، وأن المصلحة إذا خالفت النص والاجماع تقدم عليهما في المعاملات ، فهو وأن عرف المصلحة بما فيه النفع والفائدة كالتجارة المؤدية إلى الربح ، والسبب المؤدى إلى مقصود الشارع ، لكنه لم يبين أيكون المدار على مصلحة الفرد ، أم الجماعة ، أم المجتمع ؟ كما أنه لم يذكر المراد بالنص ، وما ضابط الاجماع ، والذي تذكره أن الأصوليين قسموا الكلام أى الجملة من حيث الدلالة إلى ثلاثة أنواع : ( نص ) وهو ما لا يحتمل خلاف مدلوله مثل قوله تعالى : « إن الله على كل شئ قدير » وقوله تعالى : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم » وكثير من أمثالها و ( ظاهر ) وهو ما يحتمل خلاف مدلوله ، ولكن احتمالا مرجوحا . و ( مجمل ) وهو ما يتساوى فيه الاحتمالات ، أو ما لا يعرف مدلوله أصلا كحروف أوائل السور ونحوها ، فإذا كان النص لا يحتمل الخلاف والاجماع يفيد القطع بالحكم فكيف تقدم المصلحة عليهما ؟ نعم يمكن أن تقدم على الظاهر ولكن لا يمكن التعويل على هذه القاعدة ( تقديم المصلحة على الظاهر ) على إطلاقها وإرسالها ، ففيها توسع غريب ، أدهى من توسع بعضهم في النزول بالمضالح المرسله ، وربما

جر ذلك إلى المهرج والمهرج ، والفوضى في أحكام الشريعة الإسلامية ، والتلاعب حسب الأهواء ، فيتسنى للفقهاء على هذا أن يحكم بحلّية الربا مثلاً ، لأن فيه مصلحة ، والفائدة والمصلحة تعارض النص وتقدم عليه في المعاملات ، إلى كثير من أمثال هذا ، وهل ذلك إلا الفوضى والتلاعب بأحكام الشريعة ؟ نعم يمكن العمل بالمصلحة حيث لا دليل لفظي من نص أو ظاهر ، ويرجع ذلك إلى حكم العقل والقياس ، فإن الأدلة الشرعية عندنا أربعة : الكتاب والسنة والاجماع والعقل . وهنا مباحث واسعة ، وتحقيقات عميقة ودقيقة لا مجال للخوض فيها في هذه الكلمة العابرة ، ومهما يكن من شيء ، فنحن لا نحاول الحجر على العلماء الأعلام من أعضاء جمعية التقريب ، ولا إلزامهم بالأذى كروا في رسائلهم ما لعله يمس جوهر التشريع الإسلامى ، ولكن الجدير بهم - بل اللازم - أنهم إذا نشروا شيئاً من هذا القبيل يعاقبون عليه ، ويعدلون ميله ، ويكبحون جماحه وتطرفه ، ولعل في مراجعة مؤلفنا « تحرير المجلة » وهو عدة أجزاء ما يوضح شيئاً من هذا الموضوع ، أو ناحية منه ، وبالله المستعان ومنه التوفيق ؟

رِسَالَةُ الْإِسْلَام      تشكر فضيلة الشيخ الموقر على هذه الغيرة الأصلية التي تتلى بها نفسه على الشريعة الغراء ، وتطمئنه على أن الغرض من نشر أمثال هذه الرسالة ، هو بيان ما امتاز به أفق المفكرين المسلمين من سعة في التفكير ، وسعة في التقبل ، لم يؤد أحدهما إلى تشاحن أو تباغض أو ترام بالنهم ، فإذا كان الأمر وصل إلى هذا الحد فيما حفظه التاريخ للسالفين من تراث ، فأجدر باللاحقين ألا يعولوا على الخلافات الفكرية تعويلاً يقطع الأواصر ، ويحل الخناصر .

أما رأى الطوفى أو رأى سواه في شيء بذاته ، فإنه رأى خاضع للبحث والنظر ، وأن يتلقاه العلماء بما يرون من تأييد أو نقض ، عمادهما البرهان والحجة ، فأمّا الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

وإن صفحات « رسالة الإسلام » لمعرض آراء ، ومجلى درس وتبيان .  
وللشيخ الأجل وافر الشكر ، وخالص الدعاء : أطال الله في حياته ، ونفع المسلمين بعلمه وبركاته ؟

## فِي أَسْرَةِ التَّقْرِيبِ

للشعبة الزيدية بجماعة التقريب عضوان كريمان هما صاحبنا السعادة القاضي محمد بن عبد الله العمرى ، والسيد علي بن اسماعيل المؤيد ، وقد انضم إليهما أخيراً حضرة صاحب العالی السيد الحسن بن علی بن ابراهيم وزير الدولة بالملکة التوکلية البينية وهو شخصية من المخصیات المتأززة المعروفة بالعلم والأدب وأصالۃ الرأى ، وله عناية کبرى بفکرۃ التقريب ونشاط محمود فى خدمتها ، وقد حضر - بصفة خاصة - الجلسة التى عقدتها الجماعة فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ هـ ، وتقدم إلى الجماعة بطلب انضمامه إليها ، فرجبت الجماعة بمعاليه وأجابته إلى ما طلب ، فنهته ونعتقد أن أسرة التقريب قد كسبت بانضمامه إليها عضواً نافعاً مخلصاً ، ونسجل كلمة معاليه التى ألقاها فى هذه الجلسة :

\* \* \*

سادق : لقد كان من حسن حظى أن حضرت الاجتماعات الأولى التى عقدت عند تأسيس هذه الدار ، وعرفت إذ ذاك أن الفكرة التى طالما كان يحلم بها كل مؤمن غيور على هذه الأمة ، حريص على وحدتها وعزتها ؛ قد آذنت شمسها بالطلوع من هذا الأفق ، وأن هذه الدار ستكون العامل الأول لتحقيق هذه الغاية الشريفة عن طريق نشر الدعوة الصحيحة التى تثبت للعالم أن الخلافات اليسيرة فى وجهات النظر المستوحاة من الأدلة لا توجب تباعداً ولا تنازراً يؤثران فى صميم الوحدة التى أوجدها الرباط الإسلامى المقدس ، وقد كنت إذ ذاك أجد فى نفسى شوقاً بل حنيناً إلى أن أكون أحد أعضاء هذه الجماعة المباركة ليكون لى حظ العمل فى هذا المضمار ، ولكن الظروف كانت تحول دون تحقيق ما كنت أصبو إليه ، وإنه لمن دواعى سرورى اليوم أن أجد نفسى محلاً لحسن ظن حضرة صاحب السباحة السكرتير العام الشيخ محمد تقى القمى ، وسعادة الأخ السيد على المؤيد اللذين رأيا أن أنال حظى من الاشتراك المباشر فى هذا العمل الذى كنت مشتركاً فيه من أول يوم بقبلى ، وأيدا طلبى ، فأقدم إلى سعادة الرئيس وحضرات الأعضاء الكرام راجياً أن يعتبرونى زميلاً عاملاً معهم فى خدمة الفكرة الشريفة ببجودى المتواضعة ، وأرجو من الله سبحانه أن يشمل الجميع بتوفيقه وعنايته ، وأن يجعل ثمار هذه الجماعة دانية القطوف لأنه ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

## عناصر وجود الأمة الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

— ٢ —

تحدثنا إلى القارىء الكريم ، عن التوحيد والوحدة في العدد السالف ، وخلصنا من ذلك الحديث إلى أن القرآن الكريم بدعوته إلى توحيد الله وعبادته وحده ، وتقريره الوحدة بين الموحدين ، أبرز إلى الوجود لأول مرة فكرة الأمة المكلفة والجماعة المسئولة ، مسئولة حقيقية لا رمزية ، تتناول الفرد بصفته فردا ، ثم بصفته عضوا في الأمة المسئولة ، وهذه فكرة جديدة لم يعرفها العقل البشرى - بهذا الشكل الاسلامى - إلا من القرآن ، ولذلك كان القرآن ثورة على فكرة الذاتية ، أو الفردية ، التى أخذت بزمام الانسانية عصورا طويلة قبل الاسلام ، ولا تزال حتى الآن تجمد أنصارها من الفلاسفة التفعيين .

وعلى أساس التوحيد والوحدة ، قام الاجتماع الاسلامى ، وتقررت الحقوق والواجبات للفرد والجماعة ، ووضعت أسس الحكم ، والضمانات اللازمة لحفظ النظام والرخاء والسلام في المجتمع ، ولقد تقرر ذلك كله على أنه دين لازم ، لا على أنه كمال يتبنى كما يتبنى الكماليات ، وإلى القارىء بعض البيان .

### ٢ - الحرية والأخوة والمساواة :

إذا كان الخالق واحدا ، ونسبة خلقه إليه واحدة ، وهم عبيده لا سيادة لغير الله عليهم ، فهم جميعا أحرار ودوجاتهم في الحرية واحدة ، ليس لإنسان عبدا لإنسان ، ولا معبودا لإنسان ، ومن يقل منهم "إني إله من دونه" فذلك نجزيه



جهنم . كذلك نجزى الظالمين ، وإذن فليس هناك إنسان فيه عنصر إلهي يجب على الناس تقديسه ، وليس لإنسان أن يفتات على حرية إنسان أو يقيد حريته ، وإنما ذلك للخالق وحده ، ولقد وضع حدودا لهذه الحرية ، وقرر متى تعطل أو تقيد نفسها ، ولم تكن تلك الحدود والقيود إلا لمصلحة الإنسان ، ولضمان حريته وسعادة مجتمعه ، وقد وكل الله إلى الأمة رعاية ذلك ، ولم يجعله حقا لفرد يتناز به على فرد آخر ؛ فدفع العدوان ، والظلم عن الأموال والأنفس والأعراض له سبيله المقررة في الحدود التي شرعها الله في القرآن الكريم : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، . . ولكم في القصاص حياة ، . . الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، . . والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، . . وكذلك بين القرآن وفصلت السنة الدواعي التي توجب تعطيل الحريات أو تقييدها لمصلحة الفرد والمجتمع ، وليس وراء عدوان الإنسان على الأموال والأنفس والأعراض وخيانتة أمته سبيل إلى تعطيل حريته أو تقييدها .

ولكى يركز القرآن ذلك المبدأ السامي ؛ نراه يحرص في كل مناسبة على تذكير الإنسان بأن خالقه وخالق الكون كله واحد . سبحانه وتعالى عما يشركون ؛ وعما يصفون ؛ ليشعره دائما بحريته ، ثم يعرض على الإنسان وحدة خالقه مشفوعة بوحدة الأصل الذي خلقه منه فيقول : « يأيتها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا ، ليشعره بوحدة أصله بعد استيقانه بوحدانية خالقه ، ولا ريب في أن شعور العاقل بأن الخالق واحد ، والاب واحد ، والام واحدة ، يحمله على أن يعرف أن لأخيه مثل الذي عرفه لنفسه من حقوق وواجبات ، وأن الإنسانية رحم بين أفرادها ، وأن الأرحام يجب أن توصل ، وأن قطعها لم يأذن به الله ، وأن الله رقب على الناس في تعاطيهم حرياتهم وصلة أرحامهم .

ولما كانت المعرفة المجردة لا قيمة لها ما لم تظهر ثمرتها ، فإن القرآن يعمد إلى توجيه الإنسان للعمل بمقتضيات تلك المعرفة بأسلوب رائع يأخذ بهجامع الالباب ، فيقول : د يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتهاكم ، ليجعله دائما على ذكرٍ من وحدانية الخالق ووحدة الأصل والأخوة الإنسانية د إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، فأنتم إخوة ، والإخوة سواسية في كل حق وواجب ، تحمل الإخوة - على الرغم من تعدد شعوبهم ، وتباين قبائلهم - على التعارف والمودة والمحبة والتعاطف والتراحم والتناصح والتآزر ، وهذه أقصى آمال الإنسانية الراقية المهذبة .

وهكذا ترى القرآن يضع أمام الإنسان وحدة الخالق ؛ ووحدة الأصل ؛ والأخوة الإنسانية في إطار واحد ، يزيده جمالا بتحديده غاية الإنسانية د لتعارفوا . تحديدأ أساسه التعارف المستلزم للآلفة والوئام ، والتعاون والمحبة والسلام ، والعدل بين أناس هم إخوة أحرار متساوون . وكما قلت في مقال فائت : إن القرآن بهذا النهج الرائع كان أول مبتكر لفكرة الجامعة الإنسانية . أو فكرة العالمية التي تجعل الانسان أبا للإنسان و د مواطنا عالميا ، يخنو على أخيه في كل مكان ، على بُعد الدار وسعة الفواصل وطول الأسفار ؛ ومن هنا أخذ الغريون عن الإسلام فكرته السامية ودعوا إليها باسم : د الزمالة العالمية ، وتجددت الدعوة إليها اليوم باسم : د المواطن العالمي ، و د الحكومة العالمية ، ولكن شتان بين الأسس التي تقومُ الفكرة الإسلامية ، والأسس التي تقوم الفكرة المقلدة لها ١١ .

خالق الإنسان عليم خبير بالنفوس البشرية ، وقد علم سبحانه أن سلوك هؤلاء الإخوة في حياتهم العملية لابد أن يتباين - نتيجة لمدى استخدام الطاقة العقلية ، وشعورهم بالأخوة الإنسانية - تباينا يقضى بالتفاوت والتمايز بين الأفراد ، وهذا أمر يحتم وضع مقياس صحيح لا عوج فيه ، يقاس به هذا التمايز ، ويُحكّم في تحديد مدى صلاحية الأفراد عند الله وعند الناس .

ونظرا لخطورة الأمر بين أعضاء الأسرة الإنسانية ، لم يكل القرآن الكريم

أمر وضع هذا المقياس إلى العقل البشرى ، لأن الشواهد من يوم الخلق تنطق في صراحة بأن العقل البشرى لم تتفق أفرادها على مقررات ثابتة صحيحة في قياس التفاضل بين الناس ، لعدم الاتفاق على كل ما هو حسن أو قبيح ؛ فتولى القرآن وضع مقياس التكريم والتفضيل ، والحكم بالصلاحية بين البشر عند الله وعند الناس . بقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، فأكرم الناس وأفضلهم : أتقاهم للشرك الدينى والاجتماعى ، وأبعدهم عن الشر بمختلف ألوانه ، وبعبارة أوضح : أفضل الناس أحصم عقيدة في الله ، وأنفعهم للناس .

ومما تقدم نرى القرآن الكريم يشفع تقريره لوحداية الخالق ، بتقرير حرية خلق الله من بنى آدم أجمعين ، ويربط بينهم بأخوة حقيقية كسسية تجعلهم أرحاما يتراحون بمقتضى أخوتهم ، ويقرر المساواة التامة بينهم ، فلا فروق ولا تمايز بين الأفراد أو القبائل أو الشعوب بمقتضى الخلق والأصل ، بل يمدى ما يقدمه الفرد أو الشعب من خير ونفع للمجتمع الإنسانى ، حسبما يملكه عليه مدى إيمانه بالخالق وعقيدته فيه ، وعلى هذا فلا ظلم ولا عدوان ، ولكن عدل ورحمة وسلام .

يقرر الإسلام - هكذا - الحرية والأخوة والمساواة بين بنى الإنسان ، تقريراً مستنداً إلى أهم مبادئ الإسلام إطلاقاً ، وهو توحيد الخالق (١) منذ أربعة عشر قرناً ، في وقت كان فيه التحضر والتمدن يقومان على أساس من الظلم والعدوان بين الشعوب ، وعلى شريعة الغاب بين أفراد الشعب الواحد ، فنقل الإسلام بمقرراته هذه ، البشرية من ذل العبودية لغير الله إلى الحرية المطلقة في ظلال سيادة الله ؛ ومن طغيان الفرد واستبداده إلى المساواة المطلقة ، ومن الخصام إلى الأخوة والسلام ، فردّ إلى الإنسانية كرامتها ، وأخرج الناس حقيقة من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ولما كانت دعوة القرآن إلى الكرامة الإنسانية مهدرة لمعظم الأوضاع البشرية

(١) لم نشأ الاعتماد على غير النصوص القرآنية - مع كثرة نصوص السنة في هذا المعنى - لنظهر مدى أهمية هذه المبادئ في كتاب الله .

الخاطئة ، التي لا تتفق وكرامة الإنسان ، ومصحة لبعضها الآخر ؛ وهي بعد أمر جديد لم تعرفه الإنسانية من قبل ، ولم يكن متوقعا - والبشرية غارقة في محيط من الظلم والجهل والفساد - أن تستجيب الإنسانية كلها لداعي كرامتها ، لدوافع عدة يعرفها العالمون بتاريخ الدعوة الإسلامية ، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، اتجه القرآن إلى تأكيد هذه الإخوة الإنسانية العامة ومقتضياتها في محيط المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهويتها بعقد أخوة دينية خاصة بين هؤلاء المؤمنين ، ليكون ذلك نموذجا يتبعه الإنسانية العاقلة إذا أرادت لنفسها الخير والكرامة ، إنما المؤمنون إخوة ، وهكذا أضيفت قوة الأخوة في الإيمان بالدين الجديد إلى قوة الأخوة الإنسانية ، وتدعمت بذلك الروابط بين المسلمين ، فهم إخوة في الإنسانية ، إخوة في الإسلام ، وهم متساوون لأنهم عبيد إله واحد ، وأبناء أب واحد ، وأتباع دين واحد ، ورسول واحد ، وكتاب واحد ، وتكاليفهم واحدة ، لا فرق بينهم ولا فضل إلا بما شرع الله من مقياس ، وإلا لتفاضلوا في التكليف ، ولكنهم فيها سواء ؛ رسولهم الكريم وكبيرهم وصغيرهم ، كلهم عبيد لله وتكاليفهم واحدة ؛ وهم أحرار لسيادة عليهم لأحد غير الله ! أليس يقول الله لرسوله : « لست عليهم بمسيطر ، .. وما أنت عليهم بجبار ، ؟ » أو ليس يقول الرسول نفسه : ( لست ملكا ولا جبارا ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ) ؟ وإذن فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، أبيضهم وأسودهم وأحرهم وأصفرهم سواء ، تكافؤ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ! ولقد كان تطبيق هذه المبادئ عمليا في المحيط الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والراشدين من خلفائه ، تجربة ناجحة إلى أبعد حدود النجاح ، ولو شامت الإنسانية إعادة هذه التجربة على نفس المنهج المحمدي لتحقيق لها كل ما ترجوه من رخاء وأمن وسلام !

والناظر في أول معاهدة عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ومن حولهم في يثرب ( المدينة ) من يهود ونصارى ومشركين - وهي أساس جميع

المعاهدات الإسلامية في عهد الراشدين — يعجب لمبلغ احترام الإسلام للإنسانية والحرية الدينية ، ومقتضيات الكرامة الإنسانية ، ولقد نهج المسلمون في حياتهم العملية هذا المنهج حتى تركزت تماما تلك المبادئ ، وبرزت إلى الوجود ، القومية الإسلامية ، المتميزة بمشخصاتها عن غيرها من القوميات الأخرى في عصور الإسلام الأولى ، ولا تزال راسخة تلك القومية عالمة بأرض الشرق حتى اليوم ، وعرف العالم اصطلاحا جديدا لتقسيم الأرض ، بكلمات : أرض الإسلام وأرض الحرب ؛ أو دار الإسلام ودار الحرب ، وعرف السكان باسم : المسلمين والحريين ، وأصبح وطن المسلم هو دار الإسلام موطن القومية الإسلامية ، وألغيت الحدود الجغرافية التي اصطنعها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، وأضحى المسلم على حدود الهند ينادى : لا إله إلا الله . فيجيبه أخوه على شاطئ الأطلسي : نعم ومحمد رسول الله ويلتقيان في دار الإسلام في المكان الذي يريدانه دون قيود أو حدود ، وجوازهما كلمة التوحيد فحسب ؛ وأصبح لكل مسلم في دار الإسلام حق في أن يعيش حرا كريما حياة شريفة كريمة بلا أثر ولا محاباة ، وأصبح على الأمة أو الدولة أن تتمكن من جميع الوسائل الممكنة التي تعينه على تحصيل حياة كريمة ، وعلى القيام بتكاليفه والتزاماته ، واستخدام حريته في غير عدوان على حريات الآخرين ، والرجل وبلاؤه في الإسلام ؛ والرجل وقدمه ؛ والرجل وحاجته ، من غير إسراف ولا تفريط ، فإذا قيدت حرية الفرد أو عطلت . لغير مبرر شرعي من عدوان على مال أو نفس أو عرض ، أو مُنِعَ من وسائل أداء تكاليفه خرج من عهده ، وكان تكليفه اعتسافا ، لأنه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ولا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، وتلك غاية العدالة .

ويؤكد القرآن وجوب تحقق هذه العناصر في الأمة ، الحرية . الأخوة المساواة ، بعبارة رائعة أخرى على نفس الأساس الذي تحدثنا عنه ، فيقول رداً على المناقنين الذين قالوا : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل » يقول : « والله العزة لرسوله وللمؤمنين ، وسواء أكانت العزة هي القوة والغلبة ، أم الكرامة والقوة ، فإنها — بحكم السياق — لا تخرج بحال عن المعنى الذي يقرره فقهاء السياسة

لكلمة « السيادة » للدولة المستقلة التي لا سلطان فوق سلطانها ، ولا تخضع لغير إرادتها في مقدراتها ، ومعنى ذلك أن الله هو السيد المطلق لكل عبيده ، والرسول مثل لسيادة الله بتنفيذ أحكام شرعه لا سلطان لغير الله عليه ، والمؤمنون - الأمة - هم خلفاء الله ورسوله في تمثيل سيادة الله وسلطانه ، ويلفظ أوضح : إن الله قد جعل السيادة له على الأمة الإسلامية ، وجعل هذه السيادة بعده للأمة نفسها لا لفرد من أفرادها ، وبذلك تم معنى سيادة الفرد على نفسه ، ومساواته تماماً لأخيه في كل نواحي الحياة ، ومن هنا صح توجيه الخطاب إلى الأمة ، كما قلت فيما سبق : إن القرآن عرف الأمة أولاً ، وعرف الفرد عضواً من أعضائها إلا أنه قضى على استبداده بها .

قد يسأل البعض : إذا كانت نظرة القرآن هكذا إلى الإنسانية وكرامتها ، وإذا كان قد منح كل إنسان حق الحياة في حرية وأخوة ومساواة ، فما باله يبيع استرقاق الإنسان للإنسان ، ويبيع للسليلين جبر غيرهم على معتقداتهم ؟ وهذا سؤال وجيه يجيب عليه بإيجاز .

(١) نظر الاسلام إلى الرق على أنه أمر اجتماعي اقتصادي قامت عليه آثار إيجابية في حياة البشر قروناً طويلة ، ورأى الاسلام أن أسبابه غير محدودة ولا مضبوطة ، فعالجه علاجاً خاصاً يشبه إلى حد بعيد علاجه لمشاكل الخمر ومفاسدها فمن ناحية الأسباب ، أو طرق الاسترقاق المتعارفة لئلا يذك . ألغى جميع هذه الأسباب وتلك الطرق ، وقصره على حالة واحدة هي حالة الحرب بين المسلمين وغيرهم ، فمن أسره المسلمون فهو رقيق ما لم يدخل في الإسلام قبل أسره ، وبذلك كان الاسلام من أسباب الحرية ، لا من وسائل العبودية ، ومن أقام على معتقده فهو رقيق للسليلين ، وقصد بذلك وضعه في بيئة الاسلام ليحصه على مهل ، ويراه عملياً عسى أن تهذب نفسه وتهفو إلى مبادئ اليسر والخير ، وكثيراً ما أسلم الأسرى عن هذا الطريق ، وبلغه العصر ، قصد عزله - كما يعزل المريض - عن بيئته عل أمل أن يصح ، وبهذا انحصر الرق في دائرة ضيقة : ومن ناحية أخرى

عالج حال الأرقاء بالفعل علاجا يشبه الإلغاء ، بقصد رد الحرية إلى كل من فقدوها مسداً كان أو غير مسلم ، ففرض العتق كفارة لكثير من الجرائم ، في القتل الخطأ ، في الظهار ؛ في الخنث في الإيمان ؛ وجعل التعاقد على مال سيلاً للحرية ؛ وجعل الولد وسيلة لتحرير أمه ، ثم رغب في العتق ابتغاء مرضاة الله ، وجعل من وسائل اقتحام العقبة يوم القيامة : فك رقة ، وجعله من مصارف الزكاة . وهكذا أخذ يتلبس الأسباب لرد الحرية إلى فاقديها ، كرامة للإنسانية ، وتمهيدا لإلغاء الرق بزوال سببه ، ويكفي أن الإسلام راعى حاجة البشرية يومئذ فلم يشأ أن يقلب كل أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تقوم على الرق ، ثم رسم طريق إلغائه ولم يقر ولن يقر وسائل « الخطف » التي اتبعها الأوربيون فيما مضى ، ولا زالوا يتبعونها حتى اليوم باسم « استجلاب الأيدي العاملة » على أن استعباد فردٍ إلى أمد ما ، لا يبلغ مبلغ استعباد شعوب بأسرها .

وقد رفع الإسلام في وصاياه الخلقية مكانة الرقيق إلى مكانة سادته ، فلم يهدر آدميته كما كان متواضعا عليه ، بل كرمه تكريماً ، فلم يجعله عبداً لمسترقه ، وإنما جعله خادماً له ، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « لا يقل أحدكم عبدي ، أمي ! وليقل فتى وفتاة ! » (١) ، ويقول : « اتقوا الله في خولكم فانهم أشقاؤكم لم ينحتوا من جبل ، ولم ينشروا من خشب . أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، واستعينوا بهم في أعمالكم فإن عجزوا فأعينوهم » (٢) ، ومن شاء فليرجع إلى مباحث العتق في كتب الحديث والفقه فإنه يجد عناية بحرية الأرقاء ، تفوق العناية بحرية الأحرار في العصر الحديث .

[ يتبع ]

(١) البخاري ج ٣ ص ١٥٠ طبع الخيرية .

(٢) محاضرات الأدباء طبع المولى ج ١ ص ١٣٤

# الحركة التعليمية في مصر في العصور الوسطى

لحضرة الكاتب الفاضل الاستاذ محمود رزق سليم  
المدرس بكلية اللغة العربية

إن مشكلة التعليم في العصر الحديث من أهم المشاكل التي يعانيها المجتمع المصري ،  
اختلفت فيها الآراء ، واختلفت المذاهب ، وتغايرت النوايا .

وكما أراد قوم أن يقيموا الدليل على خطأ الآخرين ، وفساد ما يذهبون إليه  
رموم بأنهم يعيشون بعقول أهل القرون الوسطى ، وأنهم يصدر عن مواردهم  
وينظرون إلى الشعب كما كان ينظر إليه ولاته حينذاك .

فإذا كانوا يعنون بأهل العصور الوسطى ، تلك الدول التي حكمت مصر في  
العصور المذكورة ، وهي الفاطمية والأيوبية والمملوكية ؛ فاني أعتقد أن في ذلك  
تجنيبا كبيرا على أهل تلك العصور ، وغطا لجهودهم في سبيل العلم والتعليم ، وإنكارا  
لما سجله لهم التاريخ من حسنات وأياد بيض ، حفظوا بها سلسلة العلم موصولة  
الحلقات ، متتابعة الخطوات .

وحقا إن بيننا وبينهم فوارق جلية ، في النظر إلى التعليم ، أوحى بها منطق  
العصر ، وسياق الحوادث ، ونظم الدولة ، فلم تكن هناك - مثلا - سياسة تعليمية  
عامة يدعو إليها الشعب ، وينفذها أولو الأمر ، ولم تكن الحكومات تقوم بما  
تقوم به من التعليم ، إلا على أنه منحة تمنحها الشعب ، وصدقة تصدق بها عليه ،  
لا على أنه حق من حقوقه يؤدي إليه .

على أن هذه الاعتبارات ، على وجاهتها وأهميتها ، شكلية ، بالنسبة إلى جوهر  
التعليم ، ذلك التعليم الذي كانت سبله ميسرة ، وطرقه معبدة ، وأبوابه مفتحة ،



تشيد له الدور ، وتدر عليها الأموال ، وتزود الأوقاف ، ويتأق في اختيار أساتذتها ، ويوصى بطلابها .

وما خبر الأزهر عنا يبعد ، فقد أسسه الفاطميون ، حين أسسوا قاهرته المجيدة ، وجعلوا منه مآثرة للعلم ، ومثابة للطلاب ، ولا يطعن فيه أنهم اتخذوه منبرا عاما ومركزا هاما ، للدعاية الشيعية ، فالمذهب الشيعي - وإن لم يلتزم مع ما عليه جمهور المسلمين في مصر - لا ينبغي أن ننظر إليه كل هذا النظر الشر ، بل علينا أن ندرسه ، ونفهم كنهه ، ونسبر غوره ، ونكشف عن مكنون فلسفته ، فإذا وصلنا إلى ذلك ، بدا لنا أنه ذو متات بالفكر وثيق ، وأنه لون من ألوان العلم ، وأن دراسته في الأزهر حينذاك ، وإقامة داعي الدعاة للتبشير به ، واستدراج العقول إليه ، كان إحدى النزعات العلية في ذلك الحين ، وإن تأني عليه جمهور المصريين ، ولا مبالغة إذا اعتبرناه المنهج التعليمي أو السياسة التعليمية التي أخذ ملوك الفاطميين أنفسهم بنشرها في البلاد .

ولا ننسى أن الدول العربية - أو الإسلامية - التي قامت في تلك العصور اتخذت من الدين دعامة كبرى تؤسس عليها ، وتستند إليها ، متوخية في كثير من محاولاتها ، النزوع الديني ، والاتجاه الاعتقادي ، لدى شعوبها ورعاياها ، ولهذا كانت مغامرة كبرى من ملوك الفاطميين أن يحاولوا تشييع مصر ، تلك البلاد التي كان مركز الشافعية بها وطيدا ، وكانت مهجرا ومثوى لإمامها الجليل ، حتى وقر في نفوس كثير من الشافعية أن البلاد بلادهم ، وأنهم حكامها ، وأنه لا بقاء فيها لحاكم غير شافعي ، فكانت مغامرة جريئة لاقت مناهضات كثيرة ومقاومات عدة .

وكان صلاح الدين الأيوبي أنجح منهم سياسة وأتقب بصرا ، إذ أنه سلك إلى استقامة ملكه مسالك عدة . فأقبل على تأييد مذهب الشافعية ؛ والتكئين له ؛ وإبادة آثار الفاطميين العلية ؛ وذلك نكبة بلا ريب يشعر بها كل حريص على نزاهة البحث العلمي - أيا كانت فكرته المذهبية - .

غير أن صلاح الدين قدم للشعب وللمسلمين من الحسات ، ما قد يفكر عن هذه الزلة

وقد أسس في القاهرة عددا من المدارس لنشر التعليم الدينى ، ودراسة المذاهب الأربعة ، منها : المدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعى ، ونصب فيها عددا من المدرسين والمصدرين ، والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص ، وكانت مخصصة لفقه المالكية ، والمدرسة السيوفية بجوار سوق السيوفيين ، وكانت مخصصة للأحناف ، وغير ذلك .

واقتردى بصلاح الدين وزيره القاضى الفاضل عبد الرحيم اليسانى . فأنشأ المدرسة الفاضلية للقراءات وفقه الشافعية والمالكية ، واقتردى به أيضا ملوك دولته من بعده مثل الملك العادل فقد أنشأ مدرسة عرفت بمدرسة ابن شاس ، نسبة إلى القاضى تقي الدين بن شاس أحد مدرسيها ، وكانت للمالكية ، ومثل الملك الصالح نجم الدين أيوب فقد أنشأ مدرسة الصالحية ، بين القصرين ، وكانت تتكون من أربع مدارس لكل مذهب مدرسة ، وقيل إنها أول مدرسة أنشئت على هذا النمط .

وقد اتبع سلاطين الدولة المملوكية هذه السياسة في نشر العلم . فكانوا يقيمون المدارس ويحتفلون بإفتتاحها ، ويزودونها بالمكتبات النافعة الزاخرة بصنوف الكتب ونفائسها ، ويقفون عليها الأوقاف ، ويحسنون في اختيار شيوخها ، ويسرون سبيل التعليم بها للطلبة المنقطعين فيها لطلب العلم . ويجرون على هؤلاء وهؤلاء الأجور والمنح ، ولا يفتأون يتوددون إليهم زلى وتقربا إلى الله ، أو حبا للظهور .

وطبعى أن تكون العلوم الدينية صاحبة الخطوة المفورة بين مواد الدراسة فانه حتى التصوف أنشئوا له الخوانق ، وهيئوا له الربط والزوايا . ولذلك أسباب وظروف لا محل لسردها الآن .

وفيدنا في هذا المقام أن في عملهم هذا ، نشرا للعلم وتيسيرا لطلبه ، ومعاونة لطلابه . وإذا كانوا يفعلون ذلك تقربا إلى الله ، ويجرون الأرزاق على الطلاب ، فبدهى أنهم لم يتقاضوا أجورا على التعليم ، يرهقون بها الطلاب - إذا استثنينا دراهم معدودة كان يجود بها آباء الصغار لمعلى المكاتب . -

ولا نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا في ذلك أكثر منا معرفة بواجبات الدولة إزاء ناشئتها وإزاء العلم .

وقد كانت دور التعليم مفتحة لكل راغب فيه ، فلم يصدوا عنها طالبا ، كما كان يصد الطلاب في العصر الحديث . ولم يتدعوا لذلك التعلات المختلفة كما كان يحدث .

وحقا إنهم قصروا التعليم العسكرى على طبقات الممالك ، التي كان مددها يتجدد من خارج البلاد . ولكن لم تكن لهم مندوحة عن ذلك ، لأن منطق العصر كان يدعوهم إلى اتهاج هذا النهج ، ليظلوا في البلاد هم الطبقة الحاكمة ، لهم كيانهم الأصيل الذى بدءوا به ، وكان من أهم مقوماتهم ، وهو المنحدر الذى انحدروا منه ، بما فيه من رقى وعق ، ولو أنهم اتجهوا إلى الشعب فاتخذوا منه جنودهم وعددهم من أول الأمر ، لتصروا ولتغير وضعهم ، وزالت عنهم هذه الصفة التقليدية ، وأصبحوا ملوكا آخرين .

ومهما يكن من أمر ، فقد أسسوا كثيرا من المدارس ، وانتشر التعليم في عهدهم في كثير من مدن مصر ، كالقاهرة والاسكندرية ودمياط وقوص وأسيوط وأبو تيج وأخميم وسوهاج وغيرها ، وقد أحصى ابن دقان في كتابه « الانتصار » من هذه المدارس والجوامع والخوانق والربط والزوايا نحو خمس ومائة ، وذكر المقرئى في خطه تواريخ كثير من هذه المدارس وأخبارها ، وما كان يدرس بها من العلوم ، وتقلب الاحوال بها ، وأبناء من اتصلوا بها من مؤسسين أو مدرسين أو نحوهم ، وقد توفى ابن دقان عام ٨٠٨ هـ ، والمقرئى عام ٨٤٥ هـ ، ومن ذلك إلى نهاية العصر المملوكى ، أسست مدارس غير ما ذكرناه منها مدرسة قايتباى ومدرسة الغورى .

وفهم من أخبار تلك المدارس أن العلوم الدينية كانت لها الاسبقية في العناية وبعدها علوم اللغة ثم العلوم الاخرى . وذكروا أن المواد الدراسية في الجامع الطولونى كانت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الاربعة والقراءات والطب والميقات . وأن الجامع الازهر كان أهم ما يدرس به ، علوم الدين والمذاهب

الاربعة والحديث واللغة والادب والوعظ ، وقال المقرئى عنه إنه فى سنة ٨١٨ هـ بلغ عدد المنقطعين فيه لطلب العلم نحو ٧٥٠ رجلا من مختلف بلاد المسلمين . وقال : « فلا يزال هذا الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسة وتلقينه والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ، ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، » .

ويطول بنا المقام لو ذهبنا نستقصى أخبار هذه المدارس وجهودها فى سبيل نشر العلم ، وقد سعدت البلاد فى العصر المملوكى ، بحملة مؤلفات ثمينة فى تاريخ الاعلام ورجال الطبقات ، ومن حسن الحظ أننا نستطيع أن نستخلص منها أخبارا قيمة عن حالة التعليم ومواد الدراسة ورجال التعليم ، - ونفهم منها أن هذه المدارس كانت بمثابة الجامعات - وإذا غضضنا النظر عن الشكليات الحديثة ، وجدنا فيها كل المعانى الجامعية ، فقد كان فى كل مدرسة - على وجه الاجمال - عدد من الشيوخ ، كل شيخ منهم أستاذ مادة من المواد المقررة ، وقد يعينه فى عمله بعض المعيدىن ، ودرسه مباح للطلاب المنقطع لطلب العلم ومباح لغيره .

واعتاد كثير من الطلاب أن يلازموا شيوخهم . فيلازم الطالب شيخا من شيوخه يقع كل منهما من نفس الآخر موقع القبول ، يلازمه فى كل دروسه ، حتى فى دروسه المنزلية ، فيتردد على بيته من آن لآن ، وقد لازم شمس الدين السخاوى شيخه شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، وأخذ عنه كثيرا من علمه ، وأجيز منه برواية مصنفاته ، وكان ابن حجر يرسل الى تلميذه هذا ليفد إليه فى داره إذا كان قد نهيأ لإلقاء درسه على طلابه .

وكان بعض الطلبة يطوفون على كثيرين من الشيوخ ، حسب اختيارهم ، فيلتصونهم فى دروسهم ولو تباعدت أماكن هذه الدروس . وروى أن محيى الدين النووى - رأس الشافعية فى زمانه - كان وهو طالب يتلقى اثنى عشر درسا فى اليوم واليلة ، رواه الذهبى فى تذكرة حفاظه .

واشتد حرص الطلبة على الرحلة فى طلب الحديث الشريف ، فطافوا لأجله بالمدن المصرية على حفاظه وروائه ، ورحلوا إلى البلاد الشامية والحجازية وغيرها

ولهذا تعدد المشايخ للطالب الواحد حتى ليبلغ عددهم أحيانا العشرات بل المئات ، وعنى بعضهم بإخراج معجم لشيوخه ، يترجم فيه لكل منهم ، وينوه بمقدار علمه وفضله وما أفاد منه . وفى هذا ما فيه من معانى تقدير الطالب لأستاذه ووفائه له ، وهويدلنا ضمنا على مبلغ ما كان بين الطالب وشيوخه من محبة وثقة وملابسة طويلة ، وكل هذا يصور لنا الجو التعليمى الذى كانوا يعيشون فيه .

وحرص الطلاب كذلك على استجازة شيوخهم فى الحديث وغيره ، حتى فى علوم اللغة والأدب ، فاجازوهم وكتب بعضهم لإجازاتهم أدبى بديع طريف ، فكانت هذه الاجازات بمثابة الشهادات الجامعية الحديثة ، ولعلها تشبه أرقى أنواع هذه الشهادات .

وامتد حرص الطلبة على الأخذ عن الشيوخ أخذنا معننا واصلاً بسنده إليهم حتى فى الخط . ومن الطريف ما ذكره شمس الدين السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » فى ترجمة ابن الصائغ ، فقد قال ما ملخصه : « إن ابن الصائغ تعلم الخط المنسوب من النور الوسمى تليذ غازى ولازمه حتى أتقن قلم النسخ وفاق عليه ، وأحب طريقة ابن العفيف فسلكها وتعلما من أبى على محمد الزفتاوى المصرى ، ثم صارت له طريقة منتزعة من طريقى غازى وابن العفيف ، والزفتاوى تليذ الشمس محمد بن أبى رقية ، وأبو رقية تليذ العلاء محمد بن العفيف ، وابن العفيف أخذ الخط عن أبيه ، عن الولى العجمى ، عن شهدة الكاتبة ، عن ابن أسد ، عن على بن البواب ، وابن السمسمانى ، عن مشايخها عن ابن مقلة . . . . وهذا التسلسل فى الأخذ ، هو ما يسمونه بالخط المنسوب .

ولم تمنح الاجازات جزافا واعتباطا ، بل بعد طول اختبار للطالب ودقة معرفة به ، وبـ حصوله من العلم .

وكان أمر التدريس يوكل إلى حذاق المعلمين ، ومهرة الشيوخ من ذاع فضلهم ، واكتمل علمهم . ونذكر على سبيل المثال : تقي الدين بن دقيق العيد ، فقد درس فى المدرسة الصلاحية والكاملية المعروفة بدار الحديث . وابن رزين ،

درّس بالمدرسة الظاهرية - وابن الملقن ، درّس بالبقرية والسابقية - وقوام الدين الاتقاني ، درّس بالصرغتمشية - وابن حجر العسقلاني بالمؤيدية - وابن خلدون بالأزهر . وغيرهم كثيرون ، وما من مدرس من هؤلاء إلا وهو ضليع في علمه .

وكان من بين هؤلاء الشيوخ من بلغ منصب القضاء الأكبر ، غير أنهم كانوا يتأبون على المناصب والقضاء ، خشية الفتنة أو الزلل ، بينما هم يتزاحون على التصدي للتعليم ، وهم يعتقدون أنه أفضل قربة يتقربون بها إلى الله ، وأنه فرض عليهم للعلم يجب أدائه .

وكانت دروسهم جدلاً أو إملاء ، غير أن الجدل كان أوسع نطاقاً ، وأبعد آفاقاً ، فولد في كثير من الطلاب روح النقد ، وحسن الموازنة وسلامة الاستدراك ، والاعتدال على المناظرة .

وكان على الطالب - قبل أن يقطع لطلب العلم بهذه المدارس - أن يمر بمكتب من المكاتب يحفظ فيه القرآن ، ويتعلم الكتابة والقراءة . ثم يأخذ نفسه بحفظ عدد من كتب العلوم المختلفة التي ينوي دراستها ، ليكون حفظه سنداً له ، وقوة على استحضار نصوصها ، ومناقشتها ، وفهمها ، ونقدها ، والاستدراك عليها - وكان عليه بعد حفظها أن يسمعها لبعض شيوخه ، ليتثبت من حفظها ، وكان هذا بمثابة اختبار له - على أن بعض الشيوخ كان يختبر طلابه ، إذا زايلا مكاتبتهم ، ليندجوا في حلقة ، فقد روى السبكي في طبقاته عن الحافظ شمس الدين بن دقيق العيد - وكان ما قدم إلى القاهرة ، ودخل إلى شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد - وكان المذكور شديد التحري في الاسماع - قال له : من أين جئت ؟ قال : من الشام ، قال : بم تعرف ؟ قال : بالذهبي . قال : من أبو طاهر الذهبي ؟ فقال له : المخلص . فقال : أحسنت . فقال : من أبو محمد الهلال ؟ قال : سفيان بن عيينة . قال : أحسنت ، أقرأ ، ومكنه من القراءة عليه حينئذ ، إذ رآه عارفاً بالاسماء .

وكانت لهذه المدارس والمكاتب جميعاً آداب تُراعى ، وتقاليد تتبع ، كلها ترمي إلى تقديس العلم واحترام المعلم ورعاية المتعلم ، ويضيق المقام هنا ، لو ذهبنا نعدد

هذه الآداب والتقاليد ، ولعل ما جاء في كتاب « تذكرة السامع والمتكلم » ، في أدب العالم والمتعلم ، للقاضي الأديب المصري البارح بدر الدين بن جماعة المتوفى عام ٥٧٣٣ هـ وكتاب « المدخل » لابن الحاج نزيل القاهرة والمتوفى بها عام ٥٧٣٧ هـ ، ما ينوه بها أو ببعض ما كان متبعاً منها .

من هذا وذاك نشعر بجلال الحركة التعليمية في تلك العصور ، وبأنها كانت أنبل مستوى في بعض مظاهرها ومعانيها ومراميها ، مما سمونا إليه نحن الآن .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى أن البلاد المصرية حينذاك رحبت عن كرم نفس ، وأطمئنان ضمير بالوافدين إليها من الغرباء شيوخاً وطلاباً معاً ، فقد كانت هي المنابة الآمنة بين العالم الإسلامي المضطرب شرقاً وغرباً . فوطأت لهم في كفها ، وأفسحت في رحابها ، فوجدوا فيها الدعة والطمأنينة ، والراحة والسكينة ، ولقوا المراح البر ، والمترق الثر ، والحظوة الطيبة لدى السلاطين والأمراء ، والعلية والعامة .

وكانت مصر تصدر في سياستها تلك عن روح دنيئة عالية ، وأخوة إسلامية سامية ، فهمت حقيقة الدين ، وما يدعو إليه من إثثار ومودة وتعاون حتى يصبح المسلمون قاطبة بنعمه الله إخواناً ، وقوة ويبدأ على من عاداهم ، وفي ذلك ما فيه من العزة .

واعتقد أن من محاسن التعليم في العصر الحديث ، صدور مصر في سياسته عن تلك الروح القديمة ، وذلك المبدأ القويم الذي اعتنقته فيما سلف ، فلقد أصبح الطالب الشرقي يجد من معونة الدولة وتيسيرها له سبيل التعليم ما لا يجده الطالب المصري أحياناً ، إلى هذا الحد بلغ بها الإيثثار والود ، وإنها لسعادة كبرى أن توفيق الجارات الشرقية إلى فهم هذه الروح فهما دقيقاً ، حتى تقدر ما تنشده مصر من أخوة عامة حق قدره ، وتعمل على توطيد هذه الأخوة .

وبعد ، فلعل هذه العجالة تلقى ضوئاً - ولو يسيراً - على الحركة التعليمية في مصر ، إبان عصورها الوسطى التي يسمونها « المظلمة » ، يقنعنا بأن فعدل عن اتهامها بل بأن نعرف لها فضلها ، ونترقق في الحديث عنها ، ونحن بصدد العلاج لمشكلة التعليم ؟

# صدر الدين الشيرازي

## مجدد الفلسفة الإسلامية

لحضرة الدكتور محمود محمد الخضيرى  
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

يطلق هذا اللقب صدر الدين مع النسبة إلى شيراز ، بل أيضا مع اسم محمد ، الذى هو اسم الفيلسوف الكبير الذى نصف فى مقالنا شيئا من أحواله وأعماله ، ونلخص بعض أفكاره ، على أعلام ثلاثة من رجال إيران ، ممن خدموا العلوم الإسلامية ، وخلدوا فى تاريخها لأنفسهم أطيب الذكر ، ويدعونا هذا الاتفاق الغريب فى الاسم واللقب والنسبة بين رجال تفرق بينهم الأجيال والسنون على كثرة من انجبت شيراز من علماء أولى شأن ومكانة ملحوظة فى بناء الحضارة فى الإسلام .

وأول هؤلاء الرجال الثلاثة هو أبو المعالى صدر الدين محمد بن إبراهيم الحسينى الدشتكى الشيرازى ، ويقال له الأمير صدر الأول أو الكبير ، كان معاصرا للعلامة الدوانى ، وضنوه فى العلم وجرت بينهما مناظرات كثيرة مشهورة ، وكانا يتنافسان فى شرح وتجريد الكلام ، للمحقق نصير الدين الطوسى ، ولكل منهما على شرحه القديم والجديد عدة حواش وتعليقات قيمة ، كما أن لصدر الدين هذا مؤلفات أخرى كثيرة فى التفسير وعلم الكلام والفلسفة ، وقد توفى مقتولا فى رمضان سنة ٩٠٣ هجرية ، عن نحو خمسة وسبعين عاما بعد أن أسس أسرة كبيرة نبغ منها خلال عدة قرون ، رجال شاركوا فى الأدب والعلم والسياسة مشاركة جليلة (١) .

(١) تراجع ترجمته المفصلة فى مواضع مختلفة من كتاب روضات الجنات للعلامة محمد باقر الحوانسازى ، لا سيما ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها .



وثانيهم هو صدر الدين محمد بن منصور بن محمد بن ابراهيم الشيرازي ، وهو حفيد الأول ، ويقال له الأمير صدر الدين محمد الثاني أو المير صدر الثاني ، وهو ابن الأمير غياث الدين منصور مؤسس المدرسة المنصورية بشيراز ، وله شهرة واسعة في الحكمة والكلام والفقه ، وزاد في مكانته رفعة وشهرة أن كان من الوزراء وأصحاب الجاه ، ولصدر الدين الثاني شهرة خاصة برسالة قصيرة عنوانها « التوبة النصوح » ، يتجلى فيها الإخلاص ، وله رسالة في تحریم الخمر والحشيش ، وكان يسمى في أيامه حشيشة البنج ، وبيان مساوئهما من جميع الوجوه ، وكان كثير العناية بمؤلفات والده والتمجيد لذكراه ؛ وصدرت منه إجازات لبعض المعروفين من فضلاء عصره تشهد له بإخلاص التوجه نحو التعليم كما يدل بقاؤها على تقديره والاعتزاز بالأخذ عنه ، وقرر العلامة صاحب الروضات أن وفاته كانت كما ذكر صاحب المجالس (١) سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وأنه دفن بجوار والده (٢) والواقع أن والده الأمير غياث الدين منصور هو الذي توفي في هذه السنة ، وأن ابنه صدر الدين عاش بعد ذلك عدة سنوات ، كما يشهد بذلك ما نقله صاحب الروضات نفسه من كلام لصدر الدين الثاني في آخر رسالته في ذم الخمر ، حيث ذكر تاريخ الانتهاء من تحريرها ، وهو ٢٥ من ربيع الثاني سنة ٩٦١ ، كما ذكر أيضا تاريخ الفراغ من نقلها من المسودة ، وهو يوم الغدير من سنة ٩٦٢ ، وعلى ذلك فإن صدر الدين الثاني قد توفي بعد يوم الغدير من سنة ٩٦٢

أما الثالث : وهو موضوع هذا المقال ، فإنه لا يمت إلى السابقين بصلة القرابة ، وإن كان يتفق معهما في اللقب والاسم والنسبة إلى شيراز ، بل يتفق مع

(١) مجالس المؤمنين (باللغة الفارسية) للقاضي نور الله المرعشي الشوشتری ، وهو مطبوع على الحجر في تبريز ، وقد رجعت إليه ووجدت جل ما ذكره الخوانساري في ترجمة الأمير منصور الشيرازي وولده صدر الدين مترجما عن المجالس ص ٣٤٠ - ٣٤١ من الطبعة المذكورة والدهش أنني رأيت فيها أيضا تحديداً لوفاة الصدر الثاني في شهور سنة ٩٤٨ كما نقل عنه الخوانساري ، وهو سهو عجيب .

(٢) روضات الجنات ج ٤ ص ١٣٠ وما بعدها .

الأول في اسم الأب أيضا ، فهو صدر الدين محمد بن إبراهيم القوامي الشيرازي المشهور بملا صدرا أشهر حكماء الإسلام المتأخرين المتوفى في سفره إلى الحج سنة ١٠٥٠ هجرية على قول وفي العشر الخامس من المائة الحادية عشرة على قول آخر .

ذكره السيد علي خان المعروف بابن معصوم فيمن لم يترجم لهم من أعيان الإيرانيين في القرن الحادي عشر لإنصرافهم عن الشعر بسبب اهتمامهم بما هو أهم ، واكتفى بذكر طائفة من أعظم فضلائهم ، وأكبر نبلائهم فقال : « ومنهم المولى صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي المعروف بالملا صدرا . كان أعلم أهل زمانه بالحكمة ، متفتنا بسائر الفنون ، له تصانيف كثيرة عظيمة الشأن في الحكمة وغيرها ، منها شرح الكافي في مجلدين . توفى بالبصرة وهو متوجه للحج في العشر الخامس من هذه المائة رحمه الله تعالى » (١)

ونقل عنه معاصره صاحب « أمل الآمل » (٢) هذه الترجمة على وجه الاختصار . وكذلك فعل العلامة الخوانساري ، ولكنه أضاف إلى هذه الترجمة الموجزة عدة فوائد استقاها من المتأخرين . وبما أضافه تقديره لصدر الدين على النحو التالي : « كان فائقا على سائر من تقدمه من الحكماء الباذخين والعلماء الراغبين إلى زمن مولانا الخواجه نصير الدين ، منقحا أساس الإشراق بما لا مزيد عليه ، ومفتحا أبواب الفضيحة على طريقة المشائين وأهل الرواق حسب ما أرشده الدليل إليه . وبما ذكره الخوانساري أيضا أن صدر الدين كان من تلامذة الأمير محمد باقر الداماد ، وبهاء الدين العاملي ، كما أنه أورد فهرست مؤلفاته نقلا عن حاشية لعالم من معاصري صدر الدين ، وأشار في آخر ترجمته إلى بعض تلاميذه كما ترجم لابنه إبراهيم » (٣) .

والظاهر من هذا أن المؤرخين من معاصري صدر الدين لم يحفظوا شيئا

(١) سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، طبعة القاهرة ص ٤٩٩

(٢) أمل الآمل في ذكر علماء جبل عامل الخ . لمحمد بن الحسن بن علي الحر العاملي ، طبعة طهران ( على حجر مع كتب أخرى ) سنة ١٣٠٧ ، ص ٤٩٥

(٣) روضات الجنات ، ص ٣٣١

كثيرا عن تفاصيل نشأته وحياته ، كما يظهر أيضا لإجماعهم على تقدير نفعه في الحكمة ، وإن كان بعضهم لا يحب طريقته في التفكير ولا يقبل مزج الحكمة بالدين على نحو ما فعل .

وعما يؤيد ذلك ما أجمع عليه الذين كتبوا عن ابنه إبراهيم وإجماعهم على مدحه ، لأنه سلك في الحكمة والكلام منهجا غير منهج أبيه ، ولأن اعتقاده في أصول الدين ، كان على حد وصفه ، مثل اعتقاد العوام ، وزاد بعضهم بأنه مصداق لقوله تعالى : يخرج الحق من الميث (١)

وقيل أيضا في معرض التشنيع على صدر الدين : إن أول من شرح « أصول الكافي » بالكفر هو المولى صدرا (٢) . والمقصود من أصول الكافي هو الكتاب المشهور في الأصول والحديث الذي ألفه الإمام الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحق الرازي الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ هـ ، وهو من شيوخ الإمامية الأجلاء ، وكتابه عمدة عندهم . ومعنى قولهم إن صدر الدين شرحه بالكفر أنه استعان بالفلسفة في توضيح معانيه ، ولم يتبع ما جرى عليه السلف من شرحه على طريقة المفسرين والمحدثين .

ولحسن الحظ لم يكن هذا الرأي في شرح أصول الكافي هو الوحيد ، فإن العلامة الخوانساري ، وهو ممن نقلوا هذا الرأي عن القائلين به ، يرى فيه غير ذلك ، إذ يقول ما نصه : « وكذلك شرحه المبسوط على أصول الكافي وهو في مجلدين يقرب من أربعين ألف بيت كتبه إلى باب : إن الأئمة عليهم السلام ولاية أمر الله وخزنة علمه من كتاب الحجة ، وعندى أنه أرفع شرح كتب على أحاديث أهل البيت عليهم السلام ، وأرجحها فائدة ، وأجلها قدرا الخ » (٣)

والواقع أن خصوم صدر الدين نعموا عليه أشياء كثيرة ترجع كلها إلى

(١) روضات الجنات آخر ص ٣٣١ وأطروحة المرحوم الشيخ أبي عبد الله الزنجاني عن

صدر الدين ، مطبوعة في دمشق ص ٩

(٢) الروضات ، الموضع المذكور

(٣) روضات الجنات ، الصفحة المذكورة

خروجه عن المستوى العقلي لعصره وارتفاعه عنه ارتفاعا كبيرا ، وذلك لأن عصره كان موبوءا بطائفة من الجهلاء ، وال دراو يش ، الجامدين الذين يهون عندهم تفكير المفكرين دون تحقيق لأقوالهم ، والذين كانوا ينفرون من التعمق في دراسة المسائل النظرية ولا سيما ما كان منها وثيق الاتصال بالدين .

وبما يدل على تفشي الجهل والخلط في ذلك العصر ، مارواه مؤلف و قصص العلماء ، أن رجلا من أهل المعرفة وجد في كربلاء عند قبر الحسين عليه السلام ، واحدا من هؤلاء المدعين للعلم ، الحاصلين على الجاه بفضل هذا الادعاء الباطل ، كما هي العادة في عصور الجهل والجهود ، يأخذ بعد صلاة الصبح في لعن كبار العارفين من الصوفية واحدا بعد واحد ، وكان ممن تناولهم باللعن صدر الدين ، و انتهى بلعن جاره الذي يروى الخبر ، وكان لا يعرفه ، فسأله عن سبب لعنه إياه فأجاب : لانه يعتقد بوحدة واجب الوجود ! فقال له : فalcنه إذن فإنه تحقيق بلعنك بهذه العقيدة . ولم يكن المتعصب يميز بين الاعتقاد بوحدة الوجود ووحدة واجب الوجود (١) .

وعانى صدر الدين كثيرا من المتاعب ، وشكا مر الشكوى في أكثر من واحد من كتبه من إنكار أهل عصره للحكمة واضطهادهم لطالبيها ، فقال في مطلع كتابه الكبير « الأسفار الأربعة » مشيرا إلى سبق عزمه على تأليف كتاب جامع في الحكمة لم يسبق أحد إلى تأليف مثله ، ولكن العوائق كانت تمنع من المراد ، وعودى الأيام تضرب دون بلوغ الغرض بالاسداد ، فأقعدتني الأيام عن القيام وحبسني الدهر عن الوصول إلى المرام ، لما رأيت من معاداة الدهر ، بترية الجهلة والارذال ، وشعثة نيران الجهالة والضلال ، وراثاة الحال وركاكة الرجال ، وقد ابتلينا بجماعة عازي الفهم ، تعمش عيونهم عن أنوار الحكمة وأسرارها ، وتكل أبصارهم كأبصار الخفافيش عن أضواء المعرفة وآثارها ، يرون التعمق في الامور الربانية ، والتدبر في الآيات السبحانية بدعة ، ومخالفة أوضاع جماهير الخلق من

(١) الفيلسوف الفارسي الكبير صدر الدين الشيرازي بقلم أبي عبد الله الزنجاني دمشقي

الهمج الرعاع ضلالة وخدعة ... فأصبح الجبل باهر الرايات، ظاهر الآيات، فأعدموا العلم وفضله، واستردلوا العرفان وأهله، وانصرفوا عن الحكمة زاهدين، ومنعوها معاندين، ينفرون الطبايع عن الحكماء، ويطرحون العلماء العرفاء والأصفياء، وكل من كان في بحر الجبل والحق أوج، وعن ضياء المعقول والمنقول أخرج، كان إلى أوج القبول والإقبال أوصل، وعند أرباب الزمان أعلم وأفضل.

كم عالم لم يلج بالقرع باب مُنى وجاهل قبل قرع الباب قد ولجا

وكيف ورؤساؤهم قوم عزل من سلاح الفضل والسواد، عارية مناكبهم عن لباس العقل والرشاد... فلما رأيت الحال على هذا المنوال، من خلو الديار عمن يعرف قدر الاسرار، وعلو الاحرار، وأنه قد اندرس العلم وأسراره، وانطمس الحق وأنواره، وضاعت السير العادلة، وشاعت الآراء الباطلة، ضربت عن أبناء الزمان صفحا، وطويت عنهم كشحا، فألجأتني خمود الفطنة، وجمود الطبيعة لمعاداة الزمان، وعدم مساعدة الدوران، إلى أن ازويت في بعض نواحي الديار، واستترت بالخنول والانكسار، منقطع الآمال، منكسر البال، متوفرا على فرض أوديه، وتفريط في جنب الله أسعى في تلافيه، لا على درس ألقيه، أو تأليف أتصرف فيه، إذ التصرف في العلوم والصناعات، وإفادة المباحث ودفع المضلات، عما يحتاج إلى تصفية الفكر وتهذيب الخيال، عما يوجب الملل والاختلال، واستقامة الاوضاع والاحوال مع فراغ البال، ومن أين يحصل للإنسان مع هذه المكاره التي يسمع ويرى من أهل الزمان، ويشاهد مما يكب عليه الناس في هذا الاوان، من قلة الإنصاف وكثرة الاعتساف، وخفض الاعالى والافاضل، ورفع الاداني والاراذل الخ، ثم استشهد برباعي نظمه بعض إخوانه جاء فيه ما ترجمته: «لا حاجة للكلام في جواب كل سؤال، فإن العين البصيرة تلمس العذر لشفة الإنسان عند التزام السكوت، ثم تمثل بكلام للإمام على عليه السلام، في الصبر على قلة الانصار وتطبيق الدنيا وإيثار الآخرة على الأولى (١)».

ونستنتج من عبارة صدر الدين أنه جزع من مقابلة أهل عصره لما أراد أن يدل به إلههم من حكمة في مجالس العلم وحلقات التدريس ، ويش من قبوهم لآرائه ، فاضطر أن يلتزم الصمت ، وألا يتكلم في العلوم ، وحز في نفسه أيضا أنهم كانوا يحسنون الإصغاء إلى من كانوا بالنسبة إليه كالعوام ، فعزم على كره منه أن يأوى إلى جانب العزلة والخول في جبال قم ، وابتعد عن العلم مدة طويلة ، خاف أن يؤدي امتدادها مع شعور بالغم والخبية إلى جهود القريحة وبلادة الفكر ، ولكن الله تداركه بفيض من نعمته ورحمته ، فكانت حاله مصداقا لقوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وذلك أنه عندما اضطر إلى الاعتزال والابتعاد عن التصرف ، في العلوم أتاح له الوقت أن يهضم ما حصل ، وكان تحصيله عظيما ، ولأن يتمثل جميع ما وعى وحفظ ، وأن يقلب المسائل والمذاهب متأملا في نفسه جميع ماورد عليه فيها من مقالات ، فاستطاع أن يميز بين ما ينبغي نبذه وما ينبغي التمسك به والاعتماد عليه ، واهتدى بعد كل ذلك إلى ما آمن بأنه وجه الحق الصريح ، ولذلك جاء مذهبه مستقيما لا عوج فيه ولا زيغ ، صافيا لا أثر للتناقض في معانيه ، وهو يشرح هذا التطور فيقول بعد وصفه لما حل به من كرب وضيق ، على نحو ما نقلنا عنه ، إنه رأى أن يقتدى بالإمام على عليه السلام ، في جميل صبره على الأذى ، وفي عدم اكترائه بمعادة الزمان ؛ ثم توجه بكل قواه نحو مسبب الأسباب ، وتضرع إليه أن يسهل له الأمور الصعاب ، وأخذ نفسه بشتى أنواع المجاهدة والرياضة حتى فاض عليه من أنوار الملكوت ، ما جعله يطلع على أسرار لم يشهدها من قبل ، فسأل الله أن يشد أزره ويشرح صدره ، فنهضت عزيمته بعد القعود ، وهبت همته بعد الركود ، فأدج العلوم الإلهية في الحكمة البهية ، وبذلك تمثل بقوله تعالى : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، واستغفر كثيرا لما ضيع من عمره في تتبع آراء الفلاسفة والمجادلين من أهل الكلام ، واستبان له في آخر الأمر أن أن قياسهم عقيم ، وصراطهم غير مسقيم (١) .

وستنكم في المقال الآتي إن شاء الله في تكوينه الدراسي وأساتذته وتلاميذه .

# عالمان

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

وكيل مصلحة النقل

علمان متميزان فى تاريخ البشرية نبغ فىهما الإنسان نبوغا عظيما ، وارتقى فىهما شأوا عاليا ، وظهرت فىهما مزاياه العقلية وقواه الفكرية التى بها استحق الزعامة فى هذا الكوكب دون غيره من المخلوقات .

العالم الأول : عالم « الكتروني » اعتمد فى خلق مدنيته على معرفته للكهرباء ، حيث دار الموتور وتحرك الدينامو ، وحيث نشأت الصناعات الصغرى ثم الكبرى ، فانتقل الناس من عصر إقطاعى كانت تباع فيه الضياع والأعلاك بمن يسكنها من البشر إلى عصر برجوازى صناعى ، تحولت الصناعات فيه من مصانع صغيرة إلى مصانع كبيرة ، ثم إلى مصانع أكبر منها ، وبعبارة أخرى انتقل الناس فيه ، وفى أكثر بقاع المعمورة من العصر الإقطاعى إلى العصر الرأسمالى .

ولئن كانت قدرة الإنسان ونبوغه وسعة حيلته ، وتقدم حضارته ومدنيته ، قد ظهرت فى هذا العالم بمظهرها الرائع المعجب ، لقد اكتنف هذا التطور العظيم ضروب عدة من الصعاب والمشاق والتعقيد ، كان آخرها هاتان الحربان العالميتان اللتان ترادفتا على سكان المعمورة فى مدى قريب لا يزيد على ربع قرن .

هاتان الحربان كانتا بين حكومات لم يفهم كثير من محكومها الأسباب الحقيقية التي دعت إليهما ، ولا السوافع التي طوعت للإنسان قتل أخيه الإنسان . لقد مات وجرح ملايين من البشر ، واختفى من على وجه الأرض أناس لو قدر لهم أن يتجنبوا هذه المجازر العانية لأفادت الإنسانية منهم أعظم الفوائد ، وناهيك بشباب مفتول السواعد ، مكتمل النشاط ، يفيضون حيوية وإقداما وقدرة على الانتاج ، أتت عليهم نيران حاصدة ، وفنون من التدمير والاهلاك لا تبقى ولا تذر ، هذا إلى أن الانتاج قد تحول مرتين في ربع قرن إلى صناعات حربية نفسر العالم بذلك خسارتين :

الأولى أنه أنتاج أدوات ومعدات لا فائدة منها للبشر ، أدوات لا قيمة لها في أى عمل إيجابى يزيد في رفاهية الإنسان .

والثانية أنه أهلك بها ملايين من بنى الإنسان ، وهدم مساكنهم ، وتخرب مدارسهم ، ودك مصحاتهم وطرق مواصلاتهم ، وكل ما هو نافع لهم .

\* \* \*

والعالم الثانى : عالم نووى يعتمد الإنسان فيه على قوة جديدة خارقة للعادة ، قوة دفينية في كل مادة نلصقها وفي كل عنصر نعرفه ، هذه القوة أو الطاقة هي جزء من المادة إن لم تكن هي المادة كلها ، هذه القوة الخارقة للعادة هي التي تجعل مثلا جسيمات نواة كل ذرة مجتمعة بعضها إلى بعض ، وهي التي تعطينا هذا الشكل المادى الساكن الهادى لما نراه من الأشياء ، فهذا حديد وهذا خشب ، وهذا زيتق وذلك ماء ، وهذا منزل وذلك جبل ، وهذا بورانيوم ، وذلك « توريوم » ، ويغلب على الظن أن بعض هذه العناصر قابل بمعاملة خاصة ، لما نسميه اليوم : الانفلاق النووى ، أو تفرق الجسيمات المكونة لنواة ذراتها وخروجها إلى الخارج ، وتحولها الكامل في بعضها ، أو في بعض أجزائها إلى طاقة قوية كمينية فيها منذ القدم ، ربما كانت هي التي استخدمت في تجميعها وضمشتاتها بطريقة لا نعرفها اليوم ، بل يغلب على الظن أن الإنسان سيعرف طريق تحويل الكثير منها إلى هذه



الطاقة الخطيرة ، بحيث إذا كان الإنسان المفكر قد عرف الوسيلة في بعض العناصر ليجعلها قابلة للانفلاق وخروج الطاقة ، فليس هناك ما يمنعه في القريب أن يعرف السبيل إلى ذلك ، في غيرها من العناصر .

د فاليورانيوم ، وهو عنصر من ثمانية وتسعين عنصراً ، هي المعروفة اليوم على هذه الأرض - يصبح بمعاملة خاصة وتعديل في نواة ذرته د بليتونيوم ، وهو عنصر آخر جديد لم يكن في جدول العناصر ، وهذا العنصر الأخير قابل للانفلاق أى قابل لما نسميه الانفجار الذرى - وأفضل الانفجار النووى - ذلك النوع من الانفجار الذى ذهب د بهيروشيا ، و د ناكازاكي ، وقد يذهب انفجار من نوعه غدا بيلاريس أو موسكو أو نيويورك ، كما أنه قد يُسخّر في صالح الإنسانية فيأتى بالعجب العجيب .

ولعل الانفجارات التى حدثت في سبيريا هذه الشهور ، وذكرت الأنباء أنها لأعمال تتعلق بحفر أنهار جديدة وترع كبيرة للرى ، هي استخدام للطاقة النووية لصالح الإنسان ، وقد يكون هذا فاتحة خير للبشر .

\* \* \*

هذا العالم النووى الجديد الذى بدأنا نعيش فيه يحتاج إلى كثير من التأمل ، ويثير في نفس القارىء كثيرا من الأسئلة ، ولعل أهمها : هل يستخدم الإنسان الطاقة النووية لأعمال الخير والسلم ؟ والجواب على ذلك : أتى لا أشك في وصولنا لهذه الغاية وذلك في الحالة التى نتخاشى فيها حربا ثالثة تدمر كل هذه المدينة وتدفن معها كل ما ورثناه من علم ، أو ما لدينا من كتب .

إنما أذهب إلى هذا رأى بسبب ما ينشأ عن سلسلة الانفلاق المعروفة اليوم في نويات الذرة من طاقة حرارية فوق الوصف ، وهذه الحرارة من الممكن تحويلها إلى كهرباء ، بل أن الكهرباء موجودة أيضا من جراء د الالكترونات ، الناتجة رأسا من عملية السلسلة المتقدمة .

وما نحن أولاء وقد انتصف القرن العشرون ، نجد أنفسنا على فوهة بركان ، إن يكن اليوم هادئا فقد يثور غدا ، ونحن بين حرب تهددنا ، وسلام قد نعيم فيه ، بما لم نعيم به لإنسان من قبل ، بل نحن على مفترق طريقين : إما أننا سنهدم أنفسنا بأنفسنا ، وإما أننا سنحظى بمدينة لم نشهد لها مثيلا .

سؤال آخر يتبادر إلى الذهن هو : هل ينتقل العالم في هذا العصر النووي الجديد من العصر الرأسمالي إلى عصر اشتراكي ، كما انتقل خلال العالم الألكتروني السابق ، والذي استخدم فيه الكهرباء من العصر الإقطاعي إلى العصر البرجوازي الرأسمالي ؟ وجوابنا على ذلك : أنني اعتقد أن هذا حادث فعلا ، وأن تمة تطورا من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، سيصل إليه البشر بصفة فعالة إذا لم تحدث قبل ذلك حرب نووية ، تعتمد على القنابل الذرية وعلى ما هو حادث اليوم من تسلسل في نواة البليتونيوم أو اليورانيوم ٢٣٥ ، أو تعتمد على قنابل « هيدروجينية » يحدها الإنسان بتحويل « الهيدروجين » إلى « هيليوم » مارا بالكربون ، كما هو حادث في الشمس ، وكما هو معروف في سلسلة بيت المشهورة .

وكل ما نرجوه أن يحدث هذا التطور دون عنف ، وأن يتم هذا التغيير في هدوء ، عندئذ تحظى غالبية الناس بالكثير من النعيم الذي لا يحظى به الآن إلا قليل منهم .

ولإن لممن يعتقدون أن الفضل في هذا سيكون لما يعرفه العلماء اليوم من معارف لها أهميتها عن حقيقة نواة الذرة وإخراج ما بها من طاقة لصالح الإنسان فيومئذ تقل ساعات العمل ، وتصبح الطاقة أداة نافعة تحت تصرفنا ، بل خادما متفانيا في سبيل تقدمنا ورفاهيتنا ، ونصل إلى عهد نطمئن فيه إلى زوال كثير من الأسباب التي تؤدي في العادة إلى الحروب .

\* \* \*

لقد أضحت صحيفة نواة الذرة اليوم من الصحائف العلمية الممتازة ، والأدبية النادرة في الوقت ذاته ، وأضحى للنواة اليوم أدب يستهوى المفكرين ، وإنه لمن

الواجب أن يكون للناس في العالم النووى الجديد من الخلق ما يفوق ما كان له في العالم الالكترونى ، وعلى العلماء والأدباء أن يدلوا الناس خاصتهم وعامتهم على خطورة المرحلة التى يجتازها العالم اليوم .

وهكذا : عالم « الكترونى » عشنا فيه مضى واتقضى ، وعالم نووى نعيش الآن فيه أقبل وانبرى .

أما المدنية الالكترونية فقد لمسناها وعرفناها ، فليت شعرى كم تحتاج المدنية النووية منا إلى التأمل والتفكير ؟

ألا إن بيدنا أن نسلك طريق السعادة والبقاء ، أو طريقا أخرى يكتنفها الشقاء والعناء ، وقد تفضى بالبشرية كلها إلى الفناء .

ولإليك رأياً غير رأي الذى أدليت به فى هذا الموضوع ، فقد كان معى اليوم ( ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٠ ) العالم الكبير « ماكس بورن » الألمانى الأصل ، والأستاذ بجامعة « أدنبره » ، بانجلترا ، الذى شرفنى بتناول الغداء فى منزل ريفى لاهلى قريب من القاهرة ، سأله أحد الحاضرين : ما ذا تنتظر من تقدم فى الذرة ؟ فقال : أرجو ألا يعرف الإنسان بصفة سهلة الطريق لاستخدام القوى الدفينة فى نواة الذرة قبل أن تعلو أخلاق البشر لأنى أخشى أن يستخدمها فى الشر .

لقد ذهب « ماكس بورن » إلى أكثر مما ذهب إليه ، فإنى لم أتمن لحظة عدم تقدم هذه العلوم ، وها هو ذا تزيد خشيته عن خشيتى ؛ وإذا علمت أن « ماكس بورن » هو أحد أقطاب علماء الذرة النظرين فى العالم ، بل هو أستاذ خمسة من أكبر أقطاب الذرة اليوم ، هم « هايزنبرج » ، صاحب نظرية عدم التعيين و « باولى » ، صاحب المبدأ المعروف باسمه ، و « فرمى » ، العالم الإيطالى الكبير الذى كان له دور هام فى القنبلة الذرية ، و « ديراك » ، الشهير ، و « شرو دنجير » ، العظيم لأدركت كم لكلمات هذا العالم الكبير من المعنى الخطير .

فليتمن القارىء معى أن تسيير البشرية لإذن نحو عصر من السلام والبقاء ، لا نحو عصر من الحروب والفناء ؟

## فهرس

كلمة التحرير .....	لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير ١١٥
تفسير القرآن الكريم .....	لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ١١٧
أقيموا صرح الإصلاح على أساس من العلم	لفضيلة الأستاذ الجليل الفيخ عبد الهيد سليم ١٢٩
حق الشعوب الإسلامية على نفسها	لحضرة صاحب المعالي محمد حلمى عيسى باشا ١٣٣
الإسلام والمسلمون .....	لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك ١٤٣
مبادئ القانون الدولى العام فى الإسلام	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله درار ١٤٨
فرصة سانحة .....	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد تقى القمى ١٦٤
حقوق الإنسان .....	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المرازى ١٧٠
هل تعبدنا الصرع بالهدى .....	لفضيلة الأستاذ الفيخ محمد جواد مغنیه ١٧٥
اللغة والأدب .....	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان ١٨١
لولا القدماء .....	للجنة الثقافية لجماعة التقريب ١٨٦
من ذخائر الفكر الإسلامى ....	تعلیق للعلامة الشيخ محمد الحسین آل كاشف الغطاء ١٩٣
فى أسرة التقريب .....	كلمة صاحب المعالي السيد الحسن بن على بن ابراهيم ١٩٥
عناصر وجود الأمة الاسلامیة ...	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فیاض ١٩٦
الحركة التعليمية فى مصر .....	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ محمود رزق سليم ٢٠٤
صدر الدين الشيرازى .....	لحضرة الدكتور محمود محمد الحضرى ٢١٢
عالمات .....	لحضرة الدكتور محمد محمود غالى ٢١٩

## رَبِّكَ الْإِسْلَامُ

مَجْدُ اسْلَامِيَّة عَالَمِيَّة  
تَصَدَّرَ عَنْ دَارِ التَّقْرِيبِ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْقَاهَرَةِ

رئيس التحرير: محمد محمد المدينى مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة: ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك. القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤  
قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربیة خمسون قرشاً مصرياً  
وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رمضان ١٣٦٩ هـ

يوليو ١٩٥٠ م

السنة الثانية

العدد الثالث

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونُ  
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة التحريض

حدثنا التاريخ مؤرد المثل ، وبحلى الذكريات والعبر ، عما كان من شجاعة علماء الدين فى قول الحق ، وشهادة الصدق ، وبذل النصح ، وبيان ما أنزل الله من الكتاب ، لا يشارون فيه ولا يمارون ، ولا يكتمون ما فيه من الحق وهم يعلمون .

حدثنا أنهم كانوا أعزة بعزة الإيمان ، يرون الله أكبر كل شيء ، فلم يذلوا مخلوق ، ولم يذعنوا لجبروت ، ولم يطأطئوا أمام الباطل رأساً ، ولم يغضوا على الفساد والمنكر طرفاً .

حدثنا أنهم كانوا أقوياء بالتعفف عما فى أيدي الناس ، فكان لهم السلطان الأكبر على الناس ، تكفيهم الكسرة ، وتشبعهم التمرة ، ولا يجحدون لبطونهم سلطاناً على عقولهم ، ولا يثقل رهوسهم دوار الطعام الحرام تنخمهم به موائد الأغنياء والمسلطين .

حدثنا أنهم كانوا يركبون الصعب من الأمر وهم عالمون بصعوبته ، ويقارفون الخطر وهم أدرى الناس بخطورته ، لينحق الله بهم الحق ويبطل الباطل ، ويظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

حدثنا أنهم كانوا يرون الجهاد باللسان كالجهاد باللسان ، فرض عين على كل قادر ، وأن من تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيم الخسف ودُيْتُت بالصغار .

حدثنا أن العالم الدينى كان موضع الإجلال والمهابة لا من الشعب فحسب ، ولكن من يلون شؤنه ، ويتقلدون سلطان الحكم فيه . فكان رجل الدين ربما دخل على السلطان مغضباً يجر ثوبه ، وترعش من الكبر أو المرض يده ، فتحل

له الحبي ، ويوطأ له مجلس الصدارة ، ويقبل عليه السلطان بوجه منصتا لحديثه ، فإذا هو يراجع في أمرٍ أمر به ، أو ينكر عليه فعلا صدر عنه أو عن أحد عماله ويقول له على مرأى ومسمع من بطاقته ورجاله : ليس هذا في مصلحة المسلمين فاتق الله وارجع عنه ، فإنك واقف بين يديه غدا ، وإنه محاسبك على ما قدَّمت ، وسائلك عما حفظت أو ضيعت .

وقد قال قائل يوماً لسلطان بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين إنه قد تكفَّفَكَ رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للأخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما أتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا الأمانة تضییعا ، والأمة كسفا وخسفا ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله كُفْنا من باع آخرته بدنيا غيره .

وكان الملوك يسمعون ذلك راضين به ، متقبلين النصح فيه ، ليقتهم أن الباعث الله ، والمقصد الله ، فقليل ما سمعنا أن أحدهم أخذته العزة بالإثم ، فتجهم للناصح الأمين ، أو أذن لقالة سوء فيه ينطق بها أحد الملقين من بطاقته ، أو الحاسدين من جلسائه ، فإذا حدث أحدهم نفسه بأن يستكبر عن النصح أو ينأى بجانبه عن الحق ، أو يأخذ المتجرى بما يردعه من عقوبة ، تردد في ذلك ، وهاب الإقدام عليه ، كأنه الأعزل الجبان ، حمل على منازلة الليث والليث غضبان .

وقد حفظ التاريخ موقفا عجيبا لسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، ذلك أن جماعة من أمراء الممالك بالديار المصرية لم يثبت عنده أنهم أحرار ، فأقن بأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، ولم يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ، حتى باعهم واحدا واحدا ، وقبض لبيت المال أثمانهم مغاليا فيها ، ثم اعتقهم من اشتراهم فصاروا بذلك أحرارا ، وأقن ببقاء تصرفاتهم من بعد .

تلك كانت سنة الأولين : شجاعة في قول الحق ، وشجاعة في قتله ، واعتصام بالله عن كل ما يخذل عنه من رغبة أو رهبة ، ولهذا كانت الشعوب في خير ،



وكانت كلية الدين بينهم هي العليا . وكان المقام الأول للفضيلة والخلق ، وكانت عظمة العالم تؤثر في النفوس ما لا تؤثره أوامر الحاكم ، وكان ما يزع الله بالقرآن أكثر مما يزع بالسلطان ! .

\* \* \*

وحدثنا التاريخ أيضاً — وهو مَورِد المثل ، ومجلى الذكريات والعبر — أن علماء بني إسرائيل كانوا على طرف النقيض من هذا النهج القويم ، فكانوا يماثلون على المنكر ، ويرضون بتعدى حدود الله ، ويسكتون على قول الإثم ، وأكل السحت ، وارتكاب الموبقات ، فأخذهم الله جميعاً بالعذاب الشديد ، وفي ذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ، ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون . »

\* \* \*

وحدثنا التاريخ — وهو مَورِد المثل ومجلى الذكريات والعبر — أن أهل العلم من المسلمين الأولين ، كانوا مطبوعين على لون آخر من ألوان الشجاعة في الحق ، ذلك هو جهرهم بما يرون ، ودفاعهم عما يعتقدون ، دون أن يصانعوا فيه العامة ، أو يماثلوا عليه أهل الجهالات ، فكم من عالم أخلص لعلبه ، وآثره على دنيا الناس ، ولم يعبأ في سبيله بغضب الغاضبين ، ولا بطش الباطشين ، فهو يقارع بالحجة ، ويمسك بالمنطق ، ويقف بطلا دون رأيه ، ولا يكتف ماعله الله ، ولا يجد في نفسه حرجاً مما شرّح به صدره .

ولذلك كان العلم في خير ، وكان أفق الحقائق واضحاً متكشفاً لا يحول دونه

حائل من سحاب الجهل ، أو غياهب التعصب ، وكان التقارب بين القلوب سنة العلماء ومن تبعهم ، كلٌّ يحترم رأى صاحبه وإن خالفه ، وكلٌّ يمدح صاحبه وإن رآه من المخطئين .

وقد زخرت المكتبة الإسلامية بآلاف من الكتب ، وانطوت على أئمن آثار الفكر البشري ، وحفل سجل الخالدين بأسماء المثمن من العلماء المجتهدين ، حتى أصبحنا أمام تراث غنيٍّ جامع ، لا يكاد يخرج عنه مفكرهما نبغ ، ولا يكاد يضيق عن حادث يحدث للناس .

وإن الذين يشتغلون بالقانون ، ويتصلون بالفقه الإسلامى ، ويدرسون آراء أعلامه ؛ ليعلمون هذه الحقيقة ، ويشهدون صادقين بأنه ما من رأى متأخر يُظن مبتكراً ، أو يُرى ملائماً لأحوال الناس في العصور الحديثة ، إلا وله في الفقه الإسلامى أصل ، ومن أقوال الفقهاء سند ، يشهد بذلك أهل الإسلام وغيرهم لأنه الحق المبين الذى لا مرية فيه !

\* \* \*

أما بعد فهذا حديث التاريخ عن الأولين ، فليت شعرى ماذا هو قاتل عن الآخرين ؟ أما والله إن الحساب لعسير ، وإن الحكم لخطير ، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

فرحمك اللهم رحماك ؟

رئيس التحرير

محمد محمد الدق

# نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

لَحْظَةُ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْأَسْتَاذِ الْجَلِيلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ شَيْخِ

## سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

هذه السورة هي السورة الثالثة من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف ، وهي معروفة بسورة «آل عمران» ، ويجدر بنا قبل أن نتناول مقاصدها أن نذكر كلمة عن تسميتها بسورة آل عمران .

جاء ذكر «عمران» في هذه السورة مرتين في آيتين متتاليتين : «إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران : رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ، فذهب فريق من المفسرين إلى أن عمران الذى سميت السورة بآله والذى ذكر فى الآية الأولى هو عمران أبو موسى وهرون ، وليس أبا مريم ، وكان بين العمرانيين فيما يقول الرواة أمد طويل .

ونحن إذا تتبعنا أسماء السور فى القرآن الكريم نجدها تشير إلى أهم أو أغرب ما اشتملت عليه السورة ، فسورة البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أمر بنو إسرائيل بذبحها ، وكان ذلك سبيلا لمعرفة الجاني فى حادثة قتل لم يعرف مرتكبها ، وسورة المائدة سميت بذلك لقصة المائدة التى طلب الحواريون إنزالها من السماء ، وسورة النساء سميت بذلك لأن أهم ما عرضت له هو الأحكام التى أراد الله بها تنظيم أحوال النساء ، وحفظ حقوقهن ، وعدم الإضرار بهن . وهكذا .

وإذا عرف هذا وهو أساس عام في شأن تسمية السور ، فلنرجع إلى تسمية السورة الثالثة من القرآن بسورة « آل عمران » ، ونحن إذا قرأنا السورة من أولها إلى آخرها لا نجد فيها شيئا غريبا أو هاما يتعلق بخصوص موسى وهرون ، ولكن أبرز ما فيها وأغرب شئونها ، هو ما عنت بتفصيله من شأن عيسى وأمه ، وهذا يدعونا إلى موافقة فريق آخر من المفسرين يرى أن عمران الذي سميت السورة بآله ، وذكر في الآية الأولى هو عمران المذكور في الآية الثانية ، وهو أبو مريم لا أبو موسى وهرون ، فالسورة تذكر طبقات من اصطفاهم من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران لتبين للقوم من أول الأمر أن اصطفاه الله آل عمران من عيسى وأمه ، ليس إلا كاصطفائه لغيرهما من اصطفى ، وأن مظهر على يد عيسى من خوارق العادات التي يتخذونها دليلا على ألوهيته أو بنوته أو حلول الله فيه ؛ لم يكن إلا أثرا من آثار التكريم الذي جرت به سنة الله فيمن يصطفى من الأنبياء والمرسلين ، ويقوى هذا أن الله يقول عقب هذه الآية بيانا لاصطفاء آل عمران : « والله سميع عليم » إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا ، وأنه يقول في جانب مريم : « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، وهكذا نجد أن اصطفاء آل عمران ذكر أولا بجلا ضمن من اصطفى الله ، ثم بين باصطفاء مريم أم عيسى ، ومن هذا يتبين أن عمران الذي سميت السورة بآله هو أبو مريم لا أبو موسى وهرون .

\* \* \*

نسير بعد هذا مع السورة لتعرف مقاصدها وما بنيت عليه .

هذه السورة مدنية ، وليست من أوائل ما نزل بالمدينة ، ولكنها نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين ، قلبت فيها عليهم أحوال من النصر والهزيمة في غزوات متعددة ، واختلطوا على صورة واضحة بأهل الكتاب من يهود ونصارى ، وجرى بينهم كثير من الحجاج والنقاش فيما يتصل بالدعوة المحمدية وفروعها .

وقد ذكر منها غزوات بدر، وأحد، وحمراء الأسد، وبدر الأخيرة، وكانت هذه في شهر شعبان من السنة الرابعة. وقد نزلت بعد سورة الأنفال التي تكفلت بالكلام على بدر ونزلت بعدها سورة الأحزاب التي حصلت في آخر السنة الخامسة.

ونحن إذ نقرأ السورة نجد أنها قد برزت فيها العناية بأمرين عظيمين لهما خطرهما في سعادة الأمم وشقاؤها: أحدهما تقرير الحق في قضية العالم الكبرى وهي مسألة الألوهية وانزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الدين والوحي والرسالة. والثاني تقرير العلة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق، والعمل على إدراكه والتمسك به.

وقد بدأت السورة بتقرير الأمر الأول فذكرت وحدانية الله، وأنه وحده هو الحى الذى لا يدركه الفناء، القيوم الذى له الهيمنة والتدبير والقيام على شئون الخلق، بالإيجاد والتربية الجسمية والعقلية والاعزاز والاذلال، وقررت في سبيل ذلك عله المحيط وقدرته النافذة القاهرة: «الله لا إله إلا هو الحى القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان». «إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، قل اللهم مالك الملك تولى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولى الليل فى النهار وتولى النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب».

تقرر السورة هذا فى كثير من أمثال هذه الآيات، ثم تقرر اصطفاؤه الله لبعض خلقه «رسلا مبشرين ومنذرين» يعرفون مهمتهم التي كلفهم الله إياها وهي دعوة الخلق إلى الحق وأنهم أعقل وأحكم من أن يقولوا للناس وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة إلا ما طلب الله منهم أن يقولوه، وأنه قد أخذ عليهم جميعاً العهد والميثاق أن يصدق بعضهم بعضاً فى الحق ودعوة الناس إليه «ما كان لبشر أن يؤتيه

الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . . . وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . .

وهذا هو العهد الذى حفظه عيسى عليه السلام وتوفى عليه وسيجيب به ربه يوم القيامة . . وإذا قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى لأهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيذا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . .

نعود إلى السورة فنجدها تبرز مع هذا فى وضوح وحدة الدين عند الله وعلى لسان رسله جميعاً : نزل عليك الكتاب بالحق . . . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . . وتقرر أن هذا هو الدين عند الله . وأن من يبتغى غيره ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ثم بعد أن تركز السورة هذا الشأن الخطير على شهادة الله بما أودع كونه من آيات وعبر ، وشهادة الملائكة ، وشهادة أولى العلم ؛ تتجه إلى الذين غلبت عليهم شقوتهم فخاربوا الله فى دينه وأعرضوا عن رسله وأخذوا يناوئون الحق على وضوحه ؛ فتذكر كثيراً من أساليب إضلالهم ، وألوان شبههم التى كانوا يعززون بها مراكزهم ، ويحاولون بها فتنة المؤمنين عن دينهم حسداً وبغياً ، لاطلباً للحق ولا التماساً للهدى ، وقد خصت السورة جماعة المسرفين فى شأن عيسى الزاعمين له

ما ليس له من ألوهية أو نبوة أو حلول ، فذكرت أن عيسى لم يكن إلا من آل عمران الذين اصطفاهم الله بين من اصطفى ، وأن ولادته لم تكن إلا تنفيذاً لإرادة الله الذى يصور الناس فى الأرحام كيف يشاء ، والذى له سنن عرف منها ما عرف وجعل ما جعل ، والذى إذا قضى أمراً فأنما يقول له كن فيكون ، شأنه فى خلق السموات والأرض عامة ، وفى خلق آدم وفى خلق يحيى بن زكريا خاصة ، وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون ، ، إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، ، فدأته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبيّاً من الصالحين ، قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء .

هذا الذى ذكره الله فى شأن خلق السموات والأرض ، وخلق آدم ويحيى ؛ هو عين ما ذكره فى شأن خلق عيسى : وجدت السموات والأرض إنشاء وإبداعاً ، ووجد آدم من غير أب وأم ، ووجد يحيى على كبر من أبيه ، وبأس من أمه ، وبشرت الملائكة زكريا ويحيى ، وتعجب زكريا من هذه البشارة مع حاله ، فردّه الله إلى مشيئته ، كذلك الله يفعل ما يشاء ، وهكذا كان شأن عيسى : وجد من غير أب بمشيئة الله ، وبشرت الملائكة به أمه بأمر الله ، وعجبت مريم لهذه البشارة ، قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، فردّها الله إلى مشيئته ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فأنما يقول له كن فيكون .

ثم تعرض السورة بعد هذا إلى أن الخوارق التى ظهرت على يد عيسى لم تكن إلا من سنة الله فى تأييد رسله بالمعجزات الدالة على أنهم عباد علمهم الله الكتاب والحكمة ، وأن الله أرسله إلى بنى إسرائيل بآيات من ربه ، ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والابرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض

الذى حرم عليكم وجنكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

وبعد أن تكشف السورة لهؤلاء الذين أسرفوا فى شأن عيسى ، شبهتهم التى ضلوا بها عن حقيقة التوحيد ، وعن حقيقة الدين عند الله ، تسلك معهم سبيلا آخر فتأمر الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يتقدم اليهم فى ثقة بنفسه واطمئنان إلى دعوته ، فيدعوهم إلى المبالغة وهى أن يجتمعوا جميعاً مع محمد صلى الله عليه وسلم وجماعته فى صعيد واحد ، ويستمطر الكل لعنة الله على الكاذب من الفريقين ، « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ، تزلزلت أقدامهم واضطربت أعصابهم وعللوا أنهم إذا قبلوا الدعوة إلى هذه المبالغة فهو الفناء للوالد وما ولد ، وهو الحق الذى لا يبق ولا يذر ، فتولوا وانقطعوا عن الحجاج ، وهكذا كما تحدى القرآن المشركين أن يأتوا بمثله وهم أرباب اللسان والبيان ، تحدى المسرفين فى شأن عيسى بهذه المبالغة السهلة الهينة لو كانوا صادقين فلم يقدرُوا عليها ، ثم تحدى التاريخ فى كل ما قصه فى شأن عيسى بقوله « إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم » .

بعد هذا تنجس السورة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يوجه إليهم جميعاً دعوة المنتصر فى حقه ، القوى فى برهانه ، الحريص على خير خصمه وسعادته ، مناشداً إياهم بما يقرهم إليه ، ويخفف من غطرستهم وغلواهم « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اهتدوا بأنا مسلمون » .

هذا هو بحمل ما عرضت له السورة من الحجاج الخاص بالشبه التى أثارها عند القوم ولادة عيسى وخوارقه ، وقد كانت لهم فنون من الحيل ، وألوان من الشبه ، قصدوا بها على وجه عام إضلال المؤمنين ، وقتلهم عن دينهم ، وقصدوا بها تبرير استمرارهم على العناد والمكابرة ، ومنع من يريدون الإيمان من أتباعهم بمحمد ورسالته .



## فن فنون حيلهم :

(١) أنهم كانوا يعمدون إلى الحق الذي جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب ، فيخطونه بالباطل الذي ألحقه به أحبارهم ورهبانهم عن طريق تأويلهم الفاسد لمشابه الكتاب دون أن يردوه إلى المحكم الذي يبين به الحق في أصول الدين ، ثم يجعلونه ديناً يجب اتباعه ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله .

(٢) ومنها إذا دعاهم أن لإبراهيم كان على دينهم ، ومحاولة صرف الناس عن محمد بذلك ، وفي هذا تقول السورة : يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزل التوراة والإنجيل إلا من بعده .

(٣) ومنها أن بعضهم كان يوحى إلى بعض أن يظهروا الإيمان بمحمد ، وما أنزل عليه في وقت ، ثم يظهروا العدول عنه والكفر به في وقت آخر ، ليقول الناس إنه لو كان حقاً ما رجع عنه هؤلاء بعد أن آمنوا به .

وفي ذلك كله تقول السورة : وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراشخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب .

وتقول : يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأتمتعون ، وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون .

وبينا تفصح السورة هذا النوع من فنون حيلهم وكيدهم تتناول من جانب آخر شبههم التي يخلعون عليها لونا من التويه .

(٤) فن ذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هؤلاء على ملة إبراهيم والنبيين من بعده - كما يزعمون - لما أكلوا ما كان محرماً من حيوان أو طعام ، ولا تنجسوا في صلاتهم إلى قبله الأنبياء جميعاً وهي بيت المقدس ، فترد عليهم السورة في هاتين الشبهتين بتكذيبهم في الأولى ، وبيان صلة الكعبة بإبراهيم في الثانية ، فتقول :

« كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ، قل صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم خنيفاً وما كان من المشركين ، إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم » .

وقد سمعوا من قبل في هذا الشأن من سورة البقرة : « ولما يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

فهذا شأن الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ، وهذا دين إبراهيم كان هو الإسلام ، وهذه هي الكعبة رفع إبراهيم قواعدها واسماعيل ، وطهرها للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وهذا محمد بن عبد الله هو دعوة أبيه إبراهيم « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، هذا ما تناولته السورة في تقرير المقصد الأول ، ومعالجة أفاضين حيلهم وشبههم فيه

\* \* \*

وبينما كانت السورة تقرر هذا المقصد على هذا النحو الذي شرحنا ؛ كانت تعرض في الالتئام إلى بيان العلة التي تستحوذ على قلوب الناس ، وتستولى على عقولهم فتحول بينهم وبين اعتناق الحق والعمل بالحق ، وهذا هو المقصد الثاني للسورة ، ترده إلى شيء واحد هو الغرور بما لهم من أموال وأولاد ، وسلطان وجاه ، فقد كانوا يتصورون أن في إيمانهم بصاحب الدعوة الجديدة زلزلة لما لهم من جاه وسلطان ، وأنهم في غنى عن هذه الدعوة بما لهم من أموال وأولاد ، ويظنون أن ذلك كان لهم عن استحقاق ذاتي ، وأنه دائم لا يزول ، ولا يؤثر فيه إيمان

ولا كفر ، وكثيرا ما حدثنا القرآن عن مثل هذا الوهم الفاسد الذى خدع كثيرا من الناس فأضلهم وأعمى أبصارهم : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا » .  
 « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال : إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

وعلى هذا الأساس الذى أرشدنا الله إليه فى كثير من كتابه أخذت سورة آل عمران تضرب على هذه العلة التى يتوارثها الجبارون بعضهم عن بعض ، وترشد إلى أن حب المال والغرور بمتاع هذه الحياة هما علة العلل ، وهما الحائل بين الناس وبين الحياة الطيبة والإيمان الصادق ، وفى ذلك تقول : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار » .

ثم تضرب لهم مثلين ، أحدهما من الماضى البعيد ، والآخر من الماضى القريب : تضرب لهم مثلا بآل فرعون والذين من قبلهم ، وتضرب مثلا بفيتى المؤمنين والمشركين فى بدر وتقول : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ... لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

ثم تعود السورة وتؤكد أن أموال هؤلاء لا ترد عنهم من بأس الله شيئا ، ولا تقذهم من العذاب الأليم الذى أعد لهم جزاء نكوصهم عن الحق ، ومناواتهم لهدى المرسلين « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » . « إن الذين كفروا

لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر (١) أصابت حرث قوم ظللوا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

ولأنه لجدر بأشغال هؤلاء ، وهم موجودون في كل زمان ومكان ، أن يلتفتوا إلى أن الأموال التي ينفقونها في لذاتهم وشهواتهم وبسط سلطانهم على الناس بغير حق ؛ لا بد أن تفسد عليهم في نهاية الأمر أخلاقهم وعقولهم ، وتهدم ما بنوا من حضارات ، وشيدوا من قصور ، وابتكروا من وسائل الهدم والتخريب ، ستقضى أموالهم هذه على حرثهم الذي له يعملون ، وفي سبيل بقائه ينفقون ، ولا أجد مصداقا لهذه الآية الكريمة أقرب ولا أوضح من هذه الحروب الطاحنة التي تقضى بين الفترة والفترة على كل ما لهم مما يزرعون ويحرقون .

وبينما تعرض السورة أثر الافتتان وسوء عاقبة الغرور بالأموال والأولاد على هذا النحو ؛ نراها تقرر الحق في شأن حب الناس للأموال ومظاهر هذه الحياة ، وتقول إنه شيء قد فطروا عليه ، ولكنك ليس هو المقصد الأسمى من هذه الحياة ، وإنما هو متاع وزينة ، وهو في الوقت نفسه سبيل - إذا أحسن استعماله ، وأديت حقوقه - للحصول على المتاع الخالد في الحياة الخالدة ، سبيل لمتاع خير منه وأسمى : د زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبشكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد .

ثم تصف هؤلاء الذين اتقوا والذين لهم ذلك الجزاء ، بأنهم هم الذين أدركوا الحق وأنفقوا ما آتاهم الله من مال ، ابتغاء مرضاة الله ، وصبروا على ما انتابهم من بلايا ومحن ، ورجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار د الذين يقولون ربنا إتنا آنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين

والمستغفرين بالأسحار ، . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين .

وبعد أن تركز السورة هذين المقصدين : المقصد الأول الذي يتعلق بالالوهية وبيان الحق في الدين والرسالة ، والمقصد الثاني في بيان العلة التي أعمت من أعمت ، وأصمّت من أصمّت عن قبول الحق والاستجابة لدعوته ، وهي علة الغرور بالمال والولد ، وتستنفد في هذين أكثر من نصفها ؛ تنجّه إلى جماعة المؤمنين الذين جمعهم الحق ، وتكونوا على أساس من الرحمة بالخلق ، فتحذّروهم أن يتأثروا لشيء من خطة هؤلاء المعاندين في أفانين حيلهم وباطل شبههم والاغترار بمتاع الحياة ، وتطلب اليهم أن يعتصموا بحبل الله وأن يذكروا الأخوة التي ربطت بين عواطفهم ، ثم تأمرهم بوسيلة ذلك كله ، وهو التضامن الاجتماعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى تدوم لهم وحدتهم وتستقر دولتهم . يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

ثم تضع السورة لهم في جانب ذلك ما ينبغي أن يسلكوه في علاقتهم بغير المؤمنين ما يباح منها وما لا يباح : . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خيالا ودوا ما عتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ،

\*\*\*

نسير بعد ذلك مع السورة فتراها تركز هذه الأصول عند المؤمنين ، وتلفت

أنظارهم في سبيل ذلك إلى حادثتين عظيمتين من حوادثهم الخاصة ، لهم في كل حادثة منهما أكبر العظات فيما قرره السورة من مقصديها العظيمين : الصدق في الإيمان ، وعدم الاغترار بزخارف هذه الحياة .

تلفتهم إلى واقعة بدر وكيف انتصروا فيها بالإيمان والصبر والتقوى مع قلتهم وضعفهم في المال والعدة ، ومع كثرة أعدائهم ووفرة ما لهم وقوة عددهم : « ولقد نصركم الله يدر وأتم أذلة فاتحوا الله لعكم تشكرون ، إذ تقول للدؤمين أن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » .

وتلفتهم إلى واقعة أحد وفيها اعتمد المسلمون على قوتهم وكثرتهم ، وخطف أبصارهم شيء من زخارف الدنيا ، وفيها انهزموا لسبب مخالفة الرماة أوامر القيادة الحكيمة ، وفيها أرجف الأعداء بموت الرسول ، فزلزلت أعصاب كثير من المؤمنين ، وفيها أنصح المنافقون عن نياتهم ، وفي ذلك كله تقول السورة : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، الخ ، وفيها تقول : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، وفيها تقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا تؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة تؤته منها ، وسنجزي الشاكرين ، وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » ، وفيها تقول عن المنافقين الذين رجعوا : « وما

أصابكم يوم التقي الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم  
تعالوا قاتلوا في سبيل الله أوادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لا تبغناكم ، هم للكفر يومئذ  
أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون  
الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادعوا عن أنفسكم  
الموت إن كنتم صادقين . . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا  
فشلتهم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منهم من يريد الدنيا  
ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم واند عفا عنكم والله  
ذو فضل على المؤمنين . .

وأخذت تشرح لهم في شأن هذه الواقعة إلى أن تقول بيانا لواقع الأمر عند  
الله . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وأن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده  
وعلى الله فليتوكل المؤمنون . .

ثم لا يفوت السورة - وهي تحدثهم عما أصابهم من هزيمة في أحد - أن تبين لهم  
أن هذا إنما هو ابتلاء من الله وتمحيص للمؤمنين ، والعاقبة لهم على كل حال :  
« ما كان الله ليدرك المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان  
الله ليظلمكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فأمنوا بالله ورسله ،  
وأن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم » ، « ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون  
إن كنتم مؤمنين ، إن يمسخكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها  
بين الناس . .

وتقول في شأن مكانة الذين قتلوا في سبيل الله عند الله ، تحريضا لغيرهم على  
الاستشهاد ، وعلى الإخلاص ، « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء  
عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم  
من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل  
وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، وهكذا تشرح السورة لهم بمناسبة هذه الواقعة  
ما يجب أن يتحلى به المؤمنون من الاعتماد على النفس ، والثبات والإخلاص وعدم

التأثر بالاراجيف ، وتبين لهم أن الجيش له حياة مستقلة عن حياة شخص القائد ، وأنه لا ارتباط بين موقفه وما يصيب القيادة ، إلى غير ذلك من أنواع التعليم والتأديب التي لا غنى عنها لجيش يريد العزة والحياة الطيبة .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى النهي عن مظهر من مظاهر الاغترار بالمال وهو البخل به عن الإنفاق في سبيل الله : « ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

ثم تنبههم إلى أن الشأن في أرباب الحق أن ينالهم من نصراء الباطل كثير من الأذى بالقول والعمل ، وأن واجب المؤمنين أن يتلذذوا كل ذلك بالصبر والاحتمال : « لتبخلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

بعد هذا كله تحتم السورة الكريمة بأمرين عظيمين :

أحدهما : رسم الطريق الذي يصل به الإنسان إلى معرفة الحق والإيمان به : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » .

والثاني : هذه النصيحة الغالية التي ما تمسكت بها أمة إلا تركزت وسمت وعزت ، وما تخلت عنها أمة إلا أصيبت بالضعف والانحلال والتدهور والانحطاط والذل والهوان :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

### رِسَالَةُ الْإِسْلَام :

إن هذا النهج القويم الذي يسير عليه في تفسير كتاب الله ، أستاذنا العلامة الشيخ شلتوت ؛ لنهج فريد يحق لنا أن نعتز به ، ولقرائنا الكرام أن يحرصوا



عليه ، ويعاونا شديد اغتباطهم بتوفيق الله فيه ، فقد اثقلت عليه قلوب أرباب المذاهب المختلفة في شتى البلاد الاسلامية إعجابا وحبا ، وقبولا ورضى ، وما تزال تأتينا الرسائل من أهل العلم والفضل ممعنة في الثناء عليه ، والتشجيع على المزيد منه .

وأول محاسن هذا التفسير ، أنه إلى عنايته الكبرى بإبراز الموضوعات الهامة في النواحي العلمية والخلفية والاعتقادية والاجتماعية ، يعرض السورة القرآنية أمام أنظار القراء عرضا يمكنهم من استجلاء عظمها ، ومجاراتها في أهدافها وأغراضها ، وتذوق أسلوبها ومنهجها الذي رسمته لبيان هذه الأغراض ، والوصول إلى تلك الأهداف ، دون أن يشغلهم بما تعود المفسرون في القديم والحديث أن يشغلوا به قراءهم من الخوض في الموضوعات التي تخرج بالقرآن في كثير من الأحيان عن وضعه الذي أنزله الله عليه ، وتلوى العقول والأفهام عما فيه من هدى وبيان .

ولذلك يترجم هذا التفسير في العالم الإسلامي نقلا عن هذه المجلة إلى ثلاث لغات : الفارسية والتركية والانجليزية ، يترجمه إلى كل منها علماء ندبوا أنفسهم لذلك تقديرا له ، وإعجابا به .

وكان آخر ما جاءنا في الثناء عليه كتابُ أرسله العلامة الكبير الشيخ مرتضى آل ياسين من كبار علماء النجف الأشرف يقول فيه :

« وإن كنتمكم شيئا فلا أكنتمكم إعجابي ببحوث التفسير التي تنتجها يراعة العلامة شلتوت ، فاني أنتهز لها فرصة الفراغ من أعمالي فأستوفيها مطالعة ومراجعة ، متمنيا لفضيلته اطراد التوفيق ، لمواصلة هذه البحوث القيمة ، بهذا الأسلوب الرائق الرصين ، ولو لم تتكشف رسالة الاسلام ، إلا عن هذا الوسام الممتاز الذي تحمله على صدرها ، فتظهر به أمام قرائها ؛ لكفها مفعرة تعتز بها في بحالي العز ، وترفع بها رأسها عاليا حين ترفع الرموس » .

ونحن نضم دعاءنا إلى دعاء فضيلة العلامة المرتضى ، فنسأل الله أن يعين أستاذنا الجليل ، على استكمال هذا التفسير البارع الفريد ، والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ؟

# ديمقراطية الإسلام

لحضرة صاحب السعادة محمد علي علوبه باشا

رئيس جماعة التقريب

« الديمقراطية ، لفظ مكون من كلمتين : « ديموس » ، ومعناها : « الشعب »  
و « كراتوس » ، ومعناها : « سلطة » ، فالمعنى التركيبي لها هو : « سلطة الشعب » .

وهي كلمة إغريقية دخيلة في اللغة العربية لم يتداولها الناس قبل القرن الحاضر .  
فلم يكن العرب في صدر الإسلام على اتصال بما أنتجه العقل الإغريقي ، من علوم  
ومعارف ، وثقافات حتى العهد العباسي ، الذي بدأ العرب يترجمون فيه التراث  
الإغريقي إلى اللغة العربية .

وإذا جاز أن يكون العرب قد سمعوا في هذا العهد عهد الترجمة كلمة « الديمقراطية » ،  
فقد كان هذا السماع مقصوراً على دائرة ضيقة من العلماء الذين ترجموا أو اتصلوا  
بالمترجمين ولم تشع في ذلك الحين ، ولم تستعمل بين الجمهور للدلالة على هذا المعنى  
الخاص الذي تدل عليه اليوم .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا يحملون مدلولها ، الذي تدل عليه اليوم ،  
كما كانوا يحملون اللفظ ، فالعرب أحرار بطبيعتهم ، وديمقراطيون بطبيعة تكوينهم  
وبيئتهم . وسنرى هنا إلى أي مدى كان الإسلام ديمقراطياً في نزعه . وتشريعه .  
وفي تكيف حياة المسلمين العملية .

قام نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى التوحيد والفضائل ،  
في بلاد تفشت فيها عبادة الأوثان والجهالة . وكان القوم في بلاد الحجاز عاكفين

على الظلم والاستبداد ، وعلى أعمال السلب والنهب ، وعلى الغزو والتقاتل ، وعلى الخمر والميسر . وعلى التفاخر بالأنساب ، وقوة الشكيمة والاتباع ، وكثرة النفر والنفير .

وكانت بلاد الحجاز بلاداً جرداء قاحلة ، كلها صحارى وجبال ووهاد ونجاد . عفا الفاتحون عنها فبقيت فى عزلة واستقلال . وظل أهلها متمتعين بحرية الحركة والانتقال . يتصرفون فى أمورهم كما يشاءون ، من غير أن يكون لهم وازع إلا المصلحة القبلية والعصية والوثنية .

وحول هذه الصحراء القاحلة كان يوجد من جهة الشمال إمبراطوريتان عظيمتان ، هما : إمبراطورية الرومان الشرقية . وإمبراطورية الأكاسرة . وإمبراطورية الفرس . . ويوجد من جهة الغرب البحر الأحمر . ومن جهة الشرق صحراء . ومن الجنوب بلاد اليمن ، وكان لا يؤبه بها فى ذلك الحين .

ومن حيث الحكومة وشئون السياسة كانت بلاد الفرس تحت حكم الطغيان ، أى حكم الفرد المستبد الذى لا يخضع فى حكمه إلا لما يملكه عليه عقله وإرادته . أما بلاد الرومان الشرقية . وهى التى كان يعبر عنها العرب بأمة الروم فقد كان لها إمبراطور يحكمها ، وكانت ذات قوانين وضعية كان أهمها التشريعات التى وضعها جوستانيوس ، فى القرن السادس من الميلاد ، فوضع ما يسمى ( ديجست ) و ( انسيتوت ) و ( نوفل ) و ( القوانين ) .

وبالرغم من تلك القوانين ، ومن الشرائع التى وضعت أيام جوستانيوس وقبله فقد كانت هذه الإمبراطورية مقطعة الأوصال ، مفككة العرى ، عم فيها فساد الحكم والطغيان ، وانتشرت فيها المحاباة والرشوة ، حتى ضعفت قوتها وتفككت .

وأما العرب فكما قلنا كان لا يتحكم فيهم إلا التقاليد القبلية ، والمصالح والنزعات والشهوات .

في هذا العصر ظهر النبي الأُمي الكريم صلى الله عليه وسلم ، وقام يدعو إلى التوحيد . وهو أساس الإسلام . ذلك التوحيد الذي يعني أن الله واحد ، قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، .

ويبين أن محمداً ليس إلا عبد الله ورسوله . لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعا ، ولا يملك لأحد شفاعة إلا أن يأذن الله له ، وأنه إنسان وبشر أوحى إليه برسالة فحسب . د قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الحكم اله واحد ، وأنه ليس هناك بين العبد وربّه حاجز ، فلا وساطة . والطريق إلى الله مفتوح لكل إنسان ، يصل إليه من يشاء بعمله وجده لا بحسبه ونسبه ، ولا بشهادة القديسين والمصلين له . فليس هناك اعتراف لغير الله أو توبة إلا له . وليس هناك نظام كهانة أو كهنوت أو رهبانية أو زهد عما أباح الله لعباده من الطيبات ، ولكن عبادة وتعمير للأرض وبناء للمجتمع .

خطم د محمد ، بهذه الفكرة أو ثان المشركين كاللات والعزى ومناة وهبل ، وحرّم عبادة الأوثان ، وفي سبيل هذه الدعوة الكريمة التي نهضت بالعقل الإنساني إلى ما يليق به من كمال إنساني عرض نفسه إلى الأذى ، وعداء أهله وذويه وأقرب الناس إليه ، فتألبوا عليه وجمعوا جموعهم لقتله ، فأنقذه الله مما كانوا يَمْكُرُونَ . وعلى الرغم من ذلك كله فقد كانوا كلوا أمعنوا في إيذائه قال : د اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون ، .

حرّم الخمر والميسر ، وحرّم وأد البنات ، وقد كان المشركون يرون من العار أن تكون لهم بنات ، فكان من بينهم من يضعها في حفرة ، ويهيل عليها التراب حتى تموت .

منع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الوحشية ، وأزال هذه الجبالة ، وجعل للبنات حقاً في العيش كالبنين ، وجعل للناس جميعاً واجبات بعضهم على بعض ، وأشاع فيما بينهم أن أحبهم إلى الله هو أنفعهم للناس ، ليتسابقوا إلى الجهاد في سبيل

الخير الاجتماعي حتى يوجد شعب يستعد كل فرد من أفراد التضحية بمصلحته الشخصية في سبيل المصلحة الاجتماعية .

أوجب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، لا ليظهر قلوب الأفراد ويزكيها فحسب ، بل ليهيئ مع ذلك للمسلمين فرصا اجتماعية للخير والبر والتراحم ويجعلهم يلتقون كل يوم وليلة لتأكيد عرى الروابط بينهم ، ويلتقون كل عام في مكة المكرمة ، ويكونون مؤثرا إسلاميا يتداولون فيه شئونهم ويتدبرون أمورهم ، ويقرون ما فيه خيرهم وصلاحهم ، حتى ينهضوا لإخوة متأثرين متصافين متحابين كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ونادى بأن الناس سواء لا فرق بين هاشمي وغير هاشمي ، بين عربي وغير عربي ، بين أبيض وغير أبيض ، بين شريف ووضيع ، بين هذا وذاك ، فالكل سواء في الإنسانية ، والكل سواء أمام القانون ، والكل سواء أمام الله ، لا يتميزون إلا بالتقوى والعمل الصالح .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

أرأيت خيرا من هذا نورا ينبثق من بين أمة جاهلة متناحرة ، تجعل الناس طبقات بعضها فوق بعض ، وتتفاخر بالأحساب والأنساب ، والقوة والعصية فينادي بأن الناس سواسية ، لا يتفاوتون ولا يتفاضلون ، إلا بما يقدمون للجمع من جلائل الأعمال ؟ .

ذلك النور هو محمد بن عبد الله الذي لم يخلق هذا السمو عن أحد من أهله وذويه ، أو عن البيئات التي كانت تعاصره وتجاوره ، ولكنه تلقاه عن الوحي الأمين الذي لا ينطق عن الهوى ، فهو نور إلهي يهدي الإنسانية إلى أرق ما يهدف إليه الإنسان الكريم .

كفل محمد للرأة حريتها واحتفظ لها بإنسانيتها ، ولم يجعلها متاعا ، بل إنسانا

يتمتع بما يتمتع به كل إنسان من حقوق ، فلها أن تملك المنقول والعقار ما شاء لها حق التملك ، ولها أن تنيع ، وأن تهب ، وأن توصى وتقاضى كما تريد ، ولها حق الإرشاد ، ولها حق التعليم ، ولا ينقص حق من هذه الحقوق بزواجها ، فهي تحتفظ بمالها ، مستقلة عن مال زوجها ، كما لها أن تتصرف فيه كما تشاء ، وأن توكل عنها من تشاء ، دون أن يكون لزوجها سلطان عليها في ذلك كله .

نهض بالإنسان إلى مكانة عليا ، فاحترم عقله وإرادته وحرية ، وتركه حراً من غير أن يكرهه على أن يعتقد هذا الدين أو ذلك الدين . لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . .

ولم يشرع الحرب أداة لإلزام الناس أن يكونوا مؤمنين ، بل دفاعاً عن النفس والعقيدة ، وتأمیناً لطريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . . وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . .

وانظر إلى خطب الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة تجده فيها ينهى عن حرب التخريب والشدّة ، ويحرم حرب الاستئصال ، فكان يقول في وصاياہ : لا تقتل امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطع شجراً مثمراً ، ولا تخرب عامراً ، ولا تعقر شاة ولا بعيراً إلا لما كلة ، ولا تقطع نخلاً ولا تحرقه ، ولا تغلل ولا تمثل ، ، ولا تقتل أصحاب الصوامع ، أى المعتكفين على العبادة من غير أهل دين الإسلام ، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي ، التي تبين بوضوح أنها لم تكن حرب غيظ ونكاية ، بل حرب ضرورة أثارها أحقاد قوم لا يعقلون ، ولا يريدون أن يتركوا الأبواب مفتحة في سبيل دعوة رشيدة تتبع خير الطرق وأساليبها .

ارتفع بالعلم والعلماء في عصر الجاهلاء والجهالة .

جاء في القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب . .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، ،  
 « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، ،  
 وجاء في السنة : « تعلموا العلم ولو بالصين ، ،  
 « تعلموا العلم فإن تعله الله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ،  
 والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعله صدقة ، ،  
 ارتفع بالعلماء حتى ساهم أهل الذكر وأولياء الأمر ، يسألون فيما يختلف فيه  
 الناس ، ويرجع إليهم الحاكون والمحكومون على السواء .  
 وبلغ من حبه للعلم والتعلم أن جعل فداء من يقرمون ويكتبون من أسرى  
 « بدر » أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين في المدينة القراءة والكتابة  
 في وقت كان الإسلام فيه أحوج ما يكون للرجال والمال .  
 جعل أمر الناس شورى فيما بينهم ، بعد أن وضع قواعد عامة ومبادئ عليا  
 صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان . وترك للعقل الإنساني بعد ذلك - فيما عدا قليلا  
 من التشريعات التفصيلية - حرية الحركة والعمل في كل العصور والأزمان .  
 جاء في القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » « وشاورهم في الأمر ، ،  
 وأوجب طاعة هؤلاء وطاعة أولى الأمر ما لم يأمروا بما يخالف أمر الله  
 أو نهيهِ . ( أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ) . وفي الحديث  
 ( السمع والطاعة حق على المرء فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع  
 ولا طاعة ) و ( إنما الطاعة بالمعروف ) .  
 بذلك كله - وكله نهوض بالعدل الإنساني ، نهوض بالمرأة والرقيق ، تسوية  
 شاملة بين أفراد الجنس البشري ، لا يفترق فيها فرد عن فرد لديته أو لقومه  
 أو لونه - أوجد الإسلام ديمقراطية عالمية ، مخالفة لتلك الديمقراطيات المحلية التي  
 ألغى إليها سابقا ، ونفذها بين الجماعة .  
 رأيت كيف كان محمد صلى الله عليه وسلم منفذاً لأوامر ربه ، ومسوياً بين  
 الأشراف والأرقاء ؟ .

أرأيت كيف غضب حين قال أبو ذر الغفاري لعبد زنجي : « يا ابن السوداء ، وقال له : طاف الصاع طفاً الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح ؟ » .

انظر إليه يقرر في حجة الوداع دستور المسلمين في هذا الصدد ، فيقول : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

فلما بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وأعلم الناس بوحدة الخالق وبوحدة المخلوق انتهت مهمته في هذا العالم ، ففارقه مطمئناً ، تاركاً فينا ثروة ، لو تمسكنا بها لكانت نوراً هادياً إلى سبيل الرشاد .

وهي تلك الثروة التي لا نجد لها شبيهاً من عمل الإنسان ، فقد ناقضت ما كان عليه أهل الحجاز من عادات وعقائد وتقاليد ، وما رآه فلاسفة اليونان والرومان ووصلوا إليه من ثقافات ، بل كانت ثورة عليها لأنها كانت تستعبد الإنسان للإنسان وقد خلق الله الكل متساوين في الحقوق والالتزامات .

وحق لها ذلك ، فهي دين الخلود ، وخاتمة الأديان ، ومكملة الرسالات التي جاء بها النبيون من قبل : إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وعيسى والنبيون أجمعون ، وبذا اختتمت سلسلة الرسالة واكتمل بناء النبوة .

وقد كانت الشعوب المضطهدة تستقبل المسلمين بترحيب واستبشار بل يدعونهم للدخول ، ويفتحون لهم الأبواب ، كما فعل المقوقس رئيس أقباط مصر ، وغيرهم من الشعوب وحكام الأقاليم ، لينقذوهم من برائن الحكم العاشم ، حكم الدخلاء الغاصيين ، إذ أن العرب لم يكونوا مستعمرين طامعين في التوسع الاقليمي رغبة في ملك أو مادة ، ولكن كانوا مؤمنين بتلك الدعوة ، يحاولون إزالة النواشئ التي كانت تقف حاجزاً ، تمنع الضعفاء من الاستماع للحق والانصات لكلمة الهدى والرشاد .



لذلك لم يكن المسلمون الأولون — وهم أكبر حجة في فهم معنى الاسلام — يعدون جيشاً للاستعمار ، ولكن كانوا يتركون من فتحت بلادهم يديرون أمورهم كيف شاءوا ، وإذا أسلبوا لم يكن لأحد عليهم من سلطان إلا سلطان كتاب الله ، وما للمسلمين بعضهم على بعض من حقوق النصح والشفقة والإحسان .

\* \* \*

لست أريد هنا أن أثارن بين تلك العدالة الشاملة ، والحرية الكاملة ، وبين الكبت والعسف والاستبداد التي كان يئن العالم منها في ذلك الحين وبعد ذلك الحين ، فكتب التاريخ مليئة بذلك النوع ، تبين أن الطغيان والجبروت كان ديدن حكام أوروبا ، حتى بلغ أن قال بعضهم — لويس الرابع عشر — في القرن السابع عشر ، وأوائل القرن الثامن عشر من الميلاد : « أنا الدولة » .

وظل ذلك الوضع سائدا حتى الثورة الفرنسية التي أعلن فيها الفرنسيون مبادئهم السامية الثلاثة ( الحرية والإخاء والمساواة ) وهي ليست إلا إحدى المبادئ السامية التي أعلنها الإسلام قبل ذلك بأحد عشر قرنا .

وضع الإسلام قواعد عامة لقيادة الجماعة ، ولأصول الأحكام ، وضع قواعد أغلبها عام يرجع إلى مكارم الأخلاق ، وتحقيق العدالة ، وإزالة المنكر ، وجعل الحكم شورى بين المسلمين ، ولكن تفاصيل تلك الشورى متروكة للمسلمين ليقرروا أصلح الأنواع التي تناسب مع الزمان والمكان وظروف الأحوال ، ولما يجد من أحداث ، ولما يرتبط بالعالم الإسلامى عند اتساع رقعته من أمم وتقاليد وعادات .

فقواعد الإسلام في هذا الباب ، وفي كثير غيره عامة ومرنة ، تتسع لكثير من الأمور الجديدة التي تستدعيها طبيعة العمران ، ولقد كان الإسلام حكيما في ذلك ، وحكيما في أنه لم يترك للناس التصرف في معنى الأخلاق ومدلولها ، خيفة أن يزيفوا ويضلوا في تحديد الأخلاق الكريمة ، تحت عامل الجهل أو الشهوة .

وتلك الأخلاق القويمة والمبادئ الكريمة التي دعا إليها الإسلام وقام بها

المسلمون هي سر انتشاره واتساع رقعته ، وإن نظرة واحدة إلى العالم الإسلامي كما نراه اليوم لكفيلة بتبيين ذلك .

انظر إلى الإسلام تجده قد انتشر في بلاد الهند مثلاً انتشاراً عظيماً ، بعد سقوط الدولة المغولية ، وبعد زوال ملك المسلمين ، حتى بلغوا اليوم مائة مليون ، وقاربوا الخمسين في الصين ، وفي إندونيسيا وجزر المحيط الهندي وسواحلها نحو ثمانين مليوناً ، وفي أواسط إفريقيا عدد كبير من الملايين ، كل ذلك من غير أن يكون له ظهير من قوة أو سلطان ، وإنما هي سماحة الدين الإسلامي ، والتجاء المسلمين إلى وسائل الدعوة بالحسنى التي أمر بها القرآن الكريم ، في قوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

فالإسلام يتغلغل بالسلم والاقناع ، ويسير إلى الأمام بخطى واسعة ، قوى المؤمنون أو ضعفوا . ولقد شهد بذلك كل من رجال الدين والسياسة على السواء .

فترى هتلر مثلاً في كتابه ( كفاحي ) يصرح بأن المبشرين مع ما ينفقون من أموال ، وما يبذلون من تضحيات ، لم ينجحوا في إيقاف هذا التيار الجارف ، تيار انتشار الإسلام . ولعل ذلك هو الذي دعا بعض السياسيين إلى أن يمنعوا المسلمين من دخول بعض المناطق الاستوائية ، ومنع سكان هذه المناطق من الاتصال بالمسلمين . أ تلك هي حرية القرن العشرين أم أننا لا نزال نتخبط في دياجير من العسف والعبودية ؟

قلنا : إن الإسلام وضع قواعد عامة ، وترك أمرها إلى أهل الذكر من المسلمين ، كما جاء في القرآن الكريم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، . ولهذا قام في الدين عند بعض المذاهب - للحفاظ على روح الإسلام ، وحسن تطبيقه - مصدران آخران في التشريع بعد القرآن والسنة . هما القياس والاجماع . حتى إذا ظهرت حادثة لم يشملها نص صريح من كتاب أو سنة ، تمكن المؤمنون من إيجاد حكم معقول لها ، مسترشدين في ذلك بالأقيسة ، وبإجماع أهل الذكر ،

وهم الأكفاء الذين تمكنوا من قواعد دينهم ، وسمت أخلاقهم ، حتى يأتهم المسلمون في أقضيتههم ومنازعاتهم .

ومن هنا ظهرت المذاهب الإسلامية ، واختلفت وتعددت ، وهي تسعى كلها إلى الخير وإلى الحق ، دون أن تخرج عن الأسس التي جاءت في الكتاب وفي السنة فهي خاضعة من حيث المبدأ إلى التشريعات السماوية الخالدة .

فالشورى من القواعد التشريعية العامة ، التي أمرنا أن نعمل بها في شئون المسلمين ، وفي شئون الدولة . ولكن ترك تحديداتها وتفصيلها للمسلمين ، ليكونوا نوع الشورى الذي يتناسب مع حياتهم الاجتماعية .

وهنا صح للمسلمين أن ينشئوا مجالس نيابية بجانب ولى الأمر . وجاز لهم أن ينشئوا بجانب هذه المجالس أيضاً مجالس أخرى ، تراقب الأولى ، وتراجع ما تقرره ، تكون قراراتها أدعى إلى الطمأنينة ، وأقرب إلى السداد .

ويجوز للجماعة الإسلامية أن تطمئن إلى قرار أهل الذكر ، فتتصرف النواب فيمن ترى فيهم كفاءة في نواحي النشاط الاجتماعى ، كما يجوز لها أن تجعل الانتخاب حراً طليقاً ، تختار الأمة من تشاء ، إذا لم تجد حرجاً من ذلك .

كل هذا وغيره من الأمور التي لم يشأ الإسلام أن يدخل في تفاصيلها . بل تركها إلى ضمير الشعب ودينه وخضوعه لقواعد الإسلام الأساسية ، التي أمر بها من عدل ورحمة ، واحترام للحقوق الفردية والحقوق العامة والالتزامات والعبود .

\* \* \*

تلك هي القواعد العامة التي تباهى بها اليوم الديمقراطيات الحديثة ، وهي من مبادئ الإسلام الأولى ، التي لم تترك تحت رقابة الضمائر والنظم والقوانين فحسب . بل تحت رقابة الله العليا ، وهو الذى يعلم ما تخفى الصدور ، ويراقب المرء في سره وفي علانيته .

تلك هي ديمقراطية الإسلام . وهذا هو عمقها وأثرها في النفوس ، كأداة

تطهير لها . لا بالرياء والختل والخداع ، ولا بالمظهر والصورة . ولكن بالواقع والحقيقة وبحسن النية والإخلاص .

وإن الديمقراطية اليونانية بما فيها من حكم الفرد الصالح كالديمقراطيات الحديثة ، التي تفرعت عنها ديمقراطيات محلية لم تنهض بحال للمستوى العالمى ، الذى يليق بالديمقراطيات الإنسانية .

وأما الإسلام فالنظرة الإنسانية فيه كاملة .

فقد سوى كما بينا آنفا بين أفراد الإنسانية جمعاء ، لا فرق بين زنجى وغير زنجى . لا فرق بين عربى وغير عربى . لا فرق بين هاشمى وغير هاشمى . لا فرق بين أقارب الرسول وأقارب من عداه ، أو من عاداه ؛ إلا بالتقوى وبالمعمل الصالح .

ذلك هو العدل الإنسانى المطلق . فسمه بما شئت غير الديمقراطية فإنها كلمة كما نعرفها اليوم ضيقة لا تصفه ولا تحده .

وهو العدل الشامل الذى وقف بعض من لا يفهمونه حاجزاً دون انتشاره . ولكنه سينتشر يوماً ما ، حين يرق الإنسان ، وتزول عنه عصية الجاهلية .

وسأبقى يوم يوفق فيه الإنسان كإنسان . ويتسع أفقه . ويكبر عقله . وترتفع إنسانيته . فيتخلى عن قانون الغاب والظلم والاستبداد ، ويتمسك بقانون الإسلام ، قانون العقل والرحمة والعرفان .

ولم أن يأتى ذلك اليوم ، يوم الإنسانية السعيد ، فستظل الأرض مهلكة ومذبحة ، ومكان التطاحن والتنازع والحروب ، حتى تشتد الأزمة ، وتصف العاصفة ، وتضيق الأمور ، وتحلك الظلمات ، فتوقظ الشدة ، وتنهب القارعة ، فيؤمن بسبل السلام والإسلام ، ويحترم أخاه الإنسان .

وقفنا الله جميعاً للسداد ٩

# الإسلام والمدينة الحديثة

لصاحب العزة الكاتب الكبير الدكتور أحمد أمين بك

بما يؤسف له أن المسلمين لم يتابعوا النهضة الأوروبية منذ نشأتها ، ولم يكونوا يعرفون عنها شيئا ، إذ كانت البلاد الإسلامية مغلقة على نفسها لا تتصل اتصالا وثيقا بالعالم الأوروبي إلا عن طريق تجارة ضئيلة ، أو أحداث سياسية قليلة ، أما ما يجري في أوروبا منذ نهضتها من حركة علمية وصناعية ، ونهضة قومية ، وثورات لمطالب الشعوب بحقوقها ، ونحو ذلك ، فلم يكن المسلمون يعرفون عنه شيئا ، ولو أنهم عرفوا ذلك وجاروا الغربيين في نهضتهم لكان لهم شأن آخر .

إنما عرف المسلمون المدنية الغربية عن طريق سيء جدا ، وهو طريق الفتح والاستعمار ، عرفوا المدنية الغربية من صوت المدافع تفتك بهم ، وتغزو بلادهم فلا عجب إن كانوا قد قابلوها بكثير من الكره والبغض ، وكان ذلك طبيعياً ، ولو أن هذه المدنية تقدمت في شكل تقدم إنساني يصح أن يحتذى ؛ لقابلها المسلمون بكل أنواع الارتياح وسعة الصدر ، ولفتحوا قلوبهم كلها للاستفادة منها .

إنما أتهم في شكل حديد ونار ، واكتساح واستغلال ، ففزعوا منها وصدوا عنها .

نعم إنهم استفادوا منها كثيرا ، فاستخدموا مخترعاتها ، واقتبسوا كثيرا من معارفها وعلومها وصناعاتها ونحو ذلك ، ولكن كل هذا لا يساوى ما خسروه بسببها : لقد فقدوا بها حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وتقدمهم ، ولو تقدما بطيئا من داخل أنفسهم .

لقد كان طابع المدينة الحديثة طابعاً قومياً ، فكل أمة ترى الخير في مصلحتها الخاصة بها ، ولا تعترف بأى مصلحة لغيرها ، وتزعم أنها أحق بالسيادة على الأمم الأخرى المستضعفة ، وخدم العلم والأدب والتربية ، هذه النزعة القومية حتى بلغت القمة ، ونشأ عن ذلك مقياس أخلاق جديد ، وهوان ما كان في مصلحة الأمة فخير مهما ضر الآخرين ، وما ضر الأمة فشر مهما نفع الآخرين ، وساد في كل أمة أوروبية الشعور بالكره لغيرها والخوف من غيرها ، فانجلترا تكره ألمانيا وتخافها ، وألمانيا تكره انجلترا وتخافها ، وهكذا العلاقات بين الدول ، فان كان هناك مسالمة وتودد فأمر ظاهري فقط ، ورياء ونفاق لاجب ولا إخلاص ، وظل هذا هو الشأن في المدينة الحديثة من عهد أن تكونت القومية إلى اليوم .

وكل أمة أوروبية قوية تعبد المجد ؛ ومعنى المجد حب العظمة والسيطرة ، والاعتزاز بالقوة ، وكان من أثر هذا المجد عند كل أمة كبيرة رغبتها في أن تسيطر على أكبر رقعة من الأرض تستطيع السيطرة عليها ، وفي أن يكون لها مستعمرات أو ممتلكات واسعة فسيحة ، وهذا المجد القومى غير المجد الخلقى ، فالمجد الخلقى هو العمل على وفق القوانين الأخلاقية العالمية من عدل ووفاء وإحسان ونحو ذلك ؛ أما المجد القومى فهو سيطرة واستغلال وتسخير للأمم الضعيفة لمصلحة الأمم الكبيرة ، ولو اضطرها ذلك إلى إسالة الدماء البريئة ، وإذلال الأعزة ورفع شأن الأذلة ، وهذا ليس من الأخلاق فى شيء ؛ والسياسى الماهر فى المدينة الحديثة هو من استطاع أن يذل الأمم المحكومة ويكبت صوتها ، ويعلى من شأن أمته ويظهر سيطرتها .

ولما تغلبت الوطنية وحب المجد على أمم أوروبا وأمريكا تنافست فى السيطرة طلباً لهذه العزة الكاذبة ، فتسابقوا جميعاً للاستعمار ، وكان الاستعمار فى نظرهم هو إخضاع الأمم المستعمرة وإذلالها ما أمكن ، واستغلال مواردها ، وفتحها سوقاً لتجارها ومنافعها . ولا عبرة عندها بخلق أو فضيلة ، حتى لو رأت الأمة الفاتحة أن تجارة الخمر ، أو الأفيون ، أو المخدرات عموماً ، أو الرقيق الأبيض ،

أو نحو ذلك مما يفيد استعمارها ؛ لم تتورع عنه ، لأنها لا تقصد إلى سمو في الخلق ولا نبل في الفضيلة ، وإنما كل ما تقصد هو العزة القومية ، والمجد الكاذب ، بالمعنى الذى ذكرنا .

وليس هناك أى شعور إنسانى ، من الأخذ بيد الضعيف ، وتعليمه علماً نافعاً ، وترقيته والأخذ بيده ، حتى ينهض بنفسه أو نحو ذلك ، فهذا المعنى الإنسانى معدوم في نظر الاستعمار الغربى .

على هذه الأسس ، استُعمرت البلاد الإسلامية ، وتقسمتها انكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وغيرها ، وكانت كلها سواء في هذين الأساسين ، وهما تقييم المسائل حسب القومية ، لاحسب الإنسانية ، والعمل للجد القومى والمنفعة القومية ، بإذلال الأمم المفتوحة ، واستغلالها وإضعافها . فليست تقدم لها علماً إلا علماً ضعيفاً لإخراج موظفين يخدمون الاستعمار ، وليس هناك استغلال ثروة إلا لمصلحة الفاتح دون مصلحة المفتوح .

وهكذا أضعفت المدنية الأقطار الإسلامية ، واستنزفت أموالها ودماءها وأخلاقها من غير مراعاة لأى شعور إنسانى ، أو إخاء إنسانى ، أو عطف كبير على صغير ، أو مساعدة قوى لضعيف ، وليس هناك من فرق بين هذه الأمم إلا في الأسلوب ، لا في الجوهر والحقيقة .

ومما يستدعى العجب ، أن المدنية الحديثة كرهت الإسلام والمسلمين أشد كراهة ، بل إن كراهيتها للإسلام والمسلمين أشد من كراهيتها لسائر الأديان الأخرى ، من يهودية وغيرها ، بل أشد من كراهيتها للوثنية ؛ فهي تكره المسلمين أشد مما تكره اليهود ، وأشد مما تكره البوذيين وسائر الوثنيين ، وتظهر هذه الكراهية في سوء المعاملة وحب الانتقام ، وظلم ما يصدر عنها من أحكام ؛ وإذا كان هناك نزاع بين مسلمين وغير مسلمين وتدخلت المدنية الحديثة ، فإنما تتدخل للإيقاع بالمسلمين والتشكيل بهم ، يتجلى ذلك في حكم الانجليز للهند ، وتمييزهم في المعاملة بين المسلمين والهندوكيين ، وفي المظهر الحديث في النزاع القائم بين المسلمين واليهود إلى كثير من أمثال ذلك .

وعلة هذا تستوقف النظر ؛ فليست المسألة مسألة خصومة بين الإسلام والمسيحية ، ولو كان الأمر كذلك ، لكان المعقول أن يكون الإسلام أقرب إلى المسيحية من أى دين آخر ، وعلى الأقل أقرب إلى المسيحية من المسيحية إلى الوثنية ، فليس الأمر أمر دين غصب ، ولكن يظهر أن هذه الخصومة والكراهية ترجع إلى أسباب أعمق من ذلك ، منها ما خلفته الحروب الصليبية من الخصومة ، فقد أراد الصليبيون أن يستولوا على الأقطار الاسلامية ، وبذلوا في ذلك من الجهود الجبارة ما يعرفه التاريخ ، واستعملوا للتغلب على المسلمين كل الوسائل الصادقة والكاذبة ، فجمعوا كل قوتهم المادي ، ونشروا القساوسة كل ما استطاعوا من تضليل وكذب ، وافتراء على الاسلام ، حتى صوروا الاسلام وصاحبه أبشع صورة وأفظعها . فلما لم ينجحوا مع ما بذلوا من كل هذه الجهود عادوا وهم يحملون الحقد والضغينة على الإسلام والمسلمين ، وأورث السلف هذا للخلف .

هذا سبب ، وهناك سبب آخر ، وهو أن الاسلام أنجح الأديان في منافسة النصرانية بين الشعوب الوثنية ، على الرغم من ضعف التبشير في الاسلام ، وقلة ما يبذل من جهد في نشره ، ومع قوة التبشير في المسيحية ، وما يبذل في سبيل ذلك من جهود وأموال ، فهذا التنافس بين الاسلام القوى والمسيحية سبب كراهية ونفوراً ، لأن الكراهية والنفور ، تشتد بين الأقوياء ؛ أكثر مما تشتد بين قوى وضعيف .

ومن الأسباب أيضاً أن الاسلام يثبت في معتقيه العزة ، وأن تكون كلمة أهله هي العليا ، وكلمة غيره هي السفلى ، ويحث على مقاومة حكم الغير ، وعدم الخضوع للأجنبي ، وهذا ما يغيظ الاستعمار كل الغيظ ؛ وهل أذاك حديث زعيم فرنسي يعمل على تعليم العلوم باللغة العربية في بلاد المغرب ، لأن اللغة العربية وسيلة للإسلام ، والاسلام يناهض الاستعمار فإذا علمنا بالعربية ، فقد مكّنا من مناهضة حكم الأجنبي .

هذه الأسباب وغيرها هي التي حملت المدينة الحديثة على مناهضة الإسلام



والمسلمين ، والتشكيل بهم ، وإقفال طريق الرقى أمامهم ، وكان الواجب أن يشعر المسلمون بذلك كل الشعور ، فيزيدوا قوتهم ، ويبدلوا كل جهدهم لتكوين أنفسهم وإعلاء كلمتهم واستقلالهم بأنفسهم ، وادخار القوة لمحافظة القوة .

لقد فتح الاسلام كما فتحت المدنية الحديثة ، ولكن كان أساس فتحه نشر العدل والأخذ بيد المفتوحين ، والرقى بهم في سلوكهم وأخلاقهم ودينهم ، وأن لأهل الذمة من الحقوق ما للمسلمين ، ولكن الفتح الغربي فتحُ جبايه واستغلال ، لا فتح سمو في الأخلاق ، ولا نشر لمبادئ إنسانية ، ولا أخوة عالمية ، لا شيء من ذلك ، إنما هو فتح لأسواق تجارية ، واستعباد من القوى للضعيف ، ومن العالم للجاهل .

فليفتح المسلمون أعينهم ليروا كل هذا وليبنوا خططهم على أن لا أمل إلا في أنفسهم ، وإلا يبذل كل الجهد في تقويتهم مادياً وروحانياً ، وإلا يجمع كلمتهم ووحدتهم وهدم تفرقهم وتعاونهم التام للعمل أمام الخصم الذي يسعى للتشكيل بهم ، ووضع العراقيل في سنيل تقدمهم ، والله يوفقهم ؟

# الشخصية المحمدية

تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

طلب الدنيا فريضة على كل مسلم

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الاستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

يَصُمُّ الملحدون الأديان بأنها تصرف الناس عن الاهتمام بأمور دينهم ، فيكثر فيهم الزهاد المتقللون ، والعباد المتقشفون ، ادعاءً منهم بأن الغنى ينافي التقوى ، ويجافى المسكنة التي يجب أن تكون شعار المؤمنين ! وهذا لو صدق على أديان محرقة ، أو طوائف متطرفة ، فليس من الاسلام في شيء ، فلقد شهد التاريخ جملة وتفصيلاً بأن الاسلام ما حل بأمة في عهد نهضته الأولى إلا زاد ثروتها ، وعمر بلادها ، وأحيا موانئها ، فكان أهلها حيث حلوا حلت العدالة في الأحكام ، والمساواة في الحقوق ، ونشيط الناس لطلب بركات الأرض ، باستثمار سهولها ، واستخراج المعادن من حزونها ، حتى عمر غامرها ، وأخصب مجديها ، وازدهر عمرانها ، وتلايلات مدنيتهما ، وارتقت معارفها وصناعاتها ؛ ولست بمطلق القول 'جُزَافاً في هذا الموطن ، فهو من الحقائق التاريخية التي لا يمارى فيها إلا جاهل أو مكابر ، وهل بعد أن يشهد بذلك مؤلفو الفرنجة مكانٌ للشك والارتياب ؟ قال العلامة د دريبر ، المدرس بجامعة هارفارد ، بأمریکا في كتابه : « المنازعة بين العلم والدين » :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية ، أى بعد موت محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح ، إلى أن قال :

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رفقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً ( تأمل ) ، وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم . إلى أن قال :

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم ، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الري والتسميد ، وتربية الحيوانات ، وسنن النظم الزراعية الحكيمة ، وادخال زراعة الأرز وقصب السكر والبن . وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحريروالقطن ، وكانوا يذيبون المعادن ويمجرون فى عملها على ما حبسوه وهذبوه من سبكها وصنعها . ولما لندش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . الخ الخ ،

وقال العلامة (جيبون) المؤرخ الانجليزى المشهور عند ذكره للرعاية والحماية التى بذها المسلمون للعلوم :

« كان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس جامعة علمية فى بغداد ، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً ، وكان عدد طلبتها ستة آلاف لا فرق فيهم بين غنى وفقير ، الخ الخ ، .

وقال العلامة ( سِدْرُو ) أحد وزراء فرنسا فى كتابه ( تاريخ العرب ) :  
« كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون الجميلة ،

وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت منهم إلى أوروبا ، فكانوا هم سبب نهضتها وارتقائها .

« ولم يكتف المسلمون بأن يكونوا معلمين للأوروبيين ، وملقنين لهم النهوض والمدنية ، ولكنهم أسسوا في بلادهم جامعات ، وأقاموا مراصد ، باعتبار أنها كانت تحت سلطانهم ، فبقيت لأهلها بعد جلائهم ، وأثمرت ثمراتها الياقوتية لهم . »

وقال العلامة ( دربير ) السابق ذكره :

« أول مدرسة أنشئت للطب في أوروبا هي المدرسة التي أسسها العرب في ( بالرم ) من إيطاليا ؛ وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون في أشيلية بأسبانيا ، ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رققوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً ، وأوجدوا علوماً أخرى لم تكن موجودة من قبلهم . »

إننا نستأنس بهذه الأقوال عن علماء الفرنجة المعاصرين لنسدل قراءنا على أن الإسلام قد أحدث انتقالاً عالمياً من ناحيتي العلم والمدنية لم تكن لتعلم به الإنسانية في عهد من عهودها السابقة ؛ فهو ليس بدين خنوع واستكانة ، ولكنه دين ترق عقل ومدنى لا يقف عند حد ، وهذا كله يرجع إلى الروح العلوية المحمدية التي قهت مرأى الوحي الإلهي ، فأدركت كيف يمكن أن يجمع المسلمون بين العقائد الصحيحة والسيرة القويمة المؤديتين إلى أرقى مراتب الحياتين الروحية والمادية ، وبين الخلط والخطب في المدرجات الدينية ، حتى تسقط بأهلها إلى حضيض المهانة ، فتكون سبباً لهما في هلاكهم أديباً واجتماعياً ، ولهما في خروجهم على الأديان باعتبار أنها تودى بذويها إلى حياة الصغار والذل ، وتقذف بهم إلى هوة الانحلال والتلاشي .

احتاط النبي صلى الله عليه وسلم لوقاية أمته من التأدي إلى هذه النهاية فأيقظ فيهم روح العمل لطلب الدنيا إلى جانب نشاطهم لاقامة الدين عملاً بقول الله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين ، » ، فالتأمل في

أحاديثه الكريمة يدرك لأول وهلة ، مما يراه فيها من المبالغة في التحفيض على العمل الدينى ، أنه يرمى إلى غاية سامية كل السمو ، وهو أن يحصى المسلمين من الضعف المادى الذى يصيب الغالين فى الدين ، فيكون ذلك سبباً لتدهور الأمة ، وصدًا لها عن بلوغ الغايات القصية من الوسائل المادية الضرورية لمتابعة ترقىها إلى المثل العليا للحياتين معا .

لقد انتقل المسلمون طقرة ، بفضل حكمة القرآن الكريم ، وسمو قيادة محمد صلى الله عليه وسلم للنفوس ، من جاهلية جهلاء ، إلى إيمان راسخ رسوخ الأطواد ، وحب للتعبد ونيل الدرجات الروحية ، فاقوا فيها الذين توارثوا الدين والكتب السماوية أجيالا كثيرة ، حتى آثروا أن يشاركوا النبي فى تهجده بالليل ، ومنهم من حرموا على أنفسهم الطيبات ، ومن شرعوا يصومون الدهر ، فكان صلى الله عليه وسلم يعدل من غلوهم فى ضروب العبادات ، ويلطف من تشددهم فيها ، لما كان يخشاه من أن إثارهم للعبادة إلى هذا القدر ، يحد من نشاطهم للقيام بالآعباء المادية ، والمهام العلمية والصناعية ، التى لا يحصى عنها لامة اختيرت لأن تبلغ أرقى ما يمكن الوصول اليه من الناحيتين الدينية والدينية ، فلذلك أكثر من حضمهم على طلب الدنيا ، واعتبر مثوبة العمل لها مساوية لمثوبة العمل للأخرة . وبدأ فوضع أصلا لهذه الوجهة فقال صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » ، وهى كلمة لم تؤثر عن أى مصلح دينى فى الأرض ، لأنه أدرك بسمو عقله ، وعلو تفكيره ، أن الإنسان فى هذا العالم المادى لا يستطيع أن يبلغ درجة الكمال الروحى والعقلى إلا إذا أمن غوائل الحاجة ، وهى لا تؤمن إلا بالعمل الجئانى ، وأنه كلما ازداد أمنا من هذه الناحية ازداد نشاطه الروحى ، وادراكه العقلى ؛ فأشاد لهم بثواب العمل للدنيا ، لإشادته بثواب العمل للأخرة ، دفعا لهم إلى طلب مقومات الحياة الاجتماعية ، ومن يتأمل فى أحاديثه المروية عنه فى هذا الباب ، يجد ما يدهش له ، ويتضح له بُعد مدى ادراكه لعوامل الارتقاء فى الشعوب ، وسمو فهمه لمقومات

ال عمران ، ولعلاقة هذا العمران ببقاء الدين الذي يدعو اليه ، وبمناعة المجتمع الذي يعيش في ظلاله .

بحسب الداعى إلى دين أن يُجَل طلب أهله لما يقيم جماعتهم من تكاليف الحياة ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكتف بذلك ، بل جعل لطلب هذه المقومات ثواباً يساوى ثواب المجاهدين في سبيل الله . فأول ما فعله في هذا الموضوع أنه جعل طلب الحلال فريضة يأثم تاركها ويحاسب عليها فقال : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » . ثم شرع يدعو إليه بعبارات مؤثرة تشعر بمحالة خطره ، فقال : من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالة في عفاف كان في درجة الشهداء ، وزاد في الدعوة اليه حتى فضله على نوافل العبادات فقال : « العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال » . بل قال : « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهثم في طلب المعيشة » .

ورفع من قدر أما كن المبادلات ، ومحال المبايعات فقال : « الأسواق موائد الله تعالى ، فمن أتاها أصاب منها ، فأى ورع يمنع من غشيان الأسواق بعد هذا ؟ وقال مشيداً بالكد في طلب العيش : « من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له ، وأصبح والله عنه راض ، ومن ذا الذي لا يحب أن يصبح على هذه الحال ؟ يرى القارىء مما سردناه عليه من هذه الأحاديث سمو إدراك محمد صلى الله عليه وسلم لمقومات الحياة الإنسانية ، وشمول نظره لعوامل ارتقاء الجماعات البشرية ، وإيصالهم إلى المثل العليا من الكمالات المادية والمعنوية ، وقد فهم المسلمون الأولون مراميهِ البعيدة صلى الله عليه وسلم فجدوا للحصول على الحسنيين معا ، فبأنوا من التدين إلى ما لا يروى عن سواهم من الاخلاص والورع ، ومن المدنية المادية إلى ما لم تدانهم فيه أعرق الأمم في الحضارة ، حتى شهد متمدنو هذا العصر من الغربيين أن المدنية المادية التي وصلوا إليها لا تقل عن المدنية العصرية رونقا ولآلاء ، فقال الأستاذ ( دربر ) في مؤلفه ( المنازعة بين العلم والدين ) :

« لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقاً ، ولا أرق مدنية ، ولا ألطف رونقا

من عواصم الأندلس على عهد العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار ، ومبلطة بأجل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبسط ، وكانت تدفأ شتاءً بالمواعد ، وتهوى صيفا بالنسيمات المعطرة بوساطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرا ، وكانت لهم حمامات ومكتبات ، ومحال للغذاء ، وينابيع مياه عذبة . الخ .

قال المؤلف نفسه مقارنا مدائن الأوربيين بمدائن المسلمين : « في هذا العهد كانت البيوت في باريز ولوندره تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن لها نوافذ ولا أرضيات خشبية ، أما الأبسطه فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرا ، إلى أن قال :

« وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون أحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تنصاعد منها روائح قاتلة . الخ .

هذا غيظ من فيض ، ولولا كراهة الإطالة لأمعنا في الكتابة ، فعذرة ؟

## علويات

سئل الإمام على كرم الله وجهه في فداء أسرى المسلمين من أيدي المشركين ، فقال : « فادُّوا منهم من كانت جراحاته بين يديه دون من كانت من وراءه فإنه فار » .

واوصى رجل إلى آخر أن يتصدق عنه من هذه الألف دينار بما أحب ، فتصدق بعشرها ، وأمسك الباقي ، فخاصموه إلى على رضي الله عنه ، وقالوا : تأخذ النصف وتعطينا النصف ، فقال : أنصفوك ! قال : إنه قال لي : أخرج منها ما أحببت ، قال : فأخرج عن الرجل تسعمائة والباقي لك ! قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأن الرجل أمرك أن تخرج ما أحببت ، وقد أحببت التسعمائة فأخرجتها !

# بَيَانُ لِلْمُسْلِمِينَ

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير  
الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

اطلع القراء على ما نشرناه من قبل لبعض العلماء من استعظام  
مهمة التغريب ، وتوهم استحالتها ،

وقد جاد فكر الإمام العلامة شيخ الفريضة ، وكبير مجتهدى  
الشيعة بهذا البيان الناصح ، الذى يفيض إخلاصا وإيمانا ، كما  
يفيض ألمعية وعلما ، ونحن إذ ننقصره دفاعا عن فكرة الحق ،  
وجما للمسلمين على كلمة الإيمان ، نسأل الله تعالى أن يطيل حياة  
الشيخ ، ويبارك فيها للاسلام والمسلمين .

قال دامت بركاته :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلنى العدد الأول من السنة الثانية من مجلة رسالة الإسلام الزاهرة التى  
تصدرها جماعة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة ، ونظرت حسبا  
سمع لى الوقت والفراغ فى أكثر ما نشره الأعلام فيه من المقالات ، فما وقع  
بصرى منه إلا على النافع الشهى بما لذ وطاب ، من أقلام أولئك الكتاب ، بيد  
أنى شعرت من بعض ما نشر فى آخر هذا العدد ، وبعض الأعداد السابقة ، أن  
جماعة من ذوى الفضل لم يصلوا إلى ما يهدف له أعضاء هذه الجماعة الأماثل ،  
وحيث ضلوا عن قصد السبيل ، وجدوا أن حصول غرض الجمعية من المستحيل



نعم إنه لمن المستحيل إن لم يكن عقلا فعادة ، إذا كان الغرض هو إزالة الخلاف بين المذاهب الإسلامية ، وجعلها مذهباً واحداً سنياً فقط أو شيعياً أو وهابياً ، كيف واختلاف الرأي والخلاف في الجملة طبيعة ارتكازية في البشر ، ولعل إليه الإشارة بقوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » أى للرحمة أو للاختلاف على الخلاف .

ولكن ينبغي أن يكون من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلامية إزالة أصل الخلاف بينها ، بل أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سبباً للعداء والبغضاء ، الغرض تبديل التباعد والتضارب ، بالإخاء والتقارب ، فإن المسلمين جميعاً مهما اختلفوا في أشياء من الأصول والفروع فإنهم قد اتفقوا على مضمون الأحاديث المقطوع عندهم بصحتها من أن من شهد الشهادتين واتخذ الإسلام ديناً له ، فقد حرم دمه وماله وعرضه ، والمسلم أخو المسلم ، وأن من صلى إلى قبلتنا ، وأكل من ذبيحتنا ، ولم يتدين بغير ديننا فهو منا ، له مالنا وعليه ما علينا .

إن « جمعية التقريب » لعلها تقول : المسلمون بعد اتفاقهم كلمة واحدة على أن القرآن العزيز وحى من الله جل شأنه وأن العمل به واجب ، ومنكر كونه وحياً كافر ، والقرآن صريح في لزوم الاتفاق والإخاء والنهي عن التفرق والعداء ، وقد جعل المسلمين إخوة فقال عز شأنه : « إنما المؤمنون إخوة » . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » . إلى كثير من أمثالها ، فبعد اتفاقهم على وجوب الأخذ بنصوص الكتاب الكريم فأى عذر لهم في هذا التباعد والتباغض والعداء والبغضاء ، وكفى بالقرآن جامعاً لهم مهما بلغ الخلاف بينهم في غيره ، فإن رابطة القرآن تجمعهم في كثير من الأصول والفروع ، تجمعهم في أشد الروابط من التوحيد والثبوت والقبلة وأمثالها من الأركان والدعائم واختلاف الرأي فيما يستنبط أو يفهم من القرآن في بعض النواحي ، اختلاف اجتهادى لا يوجب التباغض والتعادى .

نعم أعظم فرق جوهرى ، بل لعله الفارق الوحيد بين الطائفتين : السنة ،  
والشيعة ، هو قضية الإمامة حيث وقع الفرقان منها على طرفى الخط ، فالشيعة  
ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين ، وهى رديفة التوحيد والنبوة ، وأنها  
منوطة بالنص من الله ورسوله ، وليس للأمة فيها من رأى والاختيار شئ ، كما  
لا اختيار لهم فى النبوة بخلاف إخواننا من أهل السنة ، فهم متفقون على عدم  
كونها من أصول الدين ، ويختلفون بين قائل بوجوب نصب الامام على الرعية  
بالاجماع ونحوه ، وبين قائل بأنها قضية سياسية ليست من الدين فى شئ . لا من  
أصوله ولا من فروعها ، ولكن مع هذا التباعد الشاسع بين الفريقين فى هذه  
القضية ، هل تجد الشيعة تقول إن من لا يقول بالإمامة غير مسلم ( كلا ومعاذ الله )  
أو تجد السنة تقول إن القائل بالإمامة خارج عن الاسلام - لا وكلا - إذن فالقول  
بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالجماعة الاسلامية وأحكامها من حرمة دم المسلم  
وعرضه وماله ، ووجوب أخوته ، وحفظ حرمة ، وعدم جواز غيبته ، إلى كثير  
من أمثال ذلك من حقوق المسلم على أخيه .

نعم ونريد أن نكون أشد صراحة من ذلك ، ولا نبقى ما لعله يعتلج أو يختلج  
فى نفس القراء الكرام . فنقول : لعل قائلًا يقول إن سبب العداء بين الطائفتين  
أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم ، وقد يتجاوز البعض  
إلى السب والقدح مما يسمى الفريق الآخر طبعاً ويهيج عواطفهم . فيشتد العداء  
والخصومة بينهم .

والجواب أن هذا لو تبصرنا قليلا ورجعنا إلى حكم العقل بل والشرع أيضا  
لم نجد مقتضياً للعداء أيضا .

أما ( أولا ) فليس هذا من رأى جميع الشيعة وإنما هو رأى فردى من  
بعضهم ، وربما لا يوافق عليه الاكثر . كيف وفى أخبار أئمة الشيعة النهى عن  
ذلك فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة بعض المتطرفين منهم .

( وثانيا ) أن هذا على فرضه لا يكون موجبا للكفر والخروج عن الإسلام .

بل أقصى ما هناك أن يكون معصية ، وما أكثر العصاة في الطائفتين . ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً .

( وثالثاً ) قد لا يدخل هذا في المعصية أيضاً ولا يوجب فسقاً إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد ، وإن كان خطأ ، فإن من المُتَسَلِّمِ عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للخطيء أجراً وللصيب أجرين . وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرها ، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وهم وإن أخطأوا في اجتهادهم ، ولكن لا يقدح ذلك في عدالتهم وعظيم مكاتبتهم . وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دماهم ، فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه — أى مع الاجتهاد — تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة .

والغرض من كل هذا أننا مهما تعمقنا في البحث ومشينا على ضوء الأدلة عقلية أو شرعية ، وتجردنا من الهوى والهوس والعصبيات ، فلا نجد أى سبب مبرر للعداء والتضارب بين طوائف المسلمين مهما اتسعت شقة الخلاف بينهم في كثير من المسائل .

هذا كله بالنظر إلى القضية من حيث ذاتها مجردة عن كل الملابسات ، فكيف إذا نظرنا إليها من حيث ما جرّه هذا الخلاف والعداء من الولايات والبلديات على المسلمين ، وما ضاع على أثره من الممالك الإسلامية الكبرى كالآندلس والقوقاز وبخارى ونحوها ، ولو أن المسلمين كانوا في تلك الظروف يداً واحدة كما أمرهم الله ، لما انتزع من الإسلام شبر واحد . وإذا لم يكفنا عبرة ما سجله التاريخ من تلك الفجائع فليكنفنا ما رأيناه بأعيننا من رزية المسلمين بفلسطين وهي الفردوس الثانى ؛ سبع دول عربية إسلامية كما يزعمون تغلب عليها عصابة من أذل الأمم مشهداً وأقلمهم عدداً . ثم يمزقون تلك الدول شرمزق . يشردون تسعمائة ألف مسلم بل أكثر من عرب فلسطين فيملكون دورهم وقصورهم وأراضيهم وأموالهم ، ويضعونهم في البرارى والقفار ، تحت رحمة الأقدار . يفكك بهم البرد والجوع

والمرض ، والمسلمون يسرحون ويمرحون لا ينصرونهم إلا بالكلمات الفارغة ، والتأوهات الكاذبة . أما والله لو أن تلك الدول تركت عرب فلسطين يحاربون اليهود بأنفسهم لما استطاع اليهود أن يتغلبوا على قرية من قراهم أو قطعة من أراضيمهم . لم يكتف المسلمون بخذلان اخوانهم وتسليمهم إلى اليهود ، بل كانوا ولا يزالون حتى اليوم عوناً لليهود ، يساعدونهم بكل ما في وسعهم من تهريب وغيره ؛ بل يصنعون لليهود ما لا يصنع اليهود لأنفسهم ؛ كل ذلك من آثار التقاطع والتخاذل بين المسلمين ؛ فلا جامعة تجمعهم ولا رابطة تربط بعضهم ببعض ، وتعطف بعضاً على بعض ، لذلك حقت عليهم كلبة العذاب ، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين .

نعود فنقول إن جمعية التقريب تريد أن تقرب بين الطوائف الإسلامية وترفع العداء المستحكم بينهم ، وتدعوهم إلى الأخذ بما أمرهم الله به من الاعتصام بحبل الإسلام ، وأن لا يفرقوا ويتنازعوا فتذهب ربحهم ، ويتسلط عليهم أذل عباده وأرذل خلقه ؛ وليست هذه الفئة المباركة بأول من نهض بهذه الدعوة وقام بهذه الفكرة ، بل سبقهم إلى ذلك جماعة من المخلصين الغيارى على الإسلام والمسلمين كالسيد الأفغانى وتليذيه الشيخ محمد عبده والكواكبي وغيرهم ؛ سوى أن هؤلاء كانت دعوتهم بصفة فردية ، ورجال التقريب قاموا بها بصفة جمعية ؛ ولعل الحق جل شأنه بعنايته إذا علم بإخلاصهم وصدق نياتهم يجعل لدعوتهم ثمراً جنياً ، وأثراً حسياً .

أما هذا العاجز فقد أهبتُ بالمسلمين وصرختُ فيهم بهذه الدعوة منذ عهد سحيق كما تشهد بذلك مؤلفاتنا التي طبعت قبل زهاء أربعين سنة ، كالدين والإسلام والمراجعات وغيرها . ثم ملأنا الصحف والمجلات بإيقاظهم من نومهم ، وبعثهم من موتهم ، وألقينا مئات الخطب على المنابر في عواصم الإسلام ، وقد طبع عدة منها كخطبة فلسطين التاريخية ، طبعت مرتين ؛ وخطبة الاتحاد والاقتصاد في جامع

الكوفة والخطب الأربع إلى كثير من أمثالها ؛ ولكن كان الله ختم على قلوبهم  
وذهب بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

\* \* \*

جماعة التقريب تريد أن تقرب بين الطوائف الإسلامية وتبشهم وتحمهم على  
الأخوة والوحدة التي أمرهم الله بها في كتابه العزيز ، ولكن يلزمهم ويلزمنا  
تمهيداً لهذه الغاية الشريفة أن ينصحوا لإخوانهم من الكتاب وحمله الأقلام  
في مصر أن لا يتحرشوا ويطعنوا بإخوانهم الإمامية ، فما يكاد يأتي عام إلا ونسمع  
أو نرى كتاباً أو رسالة من مصر ترمى الشيعة بالفضائح وتهجم عليهم بالمطاعن ،  
وبحكم الضرورة يلتجئ هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم فتثور الاحتقادات ، وتستمر  
الحفاظات ، وتكون أكبر خدمة للأعداء والمستعمرين ، كما أن اللازم على كل فرقة  
من المسلمين ، من الشيعة وغيرهم أن يوصدوا باب المجادلات المذهبية ، وما يثير  
الحفاظات والعصية ، فإنها إن لم تكن محرمة بنفسها ، ومضرة بذاتها ، فهي من أعظم  
المحرمات في هذه الظروف التي أحاط بنا فيها الأعداء أعداء الإسلام من كل جانب  
ومكان حتى من المسلمين ومدعى الإسلام العدو الداخلي الذي ضرره أعظم من العدو  
الخارجي فهل في هذا كفاية وبلاغ أيها المسلمون .

قل هذه سبيل أدعو إلى الله . على بصيرة أنا ومن اتبعني . وسبحان الله وما  
أنا من المشركين .

# نظم الحكم كما يرها الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى بك

عضو جماعة كبار العلماء والإمام الخاص للحضرة الملكية

قال الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ، وقد يكون ذلك الدمار الذى خلفته حروب دامية ، ومساجلات مستمرة بين الجماعات والشعوب خلال ذلك الجزء الأول من هذا القرن فاتحة عهد تنعم فيه البشرية ، إن لم يكن برخاء مادى فعلى الأقل براحة روحية بعد تلك الأزمات النفسية ، والهزات العصبية التى اجتاحت الأمم والأفراد ربع قرن أو يزيد ، وقد تنبه الإنسانية بعد عظيم الكوارث التى مرت بها إلى العمل على تفادى صراع آخر لا يعرف مصدره ولا مورده ، ولا يدرك أوله ولا آخره ، والله يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، وإن له فى كل ذلك لمقصداً وحكمة ، وإنه لينتلى بالحسنات والسيئات لعل العالم يرجع عن غيه حين يدرك أن وراء تقديره تقديرا ، ووراء سلطانه سلطانا لا يغلب ولا يقهر ، وفوق منطق الضعيف الذى ينظر للحوادث وللعالَم نظرة فردية نفعية ، منطق المدبر الأعظم للكائنات ، وهو ينظر إليها فى مجموعها وتباين أزمانها ، وتغاير أمكنتها على أنها وحدة متكافلة فى خيرها وشرها ، مهما ضوّل فى نظر الناظر أفرادها .

وقد بدأ العالم يرسل الصيحة إثر الصيحة مبشرا بنظام عالمى جديد غير ذلك العالم المعزق الأوصال ، المهلhel النسيج ، الذى لم يعرف - رغم تقدمه المادى فى خلال ربع القرن الأخير ، تقدما سيطر به على أصغر شئ فى الوجود ، وغير به ، وسيفير ، مجرى الحياة للأفراد والجماعات - إلا التعاسة والشقاء والخراب والدمار والفوضى

التي كادت تهد بنيانه من القواعد ، وإلا صرخات مُغلب فيها الضعيف على أمره ، وأطل منها الشيطان بقرنه يقرع الحق بالباطل ، وقد ضاعت صرخات الشعوب في حطب استقلالها ، وتبددت في غمرة من شهوة التوسع والاستعمار ، التي أظلت الاقوياء بمن ييدهم الحول والطول ، وتعطلت خطوات التقدم نحو الغاية المنشودة .

هذا هو التصوير الحقيقي لما عليه العالم اليوم ، وهذا هو التصوير الحقيقي لما كان عليه العالم يوم أشرق عليهم ذلك النور الإلهي يحمله محمد عليه الصلاة والسلام هداية للناس ، وليؤلف به بين تلك الزمر المتحاربة في أخوة واحدة ، لاني وطن واحد بل في جميع العالم ، ومحا الفوارق بين الاجناس والالوان واللغات والحدود الجغرافية ، وبين العقائد المختلفة ، وأخى بين البشر جميعا ، حتى ليسكاد قلب أهل المشرق البعيد يخفق إذا ما اهتز قلب المغرب الاقصى ، ولم يتسام إلى المركز الذي شغله الاسلام في تلك الناحية أى دين آخر ، بل إن النظم التي خلفتها بعض الأديان كانت تعمل على الفرقة والانهيال ، بدل الاتحاد والتعاون ، ففكرة إدماج البشرية في وطن واحد دون الاهتمام بالاجناس والالوان واللغات أو التقيد بالحدود الجغرافية ، هي الهدية التي قدمتها جامعة الإسلام إلى المدنية البشرية ، وهي البلمس الوحيد لشفاء تلك الأحقاد الدولية والعداوة البغيضة اللتين ساقنا المدنية والحضارة إلى هوة سحيقة لا يعرف غورها ونهايتها إلا عالم الغيب والشهادة .

فالإسلام هو الدين الدولي العام ، الذي يجمع بين الغربي والشرقي ، والأبيض والأسود ، والآري والسامي ، والهندي والزنجي ، ينال كل نصيبه في الحياة والتقدم ساعة ينطق بالشهادتين ، ويقف جنباً إلى جنب مع أعظم إخوانه مقاماً ومكانة اجتماعية ، فالجنس البشري في نظره أسرة واحدة ، من الناحية النظرية والناحية العملية .

تلك مقدمة عن الفكرة التي يقوم على أساسها الإسلام ، ومعدرة إن كنا قد أطلنا في تقديمها ، فهي مقدمة ضرورية ، لفهم الفكرة العامة في نظرية الخلافة الإسلامية ، التي هي أساس الحكم الإسلامي ، ومنها تستمد جميع السلطات في الإسلام ، كيانها العملي التنفيذي ، فالخلافة في نظر الإسلام رياسة عامة

لشئون المسلمين ، وهنا نقطة جديرة بالتنبه ، ذلك أن بعض العلماء يفترض العالم كله داراً واحدة ، والخلافة تشبه أن تكون حكومة عالمية ، ووجود أمم أو شعوب لا تدين بالإسلام ، لا يمنع من أن تكون تلك الشعوب والأمم خاضعة لتلك الحكومة العالمية ، فليس من شرط الاندماج في ظل حكومة ، أن يكون جميع المنضوين تحت لوائها من دين واحد ، ومعنى الحكومة العالمية في الخلافة على ذلك الرأي واضح جداً .

وهذه الحكومة العالمية هي التي يحاول الدعاة جاهدين تهيئة الرأي العام العالمي لها ، مع اختلاف الأشكال والصور ، ولكن النتيجة المحتومة واحدة ، لا بل إن الدول بدأت تظهر محاولات جدية عملية للوصول إلى فكرة كهذه ، وما محاولات الكتلة الإقليمية ، وبرلمان الدول الغربية ، وحلف الأطلسي ، إلا محاولات جزئية للسير إلى تلك الغاية التي أوضحها الإسلام نظرياً وعملياً ، ومن قبل حاول مكيا فيلي من كتاب القرون الوسطى ، أن يصور في كتابه ( الأمير ) ما يجب أن يكون عليه الملك العالمي ، ووضع الدوافع التي تدعوه إلى المناداة بهذا الرأي ، ولنا نسبق الحوادث ، فنقول : إن ذلك واقع لا محالة ، ولكننا أشد تفاؤلاً اليوم منا أمس ، بأن فكرة العالمية ، والوطن العالمي ، هي المصير المحتوم للعالم ، والترياق الوحيد لشفاء تلك الأمراض المستعصية .

فالإسلام قد قدم العلاج للتخلص من شرور الحكومات التي عرفتها الأمم التي تدعى لنفسها القوة والقلب ، فبعد أن وضع الأساس للأخوة البشرية ، وللحكومة العالمية كما أسلفنا ، وضع شكل الحكومة ، بحيث يدفع مساوئ الحكومات الأخرى ، فالفاشية تخبرنا في كلمات مختصرة ، أن الحكومة هي الكل في الكل ، وما الفرد فيها إلا عبد يعمل وفق مشيئتها .. والبلشفية : شر من هذا ، فهي تعمل إلى أقصى حد على تطبيق النظرية الفاشية ، فتسلب الإنسان حريته وماله .. أما الديمقراطية فإن ادعاءاتها كنظرية ترن في الآذان الرنين الحلو ، ولكنها عند التطبيق العملي تصبح شراً من أختها السالفتين ، فهي تستعبد — مسترة بأسماء مختلفة — أكثر من نصف الجنس البشري ، لا لجريرة إلا ضعفه .



وأهملت في ظلال هذه الحكومات القيم العليا للحياة ، فالوطن والحكومة هما الصنمان الجديدان اللذان خسر الإنسان المتحضرهما ساجداً ، وانضم اليهما المال فأصبح المال ، والوطن ، والحكومة ، أصحاب المكان الاسمي في قلب الرجل المتحضر، وعندها بعد ما صنعها وخلقها بيديه ، وبعد أن كان الغرض من الحكومة أن تبطل اضطهاد الناس للناس ، وأن تقر العدالة بينهم ؛ أصبحت الحكومات أداة ظلم واضطهاد ، وما دام في قبضتهم قوة وقنابل فلم الحق في بسط سيادتهم على الدول الأخرى لكسب المغنم المادية والاقتصادية لدولتهم ، فأصبحت النتيجة أن قوات الحكومات المتزايدة التي كان عليها أن تعمل لخير الأفراد ، أضحت تستخدم في استرقاق الناس وإيقاع الظلم بهم ، أكثر مما تستخدم لإنقاذهم من الظلم ونشر الحق والعدل بينهم ، والاسلام يقلب هذه النظريات الخاطئة ، ويضع أساس حكومة عادلة لخير البشر ويضع السلطة الحكومية في أيدي رجال يخافون الله ويخشونه ، فإحقاق الحق ، وخشية الله سبحانه وتعالى ، ورعاية حقوق الناس ، أهم الصفات اللازمة للحاكم الذي يتولى أمور الناس ، وإن القوة الروحية وحدها هي التي تمكن الانسان من السيطرة على القوة التي تمدده بها السلطة الدنيوية ، وبغيرها تكون السلطة الدنيوية في خطر .

ولهذا بلغت الإدارة الحكومية الإسلامية في صدر الإسلام - وهي التي جمعت بين القوة الروحية والدنيوية - حداً من الكمال لم نر مثله في تاريخ الحكومات ، وكان رئيس الحكومة يعتبر نفسه مسئولاً أولاً أمام الله ، وثانياً أمام موكله أو مستأجره - كما عبر أبو العلاء المعري في قوله : « وعدوا مصالحها وهم أجراؤها ،

ولكن ليس معنى ذلك ما فهمه البعض من أن حكومة الإسلام كانت حكومة - ثيوقراطية - أي حكومة دينية ، رؤساؤها هم رؤساء الدين ، فإن رؤساء الحكومات الإسلامية لم يدر بخلدكم أنهم يمثلون الله في الأرض ، ويستدعي بسط تلك الفكرة مقاماً آخر نعرض لها فيه ، كما نعرض لتفصيل ما أوجعنا عن الخليفة ، في الحديث القادم إن شاء الله ؟

# أصول الفقه للشيعة الإمامية

## بين القديم والحديث

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

يحتل علم أصول الفقه في جامعتي النجف وقم، المكانة الأولى بين سائر العلوم التي تدرس فيهما، فذو الشهرة بالفضل والتحقيق، وصاحب الحلقة الكبرى للتدريس، ومرجع الطلاب إذا احتدم بينهم النقاش والجدال، هو من أئمة أصول الفقه، وحقق فيها، وأحاط بها أصلاً فأصلاً.

وكل عالم أو طالب جاد لا بد أن يؤلف ويكتب في الأصول، فكان من نتيجة هذا الاهتمام أن تطورت مباحث هذا العلم، وأدخل عليها تعديلات ونظريات حديثة ظهرت آثارها في مخالفة الأواخر للأوائل في كثير من الأحكام الشرعية التي ترتبط بأصولها ارتباط المعلول بالجزء الأخير من علته.

ولا يتسع لنا المجال لشرح جميع النظريات الحديثة والمقارنة بينها وبين مآذبه إليه المتقدمون، لهذا اكتفينا بشرح البعض مع الإشارة إلى بعض القواعد الأخر التي ننتبه إليها.

أصول الفقه علم يبحث فيه عن مفاد مصادر التشريع الذي يحدد أفعال المكلفين من رجحان الفعل أو الترك أو تساوي الطرفين، وتقسّم مباحث الأصول إلى لفظية وعملية، واللفظية ما يبحث فيها عن مفاد هيئة اللفظ منظوقاً ومفهوماً، ولغاية تفهّم ما تضمنه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي، وصيغ العموم، وملا

إلى ذلك مما له دخل في استنباط الأحكام الشرعية من مداركها ، وأنه هل للشارع في ذلك حقائق خاصة تخالف أفهام العرف العام ؟

أما المباحث العملية فيبحث فيها عن الأصل الذي يرجع إليه المكلف إذا لم يصل إليه الدليل الشرعي من إجماع أو نص ، أى لو فقد المكلف الدليل فماذا يجب عليه شرعاً ؟ فالأصل العمل بين وظيفة الجاهل بحكم واقعة من الوقائع بسبب فقدان الدليل على نحو لو طبق المكلف عمله على مؤدى الأصل المقرر له لكان معذوراً عند الله والناس غير مستحق لعقاب ولا عقاب إن خالف عمله الواقع ، شريطة أن لا يلجأ إلى هذا الأصل إلا بعد اليأس من العثور على دليل الحكم ، ومعلوم أن هذا اليأس لا يحصل للمكلف إلا بعد أن يبذل أقصى ما يمكنه من جهد متبعاً الآيات القرآنية ، وكتب الحديث ، ومؤلفات الفقهاء وفتاويهم ، ومتى تهاون في البحث والتتقيب امتنع عليه العمل بالأصل لارتفاع موضوعه .

فالفرق بين الأصول اللفظية والعملية من وجهين ، الأول : أن البحث في الأول يرجع إلى مفاد النص الشرعي بعد ثبوته وتحققه ، وفي الأصول العملية يرجع إلى وظيفة المكلف المتحير الذي لم يصل إليه الدليل . الثاني : أن مدرك الأصول غير اللفظية قد يكون العقل ، كقاعدة قبج العقاب من غير بيان ، وهي دليل البراءة ، وقاعدة الشغل اليقيني يستدعى الفراغ اليقيني ، وهي دليل الاحتياط وقد يكون مدركها الشرع ، كحديث « لا تنقض اليقين بالشك » وهو دليل الاستصحاب ، أما مدرك الأصول اللفظية فالعرف العام ، وافق اللغة أم خالفها ، فانه المنبع في المحاورات ، ولا يقدم عليه شيء سوى الحقيقة الشرعية على تقدير ثبوتها ، وينبغي الانتباه إلى أن العرف حجة متبعة في تشخيص المعنى العام ، لا في تطبيقه على أفراده الخارجية ، لأن العرف يتسامح في التطبيق ، وخاصة في الأوزان والمكاييل ، والمساحات ، فهو لا يشتبه أبداً في معنى الساعة ، وأنها ستون دقيقة ، ولكنه يطلق لفظ الساعة على مسافة دون الستين أو أكثر منها .

من هذه التفرقة بين اللفظية والعملية يتبين أن التقليم والتطعيم في الأصول العملية أكثر منهما في الأصول اللفظية حيث يتسع مجال العقل لتلك دون هذه .

### الشبهة المصداقية :

فن النظريات الحديثة في الأصول اللفظية : النظرية المعروفة بالشبهة المصداقية وحصلها أن صيغ العموم تدور كثيراً على ألسنة العرب ، وقد امتلأ بها الكتاب والسنة ، وجاءت فيهما مورداً لأوامر الشارع ونواهيها ، وقد تبقى هذه الصيغ على ما هي عليه من غير تخصيص ، وحينئذ يسرى حكمها إلى جميع أفراد العام ، وكثيراً ما تخصص بقيد متصل أو منفصل ، حتى قيل : ما من عام إلا وقد خصص بل حتى هذا القول خصص بمثل إن الله على كل شيء قدير ، وهو مالك كل شيء ، وبعد تضيق دائرة العام لا يكون حجة إلا فيما تبقى من أفرادها .

فقوله تعالى : « أو فوا بالعقود » دليل عام كاشف عن وجوب الوفاء بكل عقد ربوي كان أم غير ربوي ، وإذا ضمنا الآية إلى أدلة حرمة الربا ينتج أن وجوب الوفاء مختص بالمعاملات غير الربوية ، وهذه قضية كلية بدئية ، ليست محللاً للخلاف والاجتهاد .

ولكن هناك أفراد مشبهة ومرددة بين دليل العام ، وهو أو فوا بالعقود ، ودليل الخاص الدال على حرمة الربا ، أي لم يُعلم من أي النوعين هي ، فلو أن تاجراً يبيع الرطل من سلعة بعشرة دراهم تقدأ ، وبائتي عشر نسيئة ، وجعلنا هل يبيع النسيئة هذا من نوع الربا كي يحرم ، أو من غيره كي يجب الوفاء به ؟ مع الفرض بأنه لا دليل يبين حكم هذا البيع ، فهل نستخرج حكمه من آية أو فوا بالعقود ، أو أن الآية بحملة بالنسبة إليه ، وأن حكمه يستخرج من الأصول العملية لفقدان النص ، وكذا حديث « على اليد ما أخذت حتى تؤدي » فإن مساقه تغريم كل ذي يد غاصباً كان أم وكيلاً أم مؤتمناً أم وصياً أم ولياً أم حارساً أم مستعيراً أم عاملاً بأجرة كالصائغ ، والقصار ، والخياط ، والبيطار ، والمكاري ، والملاح . والراعي والنجار ، والباني ، أم أخذه بيده يفحصه للشراء والسوم ، فمقتضى حديث اليد

تغريم هؤلاء جميعاً لو تلف المال في أيديهم سواء أكان ذلك بسبب التفريط والإهمال ، أم بسبب قهرى مع التحفظ الكامل ، والاحتراز التام .

وبعد أن تواترت الأدلة على أن غير الغاصب لا يضمن شيئاً مما تلف في يده إلا مع التعدى والتفريط اختص الضمان والتغريم بالغاصب ، والمفريط الممهل ، وخرج عن الحديث أكثر هؤلاء ، ولا يختلف في هذه الحقيقة اثنان ، ولكن لو علمنا أن مال الغير تلف في يد زيد ، ولم نعلم أكان المال غصباً في يده كي يضمن على كل حال ، أو بطريق مشروع ، فلا يكون سبيل لصاحب المال على ذى اليد إلا مع ثبوت التعدى والتفريط ، أو علمنا أن المال في يده بطريق شرعى ، ولم نعلم أكان تلفه بغير تقصير كي ينتفى السبيل عنه ؛ أو بسبب ترك التحفظ كي يجب الضمان ؟ فهل يسوغ الاعتماد على حديث اليد لاستخراج حكم الفرد المشتبه ، أو أن الحديث يحمل بالنسبة إليه ؟ وحيث يتعين الرجوع إلى الأصول العملية ، والأمثلة كثيرة من الكتاب والسنة ، وللبحث تأثيره البالغ في جميع أبواب الفقه .

والمعروف من سيرة القدامى ، هو التمسك بالعام والرجوع إليه في حكم الفرد المشتبه ؛ فبيعُ النسيئة مع زيادة الثمن لأجل الإهمال صحيح عندهم تمسكاً بأوفوا بالعقود ، وصاحب اليد ضامن مع الجهل بأنها شرعية عملاً بعموم : على اليد ، لأن العام بمقتضى وضعه ظاهر في جميع الأفراد ، فيجب العمل به حتى يثبت العكس فأوفوا بالعقود يشمل أنواع العقود وأفرادها جميعاً ، وعليه يكون دليلاً شرعياً على وجوب الوفاء بكل عقد من غير فرق بين الربوى ، وغير الربوى ، ولا ترفع اليد عن هذا الدليل إلا بحجة مثله أو أقوى منه ، ولا شيء سوى أدلة حرمة الربا ومفادها عدم الوفاء بما ثبت أنه ربوى ، أما غيره من العقود فيجب الوفاء به أخذاً بالعموم ، وكذا يجب الحكم بالضمان ، إذا دار أمر اليد بين أن تكون يد ضمان أو غيرها استناداً إلى عموم : على اليد .

أما المتأخرون من فقهاء الإمامية فنعموا بالاتجاه إلى العام لإجماله في هذه الموارد وأمثالها ، وأوجبوا الرجوع في حكمها إلى الأصول العملية ، لفقدان النص ،

ومحصل ما ذكره دليلاً على ذلك أن قرينة التخصيص إما متصلة بالعام ، أى أنها جاءت والعام في كلام واحد ، ومثلوا بأكرم العلماء إلا الفاسق ، وإما أن تكون منفصلة أى وردت في كلام مستقل عن العام ، ومثلوا بكلامين مستقلين ، أحدهما : أكرم العلماء ، والثاني لا تكرم فساق العلماء ، وعلم أن زيدا عالم ، ولكن لم يُعلم أهو عدل كي يجب إكرامه ، أو فاسق كي لا يجب ؟ وذكرنا مثالهم بالذات ، لأنه أخصر وأوضح مما قدمناه من الأمثلة ، والنتيجة واحدة في الجميع ، وهى عدم جواز الاعتماد على العام في حكم الفرد المردد .

أما مع الاتصال فلأن القرينة المتصلة بالعام توجب قصر ظهوره ودلالته على خصوص الأفراد التي أرادها المتكلم ، فأكرم العلماء إلا الفاسق ظاهر في إرادة العلماء غير الفاسقين ، ولا ظهور له أبدأ بالنسبة إلى معلوم الفسق ، ومجهول الحال ، لأن الكلام لا ينعقد له ظهور إلا بعد تمامه ، وبتمام الكلام خرج الفرد المعلوم وتردد الفرد المجهول بين البقاء والخروج ، لإجمال اللفظ بالنسبة إليه ، وإذا كان العام مجملاً في الفرد المجهول فكيف نستنبط حكمه منه ؟ ومن أوجب أكرام هذا الفرد تمسكاً بالعام فقد نفى عنه الفسق مستنداً في النفي إلى — أكرم العلماء إلا الفاسق — أى أنه أثبت الموضوع الخارجي بدليل حكمه الشرعى ، وهو كما ترى ! وتعبير ثان بعد أن كان مفاد الكلام مقيداً من أول الأمر بغير الفاسق مراداً واستعمالاً وظهوراً ، وبعد فرض أن القيد مجمل وغير محرز في مجهول الحال ، فلا يكون — والحالة هذه — ظهور كي يعتمد عليه في مقام الحيرة والشك .

أما إذا كانت قرينة التخصيص منفصلة عن العام ، فإن ظهور العام متحقق بلا ريب ، لأن الكلام الذى فيه لفظ العموم ، قد تم بانهاء المتكلم منه قبل أن يتبعه بقرينة تصرفه عن ظاهره ، فلفظ العام من قولك أكرم العلماء ظاهر في العالم العدل والفاسق على السواء ، ولكن علمنا من دليل منفصل — لا تكرم فساق العلماء — أن هذا الظهور على إطلاقه غير مراد ، وإنما المراد الحقيقي مقيد بغير الفاسق ، ومع هذا التقييد لا يكون ظهور العام حجة بالنسبة إلى الفرد المشتبه ،

لأنه لا يكشف عن مراد المتكلم ، مع أن المتسالم عليه بين العلماء كافة قديماً وحديثاً أن ظواهر الالفاظ إنما تكون حجة متبعة ، لأجل كشفها عن مقاصد المتكلمين ومراداتهم ، ومع عدم هذا الكشف لا يكون لظهور اللفظ أى وزن ، فالقرينة المنفصلة وإن كانت لا ترفع الظهور كما ترفعه القرينة المتصلة إلا أنها تسقطه عن الاعتبار ، فالفرق بين الاتصال والانفصال أن العام فى الحالة الأولى غير ظاهر فى جميع الأفراد ، وفى الثانية الظهور موجود ، ولكنه ليس بحجة ، فالنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين .

وقرر المحذئون هذه الحقيقة بتعبير آخر ، وهو أن دليل العام - أكرم العلماء - ودليل التخصيص - لا تكرم فساقيهم - يرجعان إلى دليل واحد ، وهو : أكرم العلماء غير الفاسق - ومؤداه ، أن من ثبت عليه مع عدم فسقه ، وجب إكرامه ، ومن ثبت عليه وفسقه معاً ، لا يجب إكرامه ، أما العالم المردد بين الفاسق وغيره ، فلا يمكن استخراج حكمه من هذا الدليل نفيّاً ولا إثباتاً ، أى لا يستفاد منه وجوب الإكرام ، ولا عدم وجوبه . لأن الدليل مسوق لإثبات الحكم عند ثبوت موضوعه ، فعنى أكرم العلماء ، أنه متى وجد العالم ، وجب عليك إكرامه ، وليس فى دليل الحكم أية جهة نحز بها موضوعه الخارجى عند الاشتباه ، فمما لا يسوغ الاعتماد على أكرم العلماء ، لأجل وجوب إكرام من لم يثبت علمه كذلك لا يسوغ الاعتماد على هذا العموم - بعد ورود التخصيص عليه - لأجل إكرام العالم المردد بين الفاسق وغيره .

والخلاصة أن هناك موارد كثيرة فى العبادات والمعاملات لم يرد فيها نص خاص قد استخرج الأولون أحكامها من عمومات الكتاب والسنة ، ورجع المتأخرون فى أحكامها إلى الأصول العملية ، لأن العمومات المذكورة بعيدة عنها كل البعد (١) .

(١) لقد أطنب بعض أعلام هذا العصر حيث قسم القرينة إلى متصلة ومنفصلة ، ثم كلا منهما إلى لفظية وولية ، ثم منشأ الاشتباه إلى المتباينين والأقل والأكثر ، واعتمد على العام فى بعض أقسام الاتصال ، ومن يرغب فى التفصيل فعليه بالجزء الأول من تقريرات السيد أبى القاسم الخوئى .

وأكتفى من الأصول اللفظية بهذه النظرية مخافة الملل والتطويل ، على أنها أهم النظريات ، ولها أبلغ التأثير في استنباط الفروع من أصولها .

### من الأصول العملية :

وضع المتأخرون لمباحث الأصول العملية كتباً خاصة مستقلة عن المباحث اللفظية ، وابتدوها بباب القطع ، أى العلم بالحكم الشرعى ، وثنوا بباب الظن به ، ثم باب الشك ، وأدرجوا فيه البحث عن الأصول الأربعة : البراءة ، والاحتياط ، والتخير ، والاستصحاب (١) ؛ وذكروا في باب الظن الإجماع والشهرة .

### الإجماع :

اتفق المتقدمون على أن مصادر التشريع أربعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، وغالوا في الاعتماد على الإجماع حتى كادوا يجعلونه دليلاً على كل أصل ، وكل فرع .

وعده المتأخرون لفظ الإجماع مع هذه المصادر ، ولكنهم أهملوه عملياً ، ولم يعتمدوا عليه إلا نادراً ، بل لم يعتمدوا عليه إلا منضماً مع دليل أو أصل معتبر ، ويتلخص رأيهم بأن الإجماع إما أن يكون منقولاً بلسان أحد الفقهاء ، وإما أن يكون محصلاً ، وهو أن تتبع بالذات أقوال الفقهاء في حكم واقعة خاصة ، وبذلك أقصى ما لدينا من جهد في استقراء آرائهم ، فنجد فقهاء عصر واحد قد أجمعوا بقول واحد على حكم تلك الواقعة .

(١) وهناك أصول أخرى كأصل الطهارة فيما لم يعلم نجاسته ، وأصل الحل في المأكولات والمفروقات الحادثة ، وأصل عدم التذكية في اللحوم ، وأصل الاحترام في الأموال ، وأصل الحنف في الدماء ، وأصل فساد العقد على من لم يعلم أنها غير ذات محرم ، وأصل صحة العمل بعد الفراغ منه ، وأصل السلامة من العيوب في المبيع ، وأصل لزوم في العقود ، وقاعدة الميسور لا يسقط بالمعسور ، وما إلى ذلك من الأصول والقواعد المقررة في أماكنها ، وحيث كانت هذه لموضوعات خاصة ، ولا تمتدداً إلى غيرها ، والأصول الأربعة تسرى وتعم جميع أبواب الفقه ، لذلك جعلوا لكل واحد من الأربعة عنواناً مستقلاً ، وأجروا الكلام على تلك تبعاً .



والمقول من الإجماع ليس بحجة ، وإن كان الناقل ثقة عادلا ، وعالمًا محتاطا لأن نقله يرتكز على الحدس ، على النظر والاجتهاد ، وعدالة الناقل إنما تنزهه عن تعمد الكذب ، ولا تعصمه عن الغفلة والاشتباه ، ثم إن الإجماع لا بد فيه من التتبع التام لأقوال الفقهاء ، وتفهم كلماتهم تفهما صحيحا ، وبأى شيء نحرز أن تتبع الناقل كان تاما ، وأن فهمه كان مستقيا ؟ فالإنسان حسن الظن بنفسه خاصة الفقيه ، هذا وقد رأينا كثيرا من الفقهاء ينقلون الإجماع في محل الخلاف ، يختلف اثنان منهم في حكم واقعة ، فيحتج كل على صاحبه بالإجماع بل رأينا الواحد منهم يفتي بأمر مستدلا عليه بالإجماع وبعد حين يتبدل اجتهاده فيفتي بالعكس مستدلا بالإجماع أيضا .

وأول بعض الأعلام هذا التهافت بأن ناقل الإجماع ينظر قول بعض الفقهاء ، فيحسن الظن به ، وينقل الإجماع اتكالا على قوله ، أو أن الناقل يستنبط الفتوى من دليل أو قاعدة أو أصل ، ويعتقد أن هذا الدليل يجمع عليه ، فينقل الإجماع لذلك ، وأيا كان ناقل الإجماع ، ومنشأ نقله فلا يسوغ الاعتماد عليه بوجه ، لأن نقله يرتكز على الاجتهاد والحدس ، لا على البصر والحس .

أما الإجماع المحصل ، وهو ما حصل من تتبع الأقوال واستقرائها فتعسر جدا لأن السبب في اعتباره وحجته هو كشفه عن وجود حجة متبعة في واقع الأمر اطلع عليها المجمعون ، وخفيت علينا نحن ، والإجماع إنما يكشف عن هذه الحجة الثابتة إذا اتفق المتقدمون والمتأخرون من الصدر الأول إلى يومنا هذا ، أما اتفاق أهل عصر واحد أو عصرين فإن دل على شيء فإنه يدل على وجود حجة عند المجمعين أنفسهم ، لا في واقع الأمر وحقيقته ، وخاصة إذا كان في مورد الإجماع دليل أو أصل يصلح مستندا للحكم الذي اتفقوا عليه ، فإن الإجماع - والحالة هذه - لا يكشف عن شيء أبدا ، ويكون المعتمد هو الأصل أو الدليل ، هذا وإن احتمال الخطأ والاشتباه في المجمعين كلا أو بعضا ولو في واحد منهم يسقط الإجماع عن الاعتبار ، وليس لدينا أية حجة نستند إليها لإلغاء هذا الاحتمال ، لأنه يرجع إلى النظر والفكر ، ولا يتنزه عن مثله عالم ولا عادل مهما بلغت منزلته العلمية والدينية .

والخلاصة أن الاجماع المنقول ليس بحجة ، والاجماع المحصل حجة شريطة أن يحصل من الصدر الأول إلى العصر الأخير ، وقد اشتهر على السنة رجال الدين في هذا العصر ، وذهب مذهب المثل القول : بأن الاجماع المنقول ليس بحجة ، والمحصل غير حاصل .

### الشهرة :

ذهب بعض من تقدم إلى أن الشهرة دليل شرعى ، لأنها أقوى ظنا من الحديث المنقول بخبر الواحد ، ومن شهادة العدلين .

وقسم المتأخرون الشهرة إلى ثلاثة أقسام :

أولها : الشهرة الروائية ، وهى أن تشتهر رواية بسبب نقلها في أغلب كتب الحديث ، وتكرارها على ألسنة الراوين ، وهذه الشهرة لا تفيد أية فائدة سوى أنها تكون سببا في تقديم الرواية المشهورة عند معارضتها برواية أخرى دونها معرفة وشهرة ، فتقديم الحديث المشهور والأشهر متفق عليه بين الفقهاء جميعا .

ثانيها : الشهرة العملية : وهى أن توجد رواية ضعيفة السند ، ولكن على الرغم من ضعفها عمل بها أكثر الفقهاء ، واستندوا إليها في الفتوى والعمل ، فعملهم يجبر ما فيها من ضعف ، كما أن إعراضهم عن رواية صحيحة السند يضعف من قوتها ، وبعبارة أخصر إن عمل المشهور يقوى الضعيف ، ويضعف القوى من جهة السند لحسب ، لأن إعراض أكثر العلماء عن حديث هو بمرأى منهم ، مع شدة احتياطهم للدين يدل دلالة واضحة على أن هناك أسبابا تستدعى ترك الحديث ، من غفلة الراوى ، أو عدم صدور الحديث لبيان الحكم الواقعى ، وما إلى ذلك من الأسباب الصحيحة التى أطلعوا عليها ، وخفيت علينا ، كما أن عملهم بالضعيف مع علمهم بحال الراوى يدل على صدقه بهذا الحديث خاصة ، لأن الكاذب قد يصدق .

ثالثها : الشهرة الفتوائية . وهى أن يفتى أكثر الفقهاء فى واقعة ما ، ولم نعلم مدرك الفتوى ، وهذه لا تأثير لها فى شيء أبدا ، لما قدمناه من الكلام على الاجماع .

الاستصحاب :

استصحاب الشيء هو البقاء على اليقين السابق بوجوده ، واستمراره إلى زمن الشك ، واحتمال خلوه من صفحة الوجود ، فلو علمنا بحياة إنسان غائب ، ثم احتملت لدينا وفاته لسبب من الأسباب ، فبقى على اليقين السابق بحياته ، ولا نرفع اليد عنه إلا بحدوث اليقين بموته ، وخير ما قيل في تحديد الاستصحاب موضوعاً وحكماً قول الإمام الصادق ( لا يُنقض اليقين بالشك ، ولا يدخل الشك في اليقين ، ولا يُخلط أحدهما في الآخر ، ولكن يُنقض الشك باليقين ، ويُتَمُّ على اليقين ، فيبنى عليه ، ولا يعتد بالشك في حال من الأحوال ) .

وقد اتفقت كلمة الجميع على العمل باليقين السابق عند فقدان النص إلا أن هناك موارد خاصة هي في نظر القدامى داخلة في الاستصحاب بينما يراها المحدثون خارجة عنه ، ونذكر منها موردين .

( ١ ) ان يسرى الشك إلى وجود الشيء وحدوثه ، بحيث يتبين أن وجوده لم يكن متيقناً في آن من الآنات ، كما إذا تيقنت يوم الجمعة بعدالة زيد ، ثم يوم السبت ، ترددت في عدالته في بدء الأمر ، وأنه هل كان عادلاً يوم الجمعة ، وأن اليقين كان مطابقاً للواقع ، أو أنه لم يكن عادلاً أبداً ، وأن اليقين السابق كان اشتباهاً وجهلاً مركباً ، ومثل هذا خارج عن الاستصحاب ، لأن حقيقته أن يتمحض الشك إلى البقاء مع إحراز اليقين بالوجود في السابق ، كما لو علمت بعدالة زيد يوم الجمعة ، وترددت في بقائها ، واستمرارها إلى يوم السبت ، وتعبير أخصر إن الاستصحاب هو علم بالحدوث ، وشك بالبقاء ، ومتى رجع الشك إلى الحدوث نفسه ، فلا يكون من الاستصحاب في شيء ، وسمى المتأخرون هذا النوع بالشك السارى ، وجزموا بفساده وعدم الاعتماد عليه .

( ٢ ) ان الشيء الذي أريد استصحابه ، والحكم ببقائه واستمراره ، تارة يكون بنفسه حكماً شرعياً ، كوجوب شيء أو حرمة ، وأخرى يكون موضوعاً خارجياً ، وليس له أى أثر شرعى ، كبقاء حجر في المكان الذى كان فيه ، وحياة

شجرة كانت حية في العام الماضي ، وثالثاً يكون موضوعاً خارجياً ، له آثار شرعية تترتب عليه ابتداءً وبلا واسطة ، وله آثار غير شرعية ، كحياة زيد ، فإن من آثارها الشرعية ، وجوب الإنفاق على زوجته ، وعدم تقسيم تركته ، ومن غير الشرعية نمو جسمه ، وقيامه بأعمال تتفق مع حياته ومهنته ، والقسم الأول يجرى فيه الاستصحاب ، ويكون الحكم الشرعي المجهول بمنزلة المتيقن من حيث وجوب العمل ، والقسم الثاني لا يجرى فيه الاستصحاب بوجه ، ويُنقض اليقين فيه بالشك ، أما القسم الثالث ، فيجرى فيه الاستصحاب بالنسبة إلى الآثار الشرعية فحسب ، دون اللوازم العادية والعقلية ، للوضوع المستصحب ، فباستصحاب حياة زيد نُثبت وجوب الانفاق على زوجته ، وعدم تقسيم تركته ، ولا يمكن إثبات شيء غير شرعي ، مما تستلزمه حياته العامة والخاصة .

والسر أن تنزيل المجهول منزلة المعلوم ، ومعاملة الشيء الذي لم يُحرز بالوجدان ولا بالبيئة ، معاملة الشيء الثابت ؛ - هذا التنزيل وهذه المعاملة ، خلاف ما ينبغي أن تكون عليه الحال ، لأن المجهول غير المعلوم ، والمتردد غير العالم ، ولكن للشارع أن يطلب من المكلف في جميع أحواله ما يشاء ، وكيف يشاء ، فيكلفه حال الجهل بما كلفه به حال العلم ، ما دام العقل لا يرى في ذلك بأساً ، وقد ثبت عن الشارع أنه يجب المضى على العمل حال الشك ، كما يجب حال العلم ، وهذا التصرف من الشارع إنما يتناول ما كان من وظيفته وشؤنه ، أما الأشياء التي لا تدخل تحت سلطانه من حيث هو مشرع ، فلا يجرى فيها الاستصحاب ، فلو أن رجلاً شكك في طلوع الفجر في إحدى ليالي شهر رمضان ، فله أن يستصحب بقاء الليل ، فيأكل ويشرب اتكالاً على استصحاب الليل ، لأن الشارع أمره بالبقاء على اليقين السابق ، وأذن له بالأكل والشرب ما دام الليل باقياً ، ولكن ليس له إذا سئل عن الساعة أن يجيب بأنها لم تبلغ الرابعة بعد - إذا كانت وقتاً لمطلع الفجر - لأنها خارجة عن دائرة الشرع .

فالاستصحاب أصل مدركه الشرع تعبد به المتحير ، على أن يأتي بعمله على

ما تقتضيه حاله السابقة ، ولا يتعدى هذا التعبد الآثار الشرعية إلى غيرها ، وعلى هذا يكون الاستصحاب حجة شرعية متبعة في موردين لحسب ، فيما إذا كان المستصحب نفسه حكماً شرعياً وفيما إذا كان موضوعاً لحكم شرعى بحيث يكون الحكم لازماً للمستصحب نفسه ، ولا حقاً له من غير واسطة عقلية أو عادية ، أما لو كان الحكم أثر الشيء ، وهذا الشيء لازم من لوازم المستصحب ، أى ينتهى إليه بواسطة غير شرعية ، فلا يعتمد فى مثله على الاستصحاب ، ومثاله لو تردى كبش من شاطئ ، وذبح بعد التردى ، وجهها أن الذبح كان حال استقرار الحياة بحيث استند خروج الروح إلى الذبح لا إلى التردى كى يحل الأكل منه ، أو أن الذبح حصل عند النفس الأخير للكبش ، وأن روحه خرجت بسبب التردى لا بسبب الذبح ، كى يحرم لحمه ، فليس لنا — والحالة هذه — أن نستصحب حياة الكبش الثابتة قبل التردى ، ونحكم باستمرارها إلى زمن الذبح ، لأن هذا يرجع إلى الملازمة العقلية لإثبات وقوع الذبح حين استقرار الحياة ، والمفروض أن الاستصحاب أصل شرعى لا عقلى ، وتعبير ثان ، أن جواز الأكل ليس حكماً للحياة نفسها ، وإنما هو حكم للذبح الصحيح ، وهذا الذبح لم يثبت بطريق الاستصحاب ، بل ثبت بطريق الملازمة العقلية لاستصحاب الحياة أى إن الموضوع الشرعى ثبت باستصحاب غيره لا باستصحابه بالذات .

واصطلح المتأخرون على تسمية هذا النوع بالأصل المثبت ، جازمين بطلانه ، واعتمد عليه السلف فى العبادات والمعاملات مثبتين به كثيراً من الأحكام الشرعية نقل منها من تأخر عنهم جملة وافرة فى باب الاستصحاب ، وانتقدها بما قدمنا بيانه . والخلاصة أن الاستصحاب لا يتحقق إلا بوجود ركنيه : يقين سابق ، وشك لاحق ، ولا يكون حجة متبعة إلا فى الأمور الشرعية لحسب .

وأقف عند هذا الحد مخافة أن لا يتسع صدر القراء للزبد ، وأحسب أن ما ذكرته يصلح مثالا للفرق بين القديم والجديد من أصول الفقه للشيعة الإمامية كما يصلح شاهداً لفتح باب الاجتهاد عندهم ، وعدم تقييدهم بأقوال السلف قللت أم كثرت ؟

# التاريخ في الشرق الأوسط

لحضره الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

المفتاح الكبير لمغالبي المشكلات في السياسة الدولية والقومية هو التاريخ ، والتاريخ كذلك هو المدخل المأمون للقوانين على حل تلك المشكلات . ولذا فإن من المغفلين المؤمنين بمستقبل هذا الشرق الأوسط ، لأسباب أقرب إلى من البدائنه الرياضية ، وهي أسباب تنبئ بها الحقائق التاريخية النابعة من هذا الشرق ، ويدل عليها ما استطاع هذا الشرق أن ينبته من دول وديانات وحضارات وثقافات ، خلال العصور الماضية ، ولا سيما العصور الإسلامية الأولى ، حين كانت مصادر الثروة الاقتصادية أقل كثيراً مما يملكه أقاليم هذا الشرق في العصر الحاضر من ثروات جامدة وسائله ، ومعادن دفيئة وغير دفيئة ، وأراض زراعية خضراء وبابسة ، وطاقات مكنية عاطلة أو أقل من عاطلة ، وتدل الحقائق التاريخية كذلك على أن بهذا الشرق الأوسط مقومات أخلاقية متينة ، وهي المقومات التي استندت إليها الديانات الكتابية الثلاث ، مع العلم بأن منبع هذه الديانات الكبرى هو هذا الشرق الذي لم يستجلب إليه منها واحدة ، كما استجلبت أوروبا الديانة المسيحية ، والثقافة الإسلامية ، ونشاط الاسرائيليين .

ولست أريد أن أنسى هنا - أو أناسي - ما يلصق بأخلاق هذا الشرق الأوسط من أوصاف في كتب الأوروبيين ، وهي أوصاف قائمة لا تختلف ولا تنبو عن الواقع المائل إلا من ناحية المبالغة والإطباب ، ولكنها على كل حال تبعد عن الحقيقة الكامنة كل البعد . ذلك أن ما بأخلاق هذا الشرق من مغامر وملازم

ليس إلا صدأً متراكماً فوق معدن أخلاقه الحقيقية ، والأوروبيون لذلك لا يرون ولا ينتقدون إلا صدأً كئيفاً سوف يذهب جفاءً أو هباءً ، وسوف ينجلي ما تحته بفضل الثقافة والتعليم . ولا أظن أن ثمة أملاً في ظهور تلك الأخلاق الحقيقية لهذا الشرق إلا عن طريق الثقافة والتعليم . والمسئولية هنا مركزة تركيزاً كلياً في أيدي المهتمين على مستقبل الثقافة والتعليم والشئون التربوية في أوسع معانيها . وإذا شئتُ ما يرين على أخلاق هذا الشرق كأنه صدأٌ فوق معدن كريم سوف ينجلي ، فإنني أعتقد بوجوب دراسة المشبه به وطبيعته وطرق إزالته ، أي دراسة الطرق التي يستعملها المعدنيون لإزالة الصدأ عن المعادن ، وإستخدام ما يشبه هذه الطرق في علاج ما يغشى أخلاق هذا الشرق من نقائص طارئة . وإخال أن هذه الطرق تلخص في السرعة المشربة بالأنانة ، والصرامة الممتزجة باللين ، والحماسة المختاطة بالصبر ، والدقة المستندة إلى التسامح .

وإني كذلك من المتفائلين المؤمنين بمستقبل الثقافة والتعليم والتربية في هذا الشرق الأوسط ، ولست أرى كفيلاً بذلك المستقبل إلا دراسة التاريخ . على أني لا أعنى أن يصبح التاريخ سيد الدراسات في المعاهد والمدارس والمنشآت العامة ، وأن يُهمل غير التاريخ من العلوم والفنون كالطب والهندسة والكهرباء والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا ، والأدب والجغرافيا والموسيقا والنحت والتصوير ، كما أني لا أرمي إلى التقليل من أهمية أي علم أو فن من هذه العلوم والفنون ، بل إني أهدف إلى بيان أهمية التاريخ بالقياس إلى هذه العلوم والفنون . ذلك أن التاريخ وإن كان يساوي هذه العلوم والفنون في المنفعة ، فإنه يفوقها من ناحية القيمة التثقيفية والتربوية ، لأن الطب يخرج الأطباء ، والهندسة تعد المهندسين ، والكيمياء تمدنا بالكياويين ، ولكنها وغيرها من العلوم المادية لا تشتمل اشتغال التاريخ على قيم تثقيفية وتربوية ، وكلاهما لازم لتكامل المواطن المفيد ، بقطع النظر عما يقوم به ذلك المواطن من عمل منى نافع لا مشاحة في منفعته . وأقول ذلك أيضاً في الفنون ، فالموسيقا تهذب الإحساس وترهفه عند الموسيقىار وسامعيه ،

والتصوير يصقل الشعور وينيره عند المصور والمعجيين به ، والنحت يربى ملكة الدقة والرمزية والابتكار عند النحات والمختلفين إلى نماذجه ، ولكن التاريخ يفوق على هذه وتلك بما ينطوى عليه من قيم تثقيفية وتربوية فريدة .

غير أن التاريخ الذى ندرس فى المدارس والمعاهد ، ونقرأ فى الكتب القديمة والحديثة ، لا يدل على ما أزعمه للتاريخ من قيم تثقيفية وتربوية . والعيب فى ذلك راجع إلى صناعة التاريخ فى الشرق الأوسط ، لا إلى التاريخ نفسه ، وهو عيب سبقنا إليه المؤرخون الأوروبيون ، ثم تركونا نخب فيه خب السائر فى دائرة . ذلك أن الأوروبيين أخذوا يعملون بتأثير نظرية التدرج ، وهى سنة من سنن الله الكونية ، فاعتبروا التاريخ سجلا للحياة الإنسانية وأطوارها المختلفة ، ودرسوا عصوره دراسة مقارنة على أنها مشكلات حاولها الإنسان ، فنجح أحيانا ، وفشل أحيانا أخرى ، وقالوا بأن الأحداث التاريخية ليست إلا ألوانا من الفلسفة المعروضة بطريق التمثيل ، كما قالوا بأن التاريخ صور للمساضى غير متكررة ، وبأنه لا يعيد نفسه أبدا ، وبأنه لا يمكن فهمه والإفادة منه إلا عن طريق المقارنة الذى اتخذه القانونيون سيلا لهم أصول الشرائع والقوانين فى مختلف الأمم .

لكن المقام هنا لا يتسع للإفاضة فى كل هذه الدعاوى الكثيرة ، وربما اخترت منها اثنتين ، وهما أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا ، وأن التاريخ لا يمكن فهمه على وجه سليم إلا عن طريق المقارنة .

والواقع أن الناس يظلمون أنفسهم والتاريخ معا من حيث لا يعلمون حين يقولون إن التاريخ يعيد نفسه ، مع أن العكس هو الصحيح ، لأن معناها فى قولهم ، أنهم لم يتغيروا على مر الدهور والعصور ، بل جددوا - فيما عدا حركة الإعادة - على حال واحدة رتيبة ، ورضوا بتلك الحال ولعادتها جيلا بعد جيل . وذلك كله غير مطابق للحقيقة ، بل هو مخالف لسنن الله الكونية القائمة على النشء والتدرج والنمو والارتقاء ، لا التكرار والإعادة . وطبيعى أن الناس - وهم بعض مادة التاريخ - لا يعيدون أنفسهم ، وطبيعى كذلك أنهم يكرهون أن يكونوا تكراراً لجيل سابق أو أسبق .



ومن الواضح أنه إذا كان التاريخ يعيد نفسه ، فلا حاجة إلى العمل ، ولا معنى للإصلاح ، ولا للتفكير ، ولا للتعليم والتنقيف ، ولا إلى مقاومة الفقر والجهل والمرض ، إذ يكفي أن تقف الأمة من الأمم تنتظر عودة واحد أو اثنين أو ثلاثة من عصورها السالفة — إن كان لها من المجد التاريخي شيء سالف — وما عليها إلا أن تنتظر في صبر وجود ، كما ينتظر الميت عودة الروح . أما إذا كانت الأمة من ذوات الماضي المظلم ، فليس لها إلا أن تقنع بما هي فيه راضية أو غير راضية ، ما دام تاريخها سوف يعيد نفسه .

لكنني أخشى أن الضرب على هذه النعمة النظرية لا يقرب دعواي ، ولا سيما أن القول بأن التاريخ يعيد نفسه قديم متواتر متأصل ، وليس يجدي في معارضته جرس الألفاظ والنظريات ذوات الرنين والصليل ، بل يحتاج المتكلم في ذلك الموضوع بالذات إلى البينة والبرهان عن طريق التاريخ نفسه ، وفي عصور التاريخ القرية والبعيدة ما يكفي هذا وذاك في يسر وسهولة .

وأقرب الأمثلة لنا التاريخ الإسلامي : هل تدل المقارنة بين العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام على أن التاريخ يعيد نفسه ، أم تدل المقارنة بينهما في غير جهد أو عناء على أن العرب غيروا ما بأنفسهم ، وغيروا تاريخهم ، كما غيروا أفهامهم وأوضاعهم وأهدافهم ، بعد أن أصبحوا أمة واحدة ؟ وهل تدل المقارنة بين الخلافة الإسلامية في بغداد وفي القاهرة على أن التاريخ يعيد نفسه ، أم تدل على عكس ذلك تماماً ؟

وأضرب مثلاً ثانياً من التاريخ الإسلامي بسؤال القارىء إذا كان العالم كله أنجب في تاريخه الطويل غير محمد واحد ، ولو كان التاريخ يعيد نفسه لأعاد شخصياته ، ولتكرر ظهور أمثال محمد في مختلف العصور الإسلامية مثلاً ، وهو ما لم يحدث .

ويقال مثل ذلك في التاريخ العام ، من أول قديمه إلى آخر حديثه . هل أتى على التاريخ إلا هانيبال واحد ، واسكندر واحد ، ويوليوس قيصر واحد ، وشارلمان واحد ، ونابليون واحد ، وهتلر واحد . ومن هؤلاء من ذاق الدنيا ألوان الشقاء

وأصناف الحراب بسببه ، فكيف والحال هذه يقول أحد - أو يريد أن يقول - بأن التاريخ يعيد نفسه ؟

ثم إذا تركنا حوادث التاريخ وعصوره ، وتكلمنا بلغة الآثار الباقية ، وجدنا البرهان القاطع على أن التاريخ لا يعيد نفسه . ذلك أن الآثار على قلتها أصدق أنباء من الكتب على كثرتها ، لأن الآثار لا تتعرض للبل والتحوير والتغيير في سرعة ، على حين أن الكتب فضلا عن تعرضها لذلك كله لا تكون دائماً بنجوة من ميل مؤلفيها عن الحق . وإذا سلطنا بأن الآثار على أنواعها مرآة صدق صامتة ناطقة بأحوال الفرد والجماعة والتميلة والعشيرة والأمة ، واستعرضنا الآثار بمصر من فرعونية ويونانية وبطلمية ورومانية وبيزنطية وقبطية وعربية وفاطمية وأيوبية ومملوكية وعثمانية ، فهل يؤدي بنا ذلك الاستعراض الصامت الناطق إلى القول بتكرار عصور التاريخ بعضها تلو بعض ، أو الاعتقاد بأن التاريخ يعيد نفسه ؟

وأما مبدأ المقارنة في التاريخ فأساسه أن التاريخ ليس قصة خارقة مسلية ، أو درامة عنيفة محزنة ، أو قطعة رفيعة من الأدب الممتلئ بالمحسنات اللفظية والبديعية والمعاني مما يشبع خيال الأديب ، بل هو سجل صادق ما أمكن لتتأرجح الحوادث الإنسانية منذ دؤن الإنسان ما يدل عليه . والمؤرخ لا يستطيع أن يأخذ بمبدأ المقارنة في الكتابة إلا إذا أخذ أولاً بشيئين اثنين ، على نحو ما يأخذ السارى في الليل بهدى عتملة ونور القمر معا ، وفي آن واحد ، وبذا يصل إلى مرتبة الكتابة التاريخية المتقارنة ، في يرويه بسهولة وقرب من الحق . وأول هذين الشيئين أن يدرك المؤرخ أن ذلك السجل الصادق الذي هو التاريخ لا يمكن أن يكون مخالفاً في مراميهِ وأهدافه لما تسجله الأيام مما ندرج فيه نحن في العصر الحاضر من سبل العيش والحياة الفكرية . فالحسنات والسيئات ومختلف الصفات التي نعيش فيها هي التي عاش في أشباهها السابقون ، وسوف يعيش في أشباهها اللاحقون ، وربما يكون وجود المحسن والمسيء في مزيج واحد - أو بعبارة أدق في مجتمع واحد - هو سر الحياة والعمل ، إذ يعمل المحسن في مثل ذلك المجتمع على إصلاح المسمى ، كما

يعمل المسوء — أراد ذلك أم لم يرد — على مجازاة المحسن في العمد الإرادى أحيانا ، وفي العقل الباطن أحيانا أخرى .

ومن هنا يتضح أول الشيتين اللازمين لتطبيق مبدأ المقارنة في كتابة التاريخ وهو أن يذكر المؤرخ دائماً أن ما يتناوله من أحداث وأناسى ، لا يختلف كل الاختلاف عما يعاصره من أحداث وأناسى . ولست أريد بذلك أن أدخل إلى موضوع الإعادة ، واللا إعادة في التاريخ مرة أخرى ، بل أريد التدليل على أن المادة الإنسانية التى يصنع منها التاريخ واحدة في جميع الأمم .

أما الشيء الثانى مما يجب على المؤرخ أن يجعله نصب عينيه احتراماً لمبدأ المقارنة ، فهو أن تاريخ أمة من الأمم - أو دولة من الدول - ليس إلا سجلاً لحياة فرع من فروع شجرة كبيرة ذات جذور متلاصقة ، تستمد كلها الحياة من معين واحد وأرض واحدة . وأسوق تشبيهاً آخر بالقول بأن تاريخ بلد من البلاد ليس إلا تياراً دافقاً - أو غير دافق - وسط تيارات مختلفة - وهذا التيار يتأثر طبعاً بما حوله من التيارات أشد التأثير ، برغم ما يبدو للناظر السطحى من استقلال اتجاهه ، وربما كان التدليل بتاريخ الدولة الإسلامية كما تعلنه أوائل هذا القرن العشرين الميلادى ، خير تقريب لما أقول ، إذ كان التاريخ الإسلامى يُدرس كأن العرب وبلادهم كانوا بمعزل عن العالم الخارجى تمام العزلة حين ظهر الإسلام ، وكأن الرسول لم يعرف من ذلك العالم الخارجى سوى مكة والمدينة وما وراءهما من تهامة والطائف وأطراف فلسطين ، حتى إذ خرج المسلمون من بلادهم خيل للتعلم كأنهم اندفعوا نحو بلاد سادت فيها الظلمات الروحية والمادية ، وكأن أهل البلاد المفتوحة وقفوا ينظرون إلى العرب وهم يشيدون مدينة جديدة بين عشية وضحاها . أما الحقيقة فهى غير ذلك ، إذ المعروف أن العرب لم يكونوا إلا عنصراً واحداً من العناصر التى حاطت الدولة الرومانية ، وتمت أن تقتطع من بقاعها الباسمة موطناً أميناً ، ومن حضارتها الغنية نموذجاً للحياة الرغيدة ، ثم أثرت في كل من تلك العناصر مؤثرات متباينة في الزمنية والقوة والغرض والطاقة الدافعة

والحركة الذاتية ، فبدت تلك العناصر كذلك متباينة في النضج والقدرة الهجومية ، ولم يكن بينها من شبه سوى أن كلا منها كان حلقة من سلسلة محيطة بالدولة الرومانية من جميع الجهات الأصلية في الجغرافياً . ولذا كان الجرمان مثلاً أول هذه العناصر استطاعة للأنثيال والزحف نحو الأقاليم الرومانية في أوروبا ، طوعية لمؤثر اقتصادي بحث . وبينما كان الجرمان يقتطعون من الدولة الرومانية ما هو انجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وإيطاليا في العصر الحاضر ، كان العرب في أوائل حركة مشابهة تجد عليها عامل ديني هو الاسلام ، ولهذا اختلفت الحركة العربية الاسلامية عن الحركة الجرمانية الوثنية ، ولم تشبهها إلا من ناحية الهجوم المشترك على أقاليم الدولة الرومانية .

ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن هاتين الحركتين التقتا في إسبانيا ، واصطدمتا أعنف اصطدام ، فكانت الغلبة للحركة العربية المصطبغة بصبغة الدين ، على حين كانت الهزيمة للجرمان الذين خلت حركتهم من ذلك الدافع البالغ . غير أن العرب لم يجاهدوا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في بلاد سادت فيها الظلمات الروحية والمادية . بل كانت بلاد الدولتين الرومانية والساسانية التي غمرتها موجة الفتوح الاسلامية أحسن مكاناً ورتباً من بلاد العرب ، وكان بكل من هاتين الدولتين ثقافات وحضارات ونظم استمد العرب منها أدوات الحكم والإدارة حسب اقتضته الشريعة الاسلامية ، وبفضل ما استعمله العرب من هذه الأدوات التي وجدوها في البلاد المفتوحة استطاعوا أن ينجحوا بنجاحهم الخارق في الحرب والسياسة .

وصفوة القول أن التاريخ في الشرق الأوسط بحاجة إلى عرض جديد على قواعد جديدة ، وهذا لا يتأتى إلا بعد توفر المادة التي يستمد منها المؤرخون ، وهي إحياء التراث الشرقى في جميع عصوره بإخراجه من ظلة المخطوطات إلى نور المطبوعات ، ودراسة الآثار الباقية دراسة مقارنة لبيان الوحدة التاريخية لهذا الشرق ، على أن يكون تدريس ذلك كذلك في أسلوب جديد بروح جديدة تساعد على تكوين المواطن الشرقى في العصر الحديث ٥

# الشعر والعراء

بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ

لمضرة ضابط الفضيحة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس في كلية اللغة العربية

يقرر النقاد المعاصرون : أن الشعر العربي قد وقف بعد شوقي وحافظ وأضرابهما ، رحم الله الجميع ؛ ويعلمون هذا الوقوف ، بعدم تزاوج الثقافتين : الغربية التي غزت الشرق ، واستجابت لها المدارس المدنية ؛ والشرقية التي تستبد بأفاق المدرسة الدينية والعربية ؛ تزواجاً يولد أدباً فيه سمات الشرق ، وشمائل الغرب ؛ لما في طبيعة الثقافة الغربية من النظر أبداً إلى الأمام ، وما في طبيعة الثقافة الشرقية من النظر دائماً إلى الخلف ؛ ولعدم الوحدة المدرسية التي تقرب بين الثقافتين تهریباً يواخي بين المذهبيين ، ويؤلف بين الذوقين ؛ ولعل اسقاط الشعر من المباراة الأدبية لمجمع فؤاد الأول للغة العربية في العام الفارط ، أثر من آثار هذا الرأي .

ولست أرى أن الشعر قد وقف ، فما يزال بين بني العروبة ، في مواطنهم ، وفي مهاجرهم ، شعراء لا يدفعون عن حياض الشعر ، يجيدون أحياناً ، ويُسِفُّون أحياناً ؛ ويتباعدون في المذاهب والأساليب ويتقاربون ، والموهبة الشعرية لا تنقيد بزمان ولا بمكان ؛ ولعل الأدنى إلى الصواب أن الذي انقضى إنما هو عهد خول الشعراء ؛ مضى الموت بكثرتهم الغامرة ، وأصغى أو أجبل من بقي منهم في الحياة

إلى اليوم (١) لا في مصر وحدها ، بل في مختلف أوطان الشرق العربي جميعاً ؛ ومن ذا الذي ينسى أنه في الوقت الذي كان غَرْدُ صبرى وشوق وحافظ يملأ آفاق النيل ، كان غرد الكاظمي والرصافي ، والزهاوى ، يملأ آفاق الرافدين ؛ وغرد اليازجية وأرسلان والزركلي يملأ آفاق بَرَكْدَى ، وغرد الخطيب يملأ آفاق سلع والعقيق . الخ الخ .

وقديماً كانت الأندلس تزخر بالشعراء من كل صنف وجنس ، ويندر بينهم الفحول ، على حين كان الشرق العباسي تتصاول خوله في كل مضطرب وميدان .

فأما اختلاف الثقافتين ، فإنه لا يصلح وحده علة لوقوف الشعر ، إذ ليست الثقافة مصدراً للشاعرية ، وإن كان لها أثرها الذي لا يمحى ، في اتجاهات الشعر ومذاهبه ، وفي أخيلته وأساليبه ، وإنما مصدر الشعر الموهبة ، تدفعها السلائق والملكات في عهد السليقة والملكة ؛ وتربيتها الثقافات في عصور الحضارات والصناعة ؛ ولقد كان العرب شعراء في بداوتهم وبداءتهم ، ولم يقل أحد إنهم كانوا على شيء يصح أن يسمى علماً أو ثقافة في عصور الحضارة ؛ وكان الإسلاميون شعراء ، وإنما كانت ثقافتهم تضطرب فيما يتصل بالقرآن الكريم من العلوم الأدبية البدائية التي لا تخرج عن الدين واللغة ، ولم يكن للعلوم الطبيعية والفلسفة التي تسمى : علوماً ، على الحقيقة والاطلاق ، في حياتهم ظل ؛ وأئمة النقاد مصفّقون على أن أقوى الشعر وأقومه ، شعر البداوة والطبيعة ، عند العرب ، وعند غيرهم من الأمم .

ولعل من أقوى الأسباب التي وقفت بالشعر ؛ عجز الخيال الذي هو عماده ومعتصمه ، عن التحليق في أفق أرفع من الآفاق التي اخترقتها الحقائق العلية في هذا العصر الصاخب المتمرد الجبار : عصر الذرية والأدروجينية والأطباق الطائرة ، التي أخملت شياطين الشعر وفاقت أفانين السحر !

ذلك إلى أن المادة التي طغت على كل قوة في العالم الحاضر ، قد اجترفت

---

(١) أصفى الشاعر : اقتطع شعره ، ولم يقل شعراً . وأجبل : صعب عليه القول كأنه انتهى إلى جبل منه .

أصحاب المواهب الشعرية ، فصرقهم عن الرضا بالمعاني الأدبية ، إلى التماس المطالب المادية التي أصبح كاليها ضروريا ، من السبل التي قضت الأوضاع الاجتماعية بأنها الموصلة إليها . وعندنا : العقاد ، ويبرم التونسي ؛ هذان — في مذهبي — أخل شاعرين في مصر ، لا يقفان دون شعرائنا الفحول الذين نذكرهم فيسمو بنا الفخر ، قوة موهبة ؛ وطبقة شعرا ولكن أولها انصرف إلى الكتابة والتأليف ، فوهبهما صفو عنايته ، وفورة جهوده ، وأبقى للشعر في نفسه ركناً مهجوراً ، يلجأ إليه إن عدا الموت على عزيز عنده ، وقلبا يعدو فيما دون العام أو الأعوام ... فأما الآخر ، فقد استبد به الزجل ، الذي يجيده براءة لا تجارى ، عن الشعر جملة حتى ليخيل إلى أنه لو انتقلت أمه إلى رحمه الله ... لراثها بحمل زجل ! .

هذا مثل أضربه ، ومن ورائه أمثال ، لا تمس إلى الإطالة بذكرها حاجة ، في مصر ، وفي غير مصر ، من الأوطان الإسلامية والعربية والمهاجر .

ولقد أثَّرت في العهود الأخيرة جماعات للشعر ؛ عرفنا منها : رابطة الأدب العربي أو رابطة الأدب الجديد ؛ وجماعة أبو لثو ؛ ثم رابطة أدباء العروبة ، ويضعف أمل في أن الروابط والجماعات المنظمة ذوات أثر في النهوض بالشعر ، لأنها في الأعم الأغلب تنظم كل من استطاع أن ينظم كلاما ، ولو كان أبعد من النثر نسبا إلى الشعر ؛ وتسودها المجاملات والاعتبارات الثانوية ، فتسوَّى بين الشاعر الموهوب ، وبين المفهم المتشاعر ، على أن الشعر من الآداب الرفيعة التي لا تعيش إلا في جواء الحرية والانطلاق ؛ وإنما يهذبها ، ويسمو بها ، النقد الحر الصريح ، على سنة الشعراء في العصور الذهبية للشعر العربي ، ولعل المباريات في جعلتها أجدى على الشعر ، وأبعد أثرا فيه من تنظيم الجماعات .

\* \* \*

وأحدث دعاة التجديد على المذاهب الغربية ، لا يرون أن الشعر قد وقف ، بل يقولون : إن الشعراء المحدثين قد خطوا بفهمهم لأصول الفن الشعرى خطوات

جديدة ، ووثبوا بالأداء النفسى وثبات أقل ما يقال فيها إنها ردت للألفاظ قيمها التعبيرية حين ردتها إلى محاريبها النفسية ، فعدت وهى صلوات شعور ووجدان ، (كذا) وإن التقى الحديث قد وجد ضالته فى هذا الشعر الذى قد وجد نفسه (كذا) ولئن مضت المرحلة الأولى من مراحل هذا التجديد بوفاء شوق ، لقد بدأت مرحلته الثانية بمدرسة أخرى من بعض شعراء الشباب ، وعلى رأسهم : «إيليا أبو ماضى» الذى يعد شعره نموذجا كاملا للشعر الجديد ، يحوى عناصره الفنية جميعا ، وقد أورد بعضهم - تأييدا لرأيه - من شعر إيليا ، قصيدته «وطنى» التى يقول فيها :

وطن النجوم ، أنا هنا	حَدِّقْ ، لتعرف من أنا ؟
أَلْمَحْتَ فى الماضى البعيد	د ، قى غريرا أُرْعَنَا ؟
جذلان ، يمرح فى حُصُونِ	لِكَ ، كالنسيم مُدْنَدِنَا
ويخوض فى وحل الشتاء	د ، مهلا متيمنا
لا يبقى شر العيو	ن ، ولا يخاف الألسنا
ولكم تَشْيِطَنَ كى يدو	ر القول عنه : تشيطننا
أنا ذلك الولد الذى	دنياه كانت هاهنا
أنا فى مياهاك قطرة	فاضت جداول من سنا
أنا من طيورك بلبل	غنى بمجدك فاغتنى

إلى أن قال :

عاش الجمال مشردا	فى الأرض ينشد مسكنا
حتى انكشفت له فال	قى رحله وتوطننا
واستعرض الفن الجبا	ل ، فكنت أنت الأحسنا

ويعدون من بدع التعبير : د حَدِّقْ لتعرف من أنا ، ود أُرْعَنَا ، ود مدننا ، ود يخوض ، ود أنا ذلك الولد ، الخ الخ ، كما أنه من بدع الأداء النفسى ، وإذا



تلففت<sup>١</sup>، فقلت : إن معاني هذا الشعر وأخيلته من المعاني العامة والحظ المشاع بين الناس ، أدبائهم وغير أدبائهم ، رجعيهم ومجديهم ، فلا مفر لي من أن أقول إن أسلوبه يتصل نسبه بالأساليب العامة اتصالاً قريباً .

بيد أني - على كل أولئك - أوافقهم على أن إيليا أبو ماضي شاعر موهوب ، يمتضى شعره بحظ عظيم من الرقة والعذوبة ، ولكن تعوزه الجزالة التي هي ملاك الشعر العربي ، وقوام روعته وصولته ، والتي هي ميزة القرآن الكريم وإحدى خصائصه ، فلئن كان شعر إيليا نموذجاً للشعر العالي في نظر المجتدين ؛ إنه لمن النوع النازل عند جمهور المحافظين .

وليس هذا بالرأى الجديد في عالم النقد الأدبي ، ولكنه رأى الشيخ عبد القاهر الجرجاني منذ القرن الخامس الهجري ؛ فاسمع ما ذا قال :

« وإنك لا تجد شاعراً يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب ، وردّ البعيد الغريب ، إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى ؛ فانه ليروض لك المهرَ الأرنَ رياضة الماهر ، حتى يُعْنَقَ من تحتك إعناق القارح المذل ؛ وينزع من شماس الصعب الجاح ، حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره في قلة الحاجة إلى الفكر ؛ والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

فؤادي منك مملآن      وسرى فيك إعلان

وقوله : عن أي ثغر تنقسم ؟

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد ، حتى قل نشاطه لها ، واعتناؤه بها ، إلا لأنه لم يفهم معانيها ، كما فهم معاني النوع النازل الذي انحط له إليه ؟ أترك تستجيز أن تقول : إن قوله : « مُسَى النفس في أسماء لو تستطيعا ، من جنس المعقد الذي لا يحمد ، وأن هذه الضعيفة الأثر الواصلة إلى القلوب من غير فكر أولى بالحمد ، وأحق بالفضل ١٤٠ ، (١) »

(١) أسرار البلاغة ، من ١١٥ طبعة النار ؛ والأرن : البطر المرح ، وأعنى القرس : أسرع وسار العنق ، وهو - بالتحريك - سير فسيح واسع للابل والدواب . والقارح : ما قرح نابه ، أي طلع ، والأسر : لإحكام الحلقة .

وهل يعدو شعر إيليا على أسمى حالاته ، طبقة النوع النازل من شعر البحري ١؟  
حدِّق ... لتدلى على الفرق إن كان ! أيها القاري العزيز .

\* \* \*

وأعوذ بالله أن أدعى أن الشعر الجديد كله من هذا الطراز ، فانتى أقرأ  
لكثير من شعراء الأقطار الشقيقة ، ومن شعراء مصر ، شعرا يحوى الجمال الفنى  
من أطرافه ، ويتبجح منه فى الذُّرا والمقدّم ؛ وهذا مثل أختم به هذا الحديث ،  
من شعر الآنسة ، فدوى عبد الفتاح طوقان ، لا يحضرنى - الآن - غيره ، أقدمه  
شاهدا لما قلت ؛ وفيه غناء أى غناء .

من قصيدة عنوانها : لن يقعد الأحرار عن نارهم .

ستجلى الغمرة يا موطنى	ويمسح الفجرُ غواشى الظلم
والأمل الظامى ، مهما كذوى	لسوف يروى بلبيب ودم
فالجوهر الكامل فى أمتى	ما يأتلى يحمل معنى الضرم
هو الشباب الحر ذخر الحى	اليقظ المستوفز المنتقم
غُلُوا جناحيه ، وقالوا : انطلق	وشارفِ الأفق ، وُجز بالقمم
واستهضوه لاقحام اللظى	والقيد ، يا للثقيد ! يدمى القدم
لكنّ للنار غداً هبةً	جارقة الهول ، عصوفاً عمم ! (١)

\* \* \*

ومن قصيدة ، عنوانها : « تهوية صوفية » :

أىّ لحنٍ مسلسل رَقراق راح ينساب فى مدى الآفاق (٢)  
أيقظ الكونَ عند منبثق الفجر ر ، على غمرة من الأشواق

(١) مجلة الرسالة عدد ٨٤٤

(٢) تريد أذان الفجر : سبحان فائق الإصباح .

ولإذا الحب ملء هذا الوجود الرحـ ب يسرى في روعة وانطلاق  
 وإذا الكائنات يفرقها الوجـ د الإلهي في سنى الإشراق  
 السموات من حنين ووجد مُخَيِّتَاتُ خلف الغيوم الرقاق  
 والجبال الشماء تشخص نحو الله سكرى ، في لطفه المشتاق  
 وندى الفجر في الرياض الخوالى أذمُعُ الشوق رقرقت في المآقى  
 كل ما في الوجود من روعة اسم الله ، في نشوة ، وفي استغراق !

\* \* \*

كلما رنَّ في السكون صدى تسيحة الله رائع التردد  
 وسرث في الأثير أنغامها الطمُّ ر ، وأوغلن في الفضاء البعيد  
 أهطمت أنفُسُ ، وذابت قلوب يَزِدُّهَا الفناء في المعبود  
 وتسامى الشعور يلهب فيها تحلجات الإيمان والتمجيد  
 يا لهذا الصفاء ، يا تجلى الله ، يا روعة الجلال الفريد !  
 لكأنى بالكون يهتف : يا ر ب ! ويمضى مستغرقاً في الشroud  
 لكأنى أحسُّ وشك اتصالى لكأنى أشم عطر الخلود (١)

\* \* \*

هذا شعر خصب ، فيه جمال الجدة ، وجلال القُدْمة ، فيه الأخيلة الغريبة ،  
 والجزالة الشرقية ؛ ولو بشر المجددون بأمثال هذا الضرب من الشعر لقال  
 المحافظون : آمين ..

أما بعد ، فما يزال الأدب العربى بعامه ، والشعر العربى بخاصة ، بخير ،  
 ما بقى القرآن الكريم ؟

على هامس كتاب : ( ابن حنبل )

## شخصية الطبري

لحضره الكاتب الفاضل الأستاذ توفيق الفكيكي

المحامي ببغداد

هل كان الطوفي شيعياً ؟ وهل فكرته بتقديم المصلحة  
على النص الشيعة ؟ وهل يجوز عند الإمامية نسخ النصوص  
وتخصيصها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟ .

حضرة المفضل الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة المحترم :

تحية مباركة : أما بعد : فقد أسعدني الحظ بقراءة كتابكم القيم ( ابن حنبل ) وهو  
من فرائدكم العلمية الجليلة الممتازة ، وقد وجدته والحق يقال من أهم ما ألف في سيرة  
ذلك الإمام الجليل القدر ، والمجتهد العادل الفذ ، ذلك بما احتوته فصوله المهمة وبحوثه  
المفيدة الشائقة من الدراسات الفقهية العالية ، والمقارنات التشريعية النفيسة الغالية .  
وإن من المزايا الكثيرة التي امتازت بها مؤلفاتكم الثمينة عن غيرها من مؤلفات  
المعاصرين الأفاضل ما تعنون به من المقارنات الفقهية بين المذاهب الإسلامية ، ومن  
جلتها مذهب الإمامية من الشيعة الذي لم يكن مع الأسف لأقوال أئمتهم وآرائهم نصيب  
في الدراسات الفقهية والقانونية الحديثة إلا الإهمال ، ولم يهتم بذخائر أصحابه  
إلا أمثالكم من أصحاب الأقلام الجريئة والأفكار الحرة . وهذه النزعة الشريفة  
التي اتصفتم بها هي التي بعثتني إلى هذا التعليق على ما جاء في كتابكم بشأن :  
( نسخ وتخصيص النصوص في مذهب الشيعة الإمامية ) في باب المصالح المرسلة  
وما قصدت - بعم الله - إلا خدمة الحقيقة العلمية التي هي الصالة المنشودة لكل باحث

محقق وعالم مدقق يروم وجه الصواب . لهذا أرجو أن تسمحوا لي بكشف اللثام عن وجه الحقيقة ، وعما ذهبتم إليه من جواز نسخ النصوص عند الشيعة الإمامية بعد انتقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كما نطق بذلك كتابكم في باب المصالح المرسله أثناء مناقشتكم آراء « الطوفي » في الموضوع ، فقد ذكرتم بعد فراغكم من تلك المناقشة ما يأتي :

١ — « لم نجد من يجوز تخصيص النصوص بكثرة ، ونسخ بعضها بالاجتهاد إلا بعض الشيعة كالشيعة الإمامية ، فانهم لم ينهوا النسخ وتخصيص النصوص بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، بل أجازوا لأنهم مخالفتها بعلوم تلقوها ، ولقد وجدنا « الطوفي » يتأربهم لأنه جعل المصلحة تنسخ النصوص وتخصها ، فأحل المصلحة محل الأئمة ، والتقى الرأيان في أن النص بعد الرسول لا يزال قابلاً للنسخ والإخراج من عمومه إن وجدت مصالح على مسلك الطوفي أو رأى الإمام على مذهب الشيعة ، وبعد أن استقر رأيكم على أن الطوفي كان شيعياً في الفقه والأصول ، وأنه شرح الأحاديث على أنه فقيه حنبلي ، وكان يثبت في أثناء شرحها ما يؤيد به آراء الشيعة قلتم :

٢ — « وعلى ذلك نقرر أن مهاجمته للنصوص ونشر فكرة نسخها أو تخصيصها بالمصالح المرسله ، هي أسلوب شيعي أريد به تهوين القدسية التي تعطيها الجماعة الإسلامية لنصوص الشارع ، والشعية الإمامية يرون أن باب النسخ والتخصيص لم يفتق ، لأن الشارع الحكيم جاء بشرعه لمصالح الناس في الدنيا والآخرة . وأدري الناس بذلك الإمام .، فله أن يخصص كما خصص النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه وصي أوصيائه ، وقد أتى الطوفي في رسالته بالفكرة كلها ، وإن لم يذكر كلمة الإمام ليروج القول وتنتشر الفكرة . »

أقول : أما ما يتعلق بعقيدة الطوفي ونحلته فلا أريد الخوض فيه الآن وسأتناول ذلك في خاتمة الكلام ، وسواء أكان الطوفي شيعياً أم حنبلياً أم أشعرياً كما قيل فيه ، فليس هو المقصود في هذا التعليق الوجيز ، وإنما الحقيقة التي أريد

بيانها ورفع القناع عن وجهها لتسفر وضأة ناصعة ، هي : هل المصالح المرسله من أدلة الفقه الجعفرى ؟ وهل الشيعة الامامية يرون باب النسخ لم يغلّق بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ؟ وهل أريد بذلك عندهم تهوين القدسية التي تعطيها الجماعة الاسلامية لنصوص الشارع ؟ هذا هو الغرض من التعليق على كلام العلامة أنى زهرة ، أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول .

\* \* \*

من المعلوم أن أدلة الأحكام عند الشيعة الإمامية هي : (١) الكتاب (٢) السنة (٣) الإجماع (٤) العقل . أما القياس والاستحسان والمصالح المرسله والذرائع ، فلا معول على حجيتها عندهم ، ما لم ينص عليها الشرع ، أو يحكم بها العقل ، ودليل العقل لا يدخل فيه القياس والاستحسان والمصالح المرسله ، وكذلك (الاستصحاب) فليس من الأدلة العقلية عند المتأخرين منهم لأنهم اعتبروا حجيتها بدلالة الاخبار بعكس المتقدمين ، فكانوا يعتبرونه من الأدلة العقلية المتوقفة على الخطاب ، وهو المسمى باستصحاب حال الشرع ، وقد تناولته كتب أصول الفقه بإسهاب .

وأما اعتقاد الشيعة الامامية في الكتاب ، فهو القرآن العظيم كلام الله ووحيه وتنزيله ، وأنه ما بين الدفتين ، وهو ما في أيدي الناس لا أكثر من ذلك ولا أقل ، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرجى للقرآن نزول تنمة ، وأن في القرآن النص الظاهر والمؤول والمجمل والناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد ، وأن الحجة منه عندهم النص الظاهر دون المؤول والمجمل والمنسوخ.

أما السنة ، وهي قول المعصوم أو فعله أو تقريره وما نقل منها ، فالحجة منه بحسب السند ما كان متواتراً أو محفوظاً بقرائن توجب العلم بصدوره ، وعلى هذا فخير الواحد عندهم حجة متى روته العدول عن العدول ، أو كان محفوظاً بقرائن توجب الوثوق بصدوره ، وإلا فليس بحجة . وأما الإجماع ، فليس حجة بنفسه ، وتعتبر حجتيه عند دخول الامام في المجمعين أو الكشف عن رأيه من باب استكشاف قول الرئيس بقول أتباعه ، أو عند قيام دليل معتبر ، فالإجماع في

الحقيقة داخل في السنة ، لاتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أمر ديني ، وذلك لاعتقاد الامامية بعدم خلو عصر عن إمام ، وأنه رئيس أهل الحل والعقد ، وإجماع علماء الأمة حجة عندهم أيضا ، لكشفه عن رأى الامام كما يعلم قول الامام أحمد بن حنبل باتفاق الحنابلة ، وقول الامام الشافعي باتفاق الشافعية ، وقول الامام أبي حنيفة باتفاق الأحناف .

\* \* \*

هذا وإذا ما علمنا أن الحجة من ( الكتاب ) عندهم النص الظاهر دون المؤول والمجمل والمنسوخ فيكون الإمام بمنزلة المحدث ، والراوى الثقة العادل ، وليس بمشرع بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول هذا القول ، إذ كيف يجوز للإمام مخالفة النصوص أو نسخها ، وهو يعلم بأن حلال محمد صلى الله عليه وسلم حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة ؟ إليك ما قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام لأحد أصحابه ، فقد روى عن محمد بن سليمان بن الديلمي عن أبيه ، قال : سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد ، فقلت : جعلت فداك ، سمعتك تقول غير مرة ( لولا أنا لزاد لائئفدنا ) (١) ، قال : ( أما الحلال والحرام فقد والله أنزله الله على نبيه بكلامه وما يزداد الإمام في حلال ولا حرام ) قال : فقلت له ما هذه الزيادة ؟ قال : ( في سائر الأشياء سوى الحلال والحرام ) قلت : فتزدادون شيئا لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال منكرا : ويحك أيجوز أن يعلم الامام شيئا لم يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هذا ومن أصول الامامية عدم تغيير الأحكام إلا بتغيير الموضوعات ، أما بالزمان والمكان والأشخاص فلا يتغير الحكم ودين الله واحد في حق الجميع ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فهل يصح القول - بعد قول الامام الصادق عليه السلام - بأن الشيعة الامامية

(١) أنشد القوم على صيغة البناء للفاعل : فقد ما عندهم .

لم ينهوا نسخ النصوص بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وأنهم أجازوا لأنتمهم مخالفتها بعلوم تلقوها أو نسخ بعضها بالاجتهاد لتكوين القدسية التي تعطيها الجماعة الاسلامية لنصوص الشارع ؟ اللهم إلا إذا كان الشيعة الإمامية ليسوا من الجماعة الاسلامية المتمسكة بنصوص الشارع وقدسيتها والعباد بالله :

والدعوى ما لم يقيموا عليها      يئنا أنباؤا أدياء

\* \* \*

ثم إن الناسخ كما لا يخفى على فضيلة الأستاذ ، هو كل من الكتاب والسنة ، فينسخ الكتاب بالكتاب ، والسنة بالسنة ، والسنة بالكتاب ، والكتاب بالسنة فالأنواع أربعة ، وقد انفرد الامام الشافعي ، وأهل الظاهر ، بقولهم : إن السنة لا تنسخ الكتاب ، ويمكن معرفة الناسخ عند الحنفية بتخصيص الصحابة أيضاً . وإن الشيعة الإمامية لا يفترون عن الجماعة الاسلامية في جواز النسخ بالأنواع الأربعة ، غير أنهم يعتقدون أن الله تعالى بين بحسب الشريعة الإسلامية الغرام في كل واقعة حكماً ، حتى أرش الخدش .

وقد بين ذلك الأستاذ الأكبر الحجة ، الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه : أصل الشيعة وأصولها .

وقد ثبت أيضاً أن الاخبار المخالفة للقرآن والسنة ، أو التي لم يقل بها الامام كثيرة جداً ، ومن حق تلك الاخبار المخالفة طرحها وأن يضرب بها عرض الجدار ويجب غرلة الصحيح منها بطريق التعادل والترجيح عند تعارض الأدلة والامارات .

ثم إن تخصيص النصوص لم ينفرد به الشيعة الإمامية وحدهم ، وإلا لما وجد علم أصول الفقه ، ولكن الفرق بينهم وبين إخوانهم من الجمهور : كما قلنا آنفاً . وملة عدا ذلك فالإمامية وسائر المسلمين فيه سواء ، لا يختلفون إلا في الفروع ، كاختلاف أئمة أهل السنة فيما بينهم أو بين علماء الإمامية أنفسهم ، من حيث الفهم والاستنباط ، هذا وإذا ما فهمنا أن المراد من الاجتهاد هو استنباط الحكم الشرعي من تلك الأدلة



المتقدمة بعد مزاولتها واستفراغ وسع المجتهد فيها لحصول ملكة الاستنباط مع شرط العدالة ، فهل يبقى مجال للقول بأن الشيعة الامامية « أجازوا نسخ بعض النصوص بالاجتهاد لتهوين القدسية التي تعطيها الجماعة الإسلامية لنصوص الشارع ؟ » ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق .

\* \* \*

وإذا كان لا بد من الإشارة إلى حقيقة ( الطوفي ) نجم الدين البصرى البغدادي الحنبلي ، فهو على الرغم مما ذكره الأوائل الذين اعتمد على روايتهم فضيلة الأستاذ أبو زهرة والاستاذ عباس الغزاوي البغدادي في كتابه : « تاريخ العراق بين احتلالين » ، في تشيع الشيخ الطوفي باعتباره من المغالين في القول بالمصالح المرسله ، وأن أسلوبه في ذلك أسلوب شيعي ، فالحقيقة التاريخية لا تعضد ما ذهب إليه الفاضلان ، وذلك :

١ — ان الشيعة الامامية كما علمت لم يقولوا بالمصالح المرسله ، ولا بحجية الأدلة الأصولية الأخرى التي قررها الطوفي في رسالته ، ومن جملتها : (١) إجماع أهل المدينة (٢) القياس (٣) قول الصحابي بلا قيد (٤) العادات (٥) الاستقراء (٦) الاستدلال (٧) الاستحسان (٨) الأخذ بالأخف (٩) إجماع أهل الكوفة . فكل ذلك لم يكن من أصولهم حتى يلتقي الرأيان أو يتقاربا .

٢ — ان كتب الرجال عندهم على كثرتها لم تذكره في طبقات فقهاءهم ومحدثهم ، ولا في طبقات شعرائهم وأدبائهم أو في أى صنف من صنوف رجالهم وهم أشد الناس اهتماماً بتراجم أصحابهم وروائهم .

٣ — أما كونه قد انفرد برأى عن أصحابه الخنابلة ، أو كان قد تلمذ على أحد علماء الامامية في علم من العلوم - إن صح ذلك - فهذا الدليل على ضعفه ووهنه لا يستلزم القول بأن مهاجته للنصوص وتقديمه المصالح المرسله عليها في بعض الحالات قد استفاده من أسلوب الامامية ، بعد أن علمنا أن ذلك لم يكن من مذهبهم .

ولو أردنا أن نذكر أسماء العلماء والأدباء من أهل السنة الذين تخرجوا على أساتذتهم من الشيعة أو بالعكس ، لاحتجنا إلى تحرير مجلد ضخم ، ومن هؤلاء : نضر الدين الرازي صاحب التفسير الكبير ، فقد كان من تلاميذ أحد مشاهير فقهاء الإمامية وهو « سديد الدين محمود بن علي الحنصلي الحلي » كما أن « محمد بن مكي العاملي » المشهور بالشهيد الأول ، وهو من أعظم علماء الإمامية في المنقول والمعقول ، قد تلقى بعض علومه على أربعين شيخاً من علماء السنة ، وكلٌّ من نضر الدين الرازي والشهيد الأول ، مشهور في عقيدته ونحلته في قومه ، ثم من وافق الإمامية في عدم العمل بالقياس النّظام ، وجماعة من المعتزلة ، كيجي الاسكافي ، وجعفر بن مبشر ، وجعفر بن حرب ، وإمام أهل الظاهر ابن حزم الاندلسي ، وداود الظاهري وكلهم من أهل السنة ، فهل استقى هؤلاء آراءهم في إبطال القياس من أصلي شيعي ياترى ؟ على أن أثار الطوفي الكثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله ، كافية لهدم أقوال المتطرفين من أصحابه فيه لرأي غالي به في المصالح المرسلّة كما يقولون ، ويقرب منه قول الحنفية بتخصيص النص العام بالعرف العام ، لدفع الحرج والمشقة والضرر . وكذلك قول المالكية بجواز الاحتجاج بالاجماع وتقديمه على النص ، ومنهم من قال بجواز نسخ النصوص بالاجماع .

ونكتفي الآن بهذه العجالة ، وما قصدنا بها إلا تأليف القلوب ، وخدمة البحث العلمي ، والله تعالى من وراء القصد ، وهو الموفق للصواب ؟

## تَحِيَّةٌ إِلَى الرُّوحِ الْعَالَوِيِّ

من الذكريات التاريخية التي يذكرنا بها شهر رمضان ؛ ذكرى مقتل الإمام الشهيد علي بن أبي طالب عليه سلام الله ورضوانه ، فقد طعنه الشقي عبد الرحمن ابن ملجم طعنة مُصْميّة لا يزال يضطرب لها كل قلب يؤمن بالله واليوم الآخر، وينطوى على حب رسول الله وآله الكرام .

إن عليا كرم الله وجهه هو الإمام الذي التقت على حبه وإجلاله جميع الطوائف الإسلامية ، فلن تجد اليوم في شعب من شعوب الاسلام إلا قلوبا على ذكره حانية ، ويعلموه وآثاره الطيبة ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُدلة فاخرة ، وقد كان عليه صلوات الله ورحمته مرموق المكانة بين جلة الأصحاب مقدماً فيهم ، مستشاراً ، ناقد الرأي ، نافذ البصر ، صادق الفراسة ، ذرب اللسان ، قوى الجنان ، متمسكا بالحق ، زاهدا في الدنيا ، كثير الخوف من الله ، أميناً على ما ائتمنه عليه ، لم يحاب فيه أحداً من الناس حتى أخاه .

إن من الولاة مَنْ يعملون لدولتهم ، ومنهم من يعملون لآمتهم ، فالعاملون للدولة هم الذين يعملون مهم حفظ سلطانهم ، وتثبيت أقدامهم ، وتوجيه كل شيء إلى أنفُسهم وأبنائهم وأهلبيهم ، أما العاملون لآمتهم فسواء عليهم أئبست في الملك والسلطان أقدامهم أم تزلزلت ، فإنما يرجون الصلاح والخير لهذه الأمة ، ويرتادون لها الطيبات ، ويحرصون على أن يكونوا فيها خلفاء الله حقاً ، فهم خدامها المخلصون، وكلاؤها الناصحون، لا يذكرون أنفسهم، ولا يحفلون بأشخاصهم ولا يدورون مع أساليب السياسة حيث دارت ، ولا يلتنون مع أهوائها حيث التوت . أولئك مُثل الحكم الصالح ، وألوية القيادة الرشيدة الموفقة ، ومناهب الخير واليمن يفيض الله بها على من يشاء .

وكذلك — لعمر الحق — كان أبو الحسن ، فإنه لمن الراشدين الموقنين الذين أَدَّوا الأمانة ، ونصحوا الله ورسوله وللمسلمين ، وعاشوا الله ، ومانوا في سبيل الله ، ولم تأخذهم الدنيا ببريقها الخادع ، وسرابها اللامع ، وما كان ابن أبي طالب بغيرَ مجهل أفانين السياسة ، ولا ينكس يضعف عن تحمل التبعات ، ولو شاء لكان ملكاً جباراً يبطش بأهل عداوته ، ويتلطف لأهله وخاصته ، ولكنه آثر الله ، وأبغى ما عنده ، فكان لدينه وأمته ، ولم يكن لمُلْكِهِ ودولته .

وهذا ضرار الصدائى يصفه فى مجلس معاوية فيقول « كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً . يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلبُ كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا ، يمجينا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استبأناه ، ونحن مع تقريره إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا يئس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثلَ فى محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتملّل تملّل السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا ، إليك عني ، غرّيتى غبرى ، ألى تعرضت ؟ أم إلى تشوقت ؟ هيات .. هيات ! قد بايتك ثلاثاً لارجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك حمير ، وخطبك يسير ! آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق . »

وإن معاوية ليسمع هذا الوصف فيبكي ، حتى تبطل لحيته بدموعه ، ويقول : رحم الله أبا الحسين ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من دُبح واحداً فى حجرها !

فسلام الله ورحمته وبركاته على هذه الروح الطاهرة ، سلام عليها فى عليين ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ؟

## (١) الوزير نظام الملك ووجهة المسلمين

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور يحيى الخشاب  
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

كان يلقب بقوام الدين ، كما كان يلقب بنظام الملك ، وذلك أنه لم يكن بارعا في السياسة والوزارة والنهوض بأعباء الملك بحسب ، وإنما كان أيضاً عارفاً بالدين ، مشاركاً أهله في مجالسهم ومناظراتهم ، حريصاً على العلم وأهله ، مولعاً بما يولع به الزعماء المصلحون من تقويم الأفكار ، وغرس المبادئ الصالحة في الشعوب ، ومحاربة عوامل الضعف والسقوط أينما ظهرت .

وبدأ نظام الملك حياته العملية مع الأمير ، ألب أرسلان ، ومضت الأيام مسرعة ، وورق ، ألب أرسلان ، عرش السلاجقة ، وأصبح كاتبه وزيراً لا كبير دولة إسلامية في القرن الخامس .

كان نظام الملك بعيد النظر ، واسع الأفق ، شديد الإحساس بما يدور بيلاده ومن حول بلاده : رأى الأمة الإسلامية مقسمة إلى خلافتات ثلاث : خلافة بغداد ،

(١) هو الوزير الخطير ذو النظر الثاقب ، والرأى الصائب : أبو علي الحسن بن اسحاق ابن العباس الطوسي ، نسبة إلى طوس بخراسان ، إحدى مقاطعات إيران ، واتصل بدواد ابن ميكائيل السلجوقي ، فأخذ يده وسلمه إلى ولده ألب أرسلان ، وقال له يا محمد ، هذا حسن الطوسي آتخذه والدا ولا تخافه ، فلما وصل الملك إلى ألب أرسلان استوزره فديرملكه عمر سنين ، ومات ألب أرسلان فوزر من بعده لابنه ملكشاه نحو عشرين سنة ، وتوفي سنة ٤٨٥ هـ ، وعمره ست وسبعون سنة :

وخلافة مصر، وخلافة الأندلس، ورأى العالم المسيحي يتآمر على هذه الأمة المسلمة، وتربص بها الدوائر، وكان ذلك عصر التهديد للحروب الصليبية.

وكانت البلاد الإسلامية قد أصيبت يومئذ من التفرق والتعصب بداء عضال قد تغافل في صميمها، وأصبح العلماء فيها مولعين بالجدال والمناظرات، وأن يتحدى بعضهم بعضاً في المجالس والمدارس، كانوا يختلفون في الفقه والكلام خلافات حادة، ويحترقون حرباً مضنية، ويجرثون وراءهم العامة جرأً، حتى كثرت الفرق وتباينت، وكل فرقة تبغى الغلب والظفر بخصوصها، وتحرض من تستطيع تحريضه من الأمراء والوزراء على مخالفتها، وكان الوزراء والأمراء من جانبهم يؤثرون هذه العداوات، ويشجعون تلك الخصومات، انتفاعاً بما يجنون منها من شغل العامة، والتحكم في الخاصة.

وأدرك نظام الملك ما في ذلك من الخطر، وفهم ما ينطوى عليه هذا التفرق والاختلاف الحاد من تصوير للإسلام في نظر خصومه والمتربصين به، بصورة تخالف حقيقته، وتعين على هدمه، إن دين الله واحد لا خلاف على أصوله، وإن الفتن التي تفرق بين المسلم وأخيه. لا تتصل بركن من أركان هذا الدين، ولا يبعثها في كل حال حرص عليه، إنما هي النزوات والشهوات، نزوات الجهل وشهوات التعصب، فحرص على أن يصلح هذه الأحوال المضطربة، وصمم على أن ينقذ الأمة من وبيلات الخلاف والشقاق، وعلى أن يبيت في أهل العلم روحاً من التسامح والهدوء في البحث. والتخلص من شوائب التعصب، وأن يرتفع بهم عن الحزازات واصطناع المكائد والفتن.

ولإذ أردنا أن نعرف إلى أي مدى كان الخلاف قد استبد بالعلماء، وشغلهم وعطل مواهبهم، وأفسد العلائق بينهم؛ فلنقرأ تاريخ العلماء والفقهاء والمتكلمين. في النصف الأول من القرن الخامس، وفي ذلك يقول ابن السبكي في ترجمته للقشيري: «ومن جملة أحواله ما خص به من المحنة في الدين والاعتقاد وظهور التعصب في عشر سنة أربعين إلى خمس وخمسين وأربعمائة، وميل بعض الولاة

إلى الأهواء ، وسعى بعض الرؤساء والقضاة اليه بالتخايط ، حتى أدى ذلك إلى رفع المجالس ، وتفرق شمل الأصحاب ... حتى طلع صبح النوبة المباركة ، دولة السلطان ألب أرسلان في سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، فبقي عشر سنين في آخر عمره مرفها محترما مطاعا معظما ، (١) .

وقد ذكر مثل هذا في ترجمة إمام الحرمين عبد الملك الجويني ، كما ذكر مثله في ترجمة أبي سهل بن الموفق .

وقد أعان نظام الملك على دعوته ما عرف عنه من الصلاح والتدين وحب العلماء ، فقد كان يقدمهم ويقف لإجلالهم ، وربما تنازل عن مُسندِه لإكراماً لبعضهم ، كما كان يفعل إذا قدم عليه إمام الحرمين أو القشيري أو الفاروقندي الواعظ ، وكان إذا سمع الأذان أمسك عن جميع ما هو فيه ، وكانت له فوق ذلك ميول صوفية ، ووقائع أحوال تدل على هذه النزعة .

وعرف العلماء والفقهاء رغبته في التقريب ، وجهه لطرح الخلاف ، ونبذ التعصب ، فجروا في مضماره ، وتقربوا إليه بما يجب ، وقد روى التاريخ لنا في ذلك حكاية طريفة ، هي أن عبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني شيخ المعتزلة ، دخل عليه يوما ، وكان عنده أبو محمد التيمي ، ورجل آخر أشعري ، فقال له القزويني : أيها الصدر ، لقد اجتمع عندك رموس أهل النار ، قال نظام الملك : وكيف ذلك ؟ قال : أنا معتزلي ، وهذا مشبّه - يعني التيمي - وذلك أشعري ، وبعضنا يكفر بعضا ! فضحك النظام (٢) .

والمغزى من هذه الواقعة أن العلماء وصلوا إلى حد التفكك بأخبار الخلاف في مجلسه ، وأخرجوا الأمر فيه مخرج المرح والدعابة ، وشتان بين هذا وما كان من قبل من عنف وحدة وقطيعة .

وقد استعان نظام الملك على دعوته أيضا بوسيلة نعتبرها حديثة في خدمة

(١) ص ٢٥٤ ج ٣ من طبقات الشافعية الكبرى طبعة المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٤ هـ

(٢) النجوم الزاهرة ص ١٥٦ ج ٥ طبع دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٣ هـ .

المبادئ والدعوة لها ، هي إنشاء المدارس ، وحشد العلماء لها ، كي تكون مصدرا للإقناع والتعليم والدفاع ، وهذا ما فعله نظام الملك ، فقد أقام المدارس النظامية ، وافتتح نظامية بغداد بنفسه ، وأشرف على هذه المدارس وأولاهها رعايته ، وتوسع في إنشائها ، ووقف عليها الأموال التي تضمن استمرارها من بعده .

ومع أنها كانت في أول أمرها غير مرضية من العامة وبعض العلماء ، فقد درس بها كثير من الأئمة وأفاضل الأمة ، كأبي بكر الشاشي ، وحجة الاسلام الغزالي ، وأبي نصر بن الصباغ ، وأبي اسحق الشيرازي ، وغيرهم .

« وفي سنة ٤٧٩ هـ ، دخل السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بغداد ، ونزلا بدار المملكة ، وزارا مشهد الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق المتوفى ببغداد سنة ١٨٣ هـ ، وقبره هناك في الجانب الغربي مشهور بزار ، وعليه مشهد عظيم ، وزارا كذلك قبور جماعة من الأئمة والصالحين ، كمعروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ هـ . والامام احمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرها من القبور المعروفة ، فقال ابن زكرويه الواسطي يئس نظام الملك بقصيدة منها :

زرتَ المالكَ زُورَةً مشهورةً أرضت مضاجع من بها مدفون  
فكأنك الغيث استهل بتربها وكأنها بك روضة ومعين  
فازت قداحك بالثواب وأنجحت ولك الإله على النجاح ضمين

وخلع الخليفة على نظام الملك ، ودخل إلى المدرسة النظامية ، وجلس في خزانة الكتب ، وطالع بعض ما فيها ، وسمع الناس عليه في المدرسة جزء حديث ، وأملى جزء آخر (١) .

ولاشك أن هذا الصنيع من السلطان ووزيره نظام الملك ، فيه كثير من الباقية والكياسة والتوجيه .

وقد كانت المدارس النظامية متبنة في العراق وإيران وأفغانستان ، وكان التعليم

(١) وفيات الأعيان هامش ص ٣٩٩ من الجزء الرابع طبعة دار المأمون بالقاهرة



فيها يجرى كأحسن ما يكون التعليم في عصرنا الحديث ، وكان الأساتذة هم الصفوة المختارة من العلماء ، وكان للطلبة بيوت يسكنونها ويرجعون إليها بعد الفراغ من الدرس ، وكانت لهم أرزاق تجرى عليهم ليفرغوا إلى العلم ، وكان لهم زى يميزهم وكان يباح للجمهور أن يستمع إلى بعض الدروس ، فأقبل الناس عليها ، واستنارت العقول ، ومن تعلم علّم غيره ، وهكذا وجد الشعب الإسلامى طريقاً إلى نور المعرفة ، وإدراك حقيقة الدين ، وهكذا ضربت الدولة في صدر العصيات والتفرق ويسرت للركب العلى سبيلاً سوياً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

وأراد نظام الملك أن يوحد الخلافتين ، العباسية والفاطمية ، فبدل في ذلك جهده ، تارة بالدعوة السلية وتارة بالجند . وهدفه الوحيد في كل هذا أن يتحد أهل هذا الدين لتقوى أمتهم ، ويعود إليها ما لها من عزة واستقامة ومنعة .

واليوم نرى الدول الغربية تتحد لمقاومة النازية مثلاً ، فتتخذ من المسيحية جامعاً يؤلف قلوب أممها ، ويوحد كلمتها وتصور النازية ، كما تصور ما لا تحب من المذاهب السياسية ، بصورة الخارج على المسيحية ، كي تزيد في بغض الناس لها ، وكي تركز جهود المسيحيين ، وتؤلبهم عليها ، فهي تتخذ من دينها ذريعة لدينها . ولا يقولون أحد إنها تتخلف عن المدنية حين تنادى بالمسيحية ، فهي الأمم صاحبات المدنية ، وهي الأمم الداعيات وقت الحرج والخوف ، إلى المسيحية .

أفلا نتعظ بالغرب ، ندعو دعوة الحق ، وتناخى وتنازر ، ونعمل بمبادئ ديننا ، ونقيم قواعد الاجتماع والسياسة في ديننا على أساس مما أوصانا به الإسلام المجيد .

إنما ندعو إلى العمل بما في الإسلام من مبادئ قوية ، كل دولة في حدودها ولمصالحها ، يشد بعضنا أزر بعض ، إذا عرض لنا أمر أمام جماعة الأمم . ويؤثر بعضنا البعض ، إذا وجب الإيثار ، ويشجع بعضنا البعض لتنمو مواردنا ، وتعمل الأيدي العاطلة فينا . وليكن الإسلام جامعاً بيننا ، وهدى لنا .

ورحم الله نظام الملك ، أول من نصر هذا الرأي ، وعمل له ؟

## عناصر وجود الأمة الإسلامية

لحضره صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

— ٣ —

(٢) وأما جبر المسلمين غيرهم على معتقداتهم فهذا أمر لم يحدث إطلاقاً ويشهد بذلك المؤرخون من غير المسلمين ، ومن شاء فليعطنا مثلاً واحداً أرغم فيه شخص على اعتناق الإسلام .

وما كان ذلك ليحدث من قوم يعلن كتابهم الحرية الفكرية وحرية الاعتقاد بشكل لم تعرفه الإنسانية من قبله ؛ وقد جعل للدعوة إلى الله سبيلاً واضحاً لا لبس فيها ، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، فدعا أرباب المعرفة والعلم إلى النظر في سنن الكون ، وفرض لهم الفروض ، حتى إنه ليفرض تعدد الآلهة ليقرر الوجدانية « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » . « أله مع الله » ؟ ثم قرر قضية لا تحتل الجدل « لا إكراه في الدين » . قد تبين الرشد من الغي ، « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » . فهل وراء ذلك قول متحامل على الإسلام ؟

ولقد كان منهج الداعين إلى الله في فتوحاتهم منهجاً عادلاً غاية العدالة : « لسنأ نطلب منكم إلا واحدة من ثلاث : الإسلام . ولكم مالنا وعليكم ما علينا ، أو الجزية . وأنتم في ذمتنا وحمايتنا ، أو الحرب حتى يحكم الله بيننا » .

ولم تكن الحروب الإسلامية مجرد عدوان أو رغبة في التوسع والاستعمار ، فقد حدث أن قائد الفرس « رستم » سأل المسلمين . فإذا أعطيناكم هذه : « الإسلام ، فإذا تفعلون ؟ قالوا : ندعكم وبلادكم ونجوزكم إلى غيركم .

على أن المسلمين لو وجدوا سلاما لما حملوا سلاحا . أليس من حقهم أن يؤمنوا بدعوتهم ويحموها ويدفعوا عنها خصومها ؟ أليس من العدالة - وقد قرروا الحرية المطلقة للناس أجمعين - أن تتاح لهم الظروف لاستعمال حريتهم ، وأن يمكنوا من الدعوة إلى الله في سلام ؟ ثم إذا منعهم الناس من حقوقهم فحملوا السلاح لحماية أنفسهم ودعوتهم ، قيل إنهم أهل جبروت (١) !

والحق أن القرآن الكريم هو أول أستاذ للعقل البشرى . قرر الحرية والأخوة والمساواة للإنسانية كلها . وجعلها عناصر لا بد منها لوجود الأمة الإسلامية ، وربطها بالدين ربطا لا مجال للتخلص منه أو إهداره ، إلا بالتخلص من الدين وإهدار تعاليمه ، وجعل هذه الحقوق الإنسانية هبة إلهية لا منحة بشرية ، وجعلها فطرية من مقتضيات وحدانية الخالق ووحدة الأصل . لا مكتسبة بالثورات الشعبية ، فإذا سولت للناس ظروفهم المدنية إلغائها أو الحد منها لدوافع مدنية وجدوا أنفسهم ملزمين بالحفاظ عليها ، وفك عُقْلُهَا لمقررات دينية ! وهذه أول مرة يُكرَّم فيها الإنسان ، وتقرر فيها تلك المبادئ بشكل يضمن للجمع الذي تسود فيه حياة أمن وسلام ، وعدل ورخاء (٢) . وإذن فليس حقا ما يزعمه الزاعمون من أن ثورة الفرنسيين في القرن التاسع عشر الميلادي هي التي أعلنت « حقوق الإنسان » ، ولا يبعد - بل هذا هو اعتقادي - أن هذه الثورة قد استمدت ما أعلنته من تعاليم الإسلام ! إذ أن « روسو » صاحب انجيل الثورة ممن تتلذذوا على مبادئ الإسلام ، وتوحي إلينا بذلك عباراته : « كان لمحمد آراء في منتهى الحكمة . وقد أحكم أطراف مذهبه السياسي ، وكانت الحكومة في عهد خلفائه موحدة متينة الدائم ، ما احتفظت بالشكل الذي وضعه لها ... » (٣) .

(١) راجع القرآن والقتال للأستاذ الشيخ محمود شلتوت .

(٢) راجع مقالنا الإسلام والحكم ، في العدد الرابع والخامس من مجلة الشبان المسلمين

« نوفمبر سنة ١٩٤٦ »

(٣) العقد الاجتماعي . الكتاب الرابع . الفصل الثامن .

## ٣ — التضامن الجماعى والمسئولية المشتركة :

تقررت الحرية والأخوة والمساواة بين الناس كافة وبين المؤمنين خاصة ، فهل فى الإسلام ضمان من سوء استعمال هذه الحقوق ؟ .

لم يشأ الإسلام أن يدع لكل فرد تحديد مدى حريته ومساواته حتى لا يطنى على حريات الآخرين ، فيكون الفساد من حيث أريد الإصلاح ، والظلم عن طريق الرغبة فى تحقيق العدالة ، ولكنه جعل لذلك شرعة ومنهاجا ، فربط بين المسلمين برباط جديد - لم تعرفه الإنسانية من قبله ، ولم تصل إليه تماما بعد - هو التضامن الجماعى لخير الجميع ، والمسئولية المشتركة عن صالح الجميع ، تقرر هذا نظريا وطبق عمليا بنجاح عظيم منذ القرن السابع الميلادى وهاك حديثه .

يقصد بذلك المبدأ . تكليف الفرد بالنظر إلى نفسه على اعتبار أنه عضو فى أسرة يحتاج إليها وتحتاج إليه ، لا على اعتبار الفردية المطلقة ؛ وتكليفه بتوخي صالح المجموعة فى كافة أعماله ، وأن يرعى شئون غيره بالعدل ، وألا يدفعه بغضه لشخص أو جماعة إلى ظلمها ، وأن يدفع الضرر ما استطاع عن أخيه الفرد وعن المجموعة ، ووعد الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة حسن الجزاء فى دار البقاء : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، لأن الشح ربيب الأثرة الداعية إلى الفردية والظلم والعدوان ، وفى هذا المعنى يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه » . « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وجعل المسلمين فى تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا أصيب منه عضو ، لحق الأذى الجسم كله : « وأصل ذلك ما ورد فى القرآن الكريم من حض على التعاون والبر والاحسان كقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وقوله : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، وقوله : « وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » ، إلى غير ذلك من آيات كثيرة فى هذا المعنى الذى يوجب على الفرد والجماعة ، ابتناء الأعمال على رعاية مصلحة الجميع ، ولا أكاد أعرف

حكماً إسلامياً - إيجابياً أو سلبياً - لا يقوم على المصلحة ، أو لا يعمل بالمصلحة في الفعل والترك ! وهدف ذلك كله ، جعل وحدة الأمة قوية متماسكة ، تسخر لمصلحتها جهود الفرد ، وتسخر جهودها لمصلحة الفرد ، الفرد يخدم الجماعة - الأمة - ويرعى صوالحها ، والأمة تخدمه وتحفظه وترعى صوالحه ، فإذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الأمة ، كان لمصلحة الأمة المحل الأول في الاعتبار ، ولقد ضرب الرسول الكريم مثلاً رائعاً يوضح لنا مبلغ اعتبار هذا التضامن الجماعي لمصلحة الجميع ، والحد من حرية الفرد أو تقييد مصلحته بمصلحة الجماعة بقوله : « إن قوما ركبوا في سفينة ، فانقسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع . فجاء رجل منهم فقصر موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء ، فإن أخذوا على يدي نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا . » وهكذا ربطت مصلحة الفرد بمصلحة الجماعة ، ووجب على الجماعة رعاية صالح كل فرد حتى لا يهلك قهلك الجماعة ، كما أن عليها أن تستيقن من أن تصرف الفرد الخاص يحقق مصلحته ، ولا يؤدي إلى هلاكه ، ومن ثم صرح الحبر على السفهاء الذين لا تضمن تصرفاتهم مصالحهم أو تضر بمصالحهم ومصلحة الجماعة .

وتبدو مظاهر هذا التضامن بين الفرد والأمة في ثلاثة أمور قررها القرآن الكريم بعناية تامة ، ودعا إليها كثيراً في أكثر من موضع ، وهي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وشئون الحكم ، والتنظيم الاقتصادي للإسلام ، وإني محدثك عنها بإيجاز .

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله ... » وهذا الأمر والنهي هو المعنى بقول الرسول الكريم « الدين النصيحة لله ورسوله ، ولأئمة المؤمنين وعامتهم » فهو النصيحة والإرشاد . والتواصي بالحق والصبر بالمرحمة ، والأمر والنهي ، أو النصيحة ، سلطة عامة ، لا حدود لاختصاصاتها ، وإن كان لها آدابها ، وهي حق لكل مسلم يرى نفسه أهلاً لها ، وصالحاً لمباشرتها ، بحيث يكون سلوكه قدوة في الخير والبر ، ملتزماً لكل معروف

يأمر به ، بعيداً عن كل شرمكر ينهى الناس عنه ، أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأتم تلون الكتاب . أفلا تعقلون ، وهذه السلطة هي حجر الزاوية في هذا التضامن ، وهي بحق — كما يقول المغفور له الإمام الشيخ محمد عبده (١) : إنها السلطة الوحيدة التي جعلها الإسلام لأذن المسلمين ، يقرع بها أنف أعلام ، ولو باشرها مسلوا اليوم كما باشرها أسلافهم القدامى لتحقيق لهم ما يصبون إليه من وحدة وعزة وحب وسلام .

ولقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه وخلفاؤه مثلاً عالياً في الاستماع إلى الناصحين والمشيرين ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ينزل على نصيح الحجاب بن المنذر في معركة بدر ، وعلى نصيح سعد بن معاذ يوم الأحزاب ، وغير ذلك مما هو معروف في مواطنه ، وعمر يقول : مرحباً بالناصح غدواً وعشياً أبد الدهر ، ويأمر المؤمنين ألا يتقيدوا بوقت ، وألا يتخرجوا من نصحه في أى موطن وفي أى مكان في المسجد أو المنزل في الليل أو في النهار ، في مجلس أو في طريق ، ولقد كان المسلمون يرون النصيح واجباً شرعياً ، حتى إن أحدهم ليلقى عمر في بعض شوارع المدينة ، فيناديه : والله إنك لما أخذ بعمالك يا عمر ! فيقول : ويحك ما هذا ؟ فيقول الرجل : إن عاملك عياض بن غنم يأكل الطيب ، ويلبس اللين ، ويركب الفاره ! فيقول عمر : ويلك ! أو اش أنت ؟ فيقول : بل ناصح مؤدٍ ماعليه ؛ ويقول عثمان بن عفان : والله لو ردني النصيح عبداً لاستنت بسنة العبيد ، ومنهج علي بن أبي طالب في النصيح والتناصح معروف لكل إنسان ، ولكبار علماء الصحابة والتابعين في ذلك مواقف مشهورة مشكورة مع الأمراء في كافة العصور . حيث كان للمسلمين أمة ودولة وعزة .

### الإسلام ونظرة إلى الحكم :

لعل الإسلام أول من قرر أن الحكم خدمة عامه للمحكومين ، وأول من ربط

مسائل الاجتماع بشئون السياسة والاقتصاد . فالحكم في الإسلام خدمة عامة للأمة وليس تحكماً فيها ولا سيادة عليها ، وهو يقوم في نظر القرآن على العدل والإحسان ، ثم هو أمانة ، يجب أن تؤدي إلى صاحبها على أكمل الوجوه وأسلمها . ثم يكمل هذا الحكم إلى الأمة نفسها ، ويكلفها أن تسير فيه على نهج مرسوم ، ليس لها أن تحيد عنه ، وهو نهج العدل الذي يضمن خير الفرد والمجتمع ، ويخاطبها في شأنه بأسلوب يحمل على الاستجابة ورفض دواعي التحلل من العدالة . فيذكر العدل مرتين مقروناً بكلمة « إن الله يأمر » ليؤكد طلبه ، ويدفع القلوب المؤمنة إلى الاستجابة لداعيه ، بينما لم يستعمل هذا الأسلوب الأخاذ في غير طلب الحكم بالعدل من الأمة « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمًا يعظكم به » ، « إن الله بأمر العدل والإحسان » .

ويجعل الإسلام للأمة حق اختيار حكامها ، اختياراً يقوم على الرضى لا على الضغط والقهر ، كما أن لها حق مراقبتهم ، ومحاسبتهم ، وعزلهم إن لزم الأمر ، وأعطاهما من السلطان ما لم يعطها أى دستور بشرى ، وقرر فقهاء الإسلام أن الحاكم مجرد نائب عن الأمة (٢) ، ويقول عمر : إن منزلته من الأمة كنزلة والى اليتيم منه ومن ماله ، ليس له عليه سيادة ، وليس له معه إلا حسن التربية ، وحسن الإرشاد والرعاية ؛ واعتبروا « الخليفة » واحداً من المسلمين تجرى عليه الأحكام في كل ما يجترحه من إثم ، فيؤخذ بالفصاح إذا قتل ، ويلزم بما يتلفه من أموال غيره ، وتقام عليه الحدود إن سرق أو زنى . ويقول القفال الشافعى صراحة : إن الأمة التى ولته هى التى تقيم عليه الحدود ، وحمل الأمة من مسئولية الحكم ، مثل ما يحتمل الحاكم نفسه أو أكثر وتوعد النبى الكريم المؤمنين إذا هم

(٢) راجع فى ذلك البدائع للكاسانى ج ٧ ص ١٦ ، معنى المحتاج على منهاج النورى .  
 القسرينى الخطيب ج ٤ ص ١٤٠ وتحفة المحتاج للتهنى ج ٩ ص ١١٥ ، وشرح المقاصد ج ٢ ص ٢٧٢ والمواقف ج ٨ فصل الإمامة الكبرى ، وحاشية ابن عابدين ج ٣ كتاب الحدود ، والحدود والإمامة فى كتب الحديث ، وفقه القرآن والسنة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

وجدوا ظلماً في أمته - وفيهم من يستطيعون أن يغيروا فلم يغيروا - بعذاب يعمهم من عند الله ، كما قال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ولقد طبقت هذه المبادئ عملياً ونجحت أيما نجاح ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسلم ظهره أو صدره لرجل ضرب ظهره أو دفع صدره ليقص نفسه منه ، وهذا أعرابي يقول له : يا محمد ، أعطني من مال الله الذي أعطاك . لا من مال أبيك ! وهذا آخر يقول له وهو يتسم مالا : اعدل يا محمد ! فيجيبه في بساطة المؤمن المعلم : « ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل » ، وقد اقتدى به أصحابه عليه الصلاة والسلام بمن حكمتهم الأمة في أمورها ، فأبو بكر يقول : « إني وليت عليكم ولست بخيركم » ، وعمر يقول : من رأى منكم في أعوجاجا فليقومه ، فيقال له : لو وجدنا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فيحمد الله أن وجد في أمة محمد من يقوم أعوجاج عمر بسيفه . ثم يعطى درته لرجل خفق رأسه بها بلا جريرة ويقول اخفقتي بها أو خذ عوضها أو تصدق فإن الله يجزي المتصدقين ، وعثمان يعطى أذنه لعبد من عبيده عرك أذنه ويقول : أشدد لحبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة ، ويعبر عمر عن حقيقة مركز الحاكم من الأمة بقوله للأشعري : « إنما أنت واحد من الناس ، غير أن الله جعلك أنقلهم حلا (١) » ، ونظرة الاسلام هذه لا تندع مجالا للشك في أن الأمة التي خوطبت بالتكاليف العامة هي مصدر جميع السلطات لكل من يتولى شيئا من أمورها باسمها ، و فرق كبير بين الأسس التي بنى عليها الاسلام فكرته في الحكم وسلطات الأمة ، وبين الأسس الفرضية التي قامت عليها مثل هذه النظرية عند العلمانيين .

### التنظيم الاقتصادي :

ولست الفلسفة السياسية الحديثة هي التي ربطت السياسة بالاقتصاد ، فتلك حقيقة إسلامية مقررّة منذ ظهر الاسلام ، ولنا نجد ربطا للاجتماع



بالسياسة والاقتصاد على هذا النمط الاسلامي الذي يلزم الناس به على أنه دين واجب التنفيذ ، لا كمال أو إسعاف يجوز الالتجاء إليه عند الحاجة ، وللإسلام في ذلك طريقة فريدة ثابتة لا تتغير ولا تبدل ، بتغير الزمان والمكان ، فهو يفرض « الزكاة » ، قدرا محددًا على أنصبة مقدرة محددة بنسب معقولة جدا ، لا ترمق الغنى ولكنها تسعف الفقير ، وتسد معظم حاجات الدولة ، ولا سبيل للتخلص من هذا الفرض إلا إذا وجد سبيل للتخلص من كل الفروض الجبرية كالصلاة والصوم والحج مثلا ، ولهذا انفق صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم على محاربة مانعي الزكاة بعد موت الرسول الكريم ، لأن الله لم يجوز الإيمان ببعض الكتاب ، والكفر ببعض .

ومن ناحية أخرى أراد الإسلام أن يمرّن المسلمين على عمل الخير ويوجههم إلى التراحم وجهة عملية تكون مجالا للتنافس الإنساني ، فأوجب على الأغنياء والموسرين مواساة إخوانهم الفقراء والمحرومين من فضول أموالهم ، وسمى ذلك صدقة ، أو قرضا حسنا لله ، أو الاتفاق في سبيل الله ، وجعل ذلك من صفات المؤمنين المخلصين ، ووعد عليه بحسن الجزاء ، وترك تقدير ذلك للنفقين ، يقدر كل منهم ما يجب عليه حسب سعته وحاله ومبلغ صدقه في إيمانه ؛ وتوعد الأغنياء الذين يخلون بما أعطاهم الله من فضله بعذاب عظيم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون . »

ولقد لاحظ عمر بن الخطاب في أواخر أيامه . أن تقدم الزمن بالمسلمين ، وابتعادهم شيئا فشيئا عن عصر الرسالة الهادية ، لم يجعل المواساة على حالها فقال : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم لجعلتها - أو قسمتها - في الفقراء ، ثم جاء أبو ذر الغفاري الصحابي الجليل ، فرأى أن الأغنياء لا يحل لهم الإبقاء على شيء من فضول أموالهم ، ودعاهم إلى الزهد ، بالتخلص

من هذه الفضول ، وهي مغالاة في الزهد من أبي ذر ، إلا أن الذي لا مزية فيه أن الله جعل في أموال الأغنياء حقا للمحرومين ، وترك للأغنياء كما قلنا أمر تقديره . وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، فعليهم حق معلوم معروف مقرر في أموالهم غير أن تقديره لصاحب المال (١) .

والتأمل في المصارف التي عينها القرآن الكريم لتتفق فيها أموال الزكاة والصدقات ، يؤمن إيماناً قوياً بهذا التضامن الجماعي الذي نتحدث عنه . إننا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل . فريضة من الله ، والله عليم حكيم ، ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ؛ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين . وآتى المال على حبه ، ذوى القربى . واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب . . . فأتت تجدد القرآن لم يدع جهة حاجة موجودة أو محتملة ، إلا عينها ، وأوجب على الأمة سد حاجتها ، عن طريق الفرض الجبرى ، أو الفرض الاختيارى ، الذى سماه برأ ، صيانة للجمع من الثورات والفتن التى ينتجها شح الأغنياء ، واستبداد الحاجة بالمحرومين ، وكثيراً ما نهت النصوص على أن أسباب الحرمان ، هى دائماً أسباب غير إرادية ، كما أن أسباب اليسر كثيراً ما تكون غير إرادية ، وأن الحرمان والغنى سواء فى أنهما محنة ، لاختبار مدى إيمان المحرومين ، الذى يجب أن يتوحدوا إلى القناعة والصبر ، وامتحان مبلغ إيمان الموسرين ، الذى يجب أن يحملهم على الرحمة والعطف ، فعلى الغنى ألا يدع قلبه يتحجر ، وعلى الفقير ألا يدع صبره ينفجر أو يتهور . ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، فما أحرى الغنى بالبذل والرحمة ، وما أجدرا المحتاج بالقناعة والصبر واللطف فى الطلب ! ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به . لكان خيراً

(١) راجع بحث مكانة الزكاة من الشؤون الاجتماعية للاستاذ الشيخ شلتوت فى مجلة الأزهر عدد المحرم سنة ١٣٥٩ هـ ، وتجدده أيضاً فى العدد السادس ( ١١ ) المحرم سنة ١٣٥٧ هـ . ديسبر سنة ١٩٤٦ من مجلة الشبان المسلمين .

لهم وأشد تثبيتاً، وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ، ولهديناهم صراطاً مستقيماً ، وإذن لاستقام أمن المجتمع ، وتحقق فيه العدل والرخاء .

بهذا التضامن الجماعي ، يضمن الإسلام مجتمعاً سعيداً ، يقوم حقيقة على الحرية والأخوة والمساواة والعدالة ، وتوجهه المصلحة العامة باسم الدين إلى خير الجميع ، ولم يدعه الإسلام هكذا مجرد رغبة ، بل قرر وجوب قيامه بين أفراد الأمة ، وبينهم وبين ممثلي الجماعة « الحكومة » ، ورتب على ذلك مسئولية مشتركة يؤخذ بها الجميع أمام الله « فوريك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون » ، « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا بغائبين » ، « ولأنه لذكرك ولقومك ، وسوف تسألون » ، « ثم لنسألن يومئذ عن النعيم » ، « وقفوهم إنهم مسئولون » ، « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، « المسلمون يدّ على من سواهم » ،

وإذا كانت هذه المسئولية « أخروية » ، فإن اتجاه القرآن في خطابه إلى المؤمنين الذي أخرج لنا - كما قلت سابقاً - لأول مرة ، أمة مكلفة مسئولة . يعنى أن هذه المسئولية دنيوية أخروية ، ويعظم أمرها ويشدد ، يوم « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » ، وبهذه المسئولية ألزم الفرد بضمان صلاح الأمة ، وألزم الأمة بضمان صلاحية الفرد ، وتولى الفقه الإسلامى وضع الضوابط التى تضمن عدم طغيان الفرد على الأمة ، وعدم استبداد الأمة بالفرد ، حتى يتلاشى كيانه .

وبعد فهذه عناصر وجود الأمة الإسلامية ، التى تحقق وجودها إن وجدت فيها ، وتوهرلها للقيام بتكاليفها لتعلن أنها موجودة :

توحيد لله المالك المطلق لجميع عبيده الذين خلقهم من أصل واحد ، أحراراً متساوين فى الحقوق والتكاليف ، ووحدة للأمة تجمع شتاتها على بعد الدار ، وسعة الفواصل ، وأخوة بين أفراد الأمة الأحرار المتساوين ، تحملهم على التعاطف والتراحم ، والتضامن فى جلب الخير ، ودفع الأذى بين المسلمين فى دار الإسلام ،

الوطن الأكبر الذى يضم بين جوانحه كل من يوحد الله ، ويؤمن برسالة محمد ابن عبد الله ؛ ومسئولية عامة يؤخذ بها المسلمون جميعاً أخذاً لا هوادة فيه .

هذه العناصر أخرج الإسلام خير أمة قوّة ، تقوم قوتها على الخير والعدل والسلام ، أمة تحكمت قرونا طويلة فى سياسة العالم وتصريف شئونه ، وأثبتت نجاح التجربة المحمدية نجاحاً منقطع النظير ، يعرفه كل من درس تاريخ الإسلام والمسلمين ، فهل آن للمسلمين أن يحققوا وجود أمتهم مرة أخرى ؟ !

سيقول الضعفاء ، والذين فى قلوبهم مرض : ما ولاهم شطر الماضى يبيكونه أو ينشدونه ، فهل لديهم اليوم منهج لمستقبل يرجونه ؟ ! ونقول لهم فى ثقة المؤمنين : لدينا منهج قويم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، سنحارب به الضعف والمرض فى صفوف المسلمين ، وسندّكر المؤمنين بما فيه ، وندعومهم إليه ، فآمنوا به أو لا تؤمنوا ، سواء علينا أجزعتم أم صبرتم ، فإن أمر هذه الأمة كما صار إلى التفرق والابتداع ، صائر باذن الله إلى الاجتماع والاتباع ، ولتعلن نبأ بعد حين ، . . سيدّكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ، وليعودن الإسلام كما بدأ عجيباً يهر القلوب والأنظار ، ولنصرن الله من ينصره ، وإن غداً لناظره قريب .

ولمّى اللقاء فى فرصة أخرى لتحدث عن منهج الدعوة للمستقبل المأمول . ولما أو إياكم لعلّى هدى أو فى ضلال مبين ، . إن هذه تذكرة فن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً .

والسلام على من اتبع الهدى وقال إني من المسلمين ؟

في جماعة كبار العلماء :

## نهضة باركة

كتب إلينا فضيلة العلامة الجليل الشيخ مرتضى آل يس ، من كبار علماء النجف ، وشيوخها الأجلاء ، كتاباً مسهباً بمناسبة ما قرره حكومة الهند من تحريم الخمر في بلادها ، واقترح أن يُتبادل الرأي في ذلك بين جماعة كبار العلماء في الأزهر وكبار المجتهدين في النجف وغيرهم من علماء الأقطار الإسلامية ، تمهيداً للقيام بحملة جهاد ديني إسلامي على الخمر وشتى الموبقات التي ترتكب في الأمة ، وتسكت عنها الحكومات الإسلامية .

جاءنا هذا الكتاب من فضيلته في أواخر شهر رجب ، وفيه يقول :

« إن لي أملاً أيقظه في نفسي هذا العمل الصالح ، الذي قامت به حكومة الهند ، حين حرمت الخمر على القسم الموبوء بها من بلادها ، ومردُّ هذا الأمل إلى حسن ظني بجماعة كبار العلماء في الأزهر الشريف ، الذين نصبوا أنفسهم لمناصرة هذا الدين كلماً وجدوا إليها سبيلاً ، فهأنذا أدفع إلى حضراتهم باقتراحى عن طريق جماعة التقريب ، عسى أن يأخذ حظه من عنايتهم وتفكيرهم ، فيضعوه موضع العمل والتطبيق ، في وقت غير بعيد إن شاء الله تعالى ،

ولما كان من أهم ما تعمل له جماعة التقريب ، أن تقوم بالسعى المشعر في كل أمر يعود على المسلمين في شتى البلاد بالخير والصلاح ، وأن تسفرين علماء الأقطار الإسلامية من كافة المذاهب ، فتتقل إلى كل ما عند الآخرين ؛ وتجمع قلوبهم ومساعدتهم على ما فيه صلاح أمتهم . فقد اتصلت دار التقريب ، على الفور ،

بحضرتي صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمود شلتوت ، من أعضاء جماعة كبار العلماء ، وتحدثت إليهما في هذا الشأن ، فرجبا باقتراح العلامة المرتضى ، وشكراه على حسن ظنه ، وكريم ثقته في علماء الأزهر ، وبشّرانا بأن الجماعة قد اعتزمت القيام - على وجه حاسم - بواجب الجهاد الديني في محاربة المنكرات ، ودرء المفاسد الخلقية ، وما يوجه إلى الدين من مطاعن ، منشؤها الجبهالات أو العداوات ، وأنها ستجتمع لذلك في وقت قريب ، ولا شك أنها ستلتقي مع فكرة الأستاذ الجليل ، وتعمل من جانبها على تحقيق ما ترمى إليه من خير للمسلمين .

ولم تلبث الجماعة بعد ذلك ، أن عمدت جلسة تاريخية هامة بالإدارة العامة للجامع الأزهر ، شارك فيها كبار رجال الإدارة في الأزهر الشريف ، واستعرض المجتمعون في تلك الجلسة حالة الدين والخلق ، وما آل إليه أمرهما في نفوس الناس وواجب الأزهر في ذلك ، وانتهت إلى قرارات تمهيدية ، يراد بها تقرير أنجع الوسائل التي يتوصل بها إلى إصلاح حال الأمة من نواحيها المختلفة المتصلة بالدين والخلق ، على أن تستكرر الجلسات في أوقات متقاربة للنظر في ذلك ، وأصدرت في نفس الجلسة قراراً عاجلاً يرفع كتاب خاص إلى حضرة صاحب الجلالة ملك مصر ، وتوجيه كتاب آخر إلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس حكومتها ، وقد رفع الكتاب الأول إلى حضرة صاحب الجلالة ، وقدم الكتاب الثاني إلى رفعة الرئيس ، وأذيع بعد ذلك من دار الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية مرتين في يوم الأحد الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٣٦٩ هـ .

وإن هذا لمن أكبر الدلائل على النقاء أفكار المسلمين ، وتقارب قلوبهم وإحساسهم بما فيه الخير لأمتهم ، فهذا صوت عالم كريم من النجف ، يلتقي مع أصوات علماء كرام من مصر ، وقد جاءت الأخبار بمثل هذا أيضاً عن علماء سوريا ، ولا شك أن هذه نهضة مباركة نرجو أن تشمل سائر بلاد المسلمين ، وأن يكون لها ما بعدها من خير الأمة الإسلامية وصلاحها إن شاء الله تعالى .

ومما يذكر ، أن خمسة من حضرات أصحاب الفضيلة المشتركين في هذا الاجتماع من أعضاء جماعة التقريب ، وهم حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة : الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ محمد عبد الفتاح العناني ، والشيخ عيسى منون .

وقد قام بأعمال السكرتارية لهذا الاجتماع واللجنة الفرعية التي عهد إليها النظر في شأن الاقتراحات ووسائل تنفيذها ، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني المفتش بالأزهر ، وهو السكرتير العام المساعد لدار التقريب ، ورئيس تحرير مجلتها ( رسالة الإسلام ) .

ونحن نسجل هنا كتاب الجماعة إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء ، راجين أن يكون ذلك أول الغيث ، وأن يوفق الله ولاية الأمور في سائر البلاد الإسلامية ، للاستماع إلى كلمة الله ، والنزول على النصيحة في دين الله . وهذا هو نص الكتاب :

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. « أما بعد ، » .

فإن الله جل شأنه أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليعتقوا للناس ولا يكتفونهم ، وأمر المؤمنين بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وحذر عباده في كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله الكريم ، عواقب الفساد والفتن التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، وضرب لنا الأمثال بمن كان قبلنا من أمم استشرى فيها الفساد ، وفشا فيها المنكر فسكت خاصتها على عامتها حتى أخذوا جميعاً بعذاب الله ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا

لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، . فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، .

وكما أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب على البلاغ والبيان ، أخذ ميثاق أهل الحكم والسلطان أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، ويقيموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، ويكونوا في شعوبهم قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، يرتادون لهم الطيبات ، ويدودونهم عن مواقع الهلكة ، ويحمونهم كل شر ، ويقودونهم إلى كل خير .

وإن الناظر في حال أمتنا العزيزة ، وما آل إليه أمر الدين والخلق فيها ، ليهوله ما يرى ، وبأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذي صارت إليه ، ويخالجه كثير من الإشفاق على مستقبلها الذي هي مقبلة عليه ؛ فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيها ، وجنحوا إلى ما يخالف تقاليد الإسلام ، ودخل على كثير منهم ما لم يكن يُمهد من أخلاق الإباحية والتحلل ، جرياً وراء المدنية الزائفة ، واغتراراً ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الإفساد والإغواء في البلاد ، ولا سيما أمام ناشئتها وفتياتها المرجوئين للنهوض بها والأخذ بيدها في حاضرها ومستقبلها ، فنحلات ماجة خليعة ، يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهكة جريئة ، تشرب فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافي المروءة والخلق الكريم . إلى أندية يباح فيها القمار ، ويسكب على موائدها الذهب النضار ، وتبرز فيها الأموال ، وتزلزل بسببها البيوت والكرامات ، إلى ملاعب للسباق والمراهنات تنطوى على ألوان من الفساد وإضاعة المال ، إلى مسابقات للجمال ، إنما هي معارض للفسوق والإثم ، يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها وأخطرها ، إلى شواطئ في الصيف يخلع فيها العذار ويطنى فيها الأشرار ، إلى أخبار ذلك تذكر وتنشر وتوصف وتصور وتستثار بها كوامن الشهوات والغرائز في غير تورع ولا حياء ، إلى كثير من ألوان المنكرات وفنون الموبقات .



كل هذا يحدث في البلاد ، ويعمل عمله المتواصل في أخلاقنا وتقاليدينا حتى اشتد الخطب ، وجل الأمر ، وأصبح في حاجة إلى علاج سريع .

يا صاحب المقام الرفيع :

لقد أورتنا المدنية الأوربية ، وما وفد علينا من وافدات الرذيلة والإباحية ، وما عُزينا به في أخلاقنا وتقاليدينا الكريمة - أورتنا كل ذلك - عرفاً فاسداً ، وذوقاً مريضاً ، ومجتمعاً صار ينظر إلى هذه المفاصد نظره إلى شيء مألوف ، فلا يكاد ينكرها فضلاً عن أن يغيرها ، بل أصبح يراها - إلا قليلاً من عصم الله - آية من آيات التقدم وعلامة على النهوض والرقى ، ورضيت بها القوانين ، بل حتبا ونظمتها ، وجبّت من كسبها الحرام الضرائب والرسوم ، كما تجبها من الاعمال المشروعة والمكاسب الشريفة .

ألا وإن أكبر الفساد بعد الوقوع في الفساد ، أن يُرى الغي فيه رشاداً ، والضلال هدى ، فإنه حينئذ دليل على تأصل جرائمه وتمكنها من القلوب ، وصيرورة الأمة إلى الزمان الذي يُرى فيه المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والقيح حسناً والحسن قبيحاً .

وإن لنا في بعض الأمم الحاضرة لعبرة إذ أفسدها الترف ، وفَتَّ في عضدها الانحلال ، فسقطت يوم الجهاد أمام أعدائها ، ولم تطق صبرا على ما أصابها من بأسهم وقوة شكيمنتهم ، وقد نادى بذلك قادتها وولاة أمرها ، ولكن بعد فوات الاوان ، وتلاوموا عليه ، ولكن بعد أن فاتتهم الفرصة فأصبحوا على ما فعلوا نادمين .

وقد جعلكم الله - يا صاحب المقام الرفيع - على رأس حكومة الشعب الحريصة على تقويم أمره وبث دعائم الإصلاح فيه ؛ وفي تاريخكم الحافل مواقف مشهودة ، تدل على ما فطركم الله عليه من حب الدين والفضيلة ؛ والجالس على عرش مصر ملك عظيم يحمل بين جنبيه نفساً كريمة ويؤمن بالله وكلماته ، ويعمل على إنشاء أمته نشأة صالحة قوية ، عمادها الخلق ، وقوامها الصلاح والاستقامة ، ويرجو لها من صميم قلبه ، منزلة من العزة والسمو ، تعود بها إلى سالف مجدها ؛ وقد منح الله

مصر بين شقيقتها الإسلامية والعربية — بفضل توجيهه السامى — مركز القدوة والقيادة؛ فهى تنظر إليها، وترقب أعمالها، وتستن بسننها، وتهتدى بهدى علمائها وزعمائها، وفيها الأزهر الشريف، حصن الدين، ومثابة العلم، ومشرق شمس الفضيلة والأخلاق الكريمة.

كل ذلك — يا صاحب المقام الرفيع — يجعلنا أقوى ما نكون فى الإصلاح رجاءً، وأقرب ما نكون إلى النجاح سيلاً، ويحملنا على أن نناشدكم أمانة الله، أن تقوموا لله قومةً تَقَرَّ بها عين الدين، ويذل بها شيطان الفساد والمنكر، ويحفظها التاريخ لكم صفحة بيضاء، تنشر يوم القيامة فى صحائفكم، وتوزن فى ميزان أعمالكم.

احفظوا ما ضيعه التهاون والتفريط، وأشعروا أهل الفساد بوازع السلطان إذ لم يرتدعوا بوازع القرآن، وأعلنوها حرباً حامية الوطيس على كل منكر وفسوق؛ وانتشلوا شباب الأمة من مهاوى العيب، ومواطن الميوعة، وأوكار الفجور. وخذوا على يد كل من تحدته نفسه بالاعتداء على الفضيلة، أو الترويج للرديلة، أو غرس بذور المجون والخلاعة فى الأمة؛ إنكم إن فعلتم ذلك رضى الله عنكم ورسوله، ورضى عنكم عقلاء الأمة، وكرام العشيرة، وإن ذلك هو الفوز العظيم.

وقضكم الله إلى نصر الفضيلة، ودحر الرديلة، وأعز بالفاروق دينه وأمه، وأطال فى طاعة الله حياته، وبارك فيها للإسلام والمسلمين، آمين.

## من القانون الأساسى لجماعة التقريب

### المادة الثانية

أغراض الجماعة هى :-

- أ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .
- ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .
- ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

## فهرس

كلمة التحرير .....	لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير ٢٢٧
تفسير القرآن الكريم .....	لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ٢٣١
ديمقراطية الإسلام .....	لحضرة صاحب المعالي محمد على علوبة باشا ٢٤٦
الإسلام والمدنية الحديثة .....	لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك ٢٥٧
الشخصية المحمدية .....	لصاحب العزة الأستاذ محمد فريد وجدى بك ٢٦٢
بيان للمسلمين .....	للعلمة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ٢٦٨
نظم الحكم كما يراها الإسلام ...	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى ٢٧٤
أصول الفقه للشريعة الإمامية ....	لفضيلة الأستاذ الفيح محمد جواد مغنیه ٢٧٨
التاريخ فى العرق الأوسط .....	لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة ٢٩٠
الشعر والشعراء بين أمس واليوم	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان ٢٩٧
شخصية الطوفى .....	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ توفيق الفكيكى ٣٠٤
نحية إلى الروح العلوية .....	٣١١
الوزير نظام الملك ووحدة المسلمين	لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور يحيى الحشاش ٣١٣
عناصر وجود الأمة الإسلامية ...	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض ١٩٦
نهضة مباركة .....	٣٢٩

## رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية  
تصدر عن دار النشر بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير: محمد محمد المدينى مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة: ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك. القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤  
قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً  
وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

ذو الحجة ١٣٦٩ هـ

أكتوبر ١٩٥٠ م

السنة الثانية

العدد الرابع

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ  
”وَرَأَى الْكَافِرِينَ“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة التحريير

يتصفح المسلمون هذا العدد من مجلة « رسالة الإسلام » ، إن شاء الله تعالى ، وقد أخذت وفودهم إلى البلاد المقدسة تعود إلى أوطانها بعد أداء الركن الخامس من أركان الإسلام ، حيث طهروا أرواحهم ، وغسلوا أدرانهم ، وعادوا أطهاراً براء كيوم ولدتهم أمهاتهم .

وقد جرت عادة الناس أن يجتمعوا لتحية القادمين بعد أداء الفريضة ، سلاماً عليهم ، وابتهاجاً بهم ، والتمساً لدعائهم ، كما جرت عادتهم أن يستمعوا في كثير من الإقبال والشفغ ، لما يفيضون فيه من حديث عما لاقوا في رحلتهم ، وعما صادفهم في سبيلها من صعوبة أو يسر ، وعما شهدوا من أحوال أهل البلاد المقدسة من رعاة ورعية ، وعما ارتسم في أذهانهم من ذكريات عن الماضي والحاضر من شئون تلك البلاد التي تهوى إليها أفئدة المسلمين ، وترتبط بها قلوبهم .

ولهذا يكاد المسلمون يعرفون كل شيء عن مكة والمدينة ، إنما عياناً وإما سماعاً ، ويعرفون كل ما اتصل بهما أو وقع في طريقهما من قرى أو معالم أو مشاهد ، وناهيك برحلة محبوبية متواضعة لم ينقطع المسلمون عنها من لدن أشرققت على موطنها شمس الإسلام ، وتنزلت على ربوعه آيات القرآن ، وقد كتبها الله فريضة على كل من آمن به من أبيض وأسود وأحر ما دام مستطيعاً ، والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين .

ولهذا أيضاً كان أمر المشرفين على تلك البلاد ، المدبرين لشئونها ، من الولاة والامراء والحكام طوال حقب التاريخ الإسلامى معروفاً مكشوفاً يتناقله الناس ، وتعتقد عليه وتنفض محافل الواردين والصادرين فى كل عام ، وتتناوله الألسنة والآذان مشافهةً وسماهاً ، قبل أن تخطه الأقلام فى الكتب والمدونات تسجيلاً وحفظاً ، فلو أن والياً من الولاة استطاع أن يخفى سياسته وأعماله على غير شعبه ، وأن يحسن بالدعوة ما ساء من فعله ، وأن يصور الشرخيراً ، والفساد صلاحاً ؛ فإن حاكم الحرمين ، لا يستطيع ذلك ، ولا يقدر على إدخال الزيف والتدعيمة فيه على الإسلام والمسلمين ، ولو كان باقعة البواقع دهاء وحكمة وسعة حيلة ، ذلك بأن الشهود كثير ، وكلهم أو جلهم عدول مقبولون على تعدد المطالع ، واختلاف المنازع ، فويل ثم ويل لمن خاس بعهد المسلمين فى الحرمين ، أو ضيع أمانة الله فيهما ، ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ،

\* \* \*

هذا وأمة الإسلام - وإن فرقها السياسة دولاً ، وقطعتها الأهواء فى الأرض أما - هى فى واقع الأمر من حيث العاطفة والإحساس أمة واحدة ، متضامنة فى شعوبها تضامن المؤمنين والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرزون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وليسوا كغيرهم من الأمم المتقاطعة المتدبرة التى أغرى الله بين أهلها العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، فإذا قال الإنجليزى لللمانى : هذه بلادى فلا شأن لك بها ، ولا دخل لك فيها ، أو ضربت روسيا بنطاق من حديد على بلادها ، فلم تسمح لأحد أن يتطفل على شأن من شئونها ؛ فاتا - معشر المسلمين - لا نعرف ذلك ، ولا يقوله أحد منا لآخيه ، فكل مسلم يعد بلاد الإسلام كلها بلاده ، ويعتبر مصالحها مصالحه ، وآمالها آماله ، وآلامها



آلامه ، يستوى في ذلك المصرى والفارسى والعراقى والبنى والبالكسانى والتركى والشامى وسائر من يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حيث طلعت الشمس أو غربت . ولا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يقولون غير ذلك ، ماداموا لأمرهم مالمكين ، وفي حكمهم راشدين !

فإذا كان هذا حقَّ المسلمين على المسلمين أيًا كانت بلادهم ومواطن شعوبهم ؛ فإن هذا الحق أثبت وأوضح لكل مسلم في بلاد الحرمين ، عاصمة الإسلام الروحية ، ومهبط رسالته الإلهية ، وموطن البيت الحرام الذى جعله الله للناس سواءً العاكفُ فيه والباد ، ومثوى الجدث الطاهر الذى لم تعرف الأرض أزكى منه .

لهذا كله يهتم المسلمون برحلة الحج ، ويهتمون بوطن هذه الرحلة ، وبكل ما يسود هذا الوطن الكريم من نظام وسياسة وإدارة ، وبكل ما يتعرض له سكانه وجيران الله فيه من سعادة أو شقاء ، يرون ذلك حقاً لهم ، بل حقاً عليهم ، فهم به في شغل دائم ، يشتد إذا أقبل الموسم ، ولا يفتر إذا انصرفوا منه إلى أهلهم وأموالهم وشئونهم ، وآية ذلك - إن كان الأمر في حاجة إلى آية - ما تفيض به أنهار الصحف ، وأوراق المجلات والكتب ، من حديث عنه طول العام ، وفي كل بلد من بلاد الإسلام ، وإن لدينا في « دار التقريب » ، وإدارة مجلة « رسالة الإسلام » ، لأضابير تحمل من ذلك ألواناً وأصنافاً ، منها المطوّل ، ومنها المختصر ، ومنها الثائر ، ومنها الهادئ ، ما بين وصف ونقد وتحليل وتقرير واقتراح ، وكل ذلك جدير بالبحث والنظر ، وأن يتلقاه المسلمون بالعناية والتحميص ، ونحسب أن « جماعة التقريب » ، وهى المؤسسة الإسلامية التى تضم جميع المذاهب والطوائف من مختلف الشعوب التى تولى وجهها أينما كانت شطر المسجد الحرام - نحسب أنها في سبيلها إلى دراسة ذلك كله وتحقيقه وتكوين الرأى فيه ، لتقول للمسلمين كلمتها ، وتوجههم لما يحقق الصالح الدينى العام في هذا الأمر الخطير .

ولذلك نرى لزوماً علينا أن نستأنى فلا ننشر على صفحات « رسالة الإسلام » ما يريدنا قراؤنا وكتابنا من أهل العلم والرأى في مختلف البلاد على نشره ، والتعليق

عليه بما نرى ، فان في الأناة خيرا ، وإن مع اليوم غدا ، وإن غدا لناظره قريب .  
يبد أننا لا نرى بأسا في أن نعمل بكلمة عن موضوع التمس منا كثير من  
فضلاء أهل الحجاز حين كنا نؤدى الفريضة في العام الماضى ، أن نغنى به ، ونبين  
للناس حقيقته ، وقد سكتا عليه كما سكتا على غيره ، ارتساما لخطئة التقريب ،  
ولكن لإخواننا الحجازيين عتبوا علينا ، وظنوا الشكاك منا قصورا أو تقصيرا ،  
فعدرة أيها الإخوان ، وهذه كلمتنا باختصار :

إن رجال السياسة والحكم من النجدين يضيقون على أهل العلم والرأى في  
الحجاز تضيقا ، ويلزمونهم - من طريق مباشر أو غير مباشر - أن يعتقوا آراء  
معينة ، ولا يسمحون لدرس على يقام في أحد المسجدين إلا إذا ألقاه نجلدى  
أو « متجد » ، وقد كان من نتائج ذلك أن عانى العلماء الأحرار - وما زالوا يعانون -  
كثيرا من ألوان الضغط في دراساتهم ووظائفهم وأرزاقهم ، وقد شهدت بنفسى  
كثيرا منهم منطوين على أنفسهم ، متحفظين في أعمالهم ، خائفين يترقبون ، وكانوا  
إذا أمنا مجلسا أفاضوا بالشكاية فيه ، واستنصروا من يتوسمون فيه القدرة على  
نصرهم ، ولولا توجسنا أن يصيبهم شر لذكرناهم أو بعضهم ، ولبيئنا ما يقاسون  
من الخوف والرهب في بلاد جعلها الله حرما آمنا .

ألا وإنه ليس الخوف أن يخاف المرء على دمه فحسب ، ولكن الذى يخيفك  
في رأيك ، أو يخيفك في رزقك ، كالذى يخيفك على نفسك وروحك ، وما بهذا  
تنصر الآراء ، أو تنشر الأفكار ، فدعوا لأهل العلم حرياتهم التى كفلها الله ،  
واعلموا أن الرأى السليم هو الذى يصبر على التحيص ، لا الذى تؤيده دولة إن قامت  
اليوم فإنها زائلة غدا ، وفى التاريخ الفكرى عبرة لمن أراد أن يدكر .

محمد محمد علي

و فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس  
فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال .

# نَفْسِ الْقَارِءِ الْحَكِيمِ

لَحْظَةُ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْأَسْتَاذِ الْجَلِيلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ شَيْلُونِ

## سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

أجلنا في العدد السابق مقاصد سورة (آل عمران) ، وبيننا وجه تسميتها بهذا الاسم ، وقلنا : إن السورة برزت فيها العناية بأمرين عظيمين ، لمراعاتهما في حياة الأمم والأفراد أثر عظيم في السعادة الدنيوية والأخروية ، وللإعراض عنهما — على العكس من ذلك — عواقب وخيمة ، تودى بالأمم ، وتوقعها في الفساد والاضمحلال والدمار ، هذان الأمران هما : تقرير الحق في مسألة الألوهية ، وإنزال الكتب وما يتعلق بهما من أمر الدين والوحي والرسالة ، وتقرير العلة التي من شأنها — إذا انحرفت إليها النفوس ، وتعلقت بها القلوب ، وصارت الهدف الذي لا يُعرف غيره في الحياة — أنْ تصرف الناس عن معرفة الحق ، والخضوع لسلطانه ، والعمل بمقتضاه ، وأن تملك عليهم حواسهم ومشاعرهم ، وتصرف قلوبهم عن التدبر والتفكير في كنه هذا العالم وما يقوم عليه من أعمال وصلات ، وما يصير إليه من حساب وجزاء ، هذه العلة هي الحرص على زخارف هذه الحياة ، والوقوف عند ظاهرها الذي لا يمتُّ إلى فضيلة ، ولا يوحى بخير أو صلاح :

تناولت السورة هذين الأمرين ، وركزت أولهما على آيات جاءت في أولها ،

فبدأت ببيان أن الكتب السماوية ، والعقل الذى منحه الله الانسان ليفرق به بين الحق والباطل ، ويستعين به على معرفة الهدى من الضلال ، أنزلها الله لغاية واحدة هى هداية الناس للحق . الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . ثم قررت خاصة الألوهية الحققة من العلم المحيط ، والقدرة التامة ، والحكمة فى التدبير والتقدير . إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأردفت هذا وذاك بالإشارة إلى منشأ الشبهة التى تعلق بها النصارى فى ألوهية عيسى فأصلتهم عن الحق ، مع تزييف هذه الشبهة بما لا يدع لها أثراً فى النفوس التى خلص استعدادها لمعرفة الحق والإيمان به ، وكان ذلك فى قوله تعالى : : هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراستخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب . .

ويجدر بنا أن نبادر قراء « رسالة الإسلام » فى هذا المقام بأن ما تضمنته هذه الآية ليس خاصاً بقضية الألوهية وما يتصل بها من أمر عيسى والنصارى ، وإنما هو قاعدة كلية فى تعرف منشأ الشبهات التى تميل بالناس عن الحق فى أصول الدين وفروعه ، وتجعلهم شيعاً وأحزاباً ، يكفر بعضهم بعضاً ، ويضرب بعضهم رقاب بعض ، فإذا قال الله : : ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، توسع بعضهم فى تحميل لفظ « لهم البشرى فى الحياة الدنيا » ما لا توحى به حقيقته التى بينها ويوضحها محكم الكتاب فى كثير من الآيات الصريحة التى تجعل الأمر كله لله : يتوسعون بذكر أشياء لا محل لذكرها ، ويغفلون أو يعرضون عن مثل قوله تعالى : : ألا له الخلق والأمر ، . . يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، . . والله يحكم لا معقب لحكمه ، . . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، . . والذين يدعون

من دونه لا يستجيون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله ،  
 « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا .  
 وغير ذلك من الآيات المحكمات .

وإذا قال الله « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ،  
 ونحوها من الآيات التي يفهم ظاهرها أن أمر الهداية والضلال ليس مبنياً على  
 اختيار العبد ، وإنما هو منع وفيض من الله يعطى منهما ما شاء لمن شاء ؛ وجدنا  
 الفرق شერთ أسلحتها ، واشتكت في حرب مظلة من الجدل العقيم ، الذي إن تصورنا  
 له غاية فليست سوى إخفاء الحق ، وتشويه معالمة ، ومحاولة كل أن يظهر على خصمه ،  
 ويعرضون عن بدهة القضية التي يبني عليها التكليف من الحكيم العادل ، والآيات  
 التي لا تعد ولا تحصى في تقرير أن الجزاء بالعمل والكسب وأن الله « لا يظلم  
 الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

وحسبنا في التطبيق على هذا المبدأ — الذي استطرنا بذكره ، وبادرنا بلقت  
 نظر القراء إليه — ما ذكرنا من هاتين المسألتين اللتين تتصلان بخلاف كثيراً  
 ما شغل الناس ، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء دون مبرر ، ومن السهل أن يتبع  
 القارئ مواضع المحكم والمتشابه ، ويعرف ما كان ينبغي أن يسلك فيها بحمل  
 المتشابه على المحكم ، والإيمان بهما على أنهما جميعاً حق جاءنا بهما الوحي ونزل  
 بهما الكتاب « آمنا به ، كلٌّ من عند ربنا » .

ونرجو أن تتاح لنا — إن شاء الله — فرصة لإشباع هذا الموضوع بحثاً  
 وتطبيقاً في الأصول والفروع ، وبيان أن الوقوف على الحقيقة فيه ، هو أساس  
 التصفية بين المسلمين ، وردم إلى الحق الواضح ، الذي يلتقون عنده على كلمة سواء  
 كما التقى عنده أسلافهم من قبل .

\* \* \*

نعود بعد هذا الاستطراد ونقول : إن ثاني الأمرين اللذين برزت بهما عناية  
 هذه السورة ، وهو السبب الحقيقي في الانصراف عن الحق ، والإعراض عن دعوة

محمد صلى الله عليه وسلم قد ركزته السورة على بيان حقيقة ما أنعم الله به على الناس من النعم المادية ، وأنه ليس إلا متاعاً من متاع هذه الحياة ، وأن الاعتماد عليه وحده ، وتسخير الحياة في سبيله ، لا يغني عن الحق شيئاً ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، وذلك هو قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك هم وقود النار » ، وقوله : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

بدأت السورة بهذا وذلك ، وركزتهما على ما ذكرناه من الآيات ، وأخذت تؤيدهما بالإرشادات والمثل الواقعية فيما يروون وفيما يروى لهم من عبر الأولين ، وكان من ذلك أن ضربت مثلين من حوادث المؤمنين في عهد الرسالة ، لمسوا فيهما أن النصر والسعادة ليسا منوطين فقط بكثرة الأموال ، ولا بقوة العدد ، ولا بوفرة العدد ، وإنما هما منوطان بعد ذلك أو قبل ذلك ، بالصدق في الإيمان ، والقيام بالحق ، والاخلاص في العمل ، والاحتفاظ بالوحدة ، والصبر على المكاره .

هذان المثلان هما ما كان من نصر المؤمنين يسد مع قلة المال والرجال والعدد ، وما أصابهم في غزوة أحد بالتنازع والفشل والطمع في مظاهر الحياة الدنيا : « ولقد نصركم الله بيدروا أتمم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » . « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمور عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

وكان من ذلك أنها أجملت عبر الأولين في قوله تعالى : « كذب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » ، وفي قوله : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وفي هذا الجو الذي هيأته السورة ، وبعثت به استعداد المؤمنين للسمع والطاعة ، وسلوك سبيل الحياة الطيبة ، والتلقى عن الله ورسوله ، بثت عدة

• نداءات إلهية، قوية للدؤمنين بعنوان الإيمان الذي اتصفوا به، كان من أبرزها خمسة تدور حول أساس واحد هو تركيز وحدتهم . وصيانة كلتهم ، والاحتفاظ بشخصيتهم كأمة متماسكة لا تختلف ولا تفرق ، ولا تسمح لعوامل الضعف والانحلال أن تتسرب إليها من داخلها أو خارجها .

هذه النداءات الإلهية الخمسة هي قوله تعالى :

(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا عَلَيَّكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ؟ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا ، وَدُوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

(٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ، قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للستين ، .

(٥) د يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، .

هذه النداءات الخمسة التي ذكرنا أنها ترمى إلى هدف واحد في تركيز الأمة الإسلامية ، وصياتها من عوامل الضعف الداخلية والخارجية ، جذير بنا - وبخاصة في هذا الوقت الذي انحلت فيه عرى الوحدة الإسلامية ، وتمكنت فيه عوامل الفساد الداخلية وخارجية من قلوب المسلمين ، فقطعت أواصرهم ، وجعلتهم طعمة لأعدائهم ، ووقفت بهم عن بلوغ الغاية السامية التي رشحتهم لها العناية الإلهية بما أمدتهم به من دين صالح ، وهداية قوية ، وأخلاق متينة ، وهي قيادة العالم إلى سواء السبيل ، والوصول به إلى الحياة الطيبة السعيدة - جذير بنا أن نقف عندها وقفة يتجلى لنا فيها ما انطوت عليه من أسرار ، وما أرشدت إليه من سنن ، وما هدت إليه من سبيل .

ولكنا بين يدي هذه الوقفة ، نقدم كلمة عن النداءات الإلهية الواردة في القرآن الكريم ، نراها مفيدة في استجلاء ناحية هامة من أسلوب ذلك الكتاب الحكيم في التكاليف والارشادات .

\* \* \*

لله سبحانه وتعالى نداءات كثيرة في القرآن الكريم ، وللنداء عامة دلالاته على كمال العناية ، وعظيم الاهتمام بالمطلوب وبالمنادى ، وأمر ذلك في جميع اللغات معروف مشهور .

نداء من إله قوى قاهر حكيم مدبر ، يعلم سر العالم وباطنه ، إلى عباد مؤمنين



بربوبيته والوهيته يتلاشى حولهم وقوتهم ، أمام حوله وقوته ، ويتلاشى عليهم وتديريهم ، أمام علمه وتدييره ، جدير بأن يهز القلوب ، ويصفي النفوس ، ويخلق الناس من التفكير فيما بين أيديهم وما خلفهم ، وعن إيمانهم وعن شمالكهم ، وأن يجذب قلوبهم ووعيمهم وانتباههم إلى الاستماع إليه ، وتدبر ما يليق به ، وحق لابن مسعود أن يقول تلك الكلمة التي تعبر عن شعور المؤمن حينما يسمع نداء الله بأحب الأوصاف التي يصف بها عباده ، وهو وصف الإيمان : « إذا سمعت الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا ، فأرعاها سمعك » .

وقد نادى الله الأشخاص والطوائف والشعوب ، ونادى الناس جميعاً . ونادى أشياء ممّا خلق .

ونداؤه للعقلاء أفراداً أو جماعات نداء تكليفي يتضمن أمراً يطلب فعلاً ، أو نهياً يطلب تركاً . أما نداؤه لغير العقلاء ممّا خلق ، فهو نداء تكويني تصوّر به مطاوعة الكائنات لحالها ، وخضوعها لسنته ، كما يخضع المتأدي حين ينادى من فوقه ، ومن هذا النوع الأخير « يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، « يا جبال أوّبي معه » .

وقد جاء نداؤه للعقلاء على أنواع :

(١) نداء لأشخاص بأسمائهم . وهذا النوع قد قصّه الله علينا في كتابه بالنسبة لبعض الأنبياء السابقين ، ناداهم بأسمائهم استنهاضاً لهمتهم أو تنبيهاً إلى خطر ما كلفوا به واصطفوا لأجله ، أو تهدئة لروعهم ، وتسكيناً لأنفوسهم : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « يا موسى أقبل ولا تحف لك من الآمنين » .

(٢) نداء بالوصف الذي يحدد المهمة ويبحث على القيام بها وعدم التأثر بشيء في سبيل أدائها « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ، « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » .

وهما خطابان لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجد في القرآن خطابٌ له بوصف الرسالة سوى هذين .

وقد ناداه بوصف النبوة في مواضع متعددة .

ناداه بهذا الوصف في تنفيذ بعض ما كلف به من جزئيات الأحكام المشروعة « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ » . « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » .

وناداه به في بعض شئون خاصة به « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْحَسَنَاتِ مَنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » ، « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ » .

وناداه به في بعض تشريعات عامة للمؤمنين « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ » .

وناداه به في أمره بتقواه وتحذيره إطاعة الأعداء أو التأثير بمقترحاتهم « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْعَمِ الْكُفَّارِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا » .

وكما نادى الله رسوله بوصفي الرسالة والنبوة - كما رأينا - ناداه بحالة صار إليها لمناسبة خاصة « يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ » . « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . وفي الخطاب بهذين الوصفين تأنيسٌ له وملاطفة على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها كقوله عليه الصلاة والسلام لعلي كرم الله وجهه حين رآه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب : قُمْ يَا أَبَا تراب .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أمرين :

أولهما : أنه لم يقع نداء لمحمد صلى الله عليه وسلم باسمه الصريح كما وقع لغيره

من الأنبياء السابقين . وفي هذا من التكريم ورفع الشأن ما لا يعرف لأحد من الأنبياء .

وقد قال العلماء إن فيه تعلية وتأديباً للمؤمنين في التحدث عنه أو نداءه صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الأصحاب رضوان الله عليهم يتحدثون عنه وينادونه بوصف الرسالة أو النبوة ، وقد جهل جماعة من الأعراب هذا الأدب لما نشئوا عليه من خشونة البادية ، فنادوه باسمه ، فأنزل الله عليهم : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولعل من محاكاة هذا الأدب ما درج عليه الناس من عدم نداء الملوك والعظماء ورجال الشرف بأسمائهم ، وإنما ينادون بألقابهم وأسماء مراكرهم ، وهو أدب معقول مقبول .

وثاني الأمرين : أن النداء بوصف النبوة كان موجهاً إلى جزئيات من تكاليف الرسالة ، وبخاصة ما كان يتصل بجهة التنفيذ ، وأن النداء بوصف الرسالة لم يكن إلا في تحديد مهمة الرسالة العظمى وما يتصل بها من تقوية القلب على أدائها ، « بلغ ما أنزل إليك من ربك » ، لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة لفظي (نبي) و (رسول) في اللغة العربية واقتضاء أولهما معنى العرفان والعلم واقتضاء الثاني مجرد التبليغ .

(٣) وكما نادى الأشخاص على النحو الذي ذكرنا ، نادى الناس جميعاً مرة بوصف الإنسانية العام ، ومرة بوصف النبوة للأب الأول ، والذي نلاحظه هنا أن النداء بوصف الإنسانية كان أكثره فيما يختص بالاصول العامة للدين ، من الإيمان بالله ، والوحى ، والرسالة ، والإيمان باليوم الآخر ، وما يرجع إلى شيء من هذين : « يأيتها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

يأيتها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبثّ منها رجالاً كثيراً ونساءً .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ،

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مَخْلُوقَةٍ ، .  
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا  
إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، .

وَأَمَّا نَدَاؤُهُمْ بِوصفِ الْبُشُوَّةِ لِآدَمَ، فَقَدْ وُجِّهَ إِلَيْهِمْ تَحْذِيرًا مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ  
الَّتِي وَقَعَ فِيهَا أَبُوهُمْ مِنْ قَبْلُ ، « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ  
مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ، .

وَوُجِّهَ إِلَيْهِمْ امْتِنَانًا عَلَى نَوْعِهِمْ بِمَا مِيزَهُمُ اللَّهُ بِهِ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ لِبَاسٍ  
يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ ، وَرِيْشٍ يَتَزَيَّنُّونَ بِهِ « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ،  
« يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ، .

وَيَلَاظِظُ هُنَا أَنَّ الْإِنْزَالَ كَمَا يَكُونُ لِلْأَجْسَامِ تَسْقُطُ مِنْ مُعْلُو، يَكُونُ فِي مَعْنَى  
تَهْيِئَةِ الْأَسْبَابِ لِلْحَصُولِ عَلَى الشَّيْءِ بَعْدَ خَلْقِ مَادَّتِهِ « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ  
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، . « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، .

وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ، أَيْ خَلَقْنَا مَادَّتَهُ مِنَ الْقَطَنِ  
وَالصُّوفِ وَالْحَرِيرِ ، وَهَدَيْنَاكُمْ بِالْغَرَائِزِ وَالْقَوَى ، إِلَى صَنْعِ اللَّبَاسِ عَنْ طَرِيقِ  
الْوَسَائِلِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا وَأَهْمَنَّاكُمْ بِهَا ، كَالزَّرَاعَةِ وَالغَزْلِ وَالنَّسِجِ وَالْحِيَاظَةِ .

(٤) وَكَأَيُّ نَادَى اللَّهِ النَّاسَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ ، نَادَى الطَّوَاتِفَ وَالشُّعُوبَ .

نَادَى شَعْبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَا نَعْرِفُ شَعْبًا آخَرَ وُجِّهَ إِلَيْهِ الْخُطَابُ فِي الْقُرْآنِ  
كَأَيُّ وَجِّهٍ إِلَى هَذَا الشَّعْبِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ لِكَثْرَةِ مَا مُعْجِلَ بِهِ هَذَا الشَّعْبَ مِنْ  
نَوْعِي النِّعَمِ وَالضَّرَاءِ ، ثُمَّ لَمْ تَنْفَعْ مَعَهُمْ تِلْكَ الْمَعَالِجَةُ لَا فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ ،

مع ما كان لله عليهم في شخص أبيهم « إسرائيل » ، من فضل عظيم يجب أن يذكروه وأن يقدروه ، فيخلعوا أنفسهم عن موقف العناد والمكابرة إلى موقف الطاعة والاستجابة ، وفي التذكير بمكانة الآباء إحياء للإحساس بالشرف والشعور بالكرامة عند الأبناء ، وفي هذا الإحياء إحياء للعزيمة الصادقة ، وتقوية لها على عوامل الهوى والشهوة .

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم . »  
 « يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . »

(٥) ونادى طوائف أهل الكتاب ، ناداهم بهذا العنوان تبكيتاً لهم على ما كانوا يرتكبون من أفانين التضليل ، وأنواع التشكيك التي كانوا يحاربون بها الدعوة المحمدية .

« يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ،  
 « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، وكأنه يقول لهم : إن صنيعكم هذا لا يتفق مع ما نزلت به الكتب عليكم ، وإن صدقكم في نسبتكم إلى الكتب يحتم عليكم تلبية الدعوة التي تصدق رسلكم ، والتي تضمنتها كتبكم وكنتم بها من قبل مؤمنين ، فلستم كالمشركين الذين لم تنزل عليهم كتب ، ولم يشرق في آفاقهم شيء من نور الحق .

وقد يتاديهم بهذا الوصف إغراء لهم ، لتلبية الحق الذي يُدعون إليه ، والذي لم يكن شيئاً جديداً عليهم .

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . »

(٦) وكما نادى سبحانه وتعالى طائفتي اليهود والنصارى بوصف أهل الكتاب

نادى طائفة الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بوصف المؤمنين ، وإن المتبع للنداءات الإلهية في القرآن يجد أكثرها موجهة إلى المؤمنين ، فقد بلغت نداءاتهم تسعة وثمانين نداءاً ، وأنه لم يقع نداء واحد منها في آية مكية ، وإنما وقعت كلها في الآيات التي نزلت بعد أن تكون المسلمون بالهجرة جماعة لها كيان خاص ، وقوة خاصة ، وسبيل خاص .

ناداهم بهذا الوصف الذي تركز في نفوسهم تنبيهاً إلى أن الإيمان من شأنه أن يحملهم على الاستجابة لما طُلبَ منهم وكلفوا به ، وتنبيهاً إلى أنهم بحكم اشتراكهم في ذلك الإيمان مسئولون عن هذه التكاليف التي هي من أحكام الإيمان ؛ يُسأل الشخص المؤمن عن نفسه ، ويُسأل عن أخيه ، وهذا هو الأصل فيما يقرره الإسلام من تضامن أهله ، ومسئولية بعضهم عن بعض في تنفيذ الأحكام والعمل بمقتضاها .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » .

نادى الله المؤمنين بهذا الوصف في الأخلاق ، وفي الأحكام ؛ ففي الأخلاق : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلبسوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » .

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلبوا

على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، .

وهكذا استنهض القرآن المؤمنين بالنداء بهذا الوصف المحجب للنفوس . المكرّم للقول ، إلى مكارم الأخلاق في الأفراد والجماعات ، سموّ بهم إلى أعلى مراتب الإنسانية .

وكما ناداهم في الأخلاق حثاً على التحلي بها ؛ ناداهم في الأحكام حثاً على امتثالها والعمل بمقتضاها .

ناداهم في الأحكام التي يطالب بها كل فرد فرد :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، .

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، .

وناداهم في الأحكام التي طلب وجودها فيما بين الجماعة ، وطلبها من الجماعة من جهة أنها جماعة ، والشأن في هذا النوع أن يناط تنفيذه بمن يمثل الجماعة وينوب عنها مع مسئولية الجماعة عنه ، وهذا هو أساس مسئولية الحاكم أمام الجماعة في نظر الإسلام .

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، .

« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، .

ويلاحظ هنا أنه كما أن الأمة مسئولة عن هذا النوع الذي نيظ تنفيذه بالحاكم النائب عنها ، وكان الحاكم مسئولاً أمامها عنه ، فإن الحاكم مسئول أيضاً عن النوع الآخر الذي طلب من الأفراد ونيظ بهم تنفيذه ، ومن هنا وجدت في الإسلام للحاكم سلطة إقامة الحدود ، وتوقيع العقوبات على من قصر في واجب من الواجبات فعلاً أو تركاً ؛ فلك عقوبة من ترك الصلاة ، أو أفطر في رمضان أو منع

الزكاة ، أو اقتحم البيوت بغير إذن ، أو عرف بكثرة الأراجيف ، أو بالتجسس على الناس في خواص شئونهم ، وما إلى ذلك من المخالفات الأخلاقية والاحكامية التي طلبها الله من عباده المؤمنين .

وقد يأتي النداء للمؤمنين بتكليف يكون مطلوباً من الأفراد من حيث هم أفراد ومن الجماعة من حيث هم جماعة ينوب الحاكم عنهم ، ومن ذلك :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم . »

« يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم . »

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء . »

فإن الحكم الذي تضمنته هذه الآيات مطالب به الأفراد كل على سبيل الاستقلال ، ومطالب به الجماعة التي يمثلها الحاكم ، فكما لا يصح أن يتخذ فرد ما من الأمة بطانة من أعدائها يُمكنها من أسرار دولته ، لا يصح للحاكم الذي يمثل الجماعة أن يتخذ من الأعداء بطانة يفضي إليها بهذه الأسرار ، أو يمكنها من الاطلاع عليها .

وهكذا نجد القرآن قد عالج بالنداءات الإلهية الناس جميعاً على وجه عام ، وعالج الطوائف على وجه خاص ، وكانت الأوصاف التي تقع بها هذه النداءات من شأنها أن تدفع بالمخاطبين إلى امثال ما يخاطبون به وهو أسلوب قوى من أساليب الإرشاد واستنهاض الهمم . أسلوب طبيعي تأنس إليه النفوس وتملك به القلوب .

وقد قرأ في نفوس الناس أن يُبحث به بعضهم بعضاً على فعل ما يريدون من خير وترك ما يخشون من شر ؛ فهو أسلوب له أثره في توجيه القلوب وحفز الهمم وبخاصة لو صدر من أب لابن ، أو من رئيس لمرؤوس ، أو من حاكم لرعيته . فما بالنا إذا صدر من الخالق العليم ذي السلطان والقهر وصاحب القوة والنعمة ، في الأولى والآخرة ؟



# الأزهر وزارة المعارف

## بني التجديد والجمود

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية

كان الأزهر إلى عهد الأستاذ الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده ، عاكفا على علومه الخاصة ، بعيدا عن المشاركة في علوم الحياة العامة ، بل كان يعتبر الاشتغال بها نوعا من العبث ، وتضييع الوقت فيما لا طائل تحته ، ولا فائدة فيه .

وكان في عكوفه على علومه الخاصة شديد الحرص على التزام طريقة بعينها في الدراسة ، ونوع بعينه من الكتب ، قلما يحاول الخروج عليهما ، أو التحرر منهما ، فإذا حاول ذلك أحد من علمائه أو طلابه ؛ عُدَّ ذلك حدثاً من الأحداث ، التي تستدعي الاهتمام وتستدعي الانتباه من المسؤولين عنه ، وتحفزهم إلى نوع غريب من التكاتف والتعاون يوحى به الاحساس بالخطر أو ما يشبه الخطر ، فلا يقر لهم قرار حتى يأخذوا على يد هذا المتطلع إلى أفق غير أفقهم المعهود .

ولقد حدثنا التاريخ أن الأستاذ الإمام رضى الله عنه ، رأى - قبل أخذه شهادة التدريس - أن يطالع مع بعض الطلاب كتباً منها شرح العقائد النسفية للتفتازانى مع حواشيه ، وسوّغ لنفسه في أثناء ذلك أن يرجح مذهب المعتزلة في بعض المسائل الكلامية على مذهب الأشعرية ، فقامت لذلك ضجة كبرى في الأزهر ووصل الأمر إلى المرحوم الشيخ عليش الكبير ، وكان رجلاً حديد المزاج ، سريع الغضب ، شديد الغيرة على ما يعتقد ، فهاج وماج وأرسل إلى الشيخ

محمد عبده وكله في ذلك كلاما شديدا ، وتعصب للشيخ عlish في ذلك طلاب من الأزهر وعلما ، حتى كان الشيخ عبده يضطر إلى اصطحاب عصا معه وهو يقرأ الدرس خوفا على نفسه من اعتداء ذوى العصية (١) .

إلى هذا الحد كان الأزهر متمسكا بعلومه وتقاليدته الدراسية ، وقد احتاج الأمر في تقرير بعض المواد الحديثة فيه إلى أخذ ورد ، ومشاورات ومحاورات ، حتى أمكن تقرير دراسة التاريخ الإسلامى وتقويم البلدان وعلم المحاضرات ، على أن يقرأ في المادة الأولى كتاب « المواهب اللدنية في تاريخ السيرة النبوية » وفى المادة الأخيرة كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، وأن يترك أمر المادة الوسطى لما يختاره مدرسوها على ألا يعبر عنها بالاسم المشهور : « الجغرافيا » .

ولهذا كله اشتهر الأزهر منذ ذلك العهد « بالمحافظة » أو بتعبير أصرح « بالجمود » ، مما دعا إلى التفكير فى إصلاحه ، وكان من أسباب إنشاء بعض المعاهد الأخرى ، كعهد الاسكندرية الذى أنشئ فى سنة ١٩٠٤ م ، وأريد به إيجاد نوع من التعليم الأزهرى يستطيع مجاراة التطور الذى تقضى به الحاجة .

ثم وضع قانون سنة ١٩١١ م ، وأخذ به الأزهر ، وفيه كثير من مظاهر التطور فى المناهج والكتب والمواد وطريقة التدريس والامتحان وغير ذلك ، وتلاحق على الأزهر بعد ذلك ، التعديل فى إثر التعديل ، حتى أصبحت معاهده الابتدائية جامعة لكثير من المواد التى كان يعتبر تدريسها فى الأزهر خروجاً على تقاليده ، وذلك إلى جانب مواده الأصلية ، وحسبى أن أقول من المنهج الرسمى على سبيل السرد ما يُدرس فى هذا القسم الابتدائى من المواد ، وهو الفقه بمذاهبه الأربعة ، والتوحيد ، والسيرة النبوية ، وسيرة كبار الصحابة ، وتجويد القرآن الكريم ، والإنشاء ، والنحو ، والصرف ، والإملاء ، والمطالعة ، والمحفوظات ،

(١) ص ١٣١ - ١٣٢ من الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . تأليف السيد محمد رشيد رضا ، طبع مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ هـ .

والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، والهندسة، والجبر، وتدبير الصحة، والرسم، والخط.

وكذلك الأمر في مناهج التعليم الثانوى والعالى والتخصص، وطريقة الدراسة فيها.

وبهذا استطاع الأزهر أن يشارك بخبرجه في كل ناحية من نواحي النشاط العملى، وأن يقدم للدولة شبانا أقوياء مدركين للحياة، قادرين على مسيرة غيرهم في الأعمال والمصالح، وذلك كله مع احتفاظه بشخصيته العلمية التى تقوم على التبريز في أصول الدين والشريعة واللغة العربية، وأصبح من مجافاة الواقع، ومجانبة الانصاف أن يتهم الأزهر بالجمود أو عدم مسيرة ركب الحياة كما يزعمون.

\* \* \*

وفى رأى أن وزارة المعارف هى الجامعة، فهى التى تحرص أشد الحرص على برنامج عتيق إذا ساغ لها أن تحرص عليه أيام عهد القس «دلوب»، وما التحق به، فلا يسوغ لها أن تحرص عليه بعد الاستقلال والتطور السياسى والعقل الذى صارت اليه الأمة.

ولست أرمى وزارة المعارف بهذه التهمة جزافاً، ولا أقصد بها عهداً معيناً، من عهود وزرائها فى الماضى أو الحاضر، فان لدى الدليل على ذلك من مسألة التعليم الدينى فى المدارس والدعوة إلى تغذية أبنائنا بمزيد من ثقافتنا الإسلامية على نحو مثمر، وقد ناديتُ بفكرتى هذه فى البرلمان لأول مرة فى سنة ١٩٤١ على ما أظن، وكان ذلك فى عهد وزارة سرى باشا الأولى.

إنه مما لا شك فيه أن «قومية الأمة» تقتضى منها رسم سياسة أساسها إبراز شخصيتها، والعناية بالملاح التاريخية والفكرية لهذه الشخصية، فإذا وجدنا أمة تنكر لماضيها، وتنسى تاريخها وتقاليدها، وتغمر نفسها فى حياة ليست متفقة مع هذا التاريخ وهذه التقاليد، فإنها تكون أمة مقلدة أو مسوقة، سواء أشعرت بذلك أم لم تشعر، وقد كانت سياسة المحتلين - كما هو الشأن فيهم دائماً - أن يباعدوا

بيننا وبين تراثنا الفكرى ، وتاريخنا العلى القومى ، من حيث كوننا أما إسلامية ، فكانت مناهج التعليم توضع لتخريج موظفين ، وكانت الأمة محرومة من الدراسة العميقة المتصلة بهذه الناحية إلا قليلا ، بل كانت محرومة حتى من تعليم أبنائها أو ليات الأحكام الشرعية والعقائد التى يقوم عليها الدين ، فما كان يدرس فيها إلا بعض ما يتصل بالآداب والأخلاق ومبادئ العبادات ، كان هذا منطق الاحتلال والمحتلين ومن يجرى فى دائرتهم من المشرفين على التعليم ، ولكن هذه السياسة مع الأسف الشديد بقيت فى مصر ، ولم تجد من القائمين بوزاره المعارف فى عهد ما تحمسا لتبديلها والتخلص منها ، وإهداء الأمة أسساً أخرى تبنى عليها تعليمها وتثقيفها باعتبارها أمة حرة لها تقاليد ، ولها ماض فى العلم والرأى ، ولها فكرة وشخصية

وكلما نادى مناد بهذا حسبه متعصباً للدين أو اللغة ، أو حريصاً على إيجاد مُتفَسِّسٍ لخريجى الأزهر ، مع أن الامر - وإن كان ذلك بعضَ بواعثه أحيانا - أجلُّ من أن تنظر إليه هذه النظرة .

نحن أمة تريد أن تكونَ جيلا مؤمناً بنفسه ، قويا بدينه وخلقه ، متصل القلب بماضيه ، مشبوب العاطفة بمفاخره ، فإن ذلك هو الأساس الطبيعى الذى تقوم عليه أمة من الأمم ، أو هو على الأقل ركن هام فى هذا الأساس ، وإننا لنشهد فى عصرنا الحاضر جميع الأمم الأوربية تتمسح فى التاريخ اللاتينى ، وتتشبث بثقافتها القديمة ، فإذا لم يكن لاحدها حظ منها ، حاولت أن تزعمه منحدرأ اليها عن عمومة أو خؤولة ، بل أقول : إننا نشهد الآن أفكاراً ومبادئ فى السياسة والحكم والنظام تحترب وتتجادل فى عنف وقوة لتفرض نفسها على العالم ، فما بالنا نحن وأفكارنا أصيلة عريقة نعرض عنها ، وتختل عن احتضانها ، ونذوب فى غيرها ؟

أنا لا أدعو وزارة المعارف إلى اقتباس المنهاج الأزهرى لمدارسها الابتدائية أو الثانوية ، ولكنى أدعوها إلى أن تقدم لأبناء هذه المدارس قسطاً صالحاً من

الثقافة الإسلامية ، يعرفهم بدينهم ولغتهم ، ويفرس فيهم نزعة الشعور بالقومية الإسلامية ، ويقرب ما بينهم وبين تاريخهم المجيد .

وقد طرقت هذه الدعوات آذان وزراء المعارف جميعا ، فأمنوا بها ، ولم ينكروا مزايها ، ولكنهم مع ذلك لم يتحمسوا لها ، ولم يعملوا على إبرازها في صورة عملية واقعية ، وكلما أوشك ذلك أن يكون ، عوقته معوقات ، وحالت دونه حوائل ، أليس هذا هو الجود .

\* \* \*

وأحب في هذا المقام أن ألفت إلى أمر كثيرا ما تحدث به الناس في شأن التقريب بين تعليم الأزهر وتعليم الحكومة ، ذلك هو الدعوة إلى أن ينبذ الأزهر معاهده الابتدائية والثانوية ، وأن يستمد من مدارس الحكومة طلابا لكتباته بعد تزويد هذه المدارس بشيء من الثقافة الأزهرية .

إن هذه فكرة خاطئة ، ولا يقول بها إلا غافل أو متغافل عن البرنامج الأزهرى في قسميه الابتدائى والثانوى ، وقد علستنا التجارب أن الدين والشرعية الإسلامية واللغة العربية لا يمكن دراستها دراسة عالية إلا إذا زُود طلابها بدراسة سابقة تجعلهم أصحاب ملكات قادرة على تلقيها وهضمها ، يعرف ذلك أهل الأزهر ويعرفه الذين اتصلوا بدار العلوم أو بقسم الدراسات الإسلامية في كلية الحقوق ، فإن الطلاب الذين كانوا يلتحقون بدار العلوم من الأقسام الثانوية بالمعاهد الدينية كانوا أصبر وأقدر على منهاج دار العلوم من الطلاب الذين كانوا يلتحقون بها من القسم التجبىزى ، وما ذلك إلا لأن الأولين رُثبوا تربية ملائمة لهذا النوع من التعليم العالى . وأمرُ طلاب الدراسة الإسلامية في الحقوق من حيث شعورهم بثقل العبء في هذه الدراسة كذلك مشهور معروف ، مع أنهم يعتمدون فيها على مذكرات وخلاصات ، لا على كتب قديمة هي المنابع الأولى لهذا النوع من الدراسة ، كما يفعل الأزهريون ، والسرفى هذا أنهم لم يتمرسوا بما تدرس به الطالب الأزهرى

في دراسته الابتدائية والثانوية ، ولم يعودوا البحث والأخذ من المناجم العلمية الزاخرة بالأصول والقواعد ، وهي الكتب القديمة .

على أن المدارس الابتدائية والثانوية لا تستطيع من ناحية أخرى إعداد الطالب لكليات الأزهر فان تلاميذ المدارس الابتدائية يلتحقون بها في سن مبكرة بين السابعة والعاشرة ، فهل يستطيع تليذ في هذه السن أن يهضم علوم الأزهر ؟ أما طالب الأزهر فلا يلتحق به إلا في الثانية عشرة على الأقل - والحد الأعلى في ذلك هو السادسة عشرة - ولذلك يقدر الطالب على داسة كتابين في الفقه ، وأربعة كتب في النحو هي الاجرومية وشرحها ، والازهرية ، وشرح القطر ، وشذور الذهب ، وعلى دراسة كتاب متوسط في علم الصرف يقرأ في سنتين ، وعلى دراسة التوحيد في ثلاث سنوات . الخ .

والمدارس الثانوية في وزارة المعارف مكتظة بالمواد في كل ناحية ، والشكوى عامة من كثرتها وطولها وشحن أذهان الطلبة بها ، حتى ضعف المستوى ، وبدأت آثار هذا الضعف في المعلومات العامة ، واللغات العربية والأجنبية ، كما نشاهد ذلك ، وكما تشهد به تقارير وزارة المعارف نفسها ، وقد جاء في بعض هذه التقارير مانصه : « إن الشكوى عامة من أن الطلبة لا تتحقق فيهم الصفات المطلوبة للدراسة العالية من حيث روح التعقل وقوة الملاحظة والاعتماد على النفس وحب البحث ، حتى إنهم يضطرون أساتذتهم إلى إملاء الدروس عليهم إملاء مما يعوق سير الدراسة العالية في صورتها الكاملة » .

فاذا كان هذا رأى وزارة المعارف في طلاب مدارسها الثانوية ؟ فكيف يُطلب إلى الأزهر أن يعتمد على هذه المدارس في إمداد كلياته العالية ، وكيف يقول قائل بإمكان تقوية طلاب هذه المدارس وتزويدهم ب زاد جديد من التعليم يجعلهم قادرين على تلقى الدراسة الأزهرية ؟ هل نعطي طلاب هذه المدارس - إلى ما عندهم من المواد التي ينوون بأبحاثها - علوما جديدة منها الفقه والتوحيد والصرف والمنطق والعروض مثلا مما لا بد منه في الإعداد للتعليم العالي الأزهرى ؟

لا . إن هذه كلها آراء خفة ينقصها التأمل ، فضلا عن الدرس والبحث ، فليكشف عنها دعائها ، ولا سيما العارفين بثقافة الأزهر .

إن أحدا من يهمهم أمر الأمة الإسلامية ، لا ينازع في وجوب العمل على تقريب الثقافة العامة بين أبنائها ، ولسنا ننكر أن التقارب في الأفكار ، يحقق التقارب في الغايات والآمال ، ويرفع من الأمة كثيرا من أسباب الخلاف ، وعوامل التفرق ، ويجعل منها وحدة قوية متماسكة ، تسير في طريق واحدة ، وترى إلى هدف واحد ، لسنا ننكر هذا ، ولكن لا ينبغي أن يكون ذلك التقريب أو التوحيد على حساب ديننا وتراثنا الاسلامي المجيد ، وإنما ينبغي أن يكون في دائرتهما ، وتحت رعايتهما ، فإن من سفه المشورة ، وخطأ الرأي ، أن تتنادى بالخروج عن أنفسنا لكي نوجد أنفسنا ، وما انحلال المسلمين عن دينهم وثقافتهم إلا انحلال عن أنفسهم لو كانوا يعلمون .

ألا وإن الدعوة التي يجب أن ندعو لها ، وتكاتف عليها ، لا في مصر فحسب ، ولكن في سائر الاقطار الاسلامية ، هي احترام هذا النظام الأزهرى الذي لا بد منه في المحافظة على الدين والعلم واللغة ، والذي لا ينفرد الأزهر به ، وإنما يشاركه فيه كل شعب من الشعوب الاسلامية كالعراق وإيران والمغرب وغيرها ، وذلك مع العمل على أن تقرب الثقافة العامة في التعليم الحكومى من الروح القومى الإسلامى ، الذى يبعث في الأمة معنى الاعتداد بنفسها ، والشعور بشخصيتها ، والذي يربط بين ماضيها وحاضرها ، ويفتح لها آفاقا مترامية الاطراف في مستقبلها ، وما أريد بالامة في هذا المقام شعب مصر فحسب ، ولكن أريد الأمة الاسلامية بالمعنى الذى تفهمه « جماعة التقريب » من الأمة الاسلاميه ، والله المستعان ؟

# رُوحَانِيَةُ الشَّرْقِ وَمَادِيَةُ الْغَرْبِ

لحضرة الكاتب الكبير

الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك

من قديم والكتاب والفلاسفة قد تعارفوا على وصف الشرق بالروحانية ،  
والغرب بالمادية ! فما معنى هذا ؟

لقد سمعت كثيراً من المثقفين ثقافة واسعة ينكرون هذا ويقولون : إن الغرب غنى بماديته وروحانيته ، والشرق فقير في ماديته وروحانيته . أما أن الغرب غنى بماديته ، فليس يحتاج إلى دليل ولا برهان ، فالصناعات والاختراعات والآلات ونحوها ، كلها من الغرب ، وليس الشرق إلا عالة عليه . أما روحانية الغرب ، فتجلى في سمو عواطفه وجه للخير لأمته ، وأحياناً للإنسانية كلها ، وهو في هذا يفوق الشرق أيضاً . إن شئت فانظر لتبرعات الأغنياء من الغربيين ببناء المستشفيات والمؤسسات العلمية والأعمال الخيرية ، مما لا يبلغ عشر معشاره الشرقيون ، فهؤلاء أغنياء الشرق ، لا يفكرون إلا في لهوهم وملذاتهم ، فان ارتقوا قليلاً ، ففي أسرهم وأقاربهم ، ولذلك لا نرى منهم تبرعاً لعمل خيري ، إلا أن يكون ملقاً لوزير أو مدير ، أو رغبة في رتبة أو نياشين ، وكثيراً ما نسمع عن غربي خرج عن ماله أو أكثره لعمل ينفع قومه ، وقلنا نسمع ذلك عن شرقي ، ولكن نسمع الكثير عن شرقيين ابتزوا أموال غيرهم ، أو اغتصبوا عملاءهم الفقراء ، أو غشوا في المعاملة أو ارتشوا لقضاء مصلحة أو نحو ذلك ، فأين هي روحانية الشرق ، ومادية الغرب ؟



وإن كانت روحانية الشرق عبادة وصلاة وصياما ونحو ذلك ، فما قيمتها إذا لم تؤثر في عمل المؤمن ؟ ما قيمة صلاة يتبعها سلب ونهب ؟ وما قيمة صيام لا يمنع صاحبه من جشع وطمع ؟ إن العبادة إذا كانت على هذا النحو كانت حركات ميكانيكية ، أو ألعابا بهلوانية ، وكانت هي والعدم سواء .

ولكن يظهر لى رغم كل ذلك ، أن للشرق روحانية ليست للغرب ، وأن من الواجب إذا نظرنا للشرق ، ألا ننظر اليه فقط في عصر تدهوره وانحطاطه ، وألا ننظر إليه في شكله الأخير الذى ساء ، بل في جوهره الحقيقى ، وقيمه الذاتية ، ونعاليه ومبادئه غير مقيدة بعصر ، ولا مرتبطة بزمان .

إن الغرب من غير شك يحيا حياة مادية بحتة ، بمعنى أن حياته حياة عمل في مصنع أو شركة أو وظيفة يحسب حسابها المادى فقط من مرتب وأجر ، وكيف يناله على خير وجه ، وكيف ينفقه على خير وجه ، وكيف ينعم بهذه الحياة ، وكيف يكسب خير كسب ، وينفقه خير إنفاق ، وكيف يعيش في أسرته ، وكيف يحظى بالتعليم المادى الخ .. وكل الأخلاق الحسنة المرسومة له أخلاق تجارية ، تعلمه كيف ينجح في التجارة ، وكيف ينجح في العمل ، وكيف يسعد في الحياة ، ولذلك كان أهم قوائم الفضائل عنده المحافظة على المواعيد ، والنظام ، والترتيب ، والصدق في القول والعمل الخ ، والذى يسيطر على هذه الحياة ، ويرسم خططها ، ويخترع آلائها ، هو العلم ، والعلم نتيجة العقل والقضايا المنطقية ، وهى أمور كذلك مادية بالمعنى الواسع .

أما الشرق فعماده قديماً وحديثاً القلب لا العقل ، فإن كان ولا بد فالقلب أولاً والعقل ثانياً : هو يدخل في حسابه دائماً الحياة الآخرة بعد الموت ، ويضمها دائماً إلى حساب الدنيا ، وهو دائماً يتساءل هل هذه الأعمال يكافئ الله عليها في الآخرة بالثواب أو العقاب .

وأخلاقه التى يسير عليها مبنية على حساب هذه الآخرة أيضاً ، وهو كثير السؤال عن غاية هذا العالم ومصيره ، وأنه يسير بقوة عظيمة هى قوة خالقه ،

وأنه سيحاسب الإنسان في الآخرة على ما قدمت يدها في دنياه ، وهذه الصورة مركزة في ذهن الشرق ، وموروثة له أباً عن جد ، فهو في أشد أوقات النعيم في الدنيا يشعر بحافز يحفز به إلى أن يسأل ما عاقبة هذه اللذة بعد الموت ؟ وهل أتاب عليها أو أعاقب ؟ وماذا سيكون موقفى أمام الله إذا سألتى عنها ؟ وهكذا وهو يبنى أخلاقه على أساس الدين ، ويبنى أعماله على أساس القلب ، ولهذه الطبيعة الشرقية والاستعداد الفطرى الخاص كان الشرق منبع النبوات والفلسفة الإشرافية ومذاهب المتصوفة ، وإطالة التأمل ، ونحو ذلك من مظاهر الحياة الروحية ، فإن ظهرت نفحات من ذلك في الغرب فصدرها غالباً الشرق ، واليهودية والنصرانية والإسلام والتصوف في الغرب ليس إلا موجة من موجات الشرق .

يكاد يكون للشرقيين عنصر خاص ينقص غيرهم ، وهو الإحساس الدينى العميق الذى يلازمهم حتى فى أوقات خروجهم عن الدين ، ولذلك كثيراً ما يعقب المعصية تبه الضمير الدينى ، والمبالغة فى التوبة والندم ، لأنهم يؤمنون فى كل حركاتهم وسكناتهم وتصرفاتهم بإله يسيرهم وقدّر يتحكم فيهم .

قد أتى على الشرق زمن تفسد فيه عقيدته ويسوء تصرفه ، وتخط مشاعره ، فتصدر عنه أعمال خسيصة لا تصدر عن الغرب المادى ، ولكن هل يصح أن نعدّ هذا العارض إفساداً للذاتية وفقداناً للخاصية ، أو نعدّه حاسة أصيبت بأفة مع الرجاء فى شفائها ، أو جسماً أصابه المرض وفيه حصانة تبشر بالشفاء ، لو حكمنا بالظاهر لقلنا إن مادية سليمة تخضع للعقل وتنجح فى الحياة ، وتسيطر على العالم خير من روحانية فسدت ، ومبادئ قديمة تعفنت ، ولكن ليس هذا إنصافاً فى الحكم ، فما نتيجة هذه المادية الناجحة ؟ إنها مدنية روّعت العالم ، وجعلته على بركان يوشك أن ينفجر ، وهو كل يوم فى اختراع جديد يهدد العالم بالفناء ، فما قيمة القوة إذا كانت محطمة ، وما قيمة القصر المزوّق إذا ساد سكانه الفزع ، ولو أنك سألت أسرة أوروبية هل تفضل أن تعيش عيشة بذخ وترف وتفقد أبناءها فى الحروب ، أو تعيش عيشة وسطاً ولا يهلك أحد منها فى حرب ، فما الذى كانت

تفضل ؟ إنى لنى شك من قيمة المدنية الغربية إذا نحن قسنا ما أنتجته للعالم من شروق بما أنتجته للعالم من خيرات . فما قيمة آلات وأدوات ومخترعات بجانب أرواح تصدد ، وطمأنينة تفقد ، واستغلال قليل من الناس للكثرة الغالبة من العالم يرهقونهم ويسومونهم سوء العذاب ، ذلك لأنهم قالوا : « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

ولو آمنوا بالبعث وضموا إلى دنياهم آخرتهم ، وقدروا أنهم سيقفون أمام الله يسألهم عن أعمالهم ، لكنت المدنية غير المدنية ، ولكنت مدنية مادية روحانية معاً ، وهذا ما ينقصها ولا يصلح العالم إلا بها . وإذ ذاك يكمل الغرب نقصه فيزيد فى روحانيته ، ويكمل الشرق نقصه فيزيد فى ماديته ، ويسير الركبان جنباً إلى جنب لخير العالم وإسعاده .

ما الغاية لهذا العالم ؟ ما سر الحياة ؟ لماذا نعيش ، ولماذا نموت ؟ ما موقفنا بعد الموت ؟

كل هذه ونحوها من عشرات الأسئلة لا يستطيع العلم أن يجيب فيها إذ ليست من الأمور المادية ، وأشبابها التى تدخل فى اختصاص العلم ، إنما هى من الروحانيات التى لا يستطيع الإجابة عنها إلا الدين .

لقد بلغ العلم ذروته فى المدنية الغربية ، ولكنه لم يفعل أكثر من تحسين وسائل الحياة ، أما صبغ الحياة لتتفق مع الغاية التى يجب أن تنشأ ، فوظيفة الدين ، فلما اقتضت المدنية الحديثة على الوسائل دون الغايات ، ضلت السبيل ، ووقعت فى الحيرة والاضطراب ، وسيت هذا الشقاء المفضض بالنعيم .

وخالق العالم خلقه مادة وروحا ، فكان من الطبيعى ألا يسعد إلا إذا عُغذى العنصران ، واكتمل المنهجان ؟

الشخصية المحمدية  
تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

## بناء المجتمع الإسلامي

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

الذى تقرر فى علم الاجتماع الإنسانى أن أول ما يولد الاجتماع يظهر على حالة أسر تعزى لجد بعيد العهد أو قريه ، فيعيش الشعب الكبير على هذه الشاكلة مئات من السنين فى حالة تناحر بين هذه الأسر ، فإذا بلغت بعض هذه الأسر درجة أرقى مما كانت عليه فى الحياة ، واضطرتها الحالة المعاشية إلى التعاون ، نشأ فيها ميل للتضام والتساند ؛ ميل طبيعى لا أثر للاختيار فيه ؛ فتصبح هذه الأسر الكثيرة أمة تجاورها أمم ، فتعيش جميعها تحت سلطان النوااميس الاجتماعية العامة على النحو الذى رأينا عليه الأمم التاريخية ، وكما نرى عليه الأمم اليوم من العلاقات المتبادلة ، التى تقتضها الحياة الانسانية العامة .

ومما يجب ذكره أن الأمم التى تألف حديثاً ، لا تولد حاصلة على جميع مميزات الاجتماع طفرة ، بل تحدث فيها فلاق و اضطرابات لامناص منها ، وقد تطول مدة هذه الاضطرابات ، وتمنى الجماعة منها بعنت شديد ، ثم تنتهى هذه الاضطرابات بعد أن تزول جميع أسبابها ، ويعيش الآحاد فى ظلال الاجتماع آمنين مطمئنين

حتى تعصف بآمتهم عوامل الانحلال ، فتفنى في مجتمعات أخرى ، وفي التاريخ العام عبرة للتأملين .

فلما تألفت أكثر القبائل إلى أمم ، وأمكن اتصال بعضها ببعض ، وتعددت الأديان وكان أكثرها قد أُدخل عليه ما ليس منه حتى التحق بالوثنية ، واستعدت العقول لقبول دين عام يوحد وجهتها ، ويُيسر (١) ألفتها ، ويصح عقائدها ؛ اقتضت الحكمة أن يكون ذلك على يد أمة لا عهد لها بدين سماوى ، ولا كتاب إلهى ، ولا مطمع سياسى أو مطمح عالمى ، تُنشأ لإنشاء ، وتحلى بجميع الصفات التى تؤهلها لمهمتها العالمية طفرة لا على سنة ناموس الترقى ، تأثيراً فى النفوس بالاعجاز .

بعث الله خاتم رسله محمدا لإحداث هذا الحدث العالمى الفذ ، فأنزل عليه الدين فى نقائه الأول خالصة من جميع الشوائب البشرية ، وأتم على يديه تأليف أمة مثالية فى عشر سنين ، وهى الأمة التى أعدها الحق لنشر الدين الحق ، وإيقاظ العقول من سباتها التقليدى إلى النظر فى الوجود ، والاستفادة من خصائصها الفطرية للوصول إلى الحقائق الإلهية نقية من كل ما يلبسها من وساوس الظنون ، وأوهام النفوس ، لتحدث فى العالم ما أرادته الخالق له من لقاء العقائد ، وصحة الإيمان ، وسلامة الصدور .

فلما فيما تقدم : ( وأتم على يديه تأليف أمة مثالية ) وأردنا بذلك أنها بنيت على أكمل الأصول وأرقاها ، فقد جرت العادة أن الأمم يحدث تأليفها تحت تأثير الحاجات الحيوية ، والضرورات المعيشية ، ولكن الأمة الإسلامية لم يحصل تأليفها على هذه السنة الطبيعية ، فلم يحدث فى قبائل العرب من ضرورات الحياة الاجتماعية ما يدفعها للتألف ، ولكنها تألفت بدوافع من حاجات العقول والأرواح كشفها القرآن للنفوس ، وبثتها حكمتها فى العقول ، فأجمعت منقاداً بسموها على الأخذ بها ، والذيادة عنها ، ونشرها فى الآفاق لتخليص البشرية من أوهام علق بعقولها فى أدوار قصورها ، فصرفتها عن سعادتها أحقاباً طويلة .

(١) سنى الأمر تسنية : سهله ويسره .

فالامة الإسلامية كما ترى تألفت بتأثير المبادئ العالية على عقول آحادها ، وبفعل الأصول القويمة في نفوسهم ، فكانوا قلة ممتازة لم يتفق وجود ما يشبهها في زمن من الأزمان ؛ فان قلت يفضل الواحد منهم ألفاً ممن تألفوا تحت تأثير الحاجات المعاشية ، والضرورات المادية ، لم تك مبالغاً ، فقد ثبت أنهم بعددهم المحدود تغلبوا على الامة العربية برمتها في عشر سنين ، ثم لما وجها وجوهم لنشر دعوتهم في الآفاق سحقوا - في أيام معدودة - جيوش الأكاكسة والقياصرة التي وُجِعت لردمهم ، وأسسوا - في عقود من السنين تعد على الأصابع - مملكة لا تغرب عنها الشمس ، وهذا ما لم يحدث له شبيه في العالم الانساني في مدى تاريخه كله .

فهذا الاجتماع الذي قام على المبادئ العالية ، والأصول القويمة ، وكلّ الله أمره إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليحفظ تماسكه ، ويصون تلاحمه ، وهو لم يعد بهذه المهمة الخطيرة إلى رجل لم يبلغ كماله الروحي والعقلي ، فيقصر في فهم الحكمة الإلهية من إيحائه الدين العام على الامة العربية ، فيخرجها عن حدود مهمتها ، أو يعجز عن حملها على العمل به ؛ ولكنه أوحاها إلى روح علوية حاصلة على أكمل ما يمكن أن يتحلى به عامل للوصول إلى هذه الغاية البعيدة . فكان في جميع أوامره ونواهيه يحاول أن يحفظ على الامة وجودها المادي كأمة عالمية ، ووجودها المعنوي كأمة مثالية ، حتى أدت هذه الأمانة إلى العالم كله في رقعة من الأرض يختلف إليها جميع سكان الكرة الأرضية ، فتعم الدعوة جميعهم على هذا الوجه .

فلم يترك محمد صلى الله عليه وسلم مجالاً من مجالات النشاط الروحي والعقلي والعمل إلا خصه من توجيهاته بما يناسبه من لفت النظر إليه ، وبيان الحكمة منه ، ووضع الحدود له ، وذود الآراء المضللة عنه ، مما اختصت كتب السنة باستيعابه ، وفيها من وجوه حكمته ، وأساليب تربيته ، ووسائل تقويمه ما يشهد بأن عبقريته قد فاقت أكمل ما عرف عنها عند عظماء رجال العلم والفلسفة .

قلنا قد وكل الخالق جل شأنه إلى رسوله محمد أن يَرُبَّ الاجتماع الذي أوجده

الإسلام بما يحفظ تماسكه ، ويصون تلاحه ، حتى يؤدي مهمته العالمية ، فقام بما عهد اليه على أكل وجه ، ونحن في هذه المجالة تأتي على بعض ما كان يسته لأمته مما يحفظ مجتمعهم من التصدع ، وما يجعله يقاوم الأحداث المحللة لأقوى الروابط الاجتماعية ، وأحكم الوشائج القومية . وقد أثبت التاريخ أنه نجح في ذلك نجاحاً باهراً ، فقد مرت على جماعة المسلمين أحداث تعتبر غاية في الخطورة وإثارة النفوس ، ك وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وضرورة تعيين من يخلفه على زعامة الأمة ، وارتداد كثير من قبائل العرب ، والثورة على عثمان بن عفان ، واستبداد معاوية بالشام ، وتصميم على بن أبي طالب على إسقاطه ، وقتل أمير المؤمنين على ، وتفرد معاوية بالسلطان المطلق ، وخلافة ابنه يزيد من بعده ؛ وكلها أحداث من الخطورة بمكان بعيد ، فقد كان بعضها يكفي لأن يقسم أمة عريقة في الاجتماع إلى أحزاب وشيع يقاتل بعضها بعضاً ، ويريق بعضها دماء بعض ، فما ظنك بأمة قريبة العهد بالاجتماع ، كانت لا تزال نعمة الجاهلية تطن في آذانها ؟ أفلا ترى أن تمسكها بالوحدة الاجتماعية مع توالى هذه المحللات عليها ، وعملها المتواتر على عدم التصدع والانهيار ، يدلان دلالة قاطعة على أن هذا الاجتماع الفذ الذي أوجده الإسلام ، كان أقوى اجتماع شهده العالم منذ تألفت المجتمعات إلى ذلك العهد ، بل إلى عهدنا هذا ؟ فإن اختلاف الجماعات المتمدنة في المذاهب السياسية والاقتصادية جعل من بعضها أعداء لبعض حتى قاتل بعضها بعضاً وسقطت دولهم إلى الأبد .

قلنا قد وكل الحق جل وعز إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرب هذا الاجتماع ويقيه التصدع ، فكان في أداء مهمته من الحكمة وبعد النظر والحيلة من أدواء المجتمعات ، اجتماعياً حكيماً برّ جميع أراكين هذا العلم ، وتفوق عليهم تفوقاً لا وجه للتردد فيه .

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم أن الإصلاح الذي أراده الله للعالم لا يقوم إلا بواسطة أمة تصدق في القيام به ، وتنشره في آفاق الأرض ، ولو كانت تبقى منزوية في حيزها فلا يمكن أن تؤدي مهمتها العالمية ، فصرح بذلك في قوله :

« الإسلام أحوج إلى الجماعة من الجماعة إلى الإسلام » . وهو قول يدل على نظرة عميقة في فلسفة الاجتماع ، وكانت هذه الفلسفة لم توجد بعد ، فوجه كل همته لبناء المجتمع الإسلامى بحيث لا يعتريه الانحلال أجيالاً متعاقبة ، حتى يُتم ما يُدب إليه من إذاعة كلمة الله الفاصلة ، للعالم كافة ، فجاء من أقواله صلى الله عليه وسلم في المؤاخاة بين آحاد المسلمين ، وفي وجوب تضامهم وتضافرهم حتى يصبحوا كرجل واحد تحركه ارادة واحدة ، قوله :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عصب منه تداعى سائرُه بالحى والسهر » .

« من لم يهتم للمسلمين فليس منهم » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« من فارق الجماعة شراً فأت ، فبئس جاهلية » .

ولما كانت هممة المسلمين الأولين منصرفة ، بعد استقامة عقيدتهم ، إلى العبادة والتقرب إلى الله ، يَبَيِّن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن السهر على صيانة الاجتماع الإسلامى أفضل من سائر العبادات التى كانوا يقدسونها ، ويعتقدون سموها ، فقال فى هذا الباب :

« نظرُ الرجل لأخيه على شوق ، خير من اعتكاف سنة فى مسجدى هذا » .

« لإصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم » .

« من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكأنما خدم الله عمره » .

« من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار ، قضاها أو لم يقضها ، كان خيراً له من اعتكاف شهرين » .

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا بلى . قال لإصلاح ذات البين . وفساد ذات البين هى الحالقة » .



ولم يكف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا ، فقرر لهم أن العمل على تقوية الاجتماع يقي من عذاب يوم القيامة ، وعذابها تقشعر من سماعه الأبدان . فقال :

« من زحزح عن طريق المسلمين شيأ يؤذيهم ، كتب الله له به حسنة ، ومن كتب له حسنة أوجب له بها الجنة » :

« من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » .

« إذا التقي المؤمنان فتصافحا ، قسمت بينهما سبعون مغفرة ، تسع وستون لأحسنهما بشرا » .

كل هذه الأحاديث وكثير من أمثالها ، مما ليس له نظير في دين من الأديان ، ولا جاء على لسان واحد من المصلحين الاجتماعيين . جعلت من جماعة المسلمين أمة كرجل واحد ، وإذا بلغت أمة هذا الحد من التضام والتعاون ، فلا يمكن أن تحل أو تختل بتأثير الحوادث العادية ، ويكون لابد لحدوث ذلك الانحلال من عوامل أقوى منها تنزل من ضعف إيمانها بمصدر الوصايا التي ذكرت بعضها في هذه العجالة ، وطروء الضعف على هذا المصدر يصعب في قرن أو قرنين ، وعوامله أكثرها علمية أو فلسفية تطرأ على شكل شبهات ، وهي لا تحدث في الأمم إلا بعد أن يبلغ العلم فيها أشده بعد عدة أجيال ، أى بعد أن يكون الغرض المقصود من التبليغ العام قد تم وأحدث في العالم ثمراته المرجوة . وهذا هو الذى حدث فعلا ، فبعد أن أتم الاسلام تأليف أمته المثالية في مدة من الزمن لا تكفى لتأليف قبيلة ، وبعد أن قامت هذه الأمة المثالية بإحداث الانقلابات الاجتماعية والتطورات الفكرية ، والتوجهات الأدبية ، في الأمم كافة ، وبعد أن أصبحت حجة الله قوية ، بل بديهية استوى العالم كله لإزائها ، فن استهدى بنورها ، وسار على سمتها ، بلغ الغاية مما خلق له ، ومن تنكبها وسلك غير سبيلها فقد حقت عليه كلمة الله وأصبح من النادمين . قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

# حياة، كلها هجرة

الحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

يذكرنى شهر الحج بالهجرة ، لأن المسلمين يهاجرون فيه إلى مكة ، ولأن مكة — فى نظرى — هى رمز الهجرة ، فأول من نزل بقعتها مهاجر ، وأول من تفجر له الماء فى أرضها مهاجر ، وأول من رفع قواعد البيت فيها مهاجر ، ولأذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، .

والرابطة قوية بين هجرة المسلمين إلى مكة ، وهجرة الرسول منها ، فسكة التى تسع اليوم لمئات الآلاف من الحجيج ، لم تسع بالأمس لرسول الله وصحبه — على قلة عددهم — وضافت بهم ذرعا .

والنفس تألف الحديث عن الهجرة لما فيه من لذة وسمو ، ولأن الإنسان يألف الهجرة من طول ما تلازمه ، خيانه سلسلة من الهجرات الطبيعية ، ففى بطن أمه يهاجر من النطفة إلى العانة إلى المضغة ، إلى نهاية أطوار تكوينه السبعة المعروفة . ثم يخرج إلى الدنيا ، فيتنقل من منزل إلى منزل ، ويهاجر من طور إلى طور .

ويتفق الفلاسفة والعرفاء والطبيعيون على حدوث هذه الهجرة ، وإن اختلفت نظرتهم إليها ، وتسميتهم إياها .

فالحكماء يعبرون عنها بالعقل الهولاني ، والعقل بالفعل ، والعقل بالملكة ،  
والعقل المستفاد ، ومقام القلب ، ومقام الروح ، ومقام النفس .

والعرفاء يسمونها بالمقامات ، وهى : الطبع والصدر والقلب والروح والسر  
والخفى والآخرى .

والطبيعيون يعرفونها بالاطوار ، وهى تبدأ بالطفولة العاجزة ، وتمت بالنضوج ،  
والرقية ، والحرية ، واستكمال العقل ( الاستكمال الروحاني والجسماني ) ،  
ثم تنتهى بالكمال .

وهؤلاء وأولئك يتفقون فى تقسيمها كذلك إلى سبعة منازل ، وهو أشبه  
ما يكون بتقسيمنا اليوم إلى ليل ونهار ، لأن الظلمة تفرقهما ، والحال أن كل دقيقة  
وثانية وثالثة ، فيها تغير وتبدل .

وهكذا الإنسان يتنقل من طفولة عاجزة ، إلى صبا وثاب ، إلى كهولة  
وشيوخوخة ، وكلها هجرة إجبارية ، لا تحكم له فيها ولا خيرة ، بل هى سنة من سنن  
الله فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

أما الهجرة المعنوية ، فهى هجرة النفس من صفة إلى صفة ، ومن خصلة إلى  
إلى خصلة ، ومن خلق إلى خلق ، ومن درجة أدنى إلى درجات أعلى ، ومن  
عادات ضارة إلى أخرى مفيدة ، ومن تقاليد فاسدة ، إلى غيرها صالحة ، ومن  
تعصب للسخافات ، إلى تعشق للتسامح ، وتطلع للكمال .

وهذه الهجرة المعنوية طبيعية بالنسبة لمن جعل الدين مرشده ، واتخذ من تعاليمه  
دليلا . وضرورية بالنسبة لأصحاب الدعوات والمجاهدين فى سبيل الفكرة ، الذين  
لا يهاجرون بأنفسهم فحسب ، بل يهاجرون بالناس من السوء إلى الحسن ، ومن  
الحسن إلى الأحسن ، ومن الأخلاق الذميمة إلى الكريمة ، ومن مواطن السوء  
والرذيلة إلى مواطن الخير والفضيلة ، ويدفعون الناس إلى الكمال ، وإلى ما فيه  
صلاح دنياهم وآخرهم .

وحياة الرسول الكريم ، تجمع الهجرات كلها طبيعية ومعنوية ، وتزيد عليها تلك الهجرة المعروفة التي لولاها لفضى — بغير شك — على الإسلام ورسوله والمسلمين ، تلك الهجرة التي هي درس عملي في التضحية والجهاد ، والتي اتخذها المسلمون مبدءاً لتاريخهم ، والتي جمعت كل المعاني والمحسوسات التي تفهم من هذه اللفظة .

كان صلى الله عليه وآله نموذجاً فريداً في هجرته الطبيعية ، فلم تشعر أمه إبان حملها بما تشعر به الحوامل من تعب وألم ، ولم تجد في وضعه ما يجده النسوة عادة من الإجهاد . وكذلك كانت هجرته من الطفولة إلى الصبا والشباب ، ثم إلى نهاية الأجل ، فذة في كل أطوارها .

أما الهجرة المعنوية ، فقد اكتمل له أمرها في مستهل حياته ، ففي صباه لم يله كما يلهو الصبية ، ولم يعبت كما يعشون ، بل كان يجلس مع جده في مجالس الحكم ، ومواطن الحكمة ، وفي شبابه كان يتزعم نفسه من مجالس اللهو ، ويؤثر الخلوة ، ويجنح إلى السكون ليحتل معاني العظمة في الكون ، حتى بلغ به الأمر أن يتحنث في غار حراء ، كذلك هجر عادات قومه وتقاليدهم ، وتميز عليهم بسمو خلقه وسمو طبعه ، وُسِّمَ عندهم بالصادق الأمين .

وأما هجرته المشهورة ، التي جمعت كل أسباب الخير ، وحوث كل معاني العظمة ، وغمرت الدنيا بأسمى التعاليم ؛ فقد كانت بدءاً لا مثيل لها في تاريخ قومه الذين عرفوا الهجرة الجماعية ، أي هجرة القبيلة كلها في سبيل العيش ، أما الهجرة الفردية ، الهجرة من أجل العقيدة والمبدأ ؛ فشئ جديد لا سابقة له ، اضطر إليه الرسول بعد إيداء قومه إياه ، ومحاولتهم القضاء على دعوته .

استخلف عنه في مكة من استخلف ، وأخذ معه من أخذ ، وهاجر إلى المدينة ، وفيها وضع أساس الأخوة الإسلامية ، ومبدأ وطن العقيدة ، فأخى بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج ، وقضى على العصية الجنسية ، والنصرة القبلية ، وأعلن أن وطن المسلم هو كل موطن فيه للإسلام صحة ، وأن وطن صاحب الدعوة

كل رقعة فيها للدعوة مصلحة ؛ وبعد أن انتزع من النفوس كل معاني التعصب والخلاف ، غرس فيها مبدأ العمل للإسلام في كل مكان ، وعلى نهجه سار المخلصون من المسلمين .

كان يستطيع أن يبقى بمكة عزيزاً موفوراً الثراء ، ألم يعرضوا عليه المال فأبى ؟ ألم يعرضوا عليه الجاه فرفض ؟ إنه رجل الدعوة ، إنه رسول الله ، إنه لن يترك دعوته أو يقصر في أداء رسالته ، ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ، ذلك فناء الذات في الفكرة ، وذلك أسمى مراتب الكمال .

لقد رأى أن البقاء بمكة لا قيمة له ولا وزن ، ما دامت كلبة التوحيد ليست هي العليا ، فهاجر ، وبهجته امتدت الدعوة الإسلامية ، واتسع نطاقها ، وتخلص وطن المسلم من النطاق الضيق المحدود .

ومن المؤسف أننا اليوم في نظرتنا الوطنية ، نقف عند الحدود الضيقة التي فرضتها علينا الحروب الداخلية أو الخارجية ، أو الثورات أو الاستعمار الأجنبي ، فحين ننادى بالوطنية ، إنما نعني البقعة التي نعيش فيها أو نتنسب إليها ، ونسينا أن صاحب الهجرة حدد وطن المسلم يوم هجرته بأنه كل بلد تسمع فيه كلبة التوحيد ويوجد فيه من يتخذ الإسلام ديناً .

كذلك نحن نهاجر اليوم ، ولكن لا من الكمال إلى الأكمل كما كانت هجرة الرسول ، وكما ينبغي أن تكون هجرة المسلم العارف لدينه ، وإنما نهاجر من الحسن إلى السيئ ، ومن السيئ إلى الأسوأ ، نهاجر عن عاداتنا وتقاليده ديننا ، إلى عادات وتقاليده منافية ، بل جاهلية وبربرية بأصح تعبير ، ونحسب أننا نسير إلى تقدم ومدنية ، مع أننا تندهور ، ونهوى إلى الحضيض .

ليست هجرة الرسول قصة تقرأ ، ويردد أمرها ، ويرجع حديثها لحسب ، وإنما هي نموذج عملي خالد للهجرة إلى المبادئ السامية والمثل العليا ، التي تضمن للفرد العزة والرق ، وتضمن للدولة النهوض والسودد .

وما أشد حاجتنا إلى التحصن بتلك المبادئ ، لئلا نعيش في هذا العالم المضطرب الذي يريد كل ظالم فيه أن يحملنا على مبادئه زاعماً أنها مثالية ، تضمن السعادة والهناء للبشرية .

نحن نكتب هذا ومئات الآلاف من المسلمين يطوفون حول البيت العتيق ، يهللون ويكبرون ، ويسبحون الله الواحد الأحد ، فهل يذكرون أن مكة التي تفتح صدرها لهم ، وتردد في أرجائها تكبيرهم وتسييحهم ، قد ضاقت بالرسول وصحابته ، وحالت بينه وبين عرض عقيدة التوحيد على الناس فيها ، فهاجر تلك الهجرة المباركة ، التي أوجدت الملة الإسلامية ، ومهدت للمسلمين سبيل الحج وطهرت كعبتهم من الأوثان والرجس ؟

\* \* \*

وبعد . فلماذا لاتتخذ من حياة الرسول المليئة بالهجرة الصالحة مثلاً نحتذيه ، وطريقاً نسلكه لتخلص مما نحن فيه ، فقد لزمنا الذل ، وركبنا العار ، وهان أمرنا على الناس حتى ان شذاذ اليهود أقاموا لهم دولة في قلب أرضنا الإسلامية تهدد وجودنا بأشد من تهديد يهود يثرب لمسلمي صدر الاسلام .

ولئن كان الأولون تخلصوا من كل خطر حاق بهم ، بفضل تحصنهم بمبادئ الدين ، والتزامهم بحجة الرسول ونهجه ؛ إن على القادة في أيامنا هذه - إن أرادوا النجاة والخلاص من كل خطر دامهم ، وذل جاثمهم ، وعبودية مهينة - أن يبدءوا من أول الطريق ، فينظروا بعين الاعتبار إلى الهجرة ، ويفهموا حقيقة معناها . وما هي إلا التضحية ، ونسيان الذات ، وعدم الخضوع لمؤثرات البيئة والمجتمع واتخاذ خطوات إيجابية حاسمة ، تساعد على الهجرة بأنفسهم وبالناس معهم ،

فإلى الهجرة ؟

# نظم الحكم كما يرثها الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغي بك

عضو جماعة كبار العلماء والإمام الخاص للحضرة الملكية

وعدت في حديثي الماضي بالكلام على معنى الحكومة الثيوقراطية أو الحكم الإلهي - كما يسمونه - ، لأن كثيراً من الكاتبين في نظم الحكم الدستورية وصفوا حكومة الاسلام بأنها حكومة ثيوقراطية دينية ، وخلصوا من ذلك إلى أن النظم الديمقراطية العصرية لا تلائم الإسلام ، وهو بدوره لا يقرها ، وعلى ذلك لا يمكن أن يحقق الاسلام للناس نظاماً متطوراً يرضى حاجاتهم ، ويسير الزمن ورقبه وقدمه .

فما هي الثيوقراطية ؟ وهل حكومة الإسلام ثيوقراطية حقاً ؟ وهل وضع الاسلام نظاماً جامداً لا حياة فيه ، ولا يرضى الناس عندما يتقدم الزمن ؟ .

الثيوقراطية نظام حكومة دينية ينفذ القائم على رأسها تعاليم إلهية محددة لا يحاسب عليها إلا أمام الله ، فلا سلطان لأحد في حسابه ، يفعل ما يجب أن يخضع له الشعب ، لأن ما يفعله مستمد من أمر الله ، أو بوجه أدق من أمر إله . هذا النظام قد عرف في العالم منذ أقدم العصور : عرفته مصر الفرعونية ، وعرفته اليهودية في عهد أنبيائها وقضاتها وملوكها ، وعرفته المسيحية في القرون الوسطى .

وما نظرية التفويض الإلهي التي عرفها الناس على أنها أحدث النظريات في وجود الدولة إلا صورة من صور هذا النظام .

وخلاصة هذه النظرية أن الدولة أصلها الدين على معنى أن سلطانها يرتكز على سناد سماوى ، ويرجع إلى إرادة علوية فوق إرادة البشر .

تلك الإرادة الإلهية هي التي اصطفقت من بين الناس مباشرة ملوكا عليهم يختصون دونهم بالسيادة والسلطان مؤيدين بروح من عند الله الذي اصطفاهم وعهد إليهم بمصالح البشر المكلفين بطاعتهم والالتزام بأمرهم ، وأساس الدولة على هذا هو التفويض الإلهي الخارج عن إرادة البشر ، ورئيس الدولة على هذا غير محاسب على عمله إلا أمام الله الذي اصطفاه وفضله على عباده ، وفي ذلك يقول لويس الرابع عشر : ( إن سلطة الملوك إنما تستمد من تفويض الخالق ، فالله هو مصدر هذه السلطة وبين يديه وحده يؤدي الملوك حساباً عن استعمالها ، كما قال لويس الخامس عشر في مرسوم صدر منه في عام ١٧٧٠ م ( إننا لم نلتق التاج إلا من الله ، فسلطة عمل القوانين هي من اختصاصنا وحدنا دون تبعية ولا توزيع ) .

لا بل إن هذه النظرية سادت حتى مستهل هذا القرن ، فقد قال غليوم الثاني امبراطور الألمان في عام ١٩١٦ ( إن الملك يستمد سلطته من الله ، ولا يقدم حسابه إلا إليه ، ولإتي على هذا المبدأ أضع سياستى وأعمالى ) .

وقريب من هذه النظرية أيضاً نظرية العناية الإلهية ، وهي لا تختلف في جوهرها عن النظرية السابقة ، والفرق بينهما أن إرادة الله على النظرية الأولى تعمل مباشرة فتختار الحاكم ، بينما هي — على النظرية الثانية — تعمل بطريق غير مباشر ، وبواسطة إرادات الأفراد ، تلك الإرادات التي تختار الحاكم مباشرة مسيرة في هذا الاختيار بالعناية الإلهية .

تلك هي نظرية التيقراطية وما لفَّ لفَّها من نظريات حديثة ، فهل كانت



نظرية الحكم في الإسلام شيئاً من هذا، وهل كانت الدولة في الإسلام سفينة يقف على دفتها إله يختار شخصاً معيناً ينفذ أوامره الإلهية وهو غير مسئول - كما جاء في عبارة لويس و غليوم - إلا أمامه؟ الجواب على ذلك ، لا .. لا ؛ ولكن قضية النقي يحتاج الجزم فيها إلى شيء من التوضيح المتعلق بمركز الرسول عليه الصلاة والسلام كنبى وكإمام ، ومركز الخلفاء من بعده ، وموقع التشريع الإسلامى من سلطة الخليفة ، ومن صلات الشعب بالحاكم ، والحاكم بالشعب ، ومدى سلطان ذلك الحاكم على الشعب ، وإلى أى حد يمكن أن ينفذ الإمام سلطانه على المحكومين ، وكيف يكون مسئولاً ، وأمام من يكون مسئولاً .

والإجابة على هذه الأسئلة توضح تماماً نظرية الحكم الإسلامى على أساس متين بعد ما لفظ فيها الناس جاهلين أو متجاهلين ، وبعد ما أكثر الناس من التشدد بنظريات حديثة لا نقرهم عليها ، بل نلومهم على عدم الثبوت فى قضايا الشريعة الإسلامية جملتها وتفصيلها ، وإن كانوا لم يترسوا بدقائقها ، فليكشفونا ويكشفوا أنفسهم المثونة بالسكوت ، أو فليحاولوا - ولو مرة - سؤال أهل الذكر .

أظن أنه أصبح من المعاد الكلام عن تاريخ دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام فى مكة ، ثم جهاده بالمدينة ، حتى استقر أمرها ، وبدأ الرسول عليه السلام يرسى قواعد الدولة الجديدة ، ويبرز مظاهرها الداخلية والخارجية من مكاتبه الملوك والأمراء ، وعقد المعاهدات ، كما أنه أصبح من الواضح الحديث عن مسألة الدولة ، ومكيفات كيانها من وطن وقوة وسيادة .

والإسلام يعتبر - ولو من الوجهة النظرية - وطنه العالم أجمع ، فالأصل أن تكون كلمة الله هى العليا ، وهى التى تسود - كقانون - شتى بقاع الأرض ، وهى التى توحد الناس وتجمع شتاتهم ، وهى المؤهل الوحيد للدخول فى الجنسية الإسلامية بمعناها الدقيق ، فالإسلام كدين وكنظام عام لا يعرف الحدود الجغرافية الضيقة ويوجب تناصر المسلمين فى مختلف أرجاء العالم ، ويجعلهم - أمة سلكوا - مخاطبين

بتكاليفه ، ولو أن فقهاء المسلمين في العصور المتأخرة قد أذعنوا للأمر الواقع وينوا كثيراً من الفروع الفقهية متأثرين فيها بالناحية العملية ، فإن ذلك لا يمنع من تحرير المبادئ العامة التي أسلفناها .

ولست الآن بصدد الحديث عن نظام الحكم في الإسلام ، وهل هو من أمر الدين أم من أمر الدنيا ، فإنني أعتقد أنه جدل لفظي ، أو خلاف في حال ، كما يقول سادتنا العلماء في اصطلاحاتهم .

فالمهم الآن - ولو تاريخياً - أن نثبت نظاماً للحكم أقره المشرع الإسلامى على نمط أو آخر من طرق التشريع ، وكان الأساس فيه هو الشورى ، حتى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

والذى شدا طرفاً من أصول الفقه يعرف البحث المشهور في جواز اجتهاد الرسول عليه السلام ومداه ، وفي أى الأشياء يحصل ، ومهما يكن من شيء ، فقد ثبت أن الرسول عليه السلام استشار أصحابه في كثير مما يسمى الآن من أمور الدولة ، كأمر الأسارى في بدر ، وقصة الخندق ، وصلاح الحديبية ، وغير ذلك ، وهذا أول مظهر ينفي التيوقراطية عن نظام الحكم الإسلامى وعن القائم على أمر الدولة والتشريع في الإسلام .

وأمر آخر وراء هذا قد يكون أكثر أهمية في إثبات ما ذهبنا إليه في هذا الحديث وسابقه ، ذلك أن الرسول عليه السلام لحق بالرفيق الأعلى ولم يترك نظاماً معيناً لهذه الحكومة ، ولم يدع وصية محدودة بشأنها ، بل شاء - بعد مشيئة الله - أن يدع هذا الأمر للمسلمين يقبلون فيه وجوه الرأى ، ويحلون معضله كما يلائم طبيعة الجو الذى يعيشون فيه ، ليعين لهم أن ملاك هذا الأمر الشورى ، واختيار أهل الحل والعقد ، وأن للمسلمين أن يبينوا تفاصيله في دستور مكتوب أو محفوظ ، وأن يضعوا ما يرونه كفيلاً باسعادهم وتحرير حكمهم على النمط الذى يرضى مزاجهم وعرفهم وتقاليدهم ، من نظام دستورى وإدارى وغير ذلك ، مادام ملتصقاً بالمبادئ.

العامة التي جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد رسموا لهم الخطوط العامة لمعادهم ومعاشهم ، وما على المسلمين إلا أن يفصلوا بحمل هذه الخطوط ، ويبينوا في ذلك الفراغ ما يظنونه ملتصقاً وحاجتهم ومصلحتهم ، وأى نظام اختاره المسلمون على وفق الفكرة العامة التي رسمها المشرع فهو نظام مقبول ، ودستور مرض ، فإن وضع المسلمون دستوراً على أحدث النظم ، لا يعارض شيئاً مما نص المشرع عليه نصاً صريحاً لا تأويل فيه ، فهو دستور محترم مقبول ، ما دام يراه أهل الشورى ، ويختار تفاصيله أهل الحل والعقد الذين يعرفون حكم الله في تحليله وتحريمه ، ويعرفون أن ذلك الذي وضعوه يحقق المبادئ الطبيعية ، وحرية الفرد والجماعة التي يستمتع بها الإنسان كإنسان ، والتي قررها الشارع الإسلامي في ألف موضع وموضع من تشريعه .

وتلك نقطة جديرة بالعبارة أحب أن ألفت لها نظر الذين يقولون عن الحكومة الإسلامية إنها حكومة ثيوقراطية ، فليس ثمت - عند التدقيق - فرق بينهم وبيننا ، فواضعو الدساتير على النظم الحديثة يضعونها متأثرين بما يقبسون من نظم ودساتير يرونها أرقى الدساتير ، وهي لذلك جديرة بالافتداء والتقليد ، لأنها تحقق المثل العليا للديمقراطية ، وهي عرضة للتغير على الطريق المرسوم متى جد ما يستدعى تغييرها ، ونحن نقول مثلهم : إن أى دستور يحقق مصلحة البلد على نظام شورى ، فنحن نقبله إذا لم يكن فيه ما يصادم النص ( المجمع عليه ) ولا بد من التنبيه لهذا القيد الذي وضعناه بين القوسين ، وما هي ذى حكومة الباكستان ، وهي من نعلم فتاء وقوة تريد - وقد أعلنت صراحة - أنها ستضع دستوراً على أساس إسلامي خالص ، وتريد أن تضع نظاماً مالياً إسلامياً خالصاً ، وقد بدأت تستشير أهل العلم فيما اتت ، والنصوص التي أوجبت مراعاتها نصوص قامت الأدلة على أنها جديرة بالتقدير لمصلحة الجماعة ومصلحة الفرد ، وفوق ما عندنا من نصوص ؛ عندنا سوابق من التاريخ متى رجعنا إليها ساعدتنا وأسعفتنا ، فما الفرق بيننا وبينهم ؟ هم يقولون لا بد أن يحقق الدستور حقوق الإنسان والحريات الطبيعية ، ونحن نقول

مثلهم على شرط أن تكون على وفق ما يراه المسلمون ملتئماً بنصوص الشارع على أى وجه من وجوه الاعتبار الشرعية التى لا أريد أن أدخل فى تفاصيلها ، فلم يكون نظامنا نيوقراطياً ، ونظامهم ديمقراطياً ؟ إن هى إلا أسماء سميتموها ،

ثم تأتى بعد هذا مسألة المسئولية : لم يقل أحد من المسلمين إن الخليفة أو أحداً من وزرائه غير مسئول إلا أمام الله ، ولم يقل أحد من الخلفاء مثل ما قال لويس الخامس عشر (إن الخليفة وحده - دون الأمة - له حق إقرار التشريع والتقنين) فلا بد من رأى الجماعة ، والخليفة فرد - من بين افراد - اختير ليقوم بينهم مقام الوكيل فى تنفيذ أغراض الموكل ، وللموكل فى كل وقت محاسبته متى خالف شرطاً من شروط الوكالة المنصوص عليها ، أو المعروف بداهة أنها شروط للوكالة ، وله عزله من الوكالة على نحو من الانحاء التى نص عليها الفقهاء ومن كتبوا فى الأحكام السلطانية التى يبنوا فيها مواطن عزل الخليفة وما يستحق به العزل ، وما يعزل به من تلقاء نفسه ، وكيف يحاسب وكيف يقاضى ، إلى غير ذلك مما لسننا بسبيل الحديث عنه الآن ، وقد نعرض له عند الكلام على تفاصيل هذه المسائل ودقائقها .

وإنك لو نظرت إلى آيات القرآن الكريم لوجدت الخطاب فى أغلب الآيات المتصلة بنظام الحياة موجهاً للأمة « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » . « فإن خفتم أن لا يقبها حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به » . إلى غير ذلك من مئات الآيات والأحاديث الشريفة ، والخليفة مسئول كأى فرد أمام الله من ناحية وجوب العمل على وفق الحدود العامة للتشريع ، ولكن ذلك أمر آخر غير ما نحن فيه ، فلم يترك الخليفة لجزاء الضمير أو العقاب الأخرى فحسب ، ولكنه كان ولا يزال — على ضوء القانون الإسلامى — معرضاً لأدق أنواع الحساب ، وهو غير معنى من المسئولية التى أسلفت الحديث عنها .

والتاريخ الإسلامى من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام شاهد على الحوادث التى وقف فيها المسلمون ليبرثوا عهدتهم ، ويريحوا ضمائرهم ، ويحاسبوا المسئولين

عما يروونه لا يتفق وما يعتقدون ، وإنك لتعجب إذ تسمع أن بعض الصحابة حاوروا الرسول في عبارات وردت في صلح الحديبية لأنهم لا يرونها متفقة مع ما قدموا من جهاد ، وبذلوا من أرواح ، حتى أرجعهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجادة ، مبيّناً أن الموقف يقتضى من ناحية الحكمة ما فعل .

كذلك كان شأن الخلفاء والأمراء من بعده حتى عمر - وهو من تعلم شدته - كان يقبل أن تحاسبه العجوز ، وقد رجع إلى الحق على يد مرتكب حين اطلع على عورة منه من ظهر البيت لا من بابه ، إلى غير ذلك من شواهد لا نريد الاطالة بذكرها .

فبدأ مسئولية رئيس الدولة أمام الأمة مبدأً بجمع عليه ، أو في حكم الجمع عليه وبذلك كان الاسلام متفقاً مع المبادئ التي يسمونها ديمقراطية ، وهى من بدائه الاسلام .

وإن كان ثمة عيب في طور أو آخر من أطوار التاريخ الاسلامى ، فليس العيب عيب الاسلام ، وإنما هو عيب الذين ينتسبون للإسلام دون فهم له ، ويحاولون أن يسبقوا على تصرفاتهم ثوب التشريع الإسلامى ، فيُعرّضوا الإسلام لسكلام هو أبعد ما يكون عنه .

فليطمنئ الباحثون إلى أن الإسلام دين ديمقراطية كما يلهجون ، وأن مبادئه صالحة لمسيرة أرقى العصور على شرط أن يكون على وفق المبادئ العامة الإسلامية .

الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البناء والمبادئ العامة التي هى - كما يرى العقلاء - لصالح البشرية عامة ، متفقة مع الإسلام .

وصلة الخليفة بالشعب ، صلة الوكيل بالموكل ، أو الأجير بالمؤجر ، وقد عبر عن ذلك أبو العلاء المعرى في قوله :

مُلَّ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها  
 ظلّبو الرعية واستجازوا كيدها وعدّوا مصالحها وهم أجراؤها  
 ولا شك أن المؤجر من حقه أن يحاسب أجيره على كل ما يبدو منه ، وقد  
 جاء في قول عمر وهو يخطب : « لو وجدتم في أعوجاجا ققوموه ، فيرد عليه واحد  
 من عامة المسلمين » لو وجدنا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيقول عمر :  
 « الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم أعوجاج عمر بسيفه » .

فالمسئولة موجودة ، وتقويم الشعب للخليفة جائز ولو بحمد السيف .  
 فهل في الدنيا مسئولية كتلك ، وهل في الدنيا محاسبة أكثر من هذا ، ومن  
 أراد الاستقصاء أكثر من هذا فليرجع إليه في مكانه ، فالخليفة مسئول أمام الأمة ،  
 وهي تحاسبه ، ولها أن تعزله متى رأت في ذلك مصلحة ، وهو مختار منها ، والامر  
 لها أولا وآخرا ، وحقها غير قابل للتنازل أو التحويل .

ويكاد رأى المسلمين في نظرتها السياسية في هذه الناحية يشبه نظرية روسو  
 في العقد الاجتماعي ، وحق الأمة ، وعدم قابليته للتحويل .

وإن كان علماء المسلمين الذين كتبوا في الأحكام السلطانية لم يبينوا طريق  
 المسئولية ، فقد أثبتوها جميعاً ، وإذا رأت الأمة أن تنظم طريق المسئولية وتضع لها  
 قواعد ونظماً ، فليس الإسلام بمانع من شيء من ذلك بعد ما أعلن أن كل فرد  
 من المسلمين من أي جنس أو لون أو لغة بعرض أن يكون خليفة متى رأى  
 ذلك أهل الحل والعقد . والفكرة العامة في ذلك أن أي تقصير من الخليفة يقوم  
 عوجه رأى الأمة وسلطانها ، وأن المصير إليها ؛ فلا ضير في أن يكون الخليفة أي  
 شخص كائناً من كان .

أظننا قد أوفينا على الغاية في هذا الموضوع الذي نراه جديراً بالتقديم بين  
 يدى البحث الموضوعي في نظام الحكم ، وإلى اللقاء في مقال آخر ، والسلام .

# ضُرُورَاتِ الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

المسلم من صدّق مقتعاً بكل ما اعتبره الإسلام من الأصول والفروع ،  
والأصول ثلاثة : التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، فمن شك في أصل منها ، أو ذهل  
عنه قاصراً أو مقصراً فليس بمسلم ، ومن آمن بها جميعاً جازماً فهو مسلم ، سواء  
كان إيمانه عن نظر واجتهاد ، أم عن التقليد والعدوى ، على شريطة أن يكون وفق  
الحق والواقع .

أما ما ذكره العلامة الحلي ، والشهيد الثاني ، وغيرهما ، من وجوب الاستدلال  
والنظر في الأمور والعقائد ، وعدم كفاية التقليد فيهما ، فإن المقصود منه التقليد  
الذي لا يوصل إلى الواقع ، أما إذا كان سبيلاً للتصديق بالحق ، فلاريب في إجزائه  
وكفايته ، وإلا لم يبق من المسلمين سوى واحد من كل مائة ، ولذا قال العلامة  
الأنصاري في كتاب الفرائد : ( والأقوى كفاية الجزم الحاصل من التقليد ) .

ويكفي من التوحيد الإيمان بوحدة الله تعالى ، وقدرته وعلوه وحكمته ، ولا تجب  
معرفة صفاته الثبوتية والسلبية بالتفصيل ، ولا أنها عين ذاته أو غيرها ، ويكفي  
من النبوة الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، رسول من الله صادق فيما أخبر به  
معصوم في تبليغ الأحكام ، فإن الرسول قد يخبر عن الشيء بصفته الدينية المحضة أي  
كونه رسولا مبلغاً عن الله تعالى ، وقد يخبر عنه بصفته الشخصية ، أي كونه إنساناً من  
البشر ، فما كان من النوع الأول ، يحجب التعبد به ، وما كان من النوع الثاني فلا يجب .

أما التصديق والإيمان بأن النبي كان يسمع ويرى وهو نائم ، كما يسمع ويرى وهو مستيقظ ، وأنه يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، وأنه عالم بجميع اللغات ، وأنه أول من تنشق عنه الأرض ، فليس من ضرورات الدين ولا المذهب .

ويكفي من المعاد الاعتقاد بأن كل مكلف يحاسب بعد الموت على ما اكتسبه في حياته ، وأنه ملاق جزاء عمله ، إن خيراً نقيض ، وإن شراً فشر ، أما أنه كيف يحاسب العبد ؟ وعلى أية صورة بالتحديد يكون ثواب المحسن ، وبأى لون يعاقب المسيء ؟ فلا يجب التدين بشيء من ذلك ، فالتوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، دعائم ضرورية لدين الإسلام ، فمن أنكر واحداً منها ، أو جهله فلا يعد مسلماً شيعياً ، ولا سنياً .

أما الفروع التي هي من ضرورات الدين ، فهي كل حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة من غير فرق بين مذهب ومذهب ، كوجوب الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، وحرمة زواج الأم والأخت ، وما إلى ذلك مما لا يختلف فيه رجلاً من المسلمين ، فضلاً عن طائفتين منهم ، فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة ، وتكذيب لما ثبت في دين الإسلام بالضرورة .

والفرق بين الأصول والفروع الضرورية ، أن الذي لا يدين بأحد الأصول يكون خارجاً عن الإسلام ، جاهلاً كان أم غير جاهل ، أما الذي لا يدين بفروع ضروري ، كالصلاة والزكاة ، فإن كان ذلك مع العلم بصدوره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو غير مسلم ، لأنه إنكار للنبوة نفسها ، وإن كان جاهلاً بصدوره عن الرسالة ، كما لو نشأ في بيئة بعيدة عن الإسلام والمسلمين ، فلا يضر ذلك بإسلاميته إذا كان ملتزماً بكل ما جاء به الرسول ، ولو على سبيل الإجمال ، فالتدين بالأصول أمر لا بد منه للمسلم ، ولا يعذر فيها الجاهل ، أما إنكار الأحكام الفرعية الضرورية فضلاً عن الجهل بها ، فلا يضر بإسلامية المسلم إلا مع العلم بأنها من الدين ، فالإمامة ليست أصلاً من أصول دين الإسلام ، وإنما هي أصل لمذهب التشيع ، فنكرها مسلم إذا اعتقد بالتوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، ولكنه ليس شيعياً .



### ضرورات المذهب :

ضرورات المذهب عند الشيعة على نوعين : النوع الأول يعود إلى الأصول ، وهي الإمامة ، فيجب على كل شيعي إمامي أن يعتقد بإمامة الاثنى عشر إماما ، ومن ترك التدين بإمامتهم عالما كان أم جاهلا ، واعتقد بالأصول الثلاثة ، فهو عند الشيعة حسلم غير شيعي ، له ما للسليدين ، وعليه ما عليهم ، فالإمامة أصل للمذهب التشيع الذي يرجع معناه ودليله إلى حديث الثقلين ( مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ) .

النوع الثاني من ضرورات مذهب الشيعة يرجع إلى الفروع ، كتنفي العول ، والتعصيب ، ووجوب الاشارة على الطلاق ، وفتح باب الاجتهاد ، وما إلى ذلك مما اختصوا به دون سائر المذاهب الإسلامية ، فمن أنكر فرعاً منها مع علمه بثبوته في مذهب التشيع لم يكن شيعياً .

وأغتم هذه المناسبة لألفت نظر من يحتج على الشيعة ببعض الأحاديث الموجودة في كتب بعض علمائهم ، ألفت نظره إلى أن الشيعة تعتقد أن كتب الحديث الموجودة في مكباتهم - ومنها الكافي ، والاستبصار ، والتذويب ، ومن لا يحضره الفقيه - فيها الصحيح والضعيف ، وأن كتب الفقه التي ألفها علماءهم فيها الخطأ والصواب ، فليس عند الشيعة كتاب يؤمنون بأن كل ما فيه حق وصواب من أوله إلى آخره غير القرآن الكريم ، فالأحاديث الموجودة في كتب الشيعة لا تكون حجة على مذهبهم ، ولا على أي شيعي بصفته المذهبية الشيعية ، وإنما يكون الحديث حجة على الشيعي الذي ثبت عنده الحديث بصفته الشخصية .

وهذه نتيجة طبيعية لفتح باب الاجتهاد لكل من له الأهلية ، فإن الاجتهاد يكون في صحة السند وضعفه ، كما يكون في استخراج الحكم من آية أو رواية .

ولا أغالى إذا قلت : إن الاعتقاد بوجود الكذب والدس بين الأحاديث ضرورة من ضرورات دين الإسلام من غير فرق بين مذهب ومذهب ، حيث اتفقت على ذلك كلة جميع المذاهب الإسلامية ؟

# أربعَةُ رجال

لحضره الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

من خلال السحب التي أنارتها أقوال المعاصرين وآراؤهم ، يبدو أربعة من رجال القرن الثالث عشر الميلادي في عين الباحث الحديث نماذج إنسانية فريدة ، لا تمخض الأجيال عنها إلا نورا . وأولئك - حسب ترتيبهم هنا - هم السلطان الكامل محمد الأيوبي ، والقديس فرنسيس الأسيسي ، والإمبراطور فردريك الثاني هو هنتشا وفن ، والفيلسوف ابن سبعين الأشيلي . وفي حياة كل من أولئك الرجال ما يدل على فردية ظاهرة وباطنة - كل في ميدانه - ، غير أن اتصال بعضهم ببعض في ميادين الدين والسياسة والدبلوماسية والحرب والجدل الفلسفي هو موضوع هذا المقال .

أما الكامل محمد فهو خامس سلاطين الأيوبيين في مصر ، وهو ابن السلطان العادل محمد بن أيوب الذي حوّل الدولة الأيوبية عن سلالة أخيه صلاح الدين إلى سلالة الفرعية ، والكامل محمد لهذا شبيه شهاباً عابراً بالخليفة الأموي عبد الملك أواخر القرن السابع الميلادي ، لأن عبد الملك ابن لمرّوان الذي حوّل الدولة الأموية كذلك من سلالة مؤسسها معاوية إلى سلالة المتفرعة من العاص - لا أبي سفيان - ابن أمية . على أن وجه الشبه بين السلطان الكامل محمد الأيوبي والخليفة عبد الملك الأموي يقف عند هذا ، وليس في حياة الرجلين أو صفاتهما أو بينهما ما يبرر أو يفسر الوقوف للمقارنة التي لا محل لها في البحث التاريخي ، وليست بذات موضوع في الدراسات التاريخية ، لأن شخصيات التاريخ لا تتكرر ولا تعيد نفسها ألبتة . وهيات ما بين الخليفة الأموي ومنبته وحاله ووضع الزماني والجغرافي

وبين السلطان الأيوبي وأصله ونشأته ومقتضيات الحال السياسية في عصره ، وكفى ما يتصدع به القارىء في كتب المحدثين أحيانا أسيفة من مقارنات ومفاضلات لا طائل تحتها ، ولا معنى لها ، ولا هدف منها ، إلا إشباع حب الحبر المطبوع ، وإكثار السطور المرصوفة نثرا ونظما . ولو رأى الكامل محمد نفسه موضوع مقارنة أو مفاضلة ملقا أو زلفى لامتعض أشد الامتعاض ، لا استحياء ولا استعلاء ، بل قنوعا واعتقادا بأن كل امرئ ميسر لما خلق له . ثم إن الكامل محمداً عاش متواضعا في غير صلف باطن أو ظاهر ، طويل الروح في غير بلادة ، يضع الشيء في موضعه من غير إسراف ولا إقتار، منطويا على نفسه في غير كبرياء ، هادئ المزاج في غير غطرسة خافية ، مع ليونة سياسية في غير رخاوة أو تهاون أو هوان . ولست أريد أن ألقى في روع القارىء بهذه السلسلة الباهرة من الصفات أن الكامل كان من أمحباب العصمة الأخلاقية الذين لا يعصون الفضيلة ما تأمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، بل هو — وغيره من الشخصيات التاريخية الممتازة — مزيج من الصفات الإنسانية العامة ، مع غلبة نواحي الخير فيه على نواحي الشر في أكثر الأحيان ، فضلا عن قدرة على التمييز بين الحقيقي والزائف من المصالح .

أما قبل ، فليس قليلا أن ينشأ الكامل محمد ابنا للسلطان العادل ، وأن يرى الابن أباه يعمل دائماً بمختلف الوسائل الطويلة والقصيرة على تحقيق غاية واحدة ، وهي إبقاء الدولة الأيوبية وحدة متماسكة في قبضة سلطان واحد ، هو العادل نفسه . ومن وسائل العادل لتحقيق هذه الغاية إلقاء العداوة والبغضاء بين أبناء أخيه صلاح الدين ، وإثارة الحروب بينهم ، مع مهادنة الصليبيين ، وتسوية ما بينهم وبين المسلمين بالمفاوضات السلمية ، والصدقات الشخصية ، التي يرجع بعضها إلى أيام صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، حين بلغ الود بين الملك العادل والملك الإنجليزي ، أن رتشارد أفرس الكامل - أى جعله فارسا - بمدينة عكا سنة ١١٩٢ م ، حسب الطقوس الأوربية الغربية ، والكامل وقتذاك في الثانية عشرة من عمره . ومنذ صارت الدولة الأيوبية كلها في قبضة العادل - سنة ١٢٠٠ م -

غدا الكامل شخصية بارزة في الحرب والسياسة ، وشئون الحكم في الولايات ؛ ثم ولّاه أبوه نيابة السلطنة في مصر ، فظل على هذه الولاية التي جعلته سلطاناً بالفعل — لا بالاسم — حتى وفاة العادل سنة ١٢١٨ م ، والصليبيون وقتذاك راسون بمراكبهم الكثيرة عند الشمال الغربي من دمياط ، وفي عزمهم الاستيلاء على هذا الثغر المصرى الهام ، والإيهواء منه عاجلاً أو آجلاً على البلاد المصرية ، ابتغاء القضاء على مركز المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين بالشرق .

تلك حال مصر من الناحية الحربية ، حين خلف الكامل محمد أباه في السلطنة ؛ ولم تكن الحال السياسية أقل حرجاً في معسكر الأيوبيين عند المنزلة العادلية - قبالة بلدة بورة - حيث علم السلطان الكامل أن جماعة من كبار الدولة وقادة الجيش يريدون خلعه ، وإقامة أخ صغيره في السلطنة مكانه . ولئن استطاع الكامل أن يتغلب آخر الأمر على هذه المؤامرة ، فإن الشكوك والخاوف والريب التي ملأت صفوف المسلمين حولت السلطان جنوباً إلى بلدة أشموم طنّاح ، وبذا أضعفت الجهود التي بذلت لإبعاد الصليبيين عن دمياط ، بل أدّت إلى استيلائهم عليها أواخر سنة ١٢١٩ م بعد حصار طويل ، امتلأت بأخباره كتب المعاصرين الشرقيين والغربيين من المتنور والمنظوم . ومن هذه - نقلاً عن المراجع الأوربية - أن الصليبيين فزعوا أشد الفزع من كثرة قتلى المسلمين ، وأنهم فرحوا أكبر الفرح بما استولوا عليه من الغنيمة والعتاد . وتمعن المراجع الإسلامية في وصف ما حدث منذ أوائل الحصار ، فتقول إن حامية دمياط صامدت الحصار وقاومته مقاومة مجيدة ، وأنها رضيت ويلات الحرب وقلة الأقوات ، وغلاء الأسعار وانتشار الأمراض ، ولم تقبل التسليم إلا بعد أن امتلأت الطرقات والمساكن بالموتى والطرحى من الجوع ، حتى إذا سلّمت وضع الصليبيون السيف في الناس ، وأسرفوا في قتلهم . ومع هذا كله لم يلبث السلطان الشاب ، الذي تمرّس بأخلاق أبيه وسياسته وتجارب الحكم معاً ، أن عمد إلى معالجة المشكلة الصليبية الرابضة بجيوشها في دمياط عن طريق المفاوضة

والمصالحة ، بشرط جلاء الصليبيين عن الشواطئ المصرية ، مقابل أن يعيد إليهم الكامل مدينة بيت المقدس ، ومعظم البلاد التي أخذها منهم صلاح الدين ، أى ملكة بيت المقدس الصليبية كلها إلا قليلا . غير أن الصليبيين لم يرضوا بهذا العرض السخى ، لعدة أسباب اقتصادية عسكرية دينية ، وأصرروا على رفضه رغم تكراره من جانب الكامل الذى خشى أن تنصرف قوته إلى الصليبيين ، فيفترص أأقاربه من أبناء صلاح الدين الفرصة لهدم سلطته في مصر .

وفى أثناء هذه المفاوضات جاء إلى المعسكر الصليبي رجل يناهز الخامسة والعشرين من العمر ، بالى الثياب ، خالى الوفاض ، بادى الانقراض ، لا يملك بلغة ، ولا يجد فى جرابه مضغة ، وليس فى مظهره إلا ما يثير سخرية الجاهل . كان هذا الرجل هو القديس فرنسيس ، وهو إيطالى من بلدة أسيسى بأقليم أمبريا بأواسط إيطاليا ، حيث كان أبوه تاجراً من مياسير تجار الأقمشة . ونشأ فرنسيس فى عارما معطاء مما يفتقد عليه أبوه من مال ، عاشقاً للفروسية وحياة الجندية وما فيها من مرح وصخب واستهتار . ثم طرأ على حياته ما غيّر تغييراً كلياً ، إذ اشترك ذات يوم فى معركة بين بلدته أسيسى وبلدة بيروجيا المجاورة ، فوقع أسيراً فى أيدي البيروجيين ، وبقي فى أسره مدة مرض فى أثناءها مرضاً برّح به ، وأراه الحياة على حقيقتها الفرارة ، كما كشف له عن صفات البقرية فى نفسه ، وهى الصفات التي وضحت نزواتها فى فتوته ، ثم وضحت فى رجولته فى صورٍ أخرى ، من حب خالص ، وبساطة متناهية ، مع سرعة الاستجابة لآلام الغير . وألنى فرنسيس أن العالم الإيطالى المسيحى بحاجة إلى التطهر والتوبة ، بعد أن شهد الكنيسة البابوية - وهى رأس العالم الأوروبى المسيحى كله - تجرّ وراء مشاريع دنيوية ضخمة ، فانطلق على وجهه فى إيطاليا عارى القدمين يدعو إلى بساطة المسيحية الأولى ، واتخذ الفقر والطاعة والطهر شعائر معدودة ، وألف من أتباعه ومريديه جماعة الإخوان الفرنسيسكانيين ، وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء ، أو الفقراء الرمادين إشارة إلى لون طيا السهم ، أو الفقراء من غير صفة ما .

ثم لم يلبث أولئك الإخوان أن انتشروا في أنحاء إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا، بل أوغلوافى البلاد الإسلامية للتبشير، فقتلوا بين مراکش وتونس، ووعظوا أخلاط العامة في موانئ مصر والشام، ولقوا من بعض الجاليات والطوائف المسيحية بتلك البلاد أسوأ مما لقوا من المسلمين. وأراد القديس فرنسيس أن يسهم في هذه الحركة التبشيرية المبكرة، وأن يستعين بوجود الصليبيين في بعض تلك البلاد، أو أن يعينهم هو بلسانه وبيانه وإيمانه، ظناً منه أن المعسكرات الصليبية مجامع للتقوى والورع وخدمة الدين. ووصل فرنسيس إلى دمياط، فوجد طوائف الصليبيين بها على غير ما خالهم من الصلاة والحاسة الدينية، كما وجدهم مختلفين حول قبول عروض السلطان الكامل للجلاء عن دمياط أو قبول مشروع الزحف من دمياط إلى القاهرة، تحقيقاً لفكرة القضاء على مركز المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين في الشرق. ونصح فرنسيس بقبول عروض السلطان الكامل والمصالحة حقناً للدماء، فلم تلق نصيحته مجيباً، فرحل عن المعسكر الصليبي إلى أطراف معسكر المسلمين. حيث قبض عليه الحرسية دون أن يبدى مقاومة، وهو يتكلم كلاماً لم يفهم أحد منهم عنه شيئاً سوى لفظ «السلطان»، يريد بذلك أنه يرغب في المثل بين يدي الكامل محمد. وأخيراً وجد فرنسيس نفسه في حضرة الكامل وحاشية قليلة من قاداته وتراجته، فشرح سبب قدومه إليه، واستأذنه أن يعظه ويصف له المسيحية ويدعوه إليها، فأذن له واستمع في دماثة المتمكن من عقيدته المحترم لعقيدة غيره. ولم ينل فرنسيس في موعظته من النبي عليه الصلاة والسلام، مثلما ينال أغلب المحدثين من المبشرين المسيحيين حتى العصر الحاضر، بل اقتصر على وصف المسيحية وفنائها عنده، لامكراً ولا بجمالة ولا استدراجاً للسلطان الكامل كما ظن بعض المعاصرين، بل اعتقاداً منه — فيما يبدو — أن للأنبياء والرسل حق الاحترام من الناس جميعاً على اختلاف دياناتهم، وأن الفضيلة ليست احتكاراً لدين دون غيره من الأديان.

وليس في هذا تحميل للقديس فرنسيس ما ليس من مستوى العصور الوسطى، فإنه لم يكن في هذه الناحية من نتاج تلك العصور وعقليتها الحرفية الجامدة، بدليل

دعوته الصليبيين للسلم دون الحرب ، وهو ما لم يدعُ إليه وقتذاك إلا الأقلون من الجانبين ، وبديل قصده السلطان الكامل ، ووعظه وإشادته بفضائل المسيحية في حضرته .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات هنا أن السلطان الكامل لم يجادل القديس فرنسيس فيما قال ، ولم يستدع أحدا من علمائه لمجادلته ، بل اكتفى بالمبالغة في إكرامه . واكتفى القديس فرنسيس بدوره بالإمعان في إطراء السلطان ، بعد أن أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين ، وبعد أن طلب إليه إعطاء الإخوان الفرنسيسكانين سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس . ثم استأذن فرنسيس السلطان في الاتصال بعسكره والحديث إليهم ، فأذن له ، وهو أمر لا تستطيعه الحروب الحديثة وأسلحتها السرية الفتاكة . وظل فرنسيس يتقلب في معسكر المسلمين بضعة أيام حتى قرر الرحيل ، فردّه الكامل محروساً إلى أطراف معسكر الصليبيين . ورجع فرنسيس إلى أصحابه ليخبرهم بما شهد وسمع من أحوال المسلمين وسلطانهم ولينذرهم بما عساه يتطور إليه مشروع الزحف من دمياط إلى القاهرة ، وليكرر عليهم فوائد عروض السلطان الكامل لكنّه وجد النية منعقدة على الحرب ، وهى عكس ما أراد أن يسهم به ، فافتنع بالألا مصلحة في مقامه ، ونفض تراب المعسكر الصليبي عن قدميه - على قول التعبير المجازى الأوربي - ويمم نحو الشام وفلسطين بإذن من السلطان الكامل ، حيث أقام بضع سنوات ليؤسس للإخوان الفرنسيسكانيين نواة أعمالهم في سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس .

وفي أواسط سنة ١٢٢١م ، والنيل على وشك الامتلاء بمياه الفيضان السنوي المبارك ، تحرك الصليبيون من دمياط ، حسبما انعقدت عليه نياتهم البلدة ، لأنهم لم يصلوا إلى قرارهم هذا إلا بعد ثمانية عشر شهرا من تفكيرهم فيه . وقبلالة بلدة طرخا الحالية ، وشمال المعسكر الإسلامي عند بحر أشموم طناح ، توقفت القوات الصليبية في البر والبحر تمهيداً لدفع المسلمين إلى الوراء ، وإزالتهم عن الطريق نحو القاهرة ، ولم يكن يفصل بينهم وبين المسلمين سوى هذا البحر الذى سمي

« البحر الصغير ، فيما بعد . وبدا جيش السلطان الكامل أحسن مكانا وإمكانا وجمعاً واستعداداً من ذى قبل عند المنزلة العادلة قبالة بورة ، فإن الأرض التي سوف يلتحم عليها الفريقان ذات قنوات وترع كثيرة يعرفها المسلمون ولا يعرفها الصليبيون ، والجيش الأيوبي خلو من المؤامرات والدسائس التي أفلقت الكامل قبلاً وأضعفت محاولاته لإنقاذ دمياط ، وأبناء البيت الأيوبي من إخوة الكامل وأقاربه صاروا إلى جانبه بنجداتهم . ثم التحم الفريقان واشتد القتال بينهما ، وقامت البحرية الأيوبية النيلية بدور هام ، إذ استولت على بضعة سفن صليبية كبيرة آتية بالموونة وأدوات القتال من دمياط ، وأسرت معظم رجالها . وأبحر عدد من السفن الأيوبية في بحر المحلة ، وهو فرع قديم كان يخرج وقتذاك من النيل قرب بنها ، ويلتقي به شمالى طلخا الحالية ، أى قبالة ميدان القتال بين الصليبيين والمسلمين ، خالت هذه السفن بين الصليبيين وما سوف يهبط إليهم من التيجانات عن طريق النيل من دمياط . ثم أمر الكامل بقطع جسر النيل شمالى طلخا ، فضلاً عن الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، ففاض الماء وركب مساحة شاسعة من الأرض شمالى مواضع الصليبيين ، فصارت هذه المساحة المائية على جانبي النيل حائلاً بينهم وبين دمياط ، ماعدا طريق ضيق عند أشموم طناح سدّه الكامل كذلك بعدد من عساكره . هكذا انحصر الصليبيون ، وذهبت آمالهم في الزحف جنوباً نحو القاهرة ، ولم يبق لهم محيص إلا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً شمالاً نحو قاعدتهم في دمياط ، فأحرقوا خيامهم ومخانيقهم وسائر أثقالهم ، واهتبلوا فرصة المستमित للانسحاب في جنح الظلام ، لعلمهم واجدون لأنفسهم مخرجاً في سواد الليل ، خال الماء والعسكر بينهم وبين مقصدهم ، ولم يلبثوا أن أدركوا يأس موقفهم .

عند ذلك - وليس قبله - انقلب الصليبيون إلى عروض السلطان الكامل يرجون السماح لهم بالعودة إلى دمياط للجلاء عنها في غير قيد أو شرط أو مساومة ، وذلك بعد أن طلبوا الأمان . وعقد السلطان مَشُوراً لتقليب الرأى فيما تنبغى الإجابة به على الصليبيين ، فأشار عليه بعض قادته وأهله من البيت الأيوبي أن يخلّى بين الصليبيين ومأزقهم حتى تنفذ أقواتهم وقواتهم ، فتفتش بينهم المجاعة ويأكل بعضهم



بعضاً، أوياً كلهم الطاعون . وأشار بعض آخر بإعطاء الصليبيين الأمان ، من باب العفو عند المقدرة ، وإن كان هذا من غير المألوف في أبواب السلوك عند قادة الحروب في كل العصور . وبرهن الكامل على أنه منطقي مع نفسه - وتلك صفة من الصفات التي لم تذكرها كتب التراجم ، حين مال كل الميل إلى الرأي الثاني ، وهو على أية حال رأيه الأصيل منذ مجيء الصليبيين إلى الشواطئ المصرية . ثم إنه رأى أن اكتساب معركة ديولوماسية أجدى عليه من ظفر بمركة حرية ، ربما أعقبها هزيمة على يد نجذات أوربية علم الكامل باحتمال وصولها ، قبل أن ينتهى موسم القتال . ولذا بعث إلى الصليبيين يخبرهم بأمانه واستعداده لجلائهم آخر الأمر عن دمياط ، ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط أواسط سنة ١٢٢١ م ، بعد أن جلا الصليبيون عن الأرض المصرية وسواحلها جلاء ناجزاً لاعوج فيه ولا تسويق أو تزييف ، دون استهتار بكرامة الصليبيين ، أو إهدار لحقوق أمانهم العام . واتفق الفريقان بعد هذا على هدنة مدتها ثمانية أعوام ، وعلى أن يطلق كل منهما طوائف الأسرى عنده . هكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة في تاريخ تلك الحروب .

وتسامع الشرق والغرب بأخبار هذه الحملة التي هدفت إلى إصابة المسلمين في مقتلهم بمحاولتها الاستيلاء على مصر ، وهال المعاصرين أن تستولى الحملة على ثغر دمياط ، كما هالهم أن يرفض الصليبيون عروض السلطان الكامل للجلاء عن مدينة واحدة بالغة ما تبلغ في الأهمية مقابل تسليمهم معظم مملكة بيت المقدس ؛ ثم هالهم أن تنتهى الحملة إلى ما انتهت إليه ، وأن ترجع بخفي حنين ، لا أقل ولا أكثر .

وسمع القديس فرنسيس وهو لا يزال بالشام بتلك النتيجة الخائبة التي أراد أن ينقذ الصليبيين منها ، بعد ما رأى من أحوال المسلمين وسلطانهم . وتندرا المتندرون بغفلة زعماء هذه الحملة ، وعكف الدعاة للفكرة الصليبية على إثارة الناس لحملة صليبية في المستقبل القريب ، تحقيقاً لفكرة الاستيلاء على مصر . ولم يكن لسياسة السلطان الكامل القائمة على قاعدة الاتفاق والحسن بين الصليبيين والمسلمين سوى رجل واحد ، هو فردريك الثاني هو هنتاوفن ، إمبراطور الدولة الغربية ؟

[ للبحث بقية ]

# الزِّيْدِيَّةُ بِالْيَمَنِ

لحضرة الأستاذ الفاضل محمد بن اسماعيل العمراني

مدرس الحديث بدار العلوم بصنعاء اليمن

لقد جهل كثير من المسلمين عقيدة إخوانهم ( الزُّيُود ) الذين يقطنون الشمال الشرقي من بلاد اليمن جهلاء عظميا ، كان من نتائجهم السيئة أن رموهم بالابتداع في الدين ، والشذوذ في الرأي ، والمخالفة في المأخذ للأحكام الشرعية ، حيث تركوا دراسة كتب الحديث الشريف المشهورة ، ورغبوا عن الاحتجاج والعمل بما فيها مستبدلين بها غيرها من الكتب المجهولة التي لا يعرفها علماء الحديث ولا يعترفون بها ، هكذا رموا من بعض إخوانهم جهلا ، كما رموا من بعض آخر بالجمود والتعصب المذهبي ، والبغض للسلف الصالح من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

والحق أن الزيدية لم يشذوا في آرائهم عن آراء إخوانهم المسلمين ، كما أنهم لم يشذوا في طريق الأخذ والاحتجاج ، بل هم أقرب المذاهب إلى مذاهب أهل السنة والجماعة ، لا سيما مذهب الإمام أبي حنيفة رضوان الله عليه ، والبرهان الصحيح على هذا هو مجموع الإمام زيد بن علي نفسه ، فإن من اطّلع عليه منفرداً أو مع مراجعة شرحه ( الروض النضير ) عرف حق المعرفة صدق ما قتله ، من أنهم لا يخرجون في الغالب عن مذاهب الأئمة الأربعة عموماً ، ومذهب الحنفية خصوصاً ، كما اعترف بذلك بعض محققهم ممن اطّلع على المجموع وشرحه ، وهكذا القول في فروعه كالمذهب الهادي والقاسمي والناصري والهاروني وغيرها من المذاهب

الفقهاء اللاتي تفرعت من مذهب الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام ، فإنها مهما اختلفت عن أصلها في بعض من المسائل الفقهية اليسيرة ، أو خالف بعضها بعضاً في شيء من ذلك ، نراها تتفق كثيراً مع أصلها في عدة مسائل كثيرة كبرى وتوافق غيرها من المذاهب الإسلامية الأخرى ، كما وافقها أصلها ، لأنها فرق متفرعة عنه ، ومتولدة منه ، ولا تخرج عنه إلا نادراً ، لاسيما المذهب الهادي ، الذي أسسه إمام اليمن الإمام الهادي يحيى بن الحسين رضوان الله عليه ، وتمذهب به زيدية اليمن ، وظل المذهب الرسمي للحكومة اليمنية أكثر من ألف عام ، وهو أيضاً كأصله في الموافقة غالباً لما عليه المذاهب الإسلامية الأخرى وعلى الخصوص مذهب الحنفية الذي يتمذهب به كثير من المسلمين ، وتمذهب به كثير من دول الاسلام وحكوماته قديماً وحديثاً ، وظل المذهب الرسمي للحكومة المصرية حتى الآن ، وكتب الهاديوة شاهدة على ما قلته من الموافقة ، حتى كان بعض أئمة الهاديوة يرى الأخذ من أقوال أبي حنيفة - إذا لم يجد للهادي نصاً في أية مسألة فقهية - مذهباً للإمام الهادي وهذا أكبر دليل على أن المذهب الحنفي والمذهب الهادي أخوان . بل يمكن أن أصرح للقارئ بأن المذهب الحنفي أقرب إلى المذهب الزيدي أو الهادي منه إلى المذهب الحنبلي ، نعم ربما تفردوا بأقوال قد لا يوافقهم عليها أحد من أئمة المسلمين ، ولكن في مسائل جزئية محصورة ، تعد بالأصابع ، لا تخرجهم إلى البدعة ، ولا توجب نيزهم بالشذوذ والابتداع .

وكم من عالم شذَّ في بعض أقواله العلية ، وآرائه الفقهية ، واغتفروا له ذلك الشذوذ ، ولم يخرجوه من دائرة السنة إلى البدعة ، ولم ينزوه بالشذوذ والابتداع .

وهم أيضاً أبرياء مما اتهمهم البعض به ، من عدم دراستهم لكتب الحديث الشريف ، وعدم العمل والاحتجاج بما فيها ، كيف لا وهذه كتبهم أكبر برهان على رد هذه التهمة التي ليس لها مستند سوى توهم أن تفردهم برواية كتب حديثة رويت لهم من طريق أهل البيت مما يدل على جهلهم بكتب الحديث المشهورة المتداولة لدى جماهير المسلمين ، والواقع أنهم جمعوا بين الدراسة لكتب أهل البيت النبوي

كالمجموع الفقهي والتجريد والاماليات ، وبين الدراسة لكتب المحدثين كالامهات الست وما يتبعها من المسانيد والمجاميع والمعاجيم ، وأعظم البراهين على قراءتهم لها وعملهم بأدلتها ، ونقلهم عنها ، واحتجاجاتهم بها في مؤلفاتهم الفقهية ، لاسيما مؤلفات متأخريهم كالإمام القاسم بن محمد في ( الاعتصام ) والسيد أحمد بن يوسف زباره في ( أنوار التمام ) والسيد حسن الجلال في ( ضوء النهار ) والقاضي حسين السباعي في ( الروض النضير ) وهكذا غيرهم كمن اعتنى بالتخريج لكتبهم من كتب المحدثين كالضَّمَدَى في تخريجه أحاديث الشفاء ، وابن بهران في تخريجه أحاديث البحر الزخار . ويؤيد برهانتنا هذا ما نراه في تراجم علمائهم عموما والمتأخرين منهم خصوصا ، من أخذهم عن مشايخ مذهبهم كتب أهل البيت أولا ، وكتب أهل الحديث ثانيا ، بل ربما أخذوا في كتب الحديث عن غير مشايخ مذهبهم من شافعية وأخاف ، وحسب القارىء أن يتصفح ما قد طبع بالقاهرة من تراجم علمائهم ( كالبدرا الطالع ) و ( الملحق التابع ) و ( نيل الوطر ) و ( نشر العرف ) وغيرها .

وهكذا مما يؤيد ما ذكرته ما يراه القارىء في مؤلفات متأخريهم التي جمعوها في الأسانيد والاجاز والاثبات ، ويكفيه ما قد طبع منها في الهند ومصر كاتحاف الأكاابر و ( العقد النضيد ) وكلها مؤيدة لما ذكرته من غزارة معين علومهم الدينية ، وسعة دائرة معارفهم الفقهية حيث جمعوا بين علوم أهل البيت النبوى وعلوم أهل الآثار والحديث أخذاً وتديساً وعملاً واحتجاجاً ، وهذا إن دل على شيء فهو برامتهم بما انهموا به من قصورهم في معرفة كتب المحدثين ، ورغبتهم عن العمل بما فيها ، كما يدل في نفس الوقت على نهمهم العلمى وتحورهم الفكرى تحوراً مقروناً بالتساع والانصاف ، ولو عرف الذين يتهمونهم بهذه التهمة حقيقة أمرهم لجعلوا تفردهم برواية هذه الكتب حسنة من حسناتهم لا سيئة من سيئاتهم ، على أنه قد يوجد منهم من لا يأخذ ولا يدرس كتب الحديث الشريف ، ولا يرى العمل بما فيها ، ولكنه قليل نادر يتضاءل أمام الكثير الغالب تضاضاً لا يمنع من الحكم على جميعهم بذلك .

وهم لا يتعصبون على غيرهم من يخالفهم في الفقه الاسلامي من إخوانهم المسلمين من يتعبد بأى مذهب إسلامي إذا كان خلافه في المسائل الفقهية اللاتي لا يخل الخلاف فيها بجوهر الدين أى إخلال ، وكتبهم الأصولية والفروعية دالة أكبر دلالة على برائتهم من التعصب المذهبي ، وعلى إحسانهم الظن بكل من يخالفهم خلافاً فقيهاً ما دام لا يمس الدين ، ولا يخل بأصل من أصول الاسلام الكبرى .

وهاك بعضاً من قواعدهم الأصولية والفروعية المنصوص عليها في أكبر مؤلفاتهم وأشهرها ، مثل قولهم :

« الاجتهاد جائز لمن حقق علوم الاجتهاد الخمسة المذكورة في علم الأصول » .

« لكل مجتهد نصيب » .

« إذا اختلف مذهب إمام الصلاة ومذهب المؤتم به فالإمام حاكم » .

« لا إنكار في حكم يختلف فيه » .

« لا يكون التكفير والتفسيق إلا بدليل قاطع » .

« حكم الحاكم بين الخصمين يقطع النزاع مهما كان مذهب الحاكم ، وكيفما كان مذهب الخصمين » .

« الجاهل الصرف الذى لا يعرف عن المذاهب شيئاً مذهبه مذهب من وافق » .

« كل مسألة خلافية خرج وقتها فلا يجب على المكلف قضاؤها ولو أداها مخالفة لمذهبه مهما كان الخلاف قد وقع فيها لمصادقة فعله قول قائل من علماء المسلمين » .

وغير ذلك من القواعد الكلية الكبرى الدالة على ما ذكرته آنفاً من أنهم على قدر كبير من التسامح المذهبي .

على أنه قد يوجد في بعضهم شئ من التعصب المذهبي ، ولكنه في الغالب

يكون في العامة الذين لا يعرفون عن أصل مذهبهم شيئاً ، وربما وجد في بعض الخاصة ، ولكنه وجود نادر قد يكون لأسباب خارجية لاعلاقة لها بأصل المذهب ، كما يوجد مثل ذلك في جميع المذاهب الإسلامية من بعض الأفراد الذين قيل أن يخلو عنهم مذهب من المذاهب كما نطقت بذلك كتب التاريخ .

وهم أيضاً لا يجمدون على مانصه إمام مذهبهم ، بل طريقتهم أنهم إذا رأوا في أية مسألة أن غير إمامهم أرجح دليلاً منه أخذوا بقوله غير مستكفين ولا آنفين في الميل عن إمامهم إلى إمام آخر من أئمة المسلمين ما دام هذا الإمام قد تمسك بدليل أرجح من دليل إمامهم ، بل إن البعض منهم يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، ويتخذ هذه الأحكام المستنبطة مذهباً له غير عالم بمن قد سبقه إلى هذا المذهب ، ومن قد وافقه على هذا الرأي ، وذلك كله نتيجة لفتحهم باب الاجتهاد المطلق الذي كان قد أوصده الجمهور على أنفسهم بلا دليل ، ولذلك نرى كثيراً منهم يذهبون إلى آراء قد توافق إمام مذهبهم ، وقد لا توافق ، وقد يكون فيها مرجحاً لمذهب عالم سني ، وقد يكون رأه ابتداء ، وذلك كالإمام يحيى بن حمزة مؤلف ( الانتصار ) وغيره ، والإمام عبد الله بن حمزة مؤلف ( الشافي ) وغيره ، والإمام المهدي أحمد بن يحيى مؤلف ( البحر الزخار ) وغيره ، بل جاء بعدهم من فتحو باب الاجتهاد المطلق على مصراعيه غير هيايين ولا خائفين ولا وجلين ، ودخلوا منه غير هيايين ولا مباينين بمخالفة أى عالم مهما كان عليه مادام قد تمسكوا بالكتاب والسنة ، فتركوا المذاهب الفقهية والأصولية والكلامية أجمع ، ورجعوا إلى أصول الدين الإسلامي وأدلته الشرعية الصحيحة ، وأعلنوا اجتهادهم المطلق أصولاً وفروعاً وكلاماً وتفسيراً وحديثاً وفقهاً في عصور عز الاجتهاد في واحد منها ، أولئك أمثال السيد محمد بن إبراهيم الوزير مؤلف (العواصم والقواصم) و (إيثار الحق على الخلق) و (الروض الباسم) و (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) و (البرهان القاطع) و (تنقيح الأنظار) وغيرها من المؤلفات القيمة ، والشيخ صالح المقبلي مؤلف (العلم الشاخي في إيثار الحق على الآباء

والمشايع) و(الأرواح النواضح) و(المنار على البحر الزخار) و(الاتحاف لطلبة الكشاف) وغير ذلك . والسيد حسن الجلال مؤلف (نظام الفصول) و(ضوء النهار) و(العصمة عن الضلال) ، وغيرها . والسيد محمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني، مؤلف (سبل السلام) و(منحه الغفار) و(العدة) و(التجوير) و(الروضة) وغيرها ، والقاضي محمد الشوكاني صاحب المؤلفات القيمة ، التي لو لم يكن منها إلا ما قد طبع لكفته نفراً ، فكيف والكثير منها لم يطبع ، فن مؤلفاته المطبوعة (نيل الأوطار) و(الدرارى المضيئة) و(تحفة الذاكرين) و(القول المفيد) و(فتح القدير) و(إرشاد الفحول) وغيرها ، فله دره من مذهب أنجب أمثال هؤلاء العلماء في عصور ساد فيها التقليد والجود وعز فيها التحرر الفكري ، وسد باب الاجتهاد .

ومهما يكن من الأمر فإن زيدية اليمن ليسوا كما يتوهم الكثير من يجهل حالهم وفقهم ، بل هم إن قلدوا فإنما يقلدون أئمة مذهبهم الذي لا يخرجهم عن مذاهب إخوانهم أهل السنة ، لاسيما الأخناف ، وإن اجتهدوا وتحروا ، فاجتهاد الوزير والمقبل والأمير والجلال والشوكاني ، هؤلاء العلماء الذين لا يعرف أحد قدرهم إلا بعد أن يحيط علماً بجميع مؤلفاتهم القيمة ، وهم كغيرهم من أهل المذاهب الإسلامية الأخرى في التولى للخلفاء الراشدين ، والتعظيم لهم بصفتهم ووزراء النبي صلى الله عليه وسلم وأعظم مناصريه ، ومن انتقصهم منهم ، فهو إما من العوام الجهال ، أو من الخاصة المتعصبين .

والدليل الصحيح على هذا هو ما نراه في كتبهم الكثيرة اللاتي ألفها أكبر علمائهم ، من الثقل عن جماهير أئمتهم وعلى رأسهم إمام مذهبهم الأكبر الإمام زيد بن علي رضوان الله عليه ، من وجوب التولى والحب والتعظيم ، لجميع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وحسب القاريء أن يتصفح منها ما قد طبع بمصر من المؤلفات القيمة اللاتي تبين لهم صدق ما قلته من برائهم من كل ما اتهموا به من رفض وابتداع ، أذكر منها على سبيل المثال : (الرسالة الوازنة للمعتدين) المطبوعة

بالقاهرة ، وبمجموعة ضمن الرسائل اليمنية اللاتي طبعت منذ عشرين عاما تقريبا ،  
وهي للإمام يحيى بن حمزة اليمني الزيدى .

وحاصل هذا المقال ، هو أن من تجرد من أثواب التعصب المذهبي ونظر  
في مؤلفات زيدية اليمن عموما ، وفيما قد طبع منها خصوصا ، لا يخرج منها  
إلا مؤمنا أعظم إيمان بأن إخوانه ( الشيعة الزيدية ) ليسوا كما أشيع عنهم جهلا  
من الشذوذ والابتداع في رأى والعقيدة والرواية والمآخذ ، كما أنهم أيضا بريئون  
من الجود والتعصب المذهبي الذى طالما رموا به ، بل إنهم كغيرهم من إخوانهم  
المسلمين رواية وأخذا للشرعية الإسلامية من دواوينها المشهورة التى دونها أئمة  
الحديث وحفاظه المشهورون ، كما أنهم أيضا كغيرهم من المسلمين انصافا وتسامحا  
وحرية وجبا للسلف الصالح من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتوليا لخلفائه  
الراشدين ، وفي الوقت نفسه يؤمن أكل إيمان بأنهم من أبعد المسلمين عن البدعة ،  
وأقربهم إلى السنة ، وأن المذهب الزيدى ، والمذهب الحنفى أخوان ، ومهما تخالفا فلن  
يخرج المذهب الزيدى عن أى مذهب من المذاهب الإسلامية الأخرى ، وهكذا ماتفرع  
عنه من فرق ومذاهب ، حكمها حكمه خصوصا المذهب الهادوى منها ، وقد يشذ هذا  
الآخر ويتفرد بأقوال لا يوافق عليها غيره مطلقا ، ولكنه انفراد يسير فى مسائل  
جزئية محصورة .

وهكذا صار واضحاً أن ما أشيع عنهم ، هم منه برآء ، ومهما وجد بعض من ذلك ،  
فلن يتجاوز عدداً مخصوصاً من منظر فى فقهاءهم يتضاءل أمام الجم الغفير من علماءهم  
الذين ترى أقوالهم العلوية مسجلة على صفحات الكتب بروح عظيمة من التسامح  
والانصاف والتحرر الفكرى ؟



# صَدَقَ الْعَاطِفُ فِي السَّعْرِ السَّيِّئِ

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان  
المدرس في كلية اللغة العربية

كل مسلم شيعي؛ وكان الشاعر الذي يقول :

مُحِبُّ آلِ النَّبِيِّ خَالِطُ قَلْبِي      كاخْتِلَاطِ الضِّياءِ بِمَاءِ الْعَيُونِ

إنما يترجم عن عاطفة كل مسلم؛ وهل التشييع إلا حب آل محمد؟ ومن هذا الذي  
لا يحب آل بيت رسول الله الألى أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا؟

مَلَأَ مَكَامَ أَهْلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ      أَحْبَابُ مَا عَاشُوا وَأَهْلُ نَفَاقِي  
تَخَيَّرْتَهُمْ رُشْدًا لَأَمْرِي فَإِنَّهُمْ      عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيْرُ الْخَيْرَاتِ  
فِيَارِبِ زِدْنِي مِنْ يَقِينِي بِصِيرَةٍ      وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي (١)

هذا الحب الذي هو شعبة من شعب الاسلام، ظاهره عواطفُ أسمى عميقة  
على ما أصاب أهل هذا البيت من كوارث ، وما اصطلع عليهم من محن ، وما  
اعتورهم من نكبات ، في مختلف الأوطان والعصور الإسلامية ، مما جعل حديثه  
شجى كل نفس ، ولوعة كل قلب ؛ ولم يلف من طغيان هذه العواطف ، أن  
آل البيت أنفسهم كانوا هم المغامرين دائما ، بطلبهم للخلافة ، واستبسالهم في سبيل  
الوصول إليها ، ومن طلب الحسنة لم يغلبها المهر؛ وإذا كانت النفوس كبارا ، تعبت

الاجسام في مرادها ؛ بل زادها اشتعالا وتأججا ، أن المبالغة في التنكيل بهم أظهرتهم في مظهر المظلومين المعتدى عليهم ، فكان العطف عليهم أعم ، والتأثر لمصائبهم أوجع .

هذه العواطف غير المشوبة ، ولا المصطنعة ، أضفت على الشعر الشيعي كله لونا حزينا باكيا ، تحته جَيْشَانٌ نفسى نائر ؛ ذلك لدمهم المطلول ، وهذا لحقهم الممطول ، وبين هذا وذاك ، فخر يفرع السماء بِرَوْقِهِ ، ومجد يطاول الأجيال ، فكُنْ ناصِداً ، أو أمويا ، أو خارجيا ؛ قحطانيا أو عدنانيا ؛ وقرأ شعر الشيعة ، فإنك — بلا ريب — واجد فيه مصداق ما أجملت .

ولئن قيل إن مصرع الحسين بن علي رضي الله عنهما ، على مبلغ فجيعته ، لم يُؤثر فيه شعري يستحق أن يُروى ، وهذا حق ، لقد كان ذلك لتهيب الشعراء جانب بني أمية ، وخشية قوارعهم .

\* \* \*

هؤلاء ثلاثة من غول الشعراء العباسيين ، أحدهم عباسي ، والآخران شيعيان يتناولون معنى واحدا ، فيختلفون في أدائه اختلافا واضحا ، ويختلف أثره في النفوس كذلك اختلافا واضحا ، ولكن الذي لا يشتبّه ولا يختلف هو أصالة العاطفة في بعض ، واصطناعها في بعض .

يقول الكميّ بن زيد ، محتجا لبني هاشم على بني أمية في إحدى هاشمياته :  
بِخَاتِمِكُمْ غُصْبًا تَجُوزُ أُمُورَهُمْ      فَلَمْ أَرْ غُصْبًا مِثْلَهُ يُتَغَصَّبُ  
ويقول مروان بن أبي حفصة ، محتجا لبني العباس على الطالبيين ، في لاميته التي مطلعها :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ غَفَى خِيَالُهَا      بِيضَاءُ تُخْلَطُ بِالْذَلَالِ بِجَاهِلِهَا  
والتي يقول يونس بن حبيب لمروان : إنها أجود من لامية الأعشى ، التي مطلعها :

رَحَلَتْ مُسَمِّيةٌ غَدوةً أَجَاهِلِهَا      غَضَبِي عَلَيْكَ ، فَمَا قَوْلُ بَدَاهَا ؟

فيقول مروان : إنك تهزأ بي ، فيقول يونس : لا . إنه يقول فيها : فَأَصْبْتُ  
حبة قلبها وطحها ، ود طحها ، لا يقولها شاعر . يقول مروان :

هل تطمسون من السماء نجومها      بأ كفكم ، أم تحجبون هلالها ؟  
أم تجحدون مقالة من ربكم      جبريل بَلَّغَهَا النبي فقالها ؟  
شهدت من الأنفال آخر آية      بترائم فأردتمو لإبطالها (١)

ويقول مروان محتجا أيضا في قصيدة أخرى :

الوحى بين بني البنات وبينكم      قَطَعَ الخصام ، فلات حين خصام  
ما للنساء مع الرجال فريضة      نزلت بذلك سورة الأنعام  
أنى يكون ، وليس ذاك بكائن      لبني البنات وراثة الأعمام  
ألغى سهامهم الكتاب غاولوا      أن يشرعوا فيها بغير سهام

ويقول دعبل الخزاعي :

ألم تر أنى مذ ثلاثين حجة      أروح وأغدو دائم الحشرات  
أرى فيئتهم في غيرهم متقسما      وأيديهم من فيهم صفيرات

\* \* \*

أنظر كيف سما السكيت بالمعنى ، فجعل أمور بني أمية ، إنما تنفذ بالخاتم  
الهاشمي الذي غصبوه غصبا لم يعهد في الغصب له نظير ، وما هذا الخاتم غير الخلافة !  
فهو ينعى على الأمويين أنهم يحكمون باسم الهاشميين ظلماً وعدواناً ، لا أنه يريد  
أن يثبت حق الهاشميين في الخلافة ، فذلك مقرر مفروغ منه ، لا ينتطح في الخلاف  
فيه عنزان ! .

وكذلك يفعل دعبل ، فهو يكتئ بالنيء عن الخلافة ، ويضيفها إليهم مرتين ؛  
وكما عجب السكيت لذلك الغصب الغريب ، تحسر دعبل على تقسم النيء في غيرهم

(١) يريد قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

من زيريين وأمويين ؛ سفيايين ومروانيين ، ثم عباسيين ؛ وخلو أيديهم  
من ذلك النوء !

وكلا النسقين في أسلوب الكميث ودعل ، نسق شعري بالغ الجودة ، رائع  
الآداء ، ينبض حركة ، ويسمو روحا .

فأما مروان ، فقد مضى بلاميته مُدَوِّية رائعة ، ساحرة ، حتى إذا انتهى  
إلى الاحتجاج ، خرج بها إلى الفقه ! فأسفَّ وأسفَّسَفَ ، معنى وأسلوبا ،  
وفقد كل أثر شعري كانت تزخر به قصيدته قبل ذلك . ولكي تدرس اختلاف  
النسق واضحاً ، أروى لك ما سبق الاحتجاج ، فليس بعد البيان بيان ، قال :

أحيا أمير المؤمنين محمد	سُنَّ النبي : حرامها وحلالها
ملك تفرع من ذؤابة هاشم	مدَّ الإلهُ على الأنام ظلالها
ثبت على زَلَلِ الحوادث راكب	من صرَّ فَنَ لكل حال حالها
كلنا يدريك جعلتَ فضلَ نوالها	للسلين ، وللعُدوِّ وبالحا
هل تطمسون من السماء نجومها	بأ كفكم أم تسترون هلالها ؟
أم يتحدثون مقالة من ربكم	جبريل بلغها النبيَّ فقالها ؟
شهدت من الانفال آخر آية	بترائهم ، فاردتْ وإبطالها

أنظر كيف هبط الشعر هبوطاً واضحاً في البيتين الأخيرين ؛ هبط في المعنى ،  
إذ هو معنى على جاف ، وهبط في اللفظ ، فأسلوبه أسلوب مفكك مضطرب  
الضائر ، قافيته ، إبطالها ، وهي كلمة فقيه ، لا كلمة شاعر ! ثم أي آية لم يبلغها جبريلُ  
النبيَّ فيقولها ، حتى يحتاج الناس إلى أن يعرفوا أن جبريل بلغها النبي ، وأن النبي  
قالها ، إنا نعرف أن جبريل بلغ النبي كل آية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم  
قد بلغها ! وقالها !

أما أبياته في القصيدة الأخرى ، فهي مسألة من مسائل علم الميراث . وما  
أهون الخلافة إذا دخلت في علم الميراث . . وصلى الله وسلم على من قال :  
« نحن معاشر الأنبياء لا نورث » .

وعلى الجملة : إن شعراء الشيعة يدلون بطابع النبوة الذي يميز الطالبين ، وهذا من صنع السماء ؛ أما غيرهم فيطبق أحكام الفقه ، وهي من صنع الأرض . وأين الأرض من السماء ؟

\* \* \*

ومن أروع المثل على ذلك ، ما رواه أبو الفرج الأصبهاني في ترجمة يحيى ابن عمر بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، الخارج في أيام المستعين العباسي ، قال : وكان رضي الله عنه رجلاً فارساً شجاعاً ، شديد البدن ، مجتمع القلب ، بعيداً عن رفق الشباب ، وما يعاب به مثله ؛ وكان مقياً ببغداد ... وكان له عمود حديد ثقيل ، فربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه ، فيلوى العمود في عنقه ، فلا يقدر أحد أن يحمله عنه حتى يحمله يحيى رضي الله عنه ... قال : وما بلغني أن كثيراً ممن قتل في الدولة العباسية من آل أبي طالب رثى بأكثر مما رثى به يحيى بن عمر ، ولا قيل فيه كبعض مما قيل فيه . واتفق في وقت مقتله عدة شعراء مجيدون للقول في هذا المذهب ، إلا أنني ذكرت بعض ذلك كراهية الإطالة . فنه قول علي بن العباس الرومي يرثيه ، وهي من مختار ما رثى به بل ، إن قلت أنها عين ذلك ، والمنظور إليه لم تكن مبعداً ، لولا أنه أفسدها بأن جاوز الحد ، وأغرق في القذع ، وتعدى المقدار ، بسب مواليه من بني العباس ، وقوله فيهم من الباطل ما لا يجوز لأحد أن يقوله ، وهي :

أمامك فانظر أي نهجيك تهجُ ؟      طريقان شتى : مستقيم وأعوجُ  
ألا أيهذا الناس طال ضراكم      بأل رسول الله فاختشوا أو ارتجوا  
أنى كل يوم للنبي محمد      قتيل زكى بالدماء مخرج ؟ (١)  
ومنها :

أيعد المكنى بالحسين شهيدكم .      نضى مصابيح السماء قُتُـرَجَ

لنا وعلينا ، لا عليه ولا له      تُسحسح أسرابُ الدموع وتُنشج  
ومنها :

أيحي العلاء ، لتهني لذكراك لهفة      تباشر مكوها الفؤاد فينضج  
لمن تستجد الأرض بعندك زينة      فتصبح في أثوابها تبرج ؟  
سلام ، وريحان ، وروح ، ورحمة      عليك ومدود من الظل يجسج (١)  
ولا برج القاع الذي أنت جاره      يرف عليه الآفحوان المفكج  
ويا أسفا ألا ترد تحية      سوى أرج من طيب المسك بأرج  
ألا إنما ناح الحائم بعد ما      ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزج  
وختمها بقوله :

نظار ، فان الله طالب وتره      بني مصعب ، لن يسبق الله مدج  
لعل قلوبا قد أظلم غليلها      ستظفر منكم بالشفاء فتتلج (٢)

\* \* \*

والقصيدة في عشرة ومائة بيت ، كلها على هذا النسق من الجودة والسمو معنى  
وأسلوباً ؛ لولا هجاؤها الفاحش ، كما قال أبو الفرج ؛ وقد سقت على وجهها  
في الكتاب ، وفي ديوان ابن الرومي . لمن طلب المزيد .

\* \* \*

وقلنا عرض الشعر للحقائق العلية ، واحتفظ بروحه ؛ ولكن قى الأزد  
محمد بن هاني الأندلسي ، شاعر العبيدين « الفاطميين » ، وهم من الشيعة الإسماعيلية ،

---

(١) في الحديث : نهار الجنة سحسج أى معتدل لا حار فيه ولا قار ، وفي رواية :  
ظل الجنة سحسج . أى لا ظلمة فيه ولا شمس « لسان العرب »  
(٢) تلجت نفسي بالقىء ، بكسر اللام وفتحها ، تلج وتلج ، بفتح اللام وضمة .  
اشتفت به واطمأنت إليه .

يعرض في شعره لمصطلحاتهم وعقائدهم فتطوَّعها مَرَاتُهُ وقوة روحه للانسياب في جداوله الرقراقة ، حتى تُتزاوج الخيالَ وتساميه ، وتسابقه إلى القلوب في تعاشق وانسجام . فاسمع ما يقول في إحدى قصائده :

ووراء حق ابن الرسول ضراغم	أُسْد ، وشبهاء السلاح متون
الطالبان : المشرفية ، والقنأ	والمدركان : النصر والتمكين
وصواهل ، لالهضبة يوم مُغارها	هضبة ، ولا البيد الحزُون حزُون
عُرفت بساعة سَبَقها ، لا أنها	علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها	مرت بجانتية وهي ظنون

\* \* \*

ما ذا تريد من الكتاب نواصب	وله ظهور دونها وبطون
هي بغية أضلّتموها فارجموا	في آل ياسين ثوت ياسين
ردّوا عليهم حكمهم ، فعليهم	نزل البيان ، وفيهم التبيين
البيت بيت الله ، وهو معظم	والنور نور الله ، وهو مبین
والستر ستر الغيب وهو محجب	والسر سر الوحي وهو مصون
النور أنت ، وكل نور ظلمة	والفوق أنت ، وكل فوق دون
فرضان من صوم ، وشكر خليفة	هذا بهذا عندنا مقرر

فهو يشير بقوله : « ما ذا تريد من الكتاب نواصب ، إلى أحد مصطلحاتهم وهو « التأويل ، فعندهم لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطن ، ولكل تنزيل تأويل ، فالتأويل هو الباطن ، والتأويل لا يعمله أحد إلا الله ورسوله وخلفاؤه المنصوبون بالنص والتوقيف منه ، ويناله الناس منهم على قدر استعدادهم وتبهم .

ويشير بقوله : « فرضان من صوم وشكر خليفة ، إلى إحدى عقائدهم ، وهي أن معرفة الإمام واجبة على كل الناس ، وكذلك ولايته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية » .

ويقول في قصيدة أخرى :

غدوا ناكسى أبصارهم عن خليفة	علم بسر الله غير معلم
وروح هدى في جسم نور يمه	شعاع من الأعلى الذى لم يحسم
على كل خط من أسرة وجهه	دليل لعين الناظر المتوسم
إمام هدى ، ما التفت ثوب نبوة	على ابن نبي منه بالله أعلم
ولا بسطت أيدى العفاة بناتها	إلى أريجى منه أندى وأكرم
ولا التمع التاج المفصل نظمه	على ملك منه أجل وأعظم
ففيه نفس - ما استدلت - دلالة	وعلم لآخرى لم تدبر فتعلم

\* \* \*

بكم عزّ ما بين البقيع ويثرب	وُنُسِّك ما بين الحطيم وزمزم
فلا برحت تترى عليكم من الورى	صلاة مُصَلٍّ ، أو سلام مسلم

وهو فيها يقرر عقيدة أخرى من عقائدهم ، وهى أن الإمام من أكمل مخلوقات العالم جسدا وروحا ، وهو جامع لجميع الفضائل والخيرات ومنبعها ، فحسده برىء من كل عيب ، وروحه سالم من كل نقصان .

وهكذا ينتظم شعر ابن هانئ ، جميع مصطلحات الاسماعيلية وعقائدهم ، ويجلوها في أسلوبه الأخاذ ، وسحره النفاذ ؛ مع الاحتفاظ بروحه الشعرى القوى وهذه ميزة يمتضى بها الشعر الشيعى متفردا مستبدا بين جبهة الشعراء الذين عالجوا نظم العلوم ، فخرجوا بها إلى منطقة «النظم» الذى ينكره الشعر كما هو مشهور متعالم ، وما كان هذا الفرق ، إلا لأن الشعر الشيعى أصدق عاطفة ، وأقوى روحا ؟



# المقرب واجب إسلامي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين بالأزهر

تحدثت إلى القارئ الكريم في الأعداد الماضية ، عن عناصر وجود الأمة الإسلامية ، وقد كان هذا البحث صدى لقول الله جل شأنه : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » .

ولعل القارئ الكريم قد لمس الحقائق الرائعة التي عبر عنها القرآن العظيم ، بدعوته إلى الوحدة ، وحدة المعبود ، ووحدة الأصل ، ووحدة الأمة ، ووحدة الأهداف ، وقد رأى القارئ كيف ينطق القرآن — صريحا — بتكليف الأمة الإسلامية بمختلف التكاليف ، ويقرر مسئوليتها عما كلفت به ، مسئولية حقيقية ، تشمل الفرد بوصفه فردا ، وبوصفه عضوا في الأمة ، وأن أفراد الأمة متضامنون في تحمل هذه المسئولية ، واحتمال تبعاتها .

ورأى القارئ أن أولياء الأمر في هذه الأمة هم علماءها وقادة الفكر فيها ، وأنهم أول من تقع عليه المسئولية ، وأنهم محاسبون أمام الله ، وأمام ضمائرهم ، وأمام الأمة ، عن سعادة المجموعة التي من شأنهم أن يوجهوها إلى الخير بوصفهم عنوان الأمة ، وأهل القدرة على الاستتباع ، والقدرة الحسنة للؤمنين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأهل القيادة الرشيدة ، الذين يتوخون صالح الأمة ،

ويعملون على توجيهها إلى ما فيه صلاح الجميع ، فهم هداة يجلسون على أرفع مكان فوق القمة ، يقولون الحق لا يسألون الناس عليه أجرا ، ويأمرون بالعرف ، وينهون عن النكر ، ليس عليهم سلطان إلا لرب العالمين في الأمر والنهي ؛ فان قصر هؤلاء القادة ، أو أهملوا واجبه فمهم آثمون أو غاؤون ، وائل عليهم نأى الذى آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

على أن تقصير القادة — إن أعذر بعض أفراد الأمة — لا ينجى الأمة نفسها من المسؤولية العامة التضامنية التى تجمع أفرادها فيما يشبه سلسلة متساوية الحلقات لا يدرى أين طرفاها ، لأن الإسلام يسر لا غموض فى مبادئه ، وليس فيه أسرار يختص بها العلماء والقادة دون العامة ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

ولقد أهمل قادة الفكر الإسلامى واجبه ، ولم يؤدوا للأمة ولا لله ما عليهم ، فى عصور مضت - معذورة أو غير معذورة - طبعت بطابع الجود ، وخيم عليها الهوى ، وتحكمت فيها الشهوات السياسية ، فاستخدم العلم فيها لتركيز الدول ، وتأيد مذاهب الحكم فى إسراف بعيد عن حقائق الدين ، وروح الإسلام ، ففرقت الأمة شيعا وأحزابا ، كل حزب بما لديهم فرحون ، فاحتربت فى سبيل سيادة بعض عناصرها لافى سبيل الله ، وتقضت غزها من بعد قوة أنكنا ، وقطعت الأرحام ، وسادت فيها العصيات الجنسية وحلت محل الأخوة الإسلامية ، كما ساد التعصب المذهبي وحل محل الحرية الفكرية التى قررها القرآن العظيم ، وأطلت السياسة من ثغرات الأهواء على أهل العلم فرسمت لهم مناهج البحث لتأيد ما يريدونه ، بدل أن يوجه العلماء بأبحاثهم أهل السياسة إلى وسائل الخير وسبل الإصلاح ، فحجروا على العقول وقيدوها بما يشبه العقيدة ، وزعموا أن للاجتهاد بابا فأغلقوه ، حتى لا ينظر أحرار الفكر من خلاله فى صوالح الأمة ، فجعلوا الدين إرثا وتقليدا ، لا عقيدة يؤمن بها المسلم عن طريق الفكر والاقتناع وبذلك يصدق قول القائل : « إن المسلمين غير مؤمنين » ، وصح وصف الإمام الشيخ محمد عبده للتعلين بـ « أنهم يتعلون كتبنا لا علما » ، ووقف رجال المذاهب الإسلامية جامدين على مذاهبهم حتى خيل جمودهم لبعض الغربيين أن هذه المذاهب

في الاسلام تشبه الاناجيل في المسيحية ، أى أنه خلاف في جوهر الدين وحقائقه الأصلية ، لا في الأعراض والفروع .

ولعل القارئ الكريم يشاركنى في القول : بأن صلاح هذه الأمة الإسلامية اليوم منوط بصلاح علمائها ، وقادة الفكر فيها ، فهم منها بمثابة القلب . إن صلاح صلاح الجسم كله ، وإن فسد فسد الجسم كله ، ولأنه لفرض على علماء الإسلام وقادة الفكر فيه ، أن يعملوا على جمع شتات أمتهم ولم شعثها في هذه الأيام العصية ، التي تحيطهم فيها الأخطار من كل جانب ، ليتعارف المتناكرون ، ويتواصل المتقاطعون ، وليعودوا يدأ على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، متعاونين على رفع لواء الإسلام وإعزاز مكانة بنه بين الأمم ، وإن أيسر وسيلة لجمع الكلمة هو التقريب بين المذاهب الإسلامية .

وقد سألت سائل : وكيف يمكن هذا التقريب مع اختلاف المذاهب في الأصول والفروع . لا في الفروع فقط ؟

ولعله قد خيل للبعض أن المراد بالتقريب هو مزج الآراء ، وإدماج المذاهب حتى تكون مذهباً واحداً ، وما كان لعالم ، أو جماعة من العلماء - أن يحجروا على عقول دعاها الله إلى النظر في ملكوته ، أو يقصروا الناس على إحدى طرائق الفهم ، أو بعض وسائل النظر ! وإذن فما هو التقريب ؟ إنه دعوة إلى التعاون على البر والتقوى وإصلاح أحوال المسلمين ، بتوجيه طاقتهم العامة وجهة واحدة ، لتحقيق سعادة الجميع ، أو تؤمنه من أخطار خارجية ، وجزى الله عنا خيراً الإمام الشيعي الجليل الشيخ آل كاشف الغطاء ، فقد وضع - في بيانه القيم للمسلمين في العدد الماضي - الأمور في نصابها ، وجلى معنى التقريب تجلية تدفع كل لبس في الفهم ، فأغنانى عن كل ما أعددت في معنى التقريب ، شكر الله للعلامة الكبير غيرته المحموده على الملة والأمة ، فما أروع كلمات الحق التي أرسلها لتبسيط دواعي الخلاف بين المسلمين ! إذ يقرر أن الخلاف بين المذاهب ليس خلافاً على جوهر الدين وأصوله ، وإذن فهو خلاف في الفروع لا يستوجب القطيعة ، ولا يحل معه التنازع ، هو خلاف

معتاد يقع دائماً بين الإخوة على الوسائل الموصلة للهدف الذي ينشدونه ، وهو واقع بين المذاهب الشيعية المختلفة . كما هو واقع بين المذاهب السنية المختلفة، فهناك خلاف بين الإمامية ، وغيرهم ، وخلاف بين الإمامية ، الاثنى عشرية ، والزيدية ، كما أن هناك خلافاً بين أرباب هذه المذاهب كل في دائرته ، وكذلك يوجد هذا الخلاف بين المذاهب السنية - القائم منها اليوم والمندثر - على أساليب تعقل الأوامر والنواهي ، ودلالاتها ومفهوماتها وإيجاتها ، لاعلى صدق الأوامر والنواهي أو كذبها . ولهذا وجدنا الشيء الواحد يأخذ صفة الجوب في مذهب ، بينما يأخذ في غيره صفة الجواز أو الندب ، أو الاستحسان ، فكما أننا لم نسمع أن مذاهب السنة تختلف على الأصول ، فنحن نعتقد أن الخلاف بين مذاهب الشيعة في جملتها كذلك ليس على الأصول .

ومن هذا الطراز - اختلاف الفهم وتعقل النصوص - الخلاف بين الشيعة وأهل السنة حول الإمامة ؛ ويجب أن يكون كذلك - ما دام الجميع يؤمنون بالأصول الكبرى التي تؤلف حقيقة الدين كما ينطق به القرآن صراحة ، وهو عند الجميع واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإذا كان هذا الخلاف بين الطائفتين الكبيرتين ، بمائل الخلاف بين مذاهب كل منهما . فكيف يسمع المسلمون من الطرفين لخلاف طبعي على غير الأصول وجوهر الدين ، أن يقطع بينهم أرحاماً أمر الله أن توصل ؟ وكيف يجعلون من مذاهب علمائهم في النظر أدياناً تفرق وحدة الأمة ، وتلقى بها قطعاً ممزقة بين أيدي أعدائهم ، أعداء الله ورسوله وكتابه الكريم ؟؟

ثم ما ذنبنا اليوم . حتى نحمل أوزار قطيعة دفع إليها جمود الفكر ، والبعد عن روح الإسلام . بتحكيم الدنيا في الدين ، وتفسير نصوصه الصحيحة - أو وضع نصوص باطلة مجارة لأهواء رجال السياسة أو تقرباً إلى الحاكين ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ؟ لقد آن لنا أن نقوم بتصفية هذه التركة المثقلة بالمعازم ، عن طريق التواصل والتراحم والتعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

ولعل مهمتنا تسهل إذا عرفنا اليوم . أن الإمامة لم تعد فارقا جوهريا بين الشيعة والسنة ، بل ولا فارقا ثانويا ، في ظلال القوميات الحديثة ، التي يستحيل علينا أن نلغي عدها عند الحساب ، وكل ما نرجوه أن نوفق في الدعوة إلى تأخيرها لا إلى تلاشيها ، ونقولها صريحة ، إن الامامة كانت فارقا جوهرياً فيما مضى بين المتنازعين على سيادة الأمة الإسلامية ، وقد ذهبوا جميعاً إلى ربهما ، وعنده وحده حسابهم ، ولإننا لندرجو أن يكونوا كما قال الخليفة الرابع في أخيه الخليفة الثالث : « أرجو أن أكون أنا وعثمان يوم القيامة بمن قال الله فيهم : « ونزعنا ما في صدورهم من غل » ، إخوانا على سرر متقابلين » ، وكل ما يمكننا أن نقوله بعد ذلك : أن الخلافة فارق تاريخي بين حزبين من أحزاب المسلمين تنازعوا الحكم فيما بينهم . فخرج الحكم منهم إلى غيرهم ؛ أما اليوم فليؤمن الشيعة بإمامهم ، ما حلا لهم الإيمان به ، فهم مسلمون ، ولا ينقض لإيمانهم بإمامهم هذا أصلا من الأصول الخمسة التي يتفق عليها كافة المسلمين ، وليؤمن السنيون بحرية الامامة ، وجعلها وكالة عن الأمة ونياية عنها في تدبير أمورها ، تكلها إلى أهل الدين والعلم والكفاية والقدرة على سياستها بالدين ، وإيمانهم هذا لا ينقض أصلا من الأصول الخمسة التي يتفق عليها المسلمون كافة ، ولا شك أن ما يتفق عليه الجميع من أصول للدين تلزم الجميع ، وأن ما يختلفون فيه لا يلزم إلا من يراه ويؤمن بصحته ، والحكم لله الواحد القهار .

حق على المسلمين الذين ينشدون عزتهم اليوم ، أن يلبوا داعي « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ، لإعلاء كلمة الله ، والتعاون فيما بينهم على قمع الفساد والإلحاد والاستعمار ، فإن الخلاف بينهم لا يخدم الاسلام بل يهدمه ، ولا يحقق فيهم سوى ما اکتووا بناره من ذل وعبودية لغير الله رب العالمين « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » . « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » .

ألا وإن من يلبي نداء « جماعة التقريب » ، فقد لبي داعي الله ، ومن حاربها فقد حارب داعي الله ، والله غالب على أمره .

ومما لا شك فيه أن كل دعوة للتفريق بين المسلمين ، وإثارة أسباب الخلاف من جديد بين الطوائف الاسلامية ، خيانة لله ولرسوله وآله ، وللقرآن العظيم ، وللأمة الاسلامية ، فكل مثير للخلاف ، داع للفرقة ، حتم علينا أن نتشكك في نواياه ، وأن نعمل على رده سباً في هذا الزمان الذي تهدد أرض المسلمين فيه من كل جانب بالجيوش والمبادئ ، وإلا كنا مفترطين تحق علينا كل العذاب .

بمناسبة ما قرأته حديثاً من المؤلفات الصادرة عن بعض علماء الطائفتين السنة والشيعة ، أحب أن ألفت النظر إلى الحقائق الآتية :

أولاً : ذكر الامام الشيعي أبو الحسين محمد بن نوبخت في كتابه فرق الشيعة عشرات من الفرق الشيعية التي بادت وانقرضت ، وحكم عليها الامام النوبختي بالمروق من الدين ، ومع ذلك تنوقت آراء هذه الفرق المتباينة ، ونسبها كثير من الكتاب إلى الشيعة مطلقاً من غير تقييد وهذا ظلم كبير ، لأن آراء هذه الفرق تناقض تماماً المعتقدات الامامية ، كذلك ينسب البعض بعض آراء الاسماعيلية الحالية إلى الشيعة ، وهو ظلم بلا شك ، ويوسفنا أن يقع بعض أهل العلم في هذا الخطأ ، ولا يتحرى الدقة في إضافة الآراء إلى أصحابها ، مع أنه من السهل الآن تمييز آراء كل فرقة عن آراء غيرها ، فليس عسيراً إذن التعرف إلى آراء الامامية في كافة المسائل المتفق عليها أو المختلف فيها .

ثانياً : أن عهد التأليف الحقيقي عند المسلمين كان في ظلال حكم العباسيين ، وقد كان حكمهم دنيوياً أكثر منه دينياً ، وكان ملكاً لا خلافة ، وكانت أسباب تدعيم الملك العباسي أهم بكثير من توخي حقائق العلم ، وأحكام الدين ، وكان الخلاف بين العباسيين وبنى عمومهم العلويين قد بلغ مداه ، وتفنن كل فريق في تبريح الآخر ، فروى ما يسقط منزلته بين المسلمين ، وقد وجد الفريقان من العلماء من فسد دينه وضميره ، فروى كذباً لكل فريق ما يشتهي ، حتى ان الإمام

ابن تيمية (١) ليقول عن يوسف بن قزاوغلي ، المعروف بسبط بن الجوزي ، صاحب مرآة الزمان . إنه كان يروى لكل من الشيعة وأهل السنة ما يناسب مذهبه ، حسب الحاجة ووفرة الأجر . وتحت يدي ( قائمة ) تحوى أسماء أكثر من ألفي رجل ، من الطرفين ، حدثوا وكذبوا وفجروا ، لوجه الشيطان . ورجاء المال ، والتقرب من السلطان ، وإلى جانب هؤلاء الرواة الكذابين كان جماعة النساخ ، الذين ينسخون الكتب بالأجر لمن يرومها ، وكان جل هذه الطائفة من غير ذوى الدين ، وكثيراً ما دسوا في الكتب ما ليس منها ، حسب حاجة من يدفع الأجر .

فإذا كان ذلك كذلك وجب على أهل العلم الذين يبحثون عن تاريخ الفرق وأصول مذاهبها ، أن يكونوا شديدي الحذر ، وأن يتوخوا الدقة التامة ، وأن محتاطوا أشد الحيط في نسبة الآراء والحكم عليها ، وأن يقارنوا بين المرويات ويبحثوا أسانيدها ، فإنه لذلك وضع السلف الصالح قواعد علم الجرح والتعديل .

ثالثاً : إذا جريتنا على طريقة التنازع ، وتزييف ما عند أهل السنة من مرويات وما عند الشيعة من مرويات ، خرجنا في النهاية « وليس معنا أهل سنة ولا شيعة ، وتعذر علينا أن نتفق على صحة شيء ، سوى القرآن الكريم ، الذى حفظه الله ، فسلم للمسلمين من الدس والكيد والتزوير ، فليكن هو قبلتنا ، وداعينا إلى الوحدة ، ولنعبد الله على ضوء ما فيه ، ولنجعل له أساساً لمعاملتنا ، ولنحكمه في كل أمورنا ، وهو هادينا إلى أمثل سبل العزة إن شاء الله ، أما فيما يتعلق بالفروع والجزئيات ، فليقتنع كل فريق بما صح عنده - إن شاء - من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير متعرض لما صح عند أخيه ، بما يثير الفرقة والقطيعة ، فالمسيحيون يختلفون في جوهر دينهم اختلافاً كبيراً ، ومع ذلك يسارع الكاثوليك إلى نجدة البروتستانت ، ويسارع الأنجليكان إلى حماية المسيحية عامة ، وما منعهم خلافهم

الجوهري على ذات الإله وحقيقة الدين من أن يكونوا إلها على الإسلام والشرق منذ القرن الحادى عشر الميلادى إلى الآن ، فهل نعتبر ؟ فإن هذه ذكرى لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا !

رابعاً : إن دراسة التاريخ فى هذا العصر تلعب دوراً خطيراً فى تربية الشعوب ، وبعثها وتوجيهها إلى المثل العليا ، وقد غنى الغريون بذلك عناية كبرى ، فربوا شعوبهم تربية تاريخية جعلتهم قوامين على البشرية آماداً طويلة ، فهل فكر قادة الفكر الإسلامى فيما يحققه « التاريخ » من « التقريب » ؟ أرجو مخلصاً أن يتاح التعاون بين العلماء على كتابة التاريخ الإسلامى من جديد ، وأرجو أن يتم المسئولون عن التعليم فى بلاد الإسلام ، بتعديل دراسة منهج التاريخ بعيداً عن العصبية المفرقة ، ومن الخير أن أذكر القارىء بما اقترحت فى العدد الثالث من السنة الأولى عن دراسة التاريخ ومدى أثره فى جمع كلة الأمة ، وإزالة أسباب التفرق ، « والذكرى تنفع المؤمنين » . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وهب الله لنا من أمرنا رشداً ، وهذا هو السبيل ؟

## لماذا تؤرخ المجلة

### بالتاريخ المبهودى مع الهجرى

يلاحظ بعض قرائنا أننا نجمع بين التاريخين : الهجرى والميلادى ؛ ويستحسن أن تقتصر على الأول اعتماداً بالتاريخ الإسلامى واعتزازاً بإفراده دون غيره ، ويهمنى أن يعلم القراء أن المجلة تصل إلى بلاد إسلامية كثيرة ترتبط أمورها ارتباطاً عملياً بالشهور الميلادية ، مضافاً إلى ذلك أنها تصل إلى بعض البلاد الأوربية والأمريكية ، وهى تعتمد على التاريخ الميلادى وحده ، فإنا أردنا بهذا إلا التيسير عليهم بما لا يضر ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؟



# بعض المنشآت الاجتماعية لمصر في العصور الوسطى

لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى  
أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

مُحِبُّ إِلَى — فيمن أحببتهم من المؤرخين — المقرئ مؤرخ مصر في العصور الوسطى ، وحجب إلى ، بصفة خاصة ، كتابه « الخطط » ، فهو كتاب حفظ لنا من أخبار مصر والقاهرة ، ما لم نظفر به من كتاب آخر ، وكانت ملاحظات المقرئ من الدقة والبراعة ، بحيث جعلت مؤلفه هذا كنزاً فياض المعين لكل باحث في التاريخ المصري في تلك الفترة . ويبدو لي أن المقرئ لم يترك شاردة ولا واردة من حياة العامة والخاصة إلا انتبه لها ، ولاحظ عليها ودونها في كتابه . والمقرئ مؤرخ قوى الملاحظة ، واسع المعرفة ، متأمل أكثر منه راوية ، أكسبته وظائف الدولة ورحلاته للشام والحجاز ، أنواعاً من الدراية ، جعلت لكتابات أهمية كبيرة . على أنه وهو خارج مصر ظل يذكرها ، ويحبها ، ويحب القاهرة ، التي ولد بها ، فشغل نفسه بالكتابة عنها وبدأ فيما كتب أنه قاهرى قح . وفي اعتقادي أن المقرئ ، فيما كتب من ملاحظات على أحوال الناس بمصر ، لا يبعد كثيراً عما كان يلاحظه على أحوال الناس في الشرق الإسلامى عامة ، لأن حياة الناس في تلك العصور تكاد تكون متشابهة سواء في القاهرة أم في دمشق أم في بغداد ، أم في غيرها من العواصم الإسلامية الكبرى ، وذلك لأنه لم تكن بين تلك البلاد حواجز ، ولأن تحركات الجيوش ، وهجرات العلماء ، واستقدام الفنانين والصناع ، جعل العالم الإسلامى وحدة متشابهة في نظمها ، ووسائل معيشتها . وأنا حين أقرر ذلك لا أستطيع أن أنكر الأثر الخطير للبيئة والعنصر القومى في ذلك التشابه .

وإن نشأة المدارس في وقت متقارب في أنحاء العالم الإسلامي ، وارتحال أمثال الشهاب الطوسي، وابن سعدون القرطبي، والحافظ السلفي، والآمدي الأصولي والسخاوي النحوي ، وتقلهم بين العواصم الكبرى ، وقصدهم أشياخ العلم أو جلوسهم للتدريس ، كل ذلك ساعد على أن تصطبغ الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي بلون واحد تقريباً .

وعلى قدر ما كان المقرئ صادقاً في تصوير محاسن عصره ، ونقلها إلينا واضحة جلية ؛ كان مخلصاً في إعطائنا فكرة عن شروق ذلك العصر وغزاه . لا نقل وضوحاً عن هذه ، ولعله مؤمن - ولا إخاله إلا كذلك - بأن خير المؤرخين من نقل إليك صورة عصره ، بخيرها وشرها ، صادقاً في ذلك النقل ، لأن فيه العبرة كل العبرة للخالفين ، وأن خير كتب التاريخ ، كتاب صور لك حياة الناس في جهنم وسخطهم ، في صدقهم وكذبهم ، في جدم وهزلهم ، في فرحهم وحزنهم ، ولا غرو فالتاسم مادة التاريخ الأولى الجديرة بكل اهتمام .

وسوف أستعرض هنا بعض المنشآت الاجتماعية التي ذكرها المقرئ في كتابه الخطوط ، وملاحظاته عليها .

قامت المساجد منذ نشأتها في مصر وغيرها بمهمة المدارس ، وشهدت أروقة جامع عمرو وجامع ابن طولون حلقات الدرس من أمثال الشافعي والبويطي والمزني، ومحمد بن عبد الحكم ، والربيع الجيزي ، والقاضي بكتار . وغيرهم وغيرهم من أعلام الإسلام ؛ فلما انتهى أمر مصر إلى الفاطميين ، احتل الجامع الأزهر تلك المكانة ، غير أن عناية الأساتذة اتجهت نحو تدريس الفقه الشيعي ، إذ أصبح المذهب الذي تدين به الدولة . ثم تغيرت الحال من بعد ذلك أيام الأيوبيين والمماليك بإنشاء المدارس ، وقيامها مقام المساجد في تعليم الناس وتثقيفهم . وشهدت مصر أولى مدارسها على يد صلاح الدين الأيوبي ، الذي اقتبس هذا النظام مما شاهده بالعراق والشام ، وكانت العلوم الشرعية هي كل شيء في برنامج الدراسة ، وكان الفقه في طليعة تلك العلوم . وجرى صلاح الدين على عادة إعطاء مشيخة مدارسه

إلى معتق مذهب الأشاعرة من أهل السنة ، واستمر الاهتمام بالمدارس منذ ذلك الحين . وسار أفراد البيت الأيوبي والمماليك من بعدهم سيرة صلاح الدين في إنشاء المدارس حتى زاد عدد مدارس القاهرة على السبعين .

والجدير بالملاحظة فيما رواه المقرئى عن تلك المدارس اهتمام غير الحكوميين بها وإنشائها لها ابتغاء وجه الله وخدمة للعلم ، كالمدرسة المسلية التى أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد أبو مسلم المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، ووقف عليها دوراً وأرضاً ومالاً وفيراً ، والمدرسة المهذبية التى أنشأها الطبيب مهذب الدين أبو سعيد ابن أبى حليقة طبيب الملك الكامل ، والمدرسة القطبية التى أنشأتها ابنة الملك العادل أبى بكر ، والمدرسة العاشورية التى أنشأتها زوجة الأمير أياز كوج الاسدى ومدرسة زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصرى سنة ٧٥١ هـ ، ومدرسة ام السلطان شعبان سنة ٧٧١ هـ . ويبدو أن القاهرة أصابت من أهلها فى ذلك الزمان خيراً مما تصيبه من أهلها الآن ، إذ لم يعد لكبار التجار أو مشاهير الأطباء أو فضليات النساء أو أهل الكسب الوفير فى عصرنا الحاضر ، غرام بما أغرم به أمثالهم من معاصرى المقرئى وسابقيهم .

على أن الأوقاف الكثيرة كفلت رزقاً جارياً لطلاب العلم ، من أشياخ وتلاميذ ، وأنفق منها على ما يلزم المدارس من فرش وكتب وحاجيات أخرى ، وعاش الناس فى ظل تلك النعمة الوارفة للعلم وحده ، وكانت الثمرة الطيبة لكل ذلك ، ماوصلنا من تراث حضارى ضخم لا يزال جيلنا يستفيد بما ظهر منه ، ويكشف الغطاء عما بقى دفيناً فى دور الكتب العالمية .

وكثيراً ما حدث أن حالت الظروف دون وصول معالم الوقف إلى أصحابها إما بسبب القحط أو الأوبئة ، ولما لأن المشرفين على حصيلة تلك الجبوس اعتمدوا - ولو خطأ - أنها تذهب أحياناً لمن لا يستحقها ، وأن هذا يبرر فى نظرهم المقاسمة فيها أو الاغارة عليها ، وظفر شيوخ تلك المدارس بأكثر من نصيب من خيرات الأوقاف ، فمنها ما حصلوا عليه لقيامهم بمهمة التدريس ، ومنها ما أعطى

لهم من أجل النظر على المدرسة وأوقافها ، ذلك عدا ما يصرف لهم من خبز وماء وغيره . أما صرف تلك الارزاق فكان شهرياً في العادة .

وحياة العلم وطلابه حافلة بكل طريف ، مليئة بما يدل على النشاط العلمي الجهم الذي حملت مصر أعباءه في تلك الفترة من تاريخها .

وإذا تركنا حياة العلم وطلابه جانباً واتجهنا نحو المؤسسات الاجتماعية الأخرى لنرى حياة الناس كيف كانت وكيف سارت وكيف تنوعت واختلطت وتأثرت بالآخرين ، وجدنا في مقدمة تلك المؤسسات « الحمامات » ، وهي وإن لم تكن من مستحدثات المسلمين لكنها ذات طابع خاص عندهم ، فقد شهدت تلك الحمامات ألواناً من النقاش والجدل حول المسائل التي تهم الناس حينذاك ، وقصدها التجار والمغتربون وأصحاب الرحلة وأهل العلم ، واتخذوا من ردهاتها الدافئة أندية لهم ، واقتصرت بعض الحمامات على الرجال فقط وبعضها على النساء ، وخصص جانب منها لاستقبال الرجال في أول النهار والنساء في آخره .

ويروي المقرئ عن بعض مصادره أن عدد حمامات مصر بلغ قبيل القرن الرابع عشر الميلادي ما يقرب من مائة حمام ، ويدل هذا العدد على مدى اعتماد الناس على حمامات السوق بسبب عدم صلاحية كثير من البيوت لإقامة حمامات بها ، وعدت الحمامات مورداً هاماً من موارد الرزق ، ومصدراً من مصادر الرخ الوفير لمؤسسيها ، ومنهم الأمراء والأعيان ووجوه الدولة والعلماء وغيرهم ، وكثيراً ما وقفت الحمامات للانفاق من دخلها على المدارس والكتاتيب والمساجد والأسبلة والأربطة وغيرها .

ومن المنشآت الاجتماعية التي نعمت بها مصر خلال العصور الوسطى « المارستانات » ، وهي المستشفيات التي ظفرت من عناية السلاطين بما كفل لجميع الناس حسن الافادة منها والانتفاع بها على اختلاف طبقاتهم وألوانهم ، ويتضح ذلك مما أورده المقرئ في الخطط عن أخبار مارستان قلاوون ، وهو أن السلطان الملك المنصور قلاوون وقف على مارستانه أوقافاً كثيرة وأموالاً وفيرة ،

واستدعى في يوم افتتاحه قدحا من شرابه فشربه وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فن دونى وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث » ثم يقول المقرئى إنه رتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض ، وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم المعاليم ، ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً : فجعل أوابين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها ، وأفرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنساء ، ومكاناً للبرودين ينقسم قسمين : قسماً للرجال وقسماً للنساء ، وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن ، وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشفافات ونحوها .. وجعل مكاناً تفرق فيه الأشربة والأدوية ، ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ، ولم يخصص عدة المرضى بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غنى وفقير ، ولا حدد مدة لإقامة المريض ، ورتب منه لمن هو مريض فى داره سائر ما يحتاج إليه .

ويتضح من هذه العبارات أن الخدمات الاجتماعية فى مصر فى العصور الوسطى ظفرت بتقدم كبير يرفع من شأن مصر فى نظر المؤرخ الحديث ، وأن الدستور الذى وضعه السلطان قلاوون لمارستانه يعطينا فكرة طيبة عن المساواة فى الحقوق الاجتماعية بين مختلف الطبقات ، ويظهر لنا بجلاء مدى فهم الدولة لواجبها نحو رعاياها عامة والمرضى خاصة ، كما يدل على مبلغ التنظيم الإدارى الدقيق الذى امتازت به تلك الفترة من التاريخ المصرى .

ومن المنشآت الغربية على الإسلام وأهله : الخوانك والأربطة ، فلم يكن مألوفاً لدى المسلمين الأول إنشاء بيوت خاصة للعباد والمتزهدين ، يحبسون فيها أنفسهم للصلاة والصيام فحسب . ويدوأن تلك التنظيمات الحديثة على أهل الإسلام إنما هى أثر من آثار المسيحية بالشرق لأنها قرية شبه بالاديرة ، وإن كان ما أفاده العالم المسيحى من الاديرة أعظم بكثير مما أفاده العالم الإسلامى من الخوانك

والأربطة ، بل يمكن القول بأن المسلمين لم يفيدوا شيئاً البتة من تلك المنشآت .  
 وأول الخوانك بمصر - على قول المقرئى - خانكاه سعيد السعداء ، التى وقفها صلاح الدين الأيوبى للوافدين على مصر من فقراء الصوفية ورتب لهم فيها الطعام واللحم والخبز . وبلغ عدة من بها فى بعض الاوقات قرابة ثلثمائة صوفى .  
 أما احتفالهم التقليدى بصلاة الجمعة وخروج موكبهم الرسمى من الخانكاه إلى جامع الحاكم وعودتهم منه ، فيقول المقرئى عنه : إنه من أجل عوايد القاهرة . ثم أنشأ الظاهر بيبرس خانكاه أخرى نزل بها حوالى أربعائة صوفى ، ثم تتابع لإنشاء الخوانك حتى زاد ما ذكره المقرئى فى خططه عن العشرين ، منها واحدة أنشأها الخاتون طوغاى زوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأزيلت بها بعض جواربها ، وقررت لمن المعالم والأرزاق . وقامت تلك الخوانك بوظيفة المدارس فى بعض الأحيان ، وعمرت قاعاتها بدراسة الفقه والحديث وقراءة القرآن طالما كانت أوقافها بعيدة عن أيدي التاهبين من الأمراء والسلاطين ومن اليهم .

أما الأربطة فيُعرفها المقرئى بأنها الدور التى يسكنها أهل الطريق ويقول :  
 « وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل بالنهار بالعبادة ، متعوضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الاوقات ، وملازمة الأوراد ، وانتظار الصلوات ، واجتناب الغفلات ، ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً . »

ولا شك أن حياة الزهاد بتلك المؤسسات ، هى رهبانية لا يقرها الإسلام الذى يأمر بالسعى والجد ، وينهى عن القعود والتواكل . ولكن من يستطيع أن ينكر تأثر المسلمين بما حولهم مما ابتدعته الأديان السابقة ! وفى اعتقادى أن الخوانك والأربطة ، تطورت عن الأديرة المسيحية ، ولعل كثرة إنشاءها فى العصور الوسطى ، راجعة إلى ما خلفه الصليبيون بالشرق أثناء كفاحهم الطويل للاستيلاء على بيت المقدس وما حوله . على أنه لاحيلة لنا فى دفع هذا التأثير ، لأن سنة الحياة أن يتأثر الكائن بغيره ، ويؤثر فى غيره .

ويذكر المقریزی فی خططه اثنی عشر رباطا ، أشهرها رباط الست البغدادیة أنشأته ابنة الظاهر بیبرس للنساء اللاتی طلقن أو هجرن حتی یتزوجن أو یرجعن إلى أزواجهن صيانة لهم ، لما كان فیہ من شدة الضبط ، والمواظبة علی وظائف العبادات وغایة الاحتراز ، حتی ان خادمة الفقیرات به ، كانت لاتمكن أحداً من استعمال لمبریق بیزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطریق بما تراه .

ومن منشآت ذلك العهد كذلك الخانات ، وهی فنادق ینزل بها الغرباء والمسافرون ومن لا مأوی لهم من الفقراء وأبناء السبیل ، ومن أمثلة ذلك خان السبیل الذی أنشأه بهاء الدین قراقوش ، وجعله نزلا بغير أجره لأبناء السبیل والمسافرين ، وجهزه بما یکفل لهم وسائل الراحة .

والدارس للتاریخ المصری أو التاریخ الإسلامی فی العصور الوسطی بوجه عام یجد نفسه أمام تطورات اجتماعیة ناضجة لم یشهدها ذلك الركن من العالم من قبل . ولا شك أن وقوع هذه المنطقة فی قلب العالم النابض ، جعلها شديدة التأثر بغيرها ، كما جعلها فی نفس الوقت شديدة التأثير فی غیرها ، وأن ما مر بها من أزمات وحروب متكررة وإغارات مفاجئة أكسبها سرعة التكیيف للظروف الطارئة ، والاستجابة لحاجاتها الجدیة ، وإذا كانت إغارات المغول من الشرق ، وحملات الصلیبيين من الغرب قد أفقدنا الشرق الإسلامی أشياء كثيرة ، فقد أخرجته تلك الهزة العنيفة من عزله ، وأزاحت عن جفونه النوم الذی غط فیہ فترة طويلة .

أما حظ مصر من تلك الهزة فكان أحسن من حظ غیرها لأسباب أهمها أن تلك الأحداث حدثت وبها دولة قوية لا یتمتع بمثلها أحد من جيرانها من الدول الإسلامیة . هذا فضلا عن أنها لم تصب بشئ من تخريب المغول ، ولم تتعرض لشر یدكر من حملات الصلیبيين . وقد أتاح ذلك لمصر أن تخرج من عهد الفاطمیین والأیوبیین والمماليك دولة منظمة مرتبة فی أحوالها الاجتماعیة والإداریة والتعلیمیة ، وأن تخلف تراناً ضخمها صالحاً لأن یكون غذاء طیبا لأجیال خالفة إذا ما رعاها القوامون علیه بالدرس والبحث والنشر ؟

# الاجتهاد في الشريعة

لحضرة صاحب السباحة

السيد محمد علي القاضي الطباطبائي

النجف الأشرف بالعراق

تسلت الأجزاء الأربعة من المجلة الشريفة « رسالة الإسلام » ، لستها الأولى ،  
الصادرة عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة ، وطالعتها في إيمان  
وتعمق وإعجاب بما فيها من البحوث العلمية والآراء العميقة التي قلما يوجد لها  
نظير في الصحف والمجلات .

ولاني أقدم الشكر والتقدير لجماعة التقريب على القيام بهذا الواجب ، فإن  
المسلمين اليوم في أشد الحاجة إلى الاتحاد والتعااض والتعاون وانفاق الكلمة  
وجمع شتات آراء الأمة ، وإحكام عرى الوحدة الإسلامية ، والاعتصام بحبل  
الإخاء الديني والاتحاد الصحيح .

ولعل الله تعالى قيض لهم جماعة التقريب لتبعث فيهم روح المودة والمحبة ،  
وترسل حبلا بينهم كافة ، فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لتحمل أعباء هذه المهمة .

\* \* \*

وقفت في العدد الأول صحيفة (٨٧) على مقال بعنوان : « صوت التقريب » ، (١)  
حافل بالمزايا التاريخية ، وجامع شامل للإشارات إلى كثير من حقائق القضايا  
الواقعة في القرون الماضية ، وقد تضمن الإشاوة إلى الخلافات والآراء الفكرية

(١) يريد البيان الأول لجماعة التقريب .



الكلامية بين الأمة الإسلامية ، وأن هذه الخلافات لم تقف عندها ، بل شملت الفقه والأحكام التشريعية ، وأنها لم تكن في هذه الناحية عنيفة ، وإنما كانت تجري في هدوء وسكينة ووقار لا يسيطر عليها إلا العلم والحجة والبرهان ، وهكذا كانت ريح الفقه تجري رخاء حتى نما وزكا وأينعت ثمراته ، ولذلك استطاع الفقه الإسلامي أن يقف على الرأس عزيزاً كريماً .

ثم جاءت بعد ذلك طبقات من المقلدين والمتعصبين للذاهب ، كلت مهمهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر ، وصادف ذلك عهود الضعف السياسي ، وحكم أكثر المشتغلين بالفقه على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم في زمانهم بأنهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط ، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله ، ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد ، وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد ، وأن تعصب كل منهم لرأى إمام وزعم أنه الحق وأن ما سواه باطل وأسرفوا في ذلك إسرافاً بعيداً ، ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتباعهم في عدد معين ، وهكذا ضاق أفق الاتباع والأشباع عما اتسع له أفق المتبوعين ، وضائق بهم دائرة الفقه الإسلامي ، وركدت ربحه وصوح نباته .

ولكن إخواننا قد استطاعوا في العهد الحاضر أن يتخلصوا إلى حد بعيد من آثار هذه العصبية التي تنكرها الشريعة حتى جاء صريحاً في صحيفة (٩١) :

ولعلمهم يشهدون في القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخرى يدرس فقها في الأزهر كما يدرس فقه المذاهب الأربعة ، ويؤمنون بحق لهم أن يستوفوا جهات الفخر برجوع الفقه الإسلامي إلى مجده الأول يوم كانت الآراء المحتكة ، والحجج المتقابلة ، والأدلة ووجهات النظر ، هي مادته وغذاه وعمدته في التنوير الفكري والوصول إلى الحق ، لا قول فلان ولا رأى فلان .

ونتيجة هذا المقال لزوم انفتاح باب الاجتهاد على مصراعيه قولاً وعملاً لحاجة الأمة إلى رعاية مصالحها الدينية والدنيوية في كل عصور زمان .

وطالعت في العدد الثالث صحيفة ( ٢٣٩ ) المقال الذي جادت به يراعة المجتهد الأكبر سماحة شيخنا الإمام آية الله كاشف الغطاء - متع الله المسلمين بوجوده ونفعنا بعلومه - عن الاجتهاد في الشريعة بين السنة والشيعة .

وقد صدع الإمام في هذا المقال بالقول الصراح ، وأنى بالحقائق الراضنة والأسس العلمية المنطقية ، وأشاد أطال الله بقاءه بالمذهب الأسد الأقوى في هذه المسألة ، وهو لزوم انفتاح باب الاجتهاد على مصراعيه قولاً وعملاً ، وأن ليس الاجتهاد لحاجة الناس إليه غصب ، وإنما هو أمر تقضى به الغريزة البشرية وطبيعة الشريعة نفسها ، وأن الاجتهاد لا بد منه في الشريعة في كل عصر وزمان ، ولا بد لكل من لم يصل إلى تلك المرتبة الشاخصة ولم تحصل له هذه الملكة القدسية أن يقلد في الأحكام الفرعية مجتهداً حياً جامعاً لشرائط الفتوى ، وهذا معنى الاجتهاد عند الشيعة الامامية ، وبعد اليوم من مفاخرهم بين الامم الإسلامية .

وكم لأستاذنا الإمام من نظائر هذه المقالات والبحوث القيمة والتأليف والتصانيف الثمينة المنتشرة في المدن والبلاد الفسيحة الأرجاء .

ثم طالعت مقالا قيماً في العدد الرابع من بحوث الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر الأسبق - رحمه الله - حول الموضوع ، وقد جاء فيه في صحيفة ( ٢٥١ ) .

(وانى مع احترامى لرأى القائلين باستحالة الاجتهاد أخالفهم في رأيهم ، وأقول أن بين علماء المعاهد الدينية في مصر من توفرت فيهم شروط الاجتهاد ، ويحرم عليهم التقليد ) .

وفي صحيفة ( ٢٥٢ ) عند الكلام في تجزؤ الاجتهاد وعدمه ( المكلف إذا حصلت له أهلية الاجتهاد بتأهله في مسألة من المسائل ، فإن اجتهد فيها وأداه اجتهداه إلى حكم فيها ، فقد اتفق الكل على أنه لا يجوز له تقليد غيره من المجتهدين في خلاف ما أوجه ظنه ، وإن لم يكن قد اجتهد ، فقد اختلفوا فيه ، والمعتمد أن يقال أن

القول بجواز التقليد حكم شرعى لا بد له من دليل والأصل عدم ذلك الدليل فن ادعاه ، فعليه البيان ) .

وفي صحيفة ( ٣٥٢ ) ( ولو التزم مذهباً معيناً ، فقليل يلزم ، وقيل لا ، وهو الأصح ، لأن التزامه غير ملزم ، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده في دينه في كل ما يأتي ويذر دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاصلة على عدم القول بذلك ) .

وفي آخر هذا المقال صحيفة ( ٣٥٧ ) ( والخلاصة أنه يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم ، وستتبت في فصل آخر إمكان صحة النقل عن غير الأئمة الأربعة ) .

وقرأت في العدد الثالث صحيفة ( ٣١٧ ) كلاماً يفصح عن غرض جماعة التقريب ( أنها ترحب بالخلاف الفقهي المبني على النظر في الأدلة ، ورعاية المصالح العامة للسلدين التي اعترفت الشريعة بها ، ولا تبغى إلغاء المذاهب الفقهية ولا توحيدها )

والظاهر أن المقصد الأسنى من نشر المقال من بحوث الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، هو الاعتراف بأن علماء السنة أيضاً ، يعترفون اليوم بانفتاح باب الاجتهاد عندهم كأنفتاحه عند الشيعة الإمامية ، ولكن من ينعم النظر في هذا البحث القيم ، يرى أن نتيجه هو انفتاح باب الاجتهاد بمصراع واحد ، وهو القول بانفتاحه قولاً لا عملاً ، وأن المرجع في مقام العمل ، هو التقليد عن أحد المذاهب الأربعة أو غيرهم ، إذا صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم ، كما جاء في آخر هذا البحث ( أنه يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة ، متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم ) .

ليت شرعى إذا اعترفوا بانفتاح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وصحة تقليد المكلف عن المجتهد الحى في كل زمان ، ولزومه في كل أوان ، فأى قيمة لصحة النقل عن غير الأئمة الأربعة ، أو عنهم ، وعدمها ، وما معنى هذا الكلام ، وكيف يجوز تقليد المجتهد الذى مات في الزمن الغابر ؟ سواء أصح النقل عنه ، أم لا ، وليس

فائدة النقل سوى الاطلاع على أقوال الفقهاء الماضين في المسائل الفرعية ، فإنه لا دليل على جواز تقليد المجتهد الميت أصلاً ، خصوصاً ابتداءً ، كالبالغ يريد التقليد وقد نقلوا ( أن القول بجواز التقليد حكم شرعى ، لا بد له من دليل ، والأصل عدم ذلك الدليل ) وأما الاجماع فهو قائم على جواز تقليد المجتهد ، والقدر المتيقن منه ، هو المجتهد الحى الجامع لشرائط الفتوى لأن الاجماع دليل لى يؤخذ بالمتيقن منه ، وأما المجتهد الميت ، فلا دليل على جواز تقليده ، فعلى مدعى الجواز البيان .

ونرى بوناً شاسعاً بين هذا المقال ، وقول بيان التقريب فى العدد الأول ( ولعلنا نشهد فى القريب العاجل إن شاء الله ، مذاهب إسلامية أخرى ، يدرس فقهاء فى الأزهر ، كما يدرس فقه المذاهب الأربعة ، ويؤمن بحق لنا أن نستوفى جهات الفخر — إلى أن يقول — والوصول إلى الحق ، لا قول فلان ، ولا رأى فلان ) ؟ .

فإننا نرى فى العدد الذى أوعزنا إلى محله ، ونقلنا عبارته ، اعترافاً بجواز الأخذ بقول فلان ، ورأى فلان ، متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم ، فكيف التوفيق بين الكلامين . ؟

ورأينا أن المجلة فى العدد الثالث ، اعترفت بأنها ترحب بالخلاف الفقهى ، المبني على النظر فى الأدلة ، ورعاية المصالح العامة للمسلمين ، التى اعترفت الشريعة بها ، وقد تستفيد الأفكار والأنظار من هذه الجمل الاعتراف بانفتاح باب الاجتهاد ، فإن من الواضح ، أن الاجتهاد هو النظر إلى الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ، واستخراج حكم الله ، وفهمه منها على حسب القواعد المسبلة ، مع رعاية المصالح العامة للمسلمين دون رعاية الأقوال والآراء الصادرة عن الأقواء الدائرة سواء وافق ما استنبطه من الحكم لأحد المذاهب الفقهاء ، أو خالفها ، وهذا هو الترحيب بالخلاف الفقهى ، والتوسع فى دائرة الاستنباط ، ولكن ينافى ، بل يناقض هذا المقال ما يذكر متصلاً به ( ولا تبغى إلغاء المذاهب الفقهاء ولا توحيدها ) لا أدري كيف أنها بعد الترحيب بالخلاف الفقهى ، والتوسع فى الاستنباط

والاستدلال ، والاعتراف بانفتاح باب الاجتهاد - كيف أنها لا تبغى إلغاء المذاهب ، فإن الاجتهاد ، وفهم حكم الله تعالى عن الأدلة الشرعية يوجب إلغاء المجتهد ، أى مذهب فرض من المذاهب الفقهية ، إن لم يوافق ما استنبطه مع أحدها وله أن يفنى لمقلديه على حسب ما فهمه ، فإن المجتهد إذا نظر بحسب ملكته العلمية الاجتهادية ، وعقله المستقيم ، وذوقه السليم ، مراعيًا القواعد المسلمة الشرعية ، وبذل وسعه في تحصيل الأحكام الواقعية الثابتة في كل واقعة ، واستنبطها من مظانها من الكتاب والسنة ، فكل ما يخالفه من المذاهب الفقهية باطل عنده ، وله التمسك والاتباع بالأدلة والبراهين الدينية ، فإن الدليل هو المتبع ، دون أى مذهب فقهي حتى أن المتبع عند المجتهد في صورة موافقة ما استنبطه من الحكم مع أحد المذاهب الفقهية ، هو ما فهمه من الدليل ، وأذى ظنه منه دون قول فلان ، ولا رأى فلان .

وفي صورة المخالفة يستحيل في حقه القطع والاذعان ، أو الظن والاطمئنان لقول من يخالفه ، والعمل على رأيه ، فإن الإنسان إذا فهم شيئاً ، وقطع به ، أو ظن أنه حكم الله تعالى في حقه وحق مقلديه ، واعتقد كونه صواباً بينه وبين الله تعالى ، وأنه حكم الله الواقعي ، الذي بذل الوسع في تحصيله ، يستحيل أن يذعن ويقطع ، أو يظن على خلافه ويذهب على ضد ما فهمه أصلاً ، فإن سد باب الفهم محال بالضرورة من العقل ، اللهم إلا أن يتبدل رأى المجتهد في فهم حكم الله تعالى بحسب اجتهاده ، واستنباط نفسه .

### رسالة الإسلام

يرجع ما لاحظته سماحة الأستاذ إلى أن فيما نشرته « رسالة الإسلام » تناقضا في موضعين :

أولهما : الجمع بين القول بانفتاح باب الاجتهاد ، والقول بجواز الأخذ بقول فلان ، ورأى فلان ، متى صح النقل .

الثاني : ترجيح « جماعة القريب » بالخلاف الفقهي المبني على النظر والاستدلال مع تصريحها بأنها لا تبغى إلغاء المذاهب الفقهية ولا توحيدها .

وجوابنا عن الموضوع الاول أن فضيلة المغفور له الأستاذ الاكبر الشيخ المراغى بصدد مقامين أحدهما : بيان انفتاح باب الاجتهاد ، وقد جادل عنه وأيده بالبرهان الصحيح ، والثاني : مناقشة معارضيه فيما زعموه من أن النقل عن غير الائمة الاربعة لم يصح ، وأن ذلك من أسباب حصر التقليد فيهم لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد ، فالأستاذ الاكبر يبطل زعمهم في هذا ، ويقرر أنه قد صح النقل عن غير الاربعة كما صح عن الاربعة ، وأنه متى صح النقل فلا خصوصية للأربعة في جواز تقليدهم - أى لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد - وبهذا يتبين أنه لا تناقض بين انفتاح باب الاجتهاد ، في حق من كل استعداد ، وجواز تقليد أى إمام وراء الاربعة في حق غير المجتهد متى صح النقل عن هذا الإمام .

وجوابنا عن الموضوع الثانى أن فتح باب الاجتهاد ، والترحيب بالخلاف الفقهي المبني على النظر والاستنباط ليس معناه هدم ما لدينا من تراث فقهي جادت لنا به عقول أئمتنا .

والأستاذ لا يزعم أن المجتهد في أى عصر من العصور مستغن عن معرفة ما قبله في المسائل التي يجتهد فيها ، وعن النظر في أدلة المجتهدين قبله . وليس من شرط الاجتهاد أن يغلق المجتهد نفسه على نفسه ، فلا يسمح لفكره أن ينظر فيما رآه غيره كلا ، إنما الذى يجب عليه - كما يوافقنا الأستاذ - أن يعمل فكره ، ويفرغ وسعه ليصل إلى الحق ، دون تقصير ، أو تأثر إلا بالدليل ، فإذا صادفه دليل استدل به غيره وانقذ في نفسه فقد قرب الله عليه الشقة ، ويسر له السبيل .

ولو كان الاجتهاد يقتضى التخلص من آراء المجتهدين والغاء مذاهبهم لما بق لنا فقه ، ولا امتد جبل النظر في اتصال بين الاولين والآخرين .

أما اشتراط الحياة فيمن يقلده العامة أو عدم اشتراطها ، فهذا موضوع آخر لم يتطرق اليه الكلام ، ولم يقصد بالبحث فيما نشرته «رسالة الإسلام» .

## معجم ألفاظ القرآن الكريم

يوشك ، مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، أن ينتهى من تحضير المعجم القرآنى الذى يتكفل ببيان معانى الألفاظ الواردة فى القرآن الكريم .

والطريقة التى رسمها المجمع الموقر لوضع هذا المعجم تلخص فيما يلى :

أولاً : يُتَّبَع اللفظ فى القرآن الكريم ، ويُنْظَر فى معانيه اللغوية فى شتى مواضع ورودده ، فإذا كان قد ورد فيها كلها بمعنى واحد يُسَنِّ هذا المعنى مع التمثيل له ببعض الآيات التى ورد فيها ، على أن يُكْتَب فى نهاية الآية اسم السورة ورقم الآية فى المصحف ، وإذا كانت المعانى مختلفة ، أو بعضها حقيقى وبعضها مجازى ، بين ذلك أيضاً بالطريقة نفسها .

ثانياً : يُعْتَمَد فى بيان معانى الألفاظ على اللغة العربية المأخوذة من مصادرها المعتمدة بها ، وعلى ما ذكر فى التفاسير المختلفة ، دون تقيد بما قد يكون فى بعضها ، مما لا يلائم اللغة ، ولا يتفق وأسلوب القرآن الكريم ، وعرفه الخاص فى التعبير والبيان .

ثالثاً : يُلْزَم فى هذا المعجم طريقة وسطى بين الإطناب والإيجاز ، ولا يتعرض فيه لما تدل عليه الألفاظ أو الآيات من الأحكام أو المعانى الإشارية إلا بمقدار ما تدعو إليه الحال من بيان المعنى وتوضيحه .

رابعاً : يُيسَّر فى ترتيب كلمات هذا المعجم على نسق المعجمات اللغوية الحديثة التى أساسها اعتماد الحرف الأول من الكلمة ، ثم الذى يليه ، ثم ما يثلثها ، فيبدأ بمادة « أ ب » ، ثم « أ ب د » ، ثم « أ ب ق » ، وهكذا حتى ينتهى حرف الألف ، ثم ينتقل إلى حرف الباء : « ب أ ر » ، « ب أ س » ، « ب ت ر » ، الخ .. وهكذا .

خامساً : توزع مواد المعجم على أربع لجان ، تؤلف كل منها من أحد حضرات الأعضاء الأصليين بالمجمع ، ومساعد له من غير الأعضاء الأصليين .

ويناط بهذه اللجان إعداد المواد على النحو الذى تقدم ذكره من حصر الألفاظ ، ومراجعة معانيها اللغوية ، وما قاله المفسرون فيها ، واختيار ما يقبل منها وصياغته .. الخ .

سادساً : يعرض ما عملته هذه اللجان على لجنة موحدة تألف من الأعضاء الأصليين للجان الأربع ، ومن ستة غيرهم من أعضاء المجمع ، وعلى هذه اللجنة أن تراجع كل مادة ، وتنظر فيما كتبه اللجنة الأولى عنها ، وتقح ما تراه فى حاجة إلى التنقيح ، ويكون هدفها توحيد الأسلوب والبيان بقدر الاستطاعة ، على أن يحضر العضو المساعد جلساتها التى يُنظر فيها ما اشترك فيه من المواد .

سابعاً : تعرض المواد بعد ذلك على المؤتمر العام للمجمع للنظر فيها وإقرارها .

\* \* \*

هذه خلاصة المراحل التى يمر بها هذا المعجم ، وقد رأت مجلة «رسالة الإسلام» أن توفد فضيلة رئيس تحريرها لمقابلة حضرة صاحب المعالى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد باشا رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، كي يستأذنه فى نشر بعض ما عملته اللجان الأولى من مواد هذا المعجم على صفحاتها ، ليطلع عليه قراؤها الكثر فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويروا صورة تقرب من الصورة التى سيكون عليها إن شاء الله تعالى ، فلعل لأحد منهم رأياً مفيداً ، أو توجيهاً صالحاً أو تعديلاً مصيباً ، فإن القرآن الكريم هو أساس الإسلام ، وقبلة المسلمين ، وموضع العناية والتقديس من جميع شعوبهم وطوائفهم ، وإنما يعمل المجمع ما يعمل ، مبتغياً وجه الله والعلم ، وفائدة الأمة .

وقد رحب معاليه بفضيلته ، وأتى على ما تقوم به جماعة التقريب من جهود مشكورة ، ورجا لها ولجلتها التوفيق والنجاح ، وأمر إدارة المجمع بإعطاء مجلة رسالة الإسلام كل ما تطلب من أصول فى المعجم القرآنى وغيره ، قائلا : إننا نعد



نشر ذلك في مثل هذه المجلة التي تقرأ في شتى البلاد الإسلامية خدمة لأغراضنا ،  
ومعاونة لنا .  
ونحن نشكر لمعاليه ذلك كله أعمق الشكر ، ونسأل الله أن يطيل في حياته ، وأن  
يمارك فيها للعالمين .

\* \* \*

وهذه مادة د ب ي ن ، من عمل لجنة فرعية من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ  
محمود شلتوت عضو المجمع ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني مساعدته :

## ب ي ن

بان الشيءُ بين من باب ضرب . يانا : ظهر ووضح فهو بين .  
ومثله في المعنى : بَيِّن ، وأبان ، وتبيَّن ، واستبان - غير أن هذه الأربعة  
تعدى وتلزم .  
(١) تقول بَيَّن الشيءُ أى اتضح ، ومنه المثل المشهور : « قد بَيَّن الصبحُ  
لدى عينين ، أى وضح .  
وبيته أنا : أى أوضحته وأظهرته .  
وقد جاء هذا الفعل في الكتاب الكريم ماضياً ومضارعاً ، وكلاهما  
من المتعدى .  
فأما الماضي فقد جاء في خمسة مواضع منها قوله تعالى : « قد بينا الآيات لقوم  
يوقنون » ، ١١٨ / البقرة .  
أى أوضحناها لقوم فيهم استعداد لأن يوقنوا وأولئك هم المنصفون .  
وكذلك سائر المواضع .  
وأما المضارع فقد جاء في ثلاثين موضعاً ، وكلها بمعنى يُظهر ويُوضح .  
فن ذلك قوله تعالى :  
١ - « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون  
من الكتاب » ، ١٥ / المائدة .

كان من شأنهم إخفاء بعض ما في كتبهم بكتامه تارة، وإغماضه بالتأويل تارة أخرى، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بإظهار كثير مما كانوا يكتُمون، وإيضاح كثير مما كانوا يُغمضون .

٢ — « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، ٤ / إبراهيم .  
أى ليفهمهم ما أمر بتبليغه بيّناً واضحاً .

٣ — « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ٤٤ / النحل .  
أى لتظهره وتوضحه توضيحاً ييسر لهم الاتقاع به .

\* \* \*

يَبِين (ب) وتقول : أبان الشيء أى أوضح ، وأبنت الشيء أى أوضحته ، ومن المتعدى أبان الرجل بمعنى أفصح ، أصله : أبان كلامه ، فقطع عن المفعول .  
وقد جاء المضارع من هذا الفعل في الكتاب الكريم بهذا المعنى ، وذلك قوله تعالى حكاية لما افتراه فرعون على موسى :  
« أم أنا خير من هذا الذى هو كمهين ولا يكاد يبين » ٥٢ / الزخرف .  
لمزه بما كان في لسانه من عقدة تمنعه بعض الإيضاح ، ولم يدر أن الله حلها لإجابة لسؤله ، وليفقهوا قوله .

\* \* \*

تَبَيَّن (ج) وتقول : تبين الشيء أى اتضح وظهر ، وتبينته : إذا تأملتَه فوضح لك ، ومنه تبين فلانٌ فى أمره بمعنى تثبت وتأنى ، وذلك لأن تدبر الأمر لتعرفه واضحاً يقتضى التثبت والتأمل ، والفعل فى هذا مقطوع عن المفعول ليفيد العموم بتبيين جميع الأحوال المتعلقة بالامر .

وقد جاءت الصيغ الثلاث من هذا الفعل في الكتاب الكريم :  
فأما الماضى فقد جاء فى اثنى عشر موضعاً ، منها موضع واحد تعدى فيه الفعل إلى المفعول ، وذلك قوله تعالى فى شأن سليمان لما قضى عليه الموت ولم تعلم الجن بموته فى حينه :

« فلما خر تينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ،  
١٤ / سبأ

أى علموا ذلك علماً واضحاً .

أما سائر المواضع فالفعل فيها لازم بمعنى ظهر ووضح ، ومنها قوله تعالى :

١ — « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، ٢٥٦ / البقرة .  
أى اتضح سبيل الإيمان وتميز عن سبيل الغي والضلال .

٢ — « وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم » ، ٣٨ / العنكبوت .  
أى تبين لكم هلاكهم من مساكنهم التى تمرّون عليها .

ويصح أن تكون « من » ، زائدة والفاعل « مساكنهم » ، ويؤيده قراءة  
الأعشى « مساكنهم » ، بالرفع دون « من » .

\* \* \*

وجاء المضارع من هذا الفعل وهو « يتبين » ، لازماً فقط في ثلاثة مواضع ، كلها  
بمعنى يظهر ويتضح ، ومنها قوله تعالى :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، ٥٣ / فصلت .

\* \* \*

وجاء منه الأمر وهو « تبين » ، في ثلاثة مواضع ، منها قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » ، ٦ / الحجرات .

أى : فتدبروا الأمر مثبتين غير متعجلين ليظهر لكم يَبِيناً واضحاً ، وكذلك  
المعنى فى سائر المواضع ، وقد قرئ فيها كلها « فتثبتوا » .

(د) ونقول : استبان الشيء أى وضح ، واستبنته أنا أى تأملته حتى تبين لى .  
يستبين  
وقد جاء من ذلك فى الكتاب الكريم « يستبين » ، فى موضع واحد هو  
قوله تعالى :

« وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » ، ٥٥ / الأنعام .

قرأ الأكثر : سبيلُ المجرمين بالرفع ، والفعل حيثُذ لازم بمعنى تظهر وتوضح  
ولذا بانت سبيلُ المجرمين فقد بانت سبيل المؤمنين .  
وقرى سبيلَ المجرمين بالنصب ، والفعل حيثُذ متعد ، أى ولتستين أنت  
سبيل المجرمين وتعرفها واضحة بيّنة .

\* \* \*

بَيِّن هو الواضح الظاهر ، اسم فاعل من بان يبين ، وقد جاء هذا اللفظ  
في موضع واحد هو قوله تعالى حكاية لما قاله أصحاب الكهف :  
« هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلِهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين »  
١٥ / الكهف  
أى هلا يأتون عليهم ببرهان واضح ظاهر الدلالة ، وذلك تحضيض فيه معنى  
الإنكار والتعجيز .

\* \* \*

بَيِّنَة ، : مؤنث البَيِّن أى الظاهرة ، وتستعمل بمعنى الدلالة الواضحة  
وعقلية كانت أو حسية .  
وقد جاءت هذه الكلمة بمجموعة ومفردة ، مُعَرَّفة ومنكرة . في مواضع كثيرة :  
١ — تارة صفة لآية أو آيات حسية ، كما في قوله تعالى :  
« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ، ١٠١ / الإسراء .  
المراد المعجزات الواضحة التي جاء بها موسى .  
٢ — وتارة صفة لآيات منزلة كما في قوله تعالى :  
« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر » ، ٧٢ / الحج .  
٣ — وتارة غير جارية على موصوف وهو الأكثر في الكتاب العزيز ،  
بمعنى الدلالة الواضحة كما في قوله تعالى :  
« ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » ، ٤٢ / الأنفال .

وجاءت لفظة « مينة » ، بالإفراد في ثلاثة مواضع ، أجريت فيها وصفا للفظه مينة « فاحشة » .

منها قوله تعالى نهيا للأزواج عن عَـضَل أزواجهن طمعا في الافتداء بالخلع :  
« ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مينة » .  
١٩ / النساء

قرئ : مينة ومينة ، على صيغة اسم الفاعل مشددا ومخففا من بين وأبان ،  
وقرئ مينة بالفتح والتشديد على صيغة اسم المفعول من بين .  
والمعنى : لا يحل لكم عضلن في حال من الأحوال طمعا في الخلع إلا أن  
يأتين بفاحشة واضحة أو موضحة لأمرهن يدينها ، والمراد بها ما يكون من الشوز  
أو فساد الخلق أو إيذاء الزوج أو أهله بالبذاء ونحو ذلك .  
وكذلك المعنى في الموضعين الباقيين .

\* \* \*

وجاءت لفظة « مينات » جمعا مؤنثا في ثلاثة مواضع ، أجريت فيها وصفا مينات  
للآيات المنزلة .  
منها قوله تعالى :

« لقد أنزلنا إليكم آيات مينات ، ٤٦ / النور .  
قرئ بالفتح من بين المتعدى أى وضحاها وبينها ، وقرئ بالكسر من بين  
اللازم بمعنى واضحات ، أو المتعدى بمعنى موضحات .  
وكذلك المعنى في الموضعين الباقيين .

\* \* \*

وجاءت كلمة « ميين » بصيغة اسم الفاعل في الكتاب الكريم وصفا لأشياء  
كثيرة ، فجاء :

كتاب ميين - وقرآن ميين - ونور ميين - وحق ميين - وإمام ميين - وبلاغ  
ميين - ولسان عربي ميين - ورسول ميين - ونذير ميين - وفوز ميين - وفضل  
ميين - وسلطان ميين - وفتح ميين - وسحر ميين - وإفك ميين - وضلال ميين -

ولائم ميين - وخسران ميين - وبلاء ميين - وساحر ميين - وخصيم ميين - وعدو ميين - وغوى ميين - وكفور ميين - وظالم لنفسه ميين - وشهاب ميين - وثعبان ميين - وأفق ميين - ودخان ميين - وثى ميين .

وهى :

١ - تارة من أبان اللازم بمعنى وضع ، وهذا هو الأقرب فى كل ما هو صالح لأن يوصف بالظهور والوضوح فى نفسه ، كما فى قوله تعالى :  
« إن هذا هو الفضل المبين » ١٦ / النحل .  
أى الظاهر الواضح .

٢ - وتارة من إبان المتعدى بمعنى مظهر وموضح ، والمفعول فيه محذوف ، وهذا هو الأقرب فى كل ما يصلح أن يوصف بأنه مظهر لغيره وموضح ، كما فى قوله تعالى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ١٥ / المائدة .  
أى مُبِينٌ لكم سبيل الحق ، وحجة الهدى والرشاد .

٣ - وتارة من أبان بمعنى أفصح فى كلامه ، كما فى قوله تعالى :  
« أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » ١٨ / الزخرف .  
المراد النساء ، لأن الشأب فى الاتى ألا تستوفى الحجة ، ولا تفصح عن مرادها إفصاحا لما يغلب عليها من الحياء .

٤ - وبعض هذه المواضع يصح فيها أكثر من معنى ، مثل قوله تعالى :  
« قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » ٤٩ / الحج .

يصح أن يكون من اللازم ، والمعنى نذير واضح التنذارة ، والعرب تصف النذير بما يدل على الوضوح ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلى ومثلكم كرجل أنذر قومه جيشا فقال أنا النذير العريان » ، إنما خص العريان لأنه أبين للعين وأوضح فى التحذير لغرابته ولفته الأنظار .

ويصح أن يكون من المتعدى ، والمعنى نذير مظهر للانذار ، وذلك أبلغ فى الإعذار .

وعلى الجملة كلها وردت كلمة «مبين» ، صلحت لأن تكون بمعنى أن الشيء واضح في نفسه أو موضح لغيره ، ويترجح أحد هذين المعنيين بالسياق وباختلاف الموصوف .

\* \* \*

«المستبين» ، اسم فاعل من استبان ، أى الواضح ، وقد جاء ذلك في موضع المستبين واحد من القرآن الكريم وهو قوله تعالى وصفا لكتاب موسى وهرون :

«وآتيناهما الكتاب المستبين» ١١٧ / الصافات .

\* \* \*

و«البيان» الكشف عن الشيء - أعم من النطق - وسمى الكلام بيانا لكشفه بيان عن المعنى المقصود إظهاره ، ولذلك يسمى ما يوضح به المجل والمبهم من الكلام بيانا . وقد جاءت هذه الكلمة في ثلاثة مواضع هي قوله تعالى :

١ - «هذا بيان للناس وهدى وموعظة للبتقين» ١٣٨ آل عمران .  
أى هذا كشف وإيضاح .

٢ - «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان عليه البيان» ١ - ٤ / الرحمن .  
أى عليه الإبانة عما في نفسه بشتى الوسائل التى ميزه بها عن الحيوان .  
٣ - «ثم إن علينا بيانه» ١٩ / القيامة .

الحديث عن القرآن ، والمراد إيضاحه إذا أشكل شيء من معانيه .

\* \* \*

«التبيان» مصدر بمعنى التبين ، وفي صيغته تأكيد لمعناه ، وقد جاء بكسر التاء تبيان على خلاف المعهود في (التَّفعّال) بالفتح كالذكر .

وقد جاء هذا اللفظ في موضع واحد من الكتاب الكريم منصوبا على المصدرية وذلك قوله تعالى :

«ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء» ٨٩ / النحل .

أى بيانا بليغا وشرحا لكل شيء مما جاء لأجله .

بين « و » بين ، ظرف مبهم لا يتبين معناه إلا بإضافته إلى متعدد لفظاً أو معنى .  
ومن ذلك قوله تعالى :

- ١ — « والسحاب المسخر بين السماء والأرض » ، ١٦٤ / البقرة .
- ٢ — « لا خير في كثير من نجوائهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » ، ١١٤ / النساء .
- ٣ — « إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » ، ٦٨ / البقرة .  
أى بين الفارض والبكر .

\* \* \*

- ويقال : « بين يديه » لمعان تفهم من القرائن ، منها :
- ( ١ ) جاء بين يديه أى سابقاً له ، ومن ذلك قوله تعالى :
- « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » ، ٤٨ / المائدة .  
أى لما تقدمه من الكتب .
- ( ب ) ووقف بين يديه أو جاءه من بين يديه بمعنى جهة الامام .  
ومن ذلك قوله تعالى :
- ١ — « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ،  
٤٢ / فصلت
- أى منيع لا يتطرق إليه الباطل من أية ناحية من النواحي التى أمامه أو خلفه  
وذلك على التمثيل بشخص قوى مستعصم لا يصل إليه أعداؤه .
- ٢ — « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » ، ١ / الحجرات .  
أى لا تجعلوا رأيكم مقدماً على حكم الله ورسوله ، على تمثيل من يفعل ذلك  
بمن يجلس بين يدي متبوعه وقد ولاء ظهره .
- ( ج ) وهو يعمل بين يدي فلان أى فى خضوع له وتحت سلطانه ،  
ومنه قوله تعالى :
- « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » ، ١٢ / سبأ .  
أى من يعمل خاضعاً لسلطانه .



(د) وعصفت الريح بين يدي مطر شديد أى قرب هطوله .  
ومن ذلك قوله تعالى :

- ١ - د وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، ٤٨ / الفرقان .
- ٢ - د إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، ٤٦ / سبأ .

\* \* \*

من بين

وجاءت لفظة « بين » مجرورة بمن :

- ١ - تارة لإفادة معنى الخصوص .

وذلك فى ثلاثة مواضع .

منها قوله تعالى :

- د أهولاء من الله عليهم من بيننا ، ٥٣ / الأنعام .
- أى خاصة من دوننا .

والموضعان الباقيان هما : ٨ / ص ، ٢٥ / القمر

- ٢ - وتارة بمعنى الظرفية على الأصل ، وهو كل ما عدا المواضع الثلاثة السابقة ، ومن ذلك قوله تعالى :

د يخرج من بين الصلب والترائب ، ٧ / الطارق .

\* \* \*

ومما يصلح للاسمية بهذا المعنى وللظرفية قوله تعالى :

- د وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ٣٥ / النساء .
- أى إن خفتم الشقاق المسبب لفرقتهما ، أو شقاقاً بينهما .
- وكذلك يقال فى ٧٨ / الكهف و ٢٥ / العنكبوت .

## رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامي أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أذى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة أو طوائف إسلامية - أن يتحرى الحقيقة في الكلام عن عقائدها وأن يعتمد على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وأن لا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً في الشؤون الدينية ، واستغلتها فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لأشياء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتاً لأقدامهم ، وقد سخرُوا - مع الأسف - بعض الكتاب والأقلام في هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر في العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيلة .

هذا ما نريد أن نلفت إليه أنظار بعض المؤلفين أو المعلقين على الآثار في عصرنا هذا ،

ونرجو ألا يأخذ أحدُ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستتيرة ، بل مصلحة الإسلام والمسلمين قبل كل اعتبار .

## من القانون الاساسى لجماعة التقريب

### المادة الثانية

أغراض الجماعة هي :-

- ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .
- ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .
- ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

## فهرس

٣٣٩	لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير	.....	كلمة التحرير
٣٤٣	لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت	.....	تفسير القرآن الكريم
٣٥٧	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز	.....	لأزهر ووزارة المعارف
٣٦٤	لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك	.....	روحانية الفرق ومادية الغرب
٣٦٨	لصاحب العزة الأستاذ محمد فريد وجدى بك	.....	الشخصية المحمدية
٣٧٤	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد تقى القمى	.....	حياة كلها هجرة
٣٧٩	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراعى	.....	نظم الحكم كما يراها الإسلام
٣٨٧	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه	.....	ضرورات الدين والمذهب
٣٩٠	لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة	.....	أربعة رجال
٣٩٨	لحضرة الأستاذ الفاضل محمد بن إسماعيل العمرانى	.....	الزيدة باليمن
٤٠٥	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان	.....	صدق العاطفة فى الشعر الشيعى
٤١٣	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود رياض	.....	التقريب واجب إسلامى
٤٢١	لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى	.....	بعض المنشآت الاجتماعية المصرية
٤٢٨	لحضرة السيد محمد على الطباطبائى	.....	الاجتهاد فى الفريضة
٤٣٥	.....	.....	معجم ألفاظ القرآن الكريم
٤٤٦	.....	.....	رجاء من التقريب

## رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلد اسلامی عالمیت  
تصویر دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير: محمد محمد المدينى مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة: ١٩ شارع حشمت باشا بالرمالك. القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤  
قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرى  
وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية